

كمال بسيونى

فى الأدب اليونانى



الناشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ ش عدلى / القاهرة

مكتبة الدراسات
النقدية
١

كمال بسيوني

في الأدب اليوناني

الطبعة الأولى
١٩٩٠



مكتبة النهضة المصرية

الاهـــــــداء

الى زوس العظيم

رب الأرباب

منذ أن عشت معك حياتك الآلهية

وأنت دائما في فكرى ووجدانى .

تذكرنى كل امرأة جميلة ألقاها

بمحظية من محظياتك .

فهذه ألكمينا ، وتلك سيميليه

وهذه ليدا ، وتلك ميتيس .

وبسمة على شفتى كلما ذكرتك

وذكرت أنك اتخذت هيئة ثور جميل

لتعجب بك الفتاة يوربى وتركب فوق ظهرك .

فتنطلق بها الى كريت وهناك تغتصبها .

فتقبل هذا الكتاب اعجابا بك

وبحياتك العامرة بلذيذ المسرات .

كمال بسيونى

مقدمة

لا أريد أن أضع فى الأدب اليونانى كتاباً وافياً يغطيه من جميع جوانبه تغطية شاملة ، فمثل هذا الكتاب لا يمكن أن ينهض به باحث واحد مهما كان دأبه وصبره وسعة إطلاعه ، وإنما هو محتاج إلى فريق عمل كبير من العلماء يقومون عليه ويفرغون له ، وينبغى أن يكون هذا الكتاب مكوناً من عدة مجلدات . وإنما أريد أن أعطى من هذا الأدب العالمى الإنسانى الخالد صورة واضحة ودقيقة ، وأن يكون هذا الكتاب فى الأدب اليونانى تمهيداً لكتاب آخر فى النقد اليونانى ، وهذا الكتاب الثانى يكون تمهيداً لكتاب ثالث فى أثر النقد اليونانى فى النقد العربى القديم .

فأصل الفكرة هو أن أضع مكتبة فى الدراسات النقدية تتناول النقد القديم والحديث جميعاً ، على غرار المكتبة التى وضعتها فى الدراسات النحوية ، ومن الطبيعى أن أبدأ بالنقد العربى القديم . ولكن هذا النقد العربى القديم قد تأثر بالنقد اليونانى تأثراً واضحاً منذ أن ترجم الفلاسفة العرب علوم اليونان . وكل درس لهذا النقد العربى دون شرح لمدى تأثره بالنقد اليونانى درس ناقص يتعمد الجهل ويتكلف التضليل . فلم يكن بدٌّ من درس النقد اليونانى وتوضيح خصائصه واتجاهاته ، ولا يمكن درس النقد اليونانى دون الإحاطة الشاملة بالأدب اليونانى الذى أزهر هذا النقد فى ظلاله . والذى اتخذه هذا النقد موضوعاً له . ومن هنا نشأت فكرة هذا الكتاب .

فالكتاب فى حقيقته تمهيد للكتابين الآخرين ، ولا يمكن إلحاقه بهما لضخامته من جهة ، ولأن له موضوعه الخاص به من جهة أخرى . فكان أن أفردناه وحده ، ومكّناه من إثبات شخصيته واستقلاله . .

ويتناول الكتاب تطور الأدب اليونانى وأهم فنونه واتجاهاته . ويشبه بعض

النقاد تطور هذا الأدب بتطور الإنسان ، فالشعر الملحمى يمثل مرحلة الطفولة التى لايكاد الطفل يتحدث فيها إلا عن مجد الآباء والأجداد ، والشعر التعليمى يمثل مرحلة الصبا التى يتلقى فيها العلوم والدروس . والشعر الغنائى يمثل مرحلة الشباب وما فيها من تأجج العواطف وعكوف على الذات ، والشعر الدرامى يمثل مرحلة الرجولة الناضجة . وينمو النثر الفنى رمز الحكمة والتعقل فى سن الكهولة ، ثم تبدأ أعراض الشيخوخة فى الزحف على أدب العصر الاسكندرى وتتوطن أمراضها فى الاسكندرية ، وفى سن الشيخوخة تضعف ملكة الإبداع ويلوك الناس ذكريات الماضى .

وهذا التشبيه حق فى جملته ، بشرط أن نفهم من تطور الأدب أن أدباً تلا أدباً آخر وجاء عقبه ، لا أن الأدب نفسه قد استحال إلى أدب آخر .

والأدب اليونانى أدب إنسانى خالد ، ومصدر إنسانيته وخلوده أنه يعالج مشاكل الإنسان فى كل زمان ومكان . يعالج موقع الإنسان فى هذا الكون . وعلاقته بالأحياء والأشياء ، وموقفه من الآلهة ، ويُحلل أقواله وأفعاله ، ويعلل نجاحه أو فشله ، سعادته أو شقاءه . وهو فى هذا كله يمزج بين عالمه وعالم الآلهة ، فالآلهة فى سمائهم وعليائهم يدبرون أمور الأرض والإنسان ، والإنسان فى أرضه يحلق بفكره فى السماء . ويسبح بخياله فى عالم الميتافيزيقا والأساطير ، ويعايش بروحه الأفلاك والآلهة ، ومن هنا كان للأسطورة شأنها فى الإبداع الأدبى شعره ونثره ، وكان الإلمام بها ضرورياً لفهم هذا الإبداع وتعمقه .

وإذا كان الأدب اليونانى بتغلغله فى أعماق الحياة الإنسانية ، وغوصه فى حقائقها ، يسلط الضوء على ماهية الإنسان وقيمته وتصرفاته ، ولايفرق بين عالم البشر وعالم الآلهة . وإنما يمزج بينهما ، ويعتبرهما شريكين فى صنع عالم واحد ووجود واحد ، فقد كان لزاماً علينا أن نعنى بعالم الآلهة كما نعنى بعالم البشر ، ومن هنا — حين وضعنا منهج هذا الكتاب — خصصنا فصلين من التمهيد لهذين العالمَيْن : أولهما يبحث فى أصل اليونان ونشأتهم ، والثانى يبحث فى أصل الآلهة ونشأتهم . ثم خصصنا فصلا ثالثاً للنظريات المختلفة فى تفسير أساطير اليونان .

وإذا كان المؤرخون يقسمون عصور الأدب اليونانى إلى خمسة عصور ، وكان الأدب اليونانى البحت الخالص من كل شائبة ، يشغل ثلاثة عصور منها ، فقد قصرنا بحثنا على هذه العصور الثلاثة . وخصصنا للعصر الأول باباً ، وللعصر الثانى باباً آخر ، وللعصر الثالث بابين ، إذ أن النثر فيه كان قد ارتقى ، ويحتاج إلى باب خاص به . ومن ثَمَّ جاء هذا الكتاب فى أربعة أبواب :

فالباب الأول : للأدب فى العصر الآخى (الموكينى) وإذا كان هذا العصر قد مهد بشعرائه ومنشديه لهوميروس ، فقد خصصناه للشعراء والمنشدين الممهدين لهوميروس .

والباب الثانى : للأدب فى العصر اليُونى — الدُّورى . وإذا كان قد ظهر فى هذا العصر أربعة أنواع من الأدب ، نهض بكل نوع طائفة من الشعراء ، فقد وقفنا عند كل نوع ، نبحثه ونترجم لأشهر شعرائه . ومن ثم جاء هذا الباب فى أربعة فصول :

الأول : للشعر الملحمى ، وشاعره العظيم هوميروس ، وملحمتيه الخالدتين : الإلياذة والأوديسا ، ثم للهوميريين الذين ينتسبون إليه .

والثانى : للشعر التعليمى ، وشاعره العظيم هيزيود ، وقصيدتيه الفريدتين : « الأعمال والأيام » و « التيوجونيا أو أنساب الآلهة » . ثم لتلاميذه الذين احتذوه وقلدوه .

والثالث : للشعر الغنائى (أو الوجدانى) ووقفنا عند أنواعه الأربعة : القصائد النومية ، والقصائد الإليجية ، والقصائد اليامبية ، والقصائد الميليكية بقسميها الشعبى والراقى ، وقد بحثنا كل نوع ، وترجمنا لأشهر شعرائه .

والرابع : لبذور الشعر التمثيلى ، وماكان للأعياد الدينية عامة وحفلات الساتير خاصة من أثر فيها وفى برعمتها ، وترجمنا لأشهر الشعراء الذين وضعوا بذورها وتعهدوها فى طفولتها .

أما الباب الثالث : فللشعر فى العصر الأتيكي ، وقد أزهرت فيه التراجيديا والكوميديا ، فقسمناه إلى فصلين :

الفصل الأول : للتراجيديا ، وقد مهدنا له بحديث عن المسرح اليونانى ، ثم تحدثنا عن تطور التراجيديا وأجزائها ، وترجمنا لشعرائها الثلاثة العظام الخالدين :

١ — إيسكيلوس ، وعرضنا له ثلاث مسرحيات : « المتضرعات » و « الفرس » و « بروميثيه مغلولا » .

٢ — وسوفوكليس ، وعرضنا له ثلاث مسرحيات أيضاً ، « أياس » و « أوديب ملكا » و « انتيجونا » .

٣ — ويوريبيديس ، وعرضنا له ثلاث مسرحيات كذلك . ألسست » و « هيبوليت » و « ميدييه » .

والفصل الثانى : للكوميديا ، نشأتها وتطورها ، وعناصرها وأجزائها ، وترجمنا لشعرائها الثلاثة الكبار ، إبيكارم ، وكراتينوس ، وأريستوفانيس ، وعرضنا لأريستوفانيس ثلاث مسرحيات : « السحب » و « الزنابير » و « الضفادع » .

وأما الباب الرابع : فللنثر فى العصر الأتيكى ، وقد أزهر فيه : التاريخ ، والخطابة ، والفلسفة ، ومن ثم قسمناه إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : للتاريخ ، لنشأته ، ولمؤرخيه الأوائل هيرودوت وتوسيديد واكسينوفون .

والفصل الثانى : للخطابة ، لنشأتها وأجزائها ، ودور السوفسطائيين فى رقيها ، ولأشهر السوفسطائيين والخطباء .

والفصل الثالث : للفلسفة ، لنشأتها ، وأشهر الفلاسفة : سقراط وأفلاطون وأرسطو .

ونرجو أن يكون لهذا الكتاب وما يتبعه من كتب ، ما نطمع فيه ، من أثر فى فهم الأدب اليونانى ونقده ، وتبين أثر النقد اليونانى فى النقد العربى القديم .

كمال بسيونى

تمهيد

أصل اليونان وآلهتهم

١ ــ أصل اليونان

يتكون الشعب اليونانى القديم من عدة قبائل ، تربطها أصول متحدة ، وتجمعها صفات مشتركة ، ولكنها إلى ذلك تختلف فيما بينها اختلافاً كبيراً فى كثير من النظم والعادات والتقاليد . ويظهر هذا الاختلاف واضحاً بين مجموعتين منها برزتا فى التاريخ اليونانى وكان لهما فيه أبلغ الأثر : إحداهما قبائل الدوريين Doriens التى كانت تسكن منطقة لاكونيا Laconie فى شبه جزيرة البيلوبونيز Peloponèse وقد اشتهروا باسم عاصمتهم إسبرطـــة Sparte فسموا الإسبرطيين ، وقد كانوا يخضعون للنظم التى سنها مشرعهم ليكورغوس Lycurgue (فى القرن التاسع ق . م) والثانية قبائل الأتيكيين أو الأكتيين Actéens التى كانت تسكن منطقة أتيكا Attique أو أكتى Acté ، وقد اشتهروا باسم عاصمتهم أثينا Athènes فسموا الأثينيين ، وقد كانوا يخضعون للنظم التى وضعها مشرعهم وأديبهم سولون Solon (٦٤٠ ــ ٥٨٨ ق.م) .

ويستلفت النظر فى أمر هذا الشعب أنه زُوِّد بكثير من المواهب والكفايات التى لم تجتمع لغيره من شعوب الأرض . والتى تنوعت وامتدت حتى شملت كل فروع الحياة . وليس بعجيب أن ينبغ شعب فى أمور الزراعة أو الصناعة ، أو يلمع فى أساليب التجارة ، أو يبرع فى البحوث العلمية أو التاريخية أو الاجتماعية ، أو يبرز فى التشريع أو فى سن النظم السياسية . أو يسبق فى ميادين الرياضة البدنية أو الفنون العسكرية ، أو يتعمق فى معالجة الإلهيات وما وراء الطبيعة ، أو يتفوق فى الفلسفة أو الآداب أو الفنون الجميلة ، وإنما العجيب أن ينبغ شعب واحد فى كل هذه الأمور وأن يضرب فيها كلها بسهم وافر ، وأن يكون فيها كلها مثالا يحتذى ، وهذا ما كان عليه شعب اليونان .

ومما يدعو للدهش أيضاً ما تفرد به هذا الشعب من عمق التفكير ودقته ، هذه الخاصة التي لم تكن مقصورة على بيئة دون بيئة أو على جيل دون جيل ، وإنما كانت عامة في البيئات كلها والأجيال كلها . نجدها عند اليونيين الذين كانوا قد هاجروا قديماً إلى آسيا الصغرى وأنشأوا بها عدة مدن شهيرة ، كما أنشأوا عدة مستعمرات يونانية ببحر إيجه والبحر الأسود ، كما نجدها عند الدوريين الذين استولوا على شبه جزيرة البيلوبونيز ، وكونوا بها دولة قوية عاصمتها إسبرطة . ونتبينها واضحة في آداب القرن العاشر ق.م ، كما نتبينها واضحة في آداب العصر الذهبي والعصور التالية له ، وينطق بها كل ما أثر عنهم من علم وفلسفة ، ومن حِكَم وأمثال ، ومن محاورات وسفسطة ، ومن خطب ومساجلات ، ومن أساطير وفكاهات ، ومن شرائع ونظم سياسية أو اجتماعية .

ولن ينقضي دهشنا حين نرى أنهم مع عمق التفكير ودقته ، قد امتازوا بسعة الخيال في تصورهم للأشياء وتصويرهم لها ، تنطق بذلك آثارهم الأدبية ، كما تنطق به أساطيرهم الدينية التي جسّموا فيها قوى الطبيعة ومظاهر الكون ، وأضفوا على المعنويات أثواباً مادية . مما جعلها مصدراً خصباً للأدباء في كل أمم الأرض وفي كل العصور ، يستمدون منها مادتهم وموضوعاتهم .

ومن المسلّم به أن لليونان الفضل الأول في تأسيس مدنية العالم الإنساني بكل مظاهرها . فمن علومهم وآدابهم وفلسفتهم ونظمهم السياسية والاجتماعية اغترف الرومان . وعلى قواعد مدنيتهم قامت المدنية اللاتينية التي تفرع منها عدد كبير من الحضارات الإنسانية ، وإلى معارفهم يرجع الفضل الأكبر في نهضة العرب بعد الإسلام ، ولم يكن من الممكن أن يبرز العرب في الفلسفة والرياضة والطب والطبيعة والفلك وعلوم الاجتماع والسياسة والأخلاق والاقتصاد وتكوين المدن الفاضلة ، إلا بعد أن أتيح لهم ترجمة ما وصل إليهم من مؤلفات اليونان وإساغته . ولم تنهض أوربا نهضتها الحديثة وتخرج من دياجير العصور الوسطى إلا بفضل رجوعها إلى تراث اليونان ، وإحيائها للغتهم وآدابهم وعلومهم . ولم نزل إلى الآن مدينين للحضارة اليونانية بقسط كبير من علومنا وفلسفتنا ونظمنا الاجتماعية وطرائق تفكيرنا ونظرنا إلى الحياة .

وقد تظافرت عوامل كثيرة على إحداث أثرها فيهم ، منها ما يرجع إلى بيئتهم ذات الأرض الخصبة ، والجو المعتدل ، والسواحل الممتدة ، والخلجان الكثيرة ، والمرافىء المتعددة ، والتى من شأنها أن تساعد على الرقى الفكرى والنشاط الاقتصادى والتجارى ، وتتيح لهم فرص الاحتكاك بالشعوب والأخذ عنهم ، والانتفاع بشتى العلوم والحضارات ، ولا سيا علوم الشرق وحضاراته . ومنها ما يرجع إلى حياتهم السياسية والاجتماعية ، وما قامت عليه من تشريعات ونظم أفسحت المجال لنهوض الفرد ، وحفزته على النشاط ، وذللت له سبيل الرقى الفكرى والاجتماعى . ومنها ما يرجع إلى ما زُوِّدوا به من قوى فكرية ومواهب طبيعية واستعدادات فطرية لم تتح لغيرهم من الشعوب .

ولاشك أن اليونان قد استفادوا من معارف الأمم المعاصرة لهم ، فأخذوا الكتابة عن الفينيقيين ، والموسيقى وبعض العقائد الدينية والنظم الخلقية عن سكان آسيا الصغرى ، وانتفعوا بما كان عند المصريين والأشوريين والفرس وغيرهم من حضارة وعلوم وتشريع ، ولكن خاصية العقل اليونانى أنه لاينفك يصبغ كل شىء يقتبسه من غيره بصبغته الخاصة ، ويضيف إليه من الدقة والكمال ، ويضفى عليه من التطوير والتهذيب ، ما يبعده عن مصدره الأول ، ويظهره فى وضع جديد .

هذا إلى أن معظم فنونهم وآدابهم من اختراعهم هم ، لم يسبقهم أحد إليها ، هم الذين اخترعوا الملاحم كما جاءت فى الإلياذة والأوديسا وهم الذين اخترعوا الدراما بقسميها التراجيدى والكوميدى ، وهم الذين ابتدعوا الشعر الغنائى والشعر التعليمى والساتير ، وهم الذين وضعوا الفلسفة بمعناها الصحيح الكامل . ولم يكن أمامهم فى كل ذلك نموذج يحتذونه ، فوضعوا هم ذلك النموذج ، وجعلوا لكل فن أسلوبه وقواعده ، فكانوا هم فى كل ذلك النموذج الذى يحتذى ، والمثل الذى يقتدى به ويطمح إليه .

٢ — آلهة اليونان

حفلت أناطير اليونان وآدابهم بذكر الآلهة ، وكان لها فى حياتهم أبلغ الأثر ؛ ولم تكن هذه الآلهة تمتاز عن البشر إلا بصفتين : إحداهما البقاء ، فهم مخلدون لانهاية لوجودهم . والثانية القدرة ، فنى استطاعتهم القيام بما يعجز الإنسانعن القيام به ؛ ومن أجل ذلك عُهد إليهم بالإشراف على شئون الكون فاختص كل منهم بشأن أو بعدة شئون . وفيا عدا ذلك فهم يشبهون البشر إلى حد بعيد ، فهم محدثون نشأوا بعد العدم . وتكوينهم الجسمى فى جملته لايختلف عن تكوين البشر . وهم يشغلون حيِّز الزمان والمكان . وهم يأكلون ويشربون وينامون . ويتزوج ذكورهم من إناثهم . وقد يتصل ذكورهم بإناث البشر ، وإناثهم بذكور البشر . وهم أحياناً يمرضون ، ويرتكبون الجرائم ، وينقادون للشهوات ، ويُغرَّر بهم . وهم قبل هذا كله كالبشر تماماً فى خضوعهم للقضاء ، هذه القوة العليا المسيطرة على الآلهة والبشر وعلى كل ما فى الأرض والسموات . فالقضاء هو الذى يرسم كل شىء فيجرى على وَفْق ما رسم ، ولا قدرة لإله ولا إنسان على نقض ما أراده أو تغيير ما قضى به .

وتنقسم آلهة اليونان إلى طبقتين أو أسرتين ، نشأت الثانية منهما عن الأولى . فأما الطبقة الأولى ، فهى جماعات التياتن Titans والكيكلوبيس والمسوخ ؛ وهم الأولاد المباشرون للسماء والأرض ، نشأوا من اتصال أبيهم السماء (أورانوس Uranus) بأمهم الأرض (جايا Gaia) .

وبينما كانت « جايا » الأم الرءوم تبسط صدرها ليمرح عليه جميع أبنائها وبناتها ، كان « أورانوس » الأب المتعالى يسىء معاملة ذريته ، ومنهم ثلاثة مسوخ — لكل منهم مائة يد ، وخمسون رأسا — ألقى بهم فى أعماق الأرض المظلمة ، وحرَّضت الأم أبناءها على أبيهم ، واستجاب لتحريضها ابنها « كرونوس » Cronos (أوساتورن Saturne) و « كرونوس » هو الزمان . والزمان هو الذى يستطيع أن يتحدى ظلم السماء . وفاجأ كرونوس أباه وطعنه طعنة قاتلة سالت لها دماؤه على وجه جايا ونفذت ، إلى جوفها ، ومن هذا اللقاء الأخير بينهما أنجبا الجيل الرابع من ذريتهما « جماعة المردة » .

وبانتصار كرونوس على أورانوس انتهى حكم السماء للأرض ، وأصبح الزمان هو الإله الحاكم ، واتخذ شقيقته ريا Rhéa (أو سيبيل Sybèle) زوجاً له ، وأنجبا ذرية لاحصر لها .

ومن أشهر إخوة كرونوس الذين أنجبهم السماء والأرض ، هذان الإلهان :

أوسيان Océan (المحيط) وهو أب وجد للعذارى المسميات بالنيمف Nymphes (وهن إلاهات للبحار والأنهار والعيون والآبار والغابات والجبال ، والطائفة الأولى منهن ، وهن نيمف البحار ، يُطلق على أفرادها اسم « الأوسيانيد » Océanides أى البحريات .

وجابيت Japet وهو أب لأطلس وبروميثيه وإبيميثيه أنجبهم من حورية الماء كلوميني Clymene .

وعرف كرونوس من مصادر النبوءات أن أحد أبنائه سوف يقضى عليه ويغتصب عرشه . فرأى أن أحسن وسيلة لتفادى هذه النبوءة هى أن يبتلع كل ابن تلده له زوجته « ريا » . وابتلع خمسة من أبنائها ، وحين اقترب ميلاد ابنها السادس « زوس » Zeus (أو جوبيتر Jupiter) أشفقت عليه من ابتلاع أبيه ، فآوت إلى جزيرة كريت ، وولدته بها ، وعهدت به إلى كهنتها ، وعادت إلى السماء بحجر مستطيل مدثر بلفائف ظنه كرونوس المولود الجديد ، فلم يكد يراه حتى أخذه وابتلعه .

وتروى الأساطير عن كرونوس أنه قد هاله كثرة أولاد أبيه السماء ، فأزمع أن يضع حداً لنسله ، فباغته وهو يقارب أمه الأرض ، واستأصل أعضاء تناسله وقذف بها فى البحر ، فنشأ من تفاعلها مع زبد البحر غادة جميلة هى أفروديت Aphrodite (أوفينوس Venus) إلاهة الجمال والحب والتناسل . وتقول أساطير أخرى عنها : إنها بنت زوس ، جاء بها سفاحاً من ديونى Dioné إحدى العذارى النيمف .

* * *

وأما الأسرة الثانية ، فأهم أفرادها : زوس Zeus (أو جو بيتر Jupiter) وهو رئيس هذه الأسرة ، وأشهر آلهة اليونان على الإطلاق ، وضعته أمه ريا بجزيرة كريت ، وعهدت بحضانته إلى كهنتها ، وأوصتهم أن يرضعوه من لبن عنزة اسمها أما لتيه Amalthée ، وأن يعملوا على أن لايسمع أبوه صوت بكائه ، فيكتشف وجوده ويكشف أمره ؛ فكانوا لاينفكون يرقصون حول مهده ، ويضربون تروسهم بمزاريقهم حتى يضيع صوته بين هذه الجلبة ، فلا يفطن له أبوه . ولما بلغ أشده صعد إلى السماء ، وقدمته أمه إلى أبيه كساق يقدم له الشراب ، واستطاع بمهارته أن يأخذ بمجامع قلب أبيه ، وينسيه حادثة نجاته من ابتلاعه . ثم طمع في الملك ، وأراد أن يستعين بإخوته الذين ابتلعهم أبوه ، فأعطى أباه شراباً خاصاً ، لم يكد يتناوله حتى تقايأ كل ما في معدته : الحجر المغطى بأردية طفل ، وأبناءه الخمسة الذين خرجوا من جوفه ساخطين عليه ومن بينهم بوزيئدون Poséidon (أو نيتون Neptun) وهاديس Hedès (أوبلوتون Pluton) وتزعموا حملة ضده تحت قيادة شقيقهم الأصغر زوس ، وأشارت الأم على ابنها زوس أن يفتح أبواب السجون ويخرج كل من سجنهم أبوه كرونوس من قبل .

وقاد أطلس بن جابيت الحملة ضد زوس ومن معه . واعتلى زوس ومن معه قمة جبل أوليمبوس واعتلى أطلس ومن معه قمة جبل أورثروس . واستمرت المعركة بين الجانبين عشر سنين ، استخدموا فيها كل ما يستطيعون استخدامه من الأسلحة الفتاكة المدمرة ، صواعق الرعد والبرق ، السحب الهادرة ، العواصف المروعة ، الشوكة الثلاثية الضخمة المثيرة لأمواج البحار والمحيطات . وشمل الخراب والدمار كل أرجاء الكون ، ولم تعرف الأساطير اليونانية معركة أعنف ولا أشرس من تلك المعركة التي عرفت باسم « معركة التياتن » فقد وقف جميع التياتن والمردة في صف كرونوس ، ما عدا بروميتيه ، وشقيقه إبيميتيه اللذين انضما إلى زوس .

وقد تمت الغلبة لزوس وأولاده ومن تطوعوا لنصره ، فتمكن من خلع أبيه ، وطرد أفراد الأسرة الأولى جميعاً من السماء ، ثم قسم الملك بينه وبين أخويه ، فجعل بوزيئدون إلهاً للبحار وهاديس إلهاً للموت والجحيم ، ووضع تحت أمره زبانية

كثيرين ، واحتفظ لنفسه بالرئاسة والسيطرة على الأرض والسماء ، والإشراف على ظواهرهما من زلازل وبراكين وبرق ورعد وأمطار .

ولم يتم النصر النهائى لزوس إلا بعد معركة الجبال ، فقد حاول التياتن والمردة بعد هزيمتهم وإخراجهم من السماء ، أن يرقوا إليها ، ويستعيدوا عرشهم ، فجمعوا ما على سطح الأرض من جبال ، وكدسوها بعضها فوق بعض ، واتخذوا منها سلماً بلغوا به أسباب الطباق ، ولكن زوس أحبط خطتهم ، وأرسل عليهم صاعقة دكت جبالهم ، فتناثرت كالعهن المنفوش . ثم قضى على كل أعدائه ، ما عدا أطلس ، فقد عاقبه عقاباً يليق بجبروته ومكانته ، إذ حكم عليه بأن يحمل قبة السماء فوق كتفيه ، وقد ظل أطلس يحمل هذا العبء الثقيل على كتفيه حتى ضاق به ، وكان يعرف أن البطل برسيوس سوف يقتل ميدوسا ويفصل رأسها عن جسدها ، وكانت الربة أثينا قد حولت ميدوسا من فتاة رائعة الجمال إلى مسخ مجنح مخيف ، ذى أسنان ضخمة ولسان بارز ومخالب برونزية وخصلات من الحيات بدلا من الشعر ، كما جعلت من ينظر إلى وجهها يتحول فى الحال إلى حجر ، وانتهز أطلس فرصة مرور برسيوس ومعه رأس ميدوسا ، وطلب منه أن يكشف له عن وجهها ونظر أطلس إليها ، وتحول على الفور إلى حجر ، تحول إلى جبال عرفت من بعده بجبال أطلس ، وهى التى تمتد فى شمالى أفريقيا وتنطح قممها الشاهقة السحاب ، فتبدو وكأنها تحمل قبة السماء ، تماماً كما كان يفعل أطلس .

وقبل أن يلقى أطلس ذلك العقاب الأليم كان يعيش فى سلام وطمأنينة ، ويحكم مملكة واسعة مترامية الأطراف ، تعرف باسم مملكة إطلانتيس نسبة إلى أطلس ، وكانت تقع فيما وراء المنطقة المعروفة باسم « أعمدة هيراكليس » . وقد أرسلت الآلهة عليها طوفاناً أغرقها وأخفاها ، وقد عرفت فيما بعد باسم « القارة المفقودة » .

وأطلس هو أبو الثريا (أو البليياد Pléiades (وهن سبع بنات خاب أملهن فانتحرن ، فمسخن نجوماً : وهن ألكيونى ، كيلاينو ، الكترا ، مايا ، ميروبى ، ستيروبى ، تايجيتى .

فأما كرونوس الذى خلعه ابنه زوس عن العرش وطرده من السماء ، فقد هبط إلى الأرض ، واستقر فى إيطاليا ، فأكرم حاكمها وأهلها وفادته ، فجزاهم على ذلك أحسن الجزاء . فسنّ لهم الشرائع ، ونشر بينهم الحضارة ، وعلمهم طريقة فلاحة الأرض ، فعم الرخاء ، وساد الإخاء ، وتحققت المساواة ، واستتب الأمن ، حتى دُعى هذا العصر بالعصر الذهبى ، أو عصر ساتورن (وساتورن هو الاسم اللاتينى للآله كرونوس ، وقد سرنا على هذه القاعدة فى جميع الآلهة ، فبدأنا بالاسم الإغريقى ،ووضعنا الاسم اللاتينى بين قوسين) .

وقد عمل الرومان على تخليد ذلك العصر ، فكانوا يحتفلون بأعياد الإله ساتورن فى شهر ديسمبر من كل سنة ، وكانت لهم فى هذه الأعياد طقوس غريبة ترمز إلى الإخاء والمساواة ، منها أن يقوم السادة بخدمة عبيدهم .

★ ★ ★

وكان لزوس من أبيه كرونوس أختان :

هيرا Héra (أو جونون Junon) (وهى إلاهة الزواج . وقد تزوجها زوس وأنجب منها ولدين : هيفيستوس Hephaistos (أو فولكان Vulcan) وآريس Arès (أومارس Mars) .

وقد ولد هيفيستوس مشوهاً دميم الخلقة ، فكرهته أمه هيرا ، وقذفت به من السماء ، فهوى إلى جزيرة لمنوس ، وانثنت قدماه من أثر السقوط ، فنشأ أعرج ، وترك سقوطه منخفضات نشأ عنها بركان أتنا . وفى تلك المنطقة أنشأ مصانع حدادة يقوم فيها بإعداد ما يحتاج إليه أبوه زوس من حديد وصواعق . يساعده فى ذلك طائفة من أنصاف الآلهة . يدعى أفرادها « السيكلوب » وهم عمالقة الأجسام ، مشوّهو الخلقة ، ليس لكل منهم إلا عين واحدة فى وسط جبهته . ومن الغريب أن هيفيستوس على دمامته وقبحه كان زوجاً لأفروديت Aphrodite (أو فينوس Venus) إلاهة الجمال والحب والتناسل ، ولعلها لذلك لم ترع حرمته فقد كان لها علاقات حب مع كثير من الآلهة والأناسى . فمن اتصلت بهم من الآلهة : آريس وهرميس وديونيزوس . ومن الأناسى الراعى الجميل أدونيس Adonis ، وزوجت

بعدد كبير من البنين والبنات ، ومن أشهر بنيها كيوبيدون Cubidon (أو إيروس Eros . وهو إله الحب . ومن أشهر بناتها ثلاث يطلق عليهن اسم الإحسان « أو « ربات الحسن » وهن أجلي وثالي وأوفروزين . Aglaé و Thalie و Euphrosine

وآريس هو إله الحرب ، وكان الرومان يعتقدون أنه أبو روميلوس جدهم الأول . ولذلك انتشرت عبادته بينهم إنتشاراً كبيراً ، وأقاموا له في مختلف مدنهم ومستعمراتهم معابد فخمة يحجون إليها . في حين قلت معابده وزائروه عند اليونان ، وتصوره الأساطير محاطاً بحاشية تتألف من عدة آلهة وأنصاف آلهة منها إريس Eris (الفتنة والشقاق) وديموس Deimos (الذعر) وفوبوس Phobos (الرعب) وإنيو Enyo وكيريس Kérès (القتل والموت العنيف) .

وقد كان لآريس علاقة حب مع أفروديت ، وباغتهما زوجها هيفيستوس ذات يوم وهما في حالة تلبس ، فوضعهما في شبكة حديدية ، وشد وثاقهما وهما على هذه الحال ، وتركهما لا يستطيعان حراكا ، ليكونا سخرية للآلهة ، وعبرة لمن تحدثه نفسه بالاعتداء على الأعراض .

والأخت الأخرى لزوس هي ديميتر Déméter (أو سيريس Cérès) وهي إلاهة الخصب والزراعة والأرض .

وتروى الأساطير أن هاديس إله الموت قد أعجبته ابنتها كورتي (برسيفونا Persephone) فاختطفها ، واحتفظ بها في مملكته ، فظلت تبحث عنها في مختلف الأرجاء ، حتى انتهت إلى بلدة إليوسيس Eleusis وقد كادت تقضي حزناً عليها ، ولكن القدر قيض لها خادمة ظريفة تدعى يامبي Iambé أضحكتها بفكاهاتها وأنستها حزنها . وفي ذكرى اختطاف برسيفونا تحيي الربة ديميتر في كل عام أعياد اليوسيس الصوفية .

* * *

وقد اشتهرت هيرا بالغيرة والحقد ، كما اشتهر زوجها زوس بشدة الغضب وسرعة الانفعال ، والانقياد لعواطفه ورغباته الجنسية ، فلا تكاد تقع عينه على إلاهة جميلة أو حسناء من بني الإنسان فتعجبه ، حتى يتعقبها ، إلى أن ينال منها بغيته .

وتروى الأساطير أن هيرا كانت قد اتخذت لها كاهنة في معبدها تدعى « يو » Io . . (وهى إحدى العذارى النيمف وبنت إيناكوس ، وهو نهر بمقاطعة الأرجيوليدا) وأن زوس كلف بها وأخذ يتردد عليها في صورة سحابة ويتصل بها ، فلما علمت هيرا بذلك . عملت على التفرقة بينهما ، فسختها عجلة لتضلل زوجها ، غير أن هذا المسخ لم يثنه عن متابعتها ، فاستحال إلى ثور ، واستطاع بهذه الحيلة أن يتصل بها . ولم تخف حيلته هذه على هيرا ، فأقامت على العجلة حارساً يقظاً يدعى أرجوس (وهو نصف آله له مائة عين إذا نام لم يغمض منها إلا خمسين) ولما علم بذلك زوس أرسل ابنه هيرميس وعهد إليه بقتل هذا الحارس ، فأخذ هيرميس يعزف على قيثارته حتى نام أرجوس نوماً عميقاً أغمضت فيه عيونه كلها ، فقتله وخلص يو ،واغتاظت هيرا ، وصممت على أن تحول بينها وبين زوجها ،فأغرت بها قمعة (وهى ذبابة تركب الإبل والبقر والظباء وما إليها إذا اشد الحر ، ولها وخز أليم) وما زالت القمعة تخزها حتى أضاعت رشدها ، وجعلتها تهيم على وجهها فى الأرض لاتلوى على شيء ، وانتهت بعد تطويفها فى الآفاق إلى مصر ، وهناك التقى بها زوس . وأعاد إليها صورتها الإنسانية الأولى . وقاربها ، فجاءت منه بإيبافوس الذى كان من نسله إجيبتوس (وهو أبو المصريين وأول ملوكهم فى رأى الأساطير اليونانية) وأخوه داناووس .

* * *

وهكذا أنجب زوس ممن اتصل بهن أولاداً غير شرعيين ومنهم . :

التوءمان : أبوللون Apllon وأرتيميس Arthémis (أو ديانا Diana) وقد جاء بهما سفاحاً من لاتون Latone ابنة عمه .

وأبوللون هذا صاحب جزيرة « ديلوس » Délos وهو إله خاص لليونانيين ، وكانت أثينا تعنى عناية خاصة به ، وترسل إليــه وفداً من الحجيج فى كل سنة يقيمون الحفلات حول معبده فى الجزيرة التى يقال إنها كانت سابحة على وجه الماء حينما هبطت أمه لاتون Latone من السماء ، وكانت حاملا ، وكانت هاربة من (هيرا Héra زوج زوس Zous كبير الآلهة ، فأوت إلى هذه الجزيرة السابحة ، ولم

تكد تأوى إليها حتى استقرت فى مكانها ، وولدت هذه الإلاهة أبوللون وأختــه أرتيميس ، وكانت العادة عند الأثينيين ألا ينفذ حكم الموت أثناء هذا العيد ، فإذا قضى بالموت على متهم أثناء هذا العيد انتظر فى السجن حتى يئوب الحجيج ثم ينفذ فيه الحكم . وقد انتظر سقراط فى السجن حين حكم عليه بالموت أثناء هذا العيد ، ثم نفذ فيه الحكم بعد أن آب الحجيج .

وهذا الإله يخالف من وجوه كثيرة « أبولــــون » صاحب « دلف Delphes » الذى كان إلها للدوريين خاصة ولليونان جميعاً ، والذى كان يحج إليه اليونان وغيرهم فى معبــــده فى « دلف » ليؤدوا مناسكهم ، ويشهدوا منافع لهم ، ويسألوا الكهنة عما يضمره الغيب . وهو من أكثر الآلهــــة وظائف ، فهو إله التنبؤات والإخبار بالغيب ، والطب والشعر والفنون والموسيقى والماشية والنهار والشمس . وتروى عنه الأساطير أنه قتل تنّـينابربا (بيثون Python) رمياً بالسهام ، فعاقبه أبوه زوس على ذلك وحكم عليه بالرّق فقضى وقتاً طويلا عند أدميت Admète ملك تساليا يرعى له ماشيته ، ثم عاد إلى حظيرة الآلهة بعد أن غفر له ما تقدم من ذنبه .

وأرتيميس إلاهة الصيد ، وقد طلبت إلى أبيها أن تظل عزبة (بدون زواج) فأجابها إلى رغبتها ، وجعلها ملكة على الغابات ، وسخر لخدمتها طائفة من النيمف .

★ ★ ★

ومنهم : أثينا Athéna (أومنيرف Minerve) وهى إلاهة الحكمة والعقل والفنون ، جاء بها سفاحاً من الحكيمة ميتيس ، وتروى الأساطير أن زوس بعد أن اتصل بميتيس الحكيمة وعلقت منه ، خشى أن يأتى منها بولد يرث حكمة أبيه وأمه فيفوقه فى هذه الناحية . فأزمع أن يبتلعها ، وأنفذ ما دبره ، ولكن الجنين قد نجا من الموت بأعجوبة ، إذ قفز من بطن أمه إلى مخ أبيه ، حيث قضى ما بقى له من مدة الحمل ، وعند محاولته الخروج شعر أبوه بصداع شديد ، فتداركه ابنه هيفيستوس ، وشق رأسه بمطرقة من حديد ، فإذا بأثينا تخرج منه — بعد أن ارتشفت معظم ما كان به من حكمة وذكاء — غادة يافعة شاكية السلاح .

وقد انتشرت عبادة أثينا فى كل بلاد اليونان وخاصة بأثينا التى كانت تعتبر هذه الإلاهة حامية لها ، والتى سميت باسمها . وتروى الأساطير بصدد هذه التسمية ، أن أثينا وبوزيدون قد تنازعا هذه المدينة ، ورغب كل منهما أن تسمى باسمه ، فاحتكما إلى المجمع الأوليمبى — الذى كانت آلهة الأسرة الثانية يعقدون فيه جلساتهم بجبال « أوليمبوس » — فقضى أن يقيم بينهما مباراة فى الإتيان بمعجزة ، وينظر أيهما يحوز قصب السبق فيسمى المدينة باسمه . فضرب بوزيدون البحر بعصاه فانفلق وخرج منه حصان جموح شارد (رمز إلى الحرب والبطش) وضربت أثينا الأرض بعصاها فخرجت منها شجرة زيتون (رمز إلى الجنوح للسلم والاستقرار) فحكم لأثينا بالتفوق وسميت المدينة باسمها .

* * *

ومنهم ، هيرميس Hermès (أوميركور Mercure) (جاء به سفاحاً من مايا Maia (بنت أطلس وهى إحدى البنات السبع المسميات بالبليياد أى الثريا) وهو رسول زوس ، ووحيه الأمين إلى الآلهة والخلق ، وهو كذلك إله الخطابة والبيان والتجارة واللصوص .

* * *

ومنهم الموسيات Muses ربات الفنون التسعة ، جاء بهن سفاحاً من منيموزين Mnèmosyne (بنت السماء والأرض والإلاهة الذاكرة) وعددهن تسع كعدد الفنون اليونانية ، وقد اختصت كل واحدة منهن بفن من هذه الفنون ، فاختصت يورانى Uranie بعلم الفلك ، وكليو Clio بعلم التاريخ ، ويوتيرب Euterpe بالموسيقى ، وتربسيكور Terpsichore بالرقص ، وثالى Thalie بالكوميديا ، وملبومين Melpomène بالتراجيديا ، وأراتو Arato بالشعر الرثائى والتحسرى ، وبوليمنى Polymnie بالشعر الغنائى ، وكالليوب Calliope بالشعر الملحمى ، وقد جعلهن اليونان بنات لإلاهة الذاكرة إشارة إلى أن هذه الفنون يتوقف إتقانها على الذاكرة الجيدة ، وجعلوهن أخوات للإشارة إلى الصلة الوثيقة التى تربط هذه الفنون بعضها ببعض .

* * *

ومنهم ديونيزوس Dionysos (أو باكوس Bachus) جاء به سفاحاً من سميليه Sémélé (وهي من البشر بنت كادموس Cadmus ملك طيبة) وهو إله الخمر ، وتروى الأساطير أن أمه قد طلبت إلى أبيه أن يريها مظاهر قدرته ، فأرسل عليها صاعقة قضت عليها وهي حامل به ، فانتقل جنينها إلى فخذ أبيه حيث قضى ما بقى له من مـدة الحمـل ، ثم وضعه أبوه بجبل نيزا حيث قامت بحضانته النيمف . ولما اشتد ساعده تعلم زراعة الكرم من سيلين Silène (وهو نصف إله وكان مضحكاً للآلهة) .

وتصور الأساطير ديونيزوس محـاطاً دائماً برفاق مرحين يسمون بالساتير Satyres (وهم أنصاف آلهة لكل منهم قرنان وساقان وبشرة تشبه قرون الماعز وسوقه وبشرته ، ولكن وجوههم كوجوه الأناسى) .

* * *

ومنهم هيراكليس Heraclès (أو هيركول Hercule) جاء به سفاحاً من ألكمينا Alcmène بنت الكتريون ملك موكيناى ، وكان زوجها أمفتريون قد خرج على رأس جيش لمحاربة التليبويين والانتقام لأشقائها الثمانية الذين قتلوا أثناء الحرب بين أبيها والملك بترِ يلاوس ، وكان يستعد للعودة إليها ظافراً ، فقرر زوس أن يسبقه إليها ، وأن يفوز بها ، فتقمص شخصيته ، وطرق بابها ، ودخل عليها مرفوع الرأس ، مكللا بأكاليل النصر ، وحسبته زوجها ، واحتضنته فى شوق وهيام ، وأخذ يقص عليها كيف انتقم لأشقائها الثمانية ، وكيف كبد العدو خسائر جسيمة وروى لها كل ما قام به أمفتريون ، فقد كان مطلعاً على كل حركاته وسكناته . وقضت ألكمينا الليلة معه مستمتعة بأحضانه الدافئة ، ومنحته من الحب واللذة ما أطفأت به ظمأه ، وكانت ليلة طويلة . استطاع كبير الآلهة أن يمدها وأن يجعلها ثلاث ليال متصلة . فقد أصدر أمره إلى إله الشمس (هيليوس) أن يرفع النير عن أعناق الخيول التى تجر عربة هيليوس الذهبية ، وأن يسحبها إلى حظائرها ، ويتركها تقضى اليوم التالى داخلها ، وأمر ربة القمر أن تسير ببطء شديد فى الأفق ، كما أمر إله النوم أن يسيطر على جميع أفراد البشر ، حتى لا يلاحظ أحد بطء القمر أو تأخر طلوع الشمس .

وانقضت الليلة الطويلة ، وترك زوس ألكمينا ليباشر أمور حياته . وانفردت بنفسها تجتر ذكريات الليلة الماضية محلقة فى سماء الخيال ، وفجأة سقطت على أرض الحقيقة ، لقد عاد إليها أمفتريون ، وارتمى فى أحضانها ، وأخذ يشرح لها كيف انتقم لأشقائها الثمانية ، وقاطعته وهى تنظر إليه فى استغراب ، إنه يعيد على مسامعها ما قاله لها بالأمس ، وأكملت ما يريد أن يقول . ودارت به الأرض ، وذهب من فوره إلى العراف الضرير تيريسياس . وسأله تفسيراً لما حدث ، وأخبره العراف بالحقيقة كاملة .

وانقضت شهور الحمل ، ووضعت ألكمينا مولوداً ذكراً سمى ألكيديس (نسبة إلى جده لوالده الكايوس) ثم وضعت مولوداً آخر سمى إيفيكليس ، أما الطفل الأول فهو ابن كبير الآلهة زوس الذى ضاجعها فى الليلة الطويلة ، وأما الطفل الثانى فهو ابن القائد أمفتريون الذى ضاجعها فى الليلة التالية .

وكانت الربة هيرا زوجة زوس تراقب كل ما حدث ، وكانت تنقم على ألكيديس ، الطفل الرضيع ابن زوس ، فأخذت تدبر المكائد للقضاء عليه ، وذات ليلة أرسلت إليه فى مهده حيتين ضخمتين ، وكان شقيقه إيفيكليس ينام إلى جواره ، وبينما هب إيفيكليس من نومه مذعوراً وصرخ صراخاً عالياً وهو يشاهد الحيتين تتجهان نحو شقيقه ، فأيقظ والديه وجاءا مذعورين ، فقد مد ألكيديس يديه نحو الحيتين فى هدوء وثبات ، وقبض عليهما بكلتا يديه ، فأصبحتا جثتين هامدتين . ولم يصدق والدا الطفلين ما يريانه ، ولم يغمض لهما جفن فى تلك الليلة ، وفى الصباح ذهبت ألكمينا إلى العراف الضرير تيريسياس تسأله الرأى والمشورة . وأبدى تيريسياس إعجابه الشديد بالطفل الرضيع ، وتنبأ له بمستقبل باهر ، وشهرة واسعة ، ومركز ممتاز بين الآلهة والبشر ، وبأن العالم كله سوف يتحدث عنه وعن المرأة العظيمة التى أنجبته .

وفكر زوس فى أن يجعل هيرا ترضع ألكيديس ، فقيل إنه أرسل هيرميس فحمل الطفل إلى أوليمبوس ، ووضعه زوس على صدر هيرا أثناء نومها ، وأنها صحت من نومها بعد أن امتلأ فم الرضيع باللبن . وقيل بل حرض الربة أثينا على أن

تخرج مع هيرا إلى الحقول ، حيث كانت ألكمينا قد وضعت الطفل ، وأن تجعلها ترضعه ، ورقت هيرا لحال الطفل الذى تركته أمه فى العراء ، ولم يكد يلتقط حلمة ثديها حتى أخذ يمتص لبنها فى شراهة وعنف ، وشعرت هيرا بألم شديد فأبعدت الطفل عنها فارتفع عامود من اللبن حتى وصل إلى عنان السماء ، قيل إن هذا العامود مازال حتى الآن يظهر فى السماء ، وهو ما يعرف فى علم الفلك باسم الطريق اللبنية أو درب اللبانة .

وألقت هيرا بالطفل بعيداً عنها ، وأدركت على الفور الحيلة التى دبرها زوس لكى ترضعه ، لكنها كانت قد منحت الطفل الخلود ، أنجبه زوس كبير الآلهة ، وأرضعته هيرا زوجة كبير الآلهة . وحملت الربة أثينا الطفل إلى أمه وطلبت إليها أن تسهر عليه وأن تعنى بتربيته ورعايته . ومنذ ذلك الحين عُرف الطفل باسم هيرا كليس ، أى مجد هيرا وعُرف المكان الذى وجد فيه الطفل باسم سهل هيراكليس .

وتلقى هيراكليس منذ نعومة أظفاره جميع أنواع الفنون ، وتعلم استخدام جميع أنواع الأسلحة ، وتلقى دروساً فى الرماية والملاكمة والمصارعة ، ثم أرسله أبوه إلى مزرعة خارج طيبة ، حيث ظل بها حتى بلغ الثامنة عشرة ، ثم عاد إلى طيبة لينقذها من أسد هصور كان يعيش فوق جبل كيثيرون ، وكان له عرين آخر فوق جبل هيليكون حيث تقع عند سفحه مدينة تسبياى (نسبة إلى ملكها تسبيوس) وكان ينشر الفزع والرعب فى المدينتين ، وعلى طول الطريق بين الجبلين .

وكان أهل تسبياى يعبدون إله الحب إيروس ، وكان له تمثال عند سفح جبل هيليكون ، قد اعتادوا أن يمارسوا الفسق والمجون حوله ، كما اعتادوا أن يقيموا للموسيات ربات الفنون احتفالات دينية صاخبة ماجنة فوق قمة جبل هيليكون وكان للملك تسبيوس خمسون بنتاً كنّ يشاركْنَ فى هذه الاحتفالات ، وأعجب الملك بشجاعة هيراكليس ، الذى كان يصعد الجبل فى الصباح بحثاً عن الأسد المروع ، ثم يهبط فى المساء ليقضى الليل فى المدينة . وقرر الملك أن يقدم بناته بنفسه إلى ذلك الشاب القوى اليافع ، فرحب به وطلب إليه أن يتخلص من الإحساس بالغربة ، ومنحه حق معاشرة بناته ، وقدم إليه فى الليلة الأولى كبراهن ، ثم كانت تزوره بنت

أخرى فى كل ليلة ، وقضى على هذا النحو خمسين ليلة ، وقيل إنه التقى بهن جميعاً فى سبع ليال متتالية ، وقيل إنه التقى بهن جميعاً فى ليلة واحدة .

وأخيراً اكتشف عرين الأسد ، ولم يكن معه سلاح حين ظهر الأسد أمامه فجأة ، ولم يجد أمامه سوى شجرة زيتون باسقة ، فتناولها من ساقها وانتزعها من جذورها واستخدمها كهراوة ، وضرب الأسد الهائج ضربة واحدة سقط على إثرها جثة هامدة ، ثم سلخ الجثة وجفف جلدها ، ووضعه فوق كتفيه ، ثم أمسك بفكى الأسد ووضعهما فوق رأسه . ومنذ تلك اللحظة أصبح لايضع على جسمه إلا جلد أسد ، ولا يغطى رأسه إلا بفكى أسد .

وعاد هيراكليس من مدينة تسبياى إلى وطنه طيبة ، فوجد رسل أرجينوس ملك المينيين قد جاءوا يطلبون الجزية من أهل طيبة ، ويهددونهم بأنهم إذا لم يدفعوا الجزية فسوف يقطع الملك أرجينوس آذانهم وأنوفهم وأياديهم ويأخذها بدلا من الجزية . وثارت ثائرة هيراكليس ، ولم يتمالك نفسه من شدة الغضب ، فقطع آذان الرسل وأنوفهم وأياديهم وعلقها فى رقابهم ، ثم أعادهم إلى الملك أرجينوس .

وجن جنون الملك أرجينوس . وطلب من كريون ملك طيبة أن يسلمه من قام بهذا العمل المروع ، ولم يكن أمام كريون إلا الاستسلام ، فقد كان أرجينوس قد قضى نهائياً على جيشه . ولكن هيراكليس أثار نخوة زملائه الشبان . وسلحهم بالأسلحة التى اعتاد اليونان أن يودعوها معابدهم . بعد أن يكونوا قد سلبوها من الأعداء ونذروها للآلهة .

وأعجبت الربة أثينا بجرأة هيراكليس ، وباركت ثورته المسلحة ، وقد استطاع هيراكليس أن يكون جيشاً ضخماً قاده بنفسه ، وانتصر على المينيين انتصاراً حاسماً وصرع ملكهم ، وفرض عليهم جزية سنوية ، تبلغ ضعف ماكان يدفعه أهل طيبة لملكهم .

وفقد هيراكليس فى أثناء القتال أباه أمفتريون ، ولكنه كسب رضاء الملك كريون فزوجه ابنته الكبرى ميجارا ، وزوج ابنته الصغرى لشقيقه التوءم إيفيكليس. وأنجب هيراكليس من ميجارا طفلين ، وقيل ثلاثة ، وقيل أربعة ، وقيل ثمانية .

وكان للملك أرجينوس حليف يدعى الملك بوراخموس أراد أن ينتقم لحليفه ، فهاجم طيبة بجيش ضخم ، فتصدى له هيراكليس ، وهزمه وأسره ، ثم قتله بطريقة وحشية ، فقد شق جسده وهو حي نصفين ، وترك جثته في العراء دون دفن ، مما أشاع الرعب منه لدى جميع ملوك اليونان .

وكانت الربة هيرا تراقب من عليائها ما يحرز هيراكليس من انتصارات وما يحقق من نجاح ، فأخذت تدبر له المكائد ، سلطت عليه ربة الجنون ، فأفقدته صوابه ، وجعلته يقتل ستة من أطفاله ويلقى بجثثهم في النيران ، كما جعلته يصرع اثنين آخرين من أبناء شقيقه إيفيكليس . ثم وقف يتباهى بأنه قتل أعداءه ، ثم عاد إلى صوابه ، وتجرع غصص الحسرة والندم ، وحجب نفسه عن الناس في حجرة مظلمة ، حتى حضر إليه الملك تسيوس فقام ببعض الطقوس الدينية ، وطهر روحه من الآثام ، ونصحه بالذهاب إلى نبوءة الإله أبوللون التي نصحته بأن يلجأ إلى مدينة تيرونس ، ويسلم نفسه إلى الملك يوروسثيوس ، ويظل في خدمته مدة اثنتي عشرة سنة يقوم فيها بما يكلفه به الملك من أعمال . وبدأ هيراكليس عند الملك أعماله التي عرفت فيما بعد باسم الأعمال الخارقة الإثني عشر .

وكان العمل الخارق الأول الذي كلفه به الملك هو أن يقتل أسد نيميا وأن يسلخ جلده ، وكان أسداً ضخماً شرساً ، ذا فروة غزيرة ، جلده لايتأثر بالحديد أو الصلب أو الحجر . وذهب إلى مدينة نيميا ، ومر بجبل أبيساس ، ثم جبل تريتوس . وهنالك لمح الأسد من بعيد عائداً إلى عرينه ، يلعق بلسانه دماء الضحايا المتجلطة حول فمه ، وصوب نحوه سهماً ساماً ارتطم بجلده دون أن يحدث أثراً ، وجرب سيفه الفولاذي فانثنى ، وهراوته الغليظة فتحطمت ، ودخل الأسد عرينه في هدوء بالغ ، ولما كان لعرين الأسد مدخلان فقد سد هيراكليس أحدهما بشبكة متينة ، ثم دخل العرين من مدخله الآخر ، وتقدم في ثبات وشجاعة نحو الأسد ، معتمداً على قوته البدنية اعتماداً كلياً ، وأخذ كل منهما يدور حول غريمه ، ثم انقض هيراكليس على الأسد وأخذ رأسه من الخلف بين ذراعيه القويتين ، وأخذ يضغط على رقبته ، وزأر الأسد زئيراً عالياً ارتجت له أركان العرين ، ولكن هيراكليس لم يتركه إلا وقد أصبح جثة

هامدة . وبإلهام من الآلهة استخدم أظافر الأسد فى عملية سلخه ، إذ كانت تفوق فى حدتها كل أنواع الأسلحة ، واتخذ من جلده رداء لجسده ، ومن رأسه وأنيابه غطاء لرأسه .

وكان العمل الخارق الثانى هو أن يقتل هيدرا ، وهيدرا مسخ أنجبه التنين توفون من التينة إخيدنى ، نشأ على هيئة أفعوان بحرى ، له جسم كلب ، وعدة رءوس تشبه رءوس الأفاعى ، منها رأس خالد ، وبقية الرءوس إذا قطع منها رأس نبت مكانه ثلاثة رءوس . وكل رأس من رءوسه ملىء بالسم الزعاف ، ودماؤه التى تجرى فى عروقه سم زعاف . وأنفاسه سامة ، ورائحته قاتلة . اتخذ هذا الأفعوان لنفسه مقراً يقع على بعد بضعة أميال من أرجوس ، وظل يصول ويجول فى مستنقع ليرنا الذى لايسبرغوره ، وخشيت الربة أثينا على هيراكليس من خطره ، فانتظرته بالقرب من جحره ، ووصل هيراكليس بعربته السريعة التى يقودها يولايوس ابن شقيقه إيفيكليس ، وذلته أثينا على الطريقة التى يخرج بها هيدرا من جحره ، وهى أن يقذف الجحر بالسهام المشتعلة ، ونصحته بأن يمسك أنفاسه عند رؤية المسخ . وخرج المسخ وهجم على هيراكليس ، وحاول أن يطرحه أرضا ، ولكن البطل احتفظ بتوازنه ، ورفع هراوته ، وهوى بها فوق رءوسه ، وكلما هشم رأساً نبتت بدلا منه ثلاثة رءوس ، وخف لنجدة الأفعوان سرطان بحرى ، خرج من المستنقع وعض قدم هيراكليس فداس هيراكليس بقدمه فى عنف عليه . وصاح يطلب العون من يولايوس ، فأشعل يولايوس ناراً ، وأخذ يكوى بالنار مكان كل رأس يقطعها هيراكليس ، فاستطاع بذلك أن يوقف تدفق الدماء ، وأن يمنع رءوساً جديدة من الظهور ، وأخيراً استطاع هيراكليس أن يبتر الرأس الخالد بسيفه ، وأن يحفر حفرة عميقة ويدفنه بها ، وكافأت الربة هيرا السرطان الذى خف لنجدة الأفعوان ، فجعلته واحداً من الأبراج السماوية ، هو برج السرطان .

وكان العمل الخارق الثالث ، هو أن يحضر أيلة كيرونيا حية دون جروح . وهى الأيلة التى فرت من ربة الصيد أرتيميس ، فقد كانت تتجول كعادتها فى الغابات ، وكانت لم تزل طفلة ، ورأت خمس أيلات فأخذت تطاردها ، واصطادت منها

أربعا فقط ، وفرت الخامسة ، وعبرت نهر كلادون إلى تل كيرونيا . وكانت الأيلة مخلوقاً غريباً سريعاً ، أرقش ، له حوافر من البرونز وقرون من الذهب . ووصل هيراكليس إلى تل كيرونيا ، ورأى الأيلة ، وأقام لها الكمائن ، ونصب لها الشباك ، ولم تقع فى أى منهما ، فأخذ يطاردها حتى أنهك قواها ، وحين وقفت لتسترد أنفاسها أرسل إليها سهماً ربط بين ساقيها ، دون أن تقطر نقطة دم واحدة ، وتقدم إليها فى هدوء ، وحملها فى خفة فوق كتفيه ، حية دون جروح ، وعاد بها إلى يوروسثيوس .

وكان العمل الخارق الرابع هو أن يحضر خنزير أرومانثوس دون جروح : وهو خنزير كاسر متوحش بشع مروع ينشر الفزع والرعب فوق مرتفعات جبل أرومانثوس ، المغطاة بالأحراش وأشجار السرو ، واقترب هيراكليس من مأوى الخنزير ، وصرخ صرخات متتالية أخرجت الخنزير من مكمنه بين الأحراش ، وتقدم هيراكليس نحوه ففرّ أمامه مذعوراً ، واستدرجه هيراكليس حتى انتهى إلى منطقة منخفضة مغطاة بالجليد ، وفى خفة ورشاقة قفز فوق ظهره ، وكبله بالسلاسل ، وحمله حياً فوق كتفيه .

وكان العمل الخارق الخامس هو أن ينظف حظائر أوجياس ملك إيليس ، قيل إنه كان ابناً للملك هيليوس ، وقيل إنه كان ابناً للإله بوزيئدون ، كان يملك ثروة طائلة من الماشية ترعاها قوة ربانية ، منها مائتا ثور سود ، ذوات أرجل بيض ، ومائتا ثور حمر ، وكلهم للاستيلاد . وكان يدافع عن هذه الماشية ضد حيوانات الغابة المفترسة اثنا عشر ثوراً فضيات اللون ، ولم تجد حظائر أوجياس من ينظفها منذ بضع سنوات ، حتى تراكم الروث وانتشرت رائحته ، وحتى تعدى الحظائر إلى السهل فأصبح من الصعب زراعته ، ووصل هيراكليس فى الصباح إلى ساحة أوجياس ، واتجه على الفور إلى حظائر الماشية . وألقى عليها نظرة سريعة ، ووعد الملك أن ينتهى من تنظيف الحظائر قبل حلول المساء ، وحين بدأ هيراكليس يستعد للعمل هجم عليه قائد الثيران الإثنى عشر ، إذ ظنه أسداً جاء يفترس الماشية ، وأمسك هيراكليس بيد واحدة قرنه الأيسر ، ودفع برأسه حتى مست الأرض ، ثم أخذ

فى تنظيف الحظائر . أحدث فجوتين متقابلتين فى جدرانها ، ثم ذهب إلى نهرى ألفيوس وبنيوس وحوّل مجراهما ، واندفعت المياه بشدة من خلال إحدى الفجوتين ، مكتسحة الروث المتراكم أمامها ، ثم خرجت من الفجوة الأخرى مندفعة بقوة فوق السهل الواسع ، وقد حملت معها كل القاذورات والروث المتراكم ، ثم عادت المياه أخيراً إلى مجرى النهرين . وانتهى كل ذلك قبل حلول المساء .

وكان العمل الخارق السادس أن يطارد طيور ستومفالوس وهى طيور مروعة لاحصر لها ، مناقيرها ومخالبها وأجنحتها كلها من البرونز ، وغذاؤها من لحوم الحيوانات والبشر ، موقوفة لإله الحرب آريس ، وتستقر فى أحراش مستنقع ستومفالوس وتخرج فى جماعات ضخمة لتقتل الإنسان والحيوان وتفسد المحاصيل الزراعية ، ووصل هيراكليس إلى مستنقع ستومفالوس ، وحين فكر فى أن يطارد الطيور بسهامه السامة ، اكتشف أن أعدادها هائلة ، وليس من السهل القضاء عليها بسهامه . وأدركته الربة أثينا ، فأعطته خشخيشة ضخمة ذات خشخشة مجلجلة ، صعد بها فوق قمة من قمم جبل كالينى التى تطل على المستنقع ، وهزها بقوة هزات متتالية أثارت الذعر والفزع بين جماعات الطيور ، فانطلقت هاربة بأعدادها الكثيفة حتى حجبت قبة السماء ، ولاحقها هيراكليس بسهامه فأصاب أعداداً كثيرة منها ، وفر الباقى إلى جزيرة آريس الواقعة وسط البحرا لأسود .

وكان العمل الخارق السابع أن يقبض على الثور الكريتى . وهو ثور ضخم جبار قوى ، يزفر ألسنة اللهب الحارق ، يصول ويجول فى جزيرة كريت فيتلف المحاصيل ، ويقتحم الحدائق فيدمر الأسوار ويقتلع الأشجار . ولا أحد يستطيع أن يقف فى طريقه . وأبحر هيراكليس إلى كريت ، وبدأ يقتفى أثر الثور . حتى إذا وجده تقدم نحوه وهو أعزل ، واشتد الصراع بينهما ، وفى النهاية تغلب هيراكليس على الثور الجبار وقاده إلى موكيناى .

وكان العمل الخارق الثامن أن يروض خيول ديوميديس ، وكان ديوميديس ملكاً على تراقيا ، ولديه أربعة خيول من نوع نادر ، أطلق عليها أسماء : بوداّرجوس ، لاميون ، كسانثوس ، دينوس . وكانت خيولا متوحشة يعقلها بسلاسل من الحديد ،

وتقدم لها الطعام من لحوم البشر فى مزاود من البرونز . وقد نشأت فرسة مفترسة ليس من السهل ترويضها ، وأبحر هيراكليس إلى تراقيا ، ومر فى طريقه بمدينة فيرة حيث يحكم صديقه الملك أدميت ، هنالك علم بموت زوجته ألسست ، فهبط إلى العالم السفلى ، وتغلب على إله الموت ، وأنقذها . وأعادها إلى عالم البشر ، ثم واصل رحلته حتى وصل إلى مدينة تريدا فى تراقيا ، وهناك تغلب على سائسى الخيول وقهرهم ، وطارد الخيول فى حرص شديد حتى شاطىء البحر ، وتركها فى حراسة تابعه أبديروس ، وعاد إلى الملك ديوميديس وشعبه الذين تجمعوا لمطاردته ، ورغم كثرة عددهم فقد استطاع أن يقهرهم وحده ، وحين عاد إلى شاطىء البحر وجدهم قد قدموا لحم أبديروس منذ لحظات طعاماً للخيول المفترسة ، وكان قد صرع ملكهم بهراوته الغليظة فقدم جثته طعاماً للخيول ، فالتهمته فى الحال ، وأحست الخيول بالشبع ، فروضها هيراكليس دون مشقة كبيرة وقادها إلى موكيناى .

وكان العمل الخارق التاسع أن يحضر حـــزام أنتيوب Antiope ملكة الأمازونيات ، وهو حزام كان قد أهداه إليها جدها الأكبر إله الحرب آريس ، وبدأ هيراكليس رحلته إلى مملكة الأمازونيات وحين وصل إلى مدينة تمسكورا ، وعلمت الملكة أنتيوب بقدومه زارته ، وأعجبت بقوامه الممشوق ، وعضلاته المفتولة ، وحيويته المتدفقة ، ورجولته النادرة ، ونسيت طبيعتها الأمازونية الخشنة وعاد إليها الإحساس بالأنوثة ، وأعلنت إليه أنها تحبه ، وقدمت له دليلا قاطعاً على حبها له ، فأهدته حزامها الذى منحه لها جدها الإله آريس ، وعاد إلى موكيناى ، وسلم حزام أنتيوب إلى يوروسثيوس ، الذى سلمه بدوره إلى ابنته أدميتى .

وكان العمل الخارق العاشر أن يحصل على قطيع جريون دون أن يستأذن صاحبه أو يدفع له ثمناً . كان جريون ملكاً على تارتسوس الواقعة فى إسبانيا . وكان مسخاً جبارياً شديد البأس ، له ثلاثة رءوس ، وست أذرع ، وثلاثة أجساد تتفرع من عند الوسط ، أما نصفه الأسفل فلا يختلف عن باقى أجساد البشر ، وكان علك قطيعاً أحمر اللون جميل المنظر فريداً من نوعه ، وكان يحتفظ به فى جزيرة إروثيا ، أما راعى القطيع فهو يوروتيون ابن الإله آريس . وأما حارسه فهو أورثوروس

ابن التيتن توفون أنجبه من التيتنة إخيدنى . وهو مسخ مفترس شرس ، على هيئة كلب ضخم ذى رأسين . وبدأ هيراكليس رحلته إلى إسبانيا ، ماراً بوسط أوربا ، وأثناء رحلته صرع أعداداً لاحصر لها من الحيوانات الضارية ، وانتهى إلى مدينة تارتسوس فى إسبانيا ، فأقام عمودين ضخمين متقابلين ، أحدهما على الشاطىء الإسبانى ، والآخر على الشاطىء الإفريقى ، عرفا فيما بعد باسم « أعمدة هيراكليس » ثم بدأ فى الإبحار إلى جزيرة إروثيا ، وأهداه إله الشمس (هيليوس) كأساً ذهبية ضخمة تشبه فى شكلها زهرة زنبقة الماء ، فركب فيها كما لوكانت قارباً ، وظلت تشق به ماء المحيط حتى وصل إلى جزيرة إروثيا ، وصعد جبل أباس ، وقابله الكلب أورثوروس بنباح شديد ، وهجم عليه فى وحشية ، وتقدم هيراكليس منه فى جرأة وثبات ، وضربه بهراوته الغليظة ضربتين متتاليتين فوق رأسيه فخر صريعاً ، وجاء الحارس يوروتيون على صوت نباح الكلب ، فهاجمه هيراكليس بهراوته الغليظة وصرعه فى الحال . وجاء جريون يريد أن ينقض عليه ، ولم يمهله هيراكليس وإنما أطلق عليه ثلاثة سهام متتالية فى سرعة هائلة ، أصابت أجساده الثلاثة ، فسقط فاقد الحياة على الفور ، واستولى هيراكليس على القطيع دون أن يستأذن صاحبه أو يدفع له ثمناً ، وحمله فى الكأس الذهبية الضخمة ، التى شقت به المحيط حتى وصلت إلى مدينة تارتسوس ، وأعاد الكأس إلى إله الشمس (هيليوس) وواصل رحلته ، وعاد إلى الملك يوروسثيوس ومعه قطيع جريون .

وكان العمل الخارق الحادى عشر أن يحضر ثلاث تفاحات ذهبية . وكانت جايا ، الأم الكبرى قد أهدت إلى هيرا بمناسبة زواجها من زوس شجرة تفاح تثمر ثمرات من الذهب الخالص ، فغرستها هيرا فى حديقتها الربانية ، ووكلت إلى المسخ لادون أمر حراستها ، وهو تنين ضخم ، ثعبان مروع له مائة رأس ويتحدث لغات البشر المختلفة ، وخرج هيراكليس يبحث عن مكان التفاحات الذهبية النادرة ، واخترق منطقة الليوريا حتى وصل إلى حوض نهر البو . وأثناء رحلته اضطر إلى قتال المارد الجبار كوكنوس ابن الإله آريس ، ووقف آريس فى صف ابنه ، واضطر كبير الآلهة زوس إلى إنهاء القتال . وانتهى هيراكليس إلى الطرف الأقصى من العالم ،

وهناك وجد الإله أطلس يحمل قبة السماء فوق كتفيه ، ويتخذ لنفسه مقراً بالقرب من حديقة هيرا الربانية . وتوسل إليه أن يحضر إليه بعض التفاحات الذهبية ، ووافق أطلس ، لكنه طلب من هيراكليس أن يتخلص أولا من المسخ لادون ، وتخلص هيراكليس من لادون بقتله بسهامه التى لاتخيب ، أو أرسله فى سبات عميق بعقار من عقاقيره قوية التأثير . وشعر أطلس بالسرور والراحة وهو يناول هيراكليس قبة السماء ليحملها على كتفيه بدلا منه ، وذهب إلى حديقة هيرا فقطف ثلاث تفاحات ذهبية ثم عاد إلى هيراكليس ، وسأله أن يتركه ليذهب إلى يوروسثيوس ويقدم له التفاحات الذهبية بنفسه ، وفطن هيراكليس إلى أنه يريد أن يستريح من حمل قبة السماء لفترة أطول ، فتظاهر بالموافقة ، لكنه استأذن لحظة واحدة يبحث فيها عن وسادة يضعها فوق كتفيه ، لأن جلده يؤلمه ، وصدقه أطلس ، ووضع التفاحات الذهبية الثلاث على الأرض بين قدميه ، وتناول قبة السماء من فوق كتفى هيراكليس ، وحملها فوق كتفيه كما كان يفعل من قبل ، وانحنى هيراكليس فالتقط التفاحات الثلاث شاكراً لأطلس ما قدمه له من معونة .

وكان العمل الخارق الثانى عشر أن يحضر الكلب سيربيروس Cerebrus من تارتاروس (عالم الموتى) لم يكن سيربيروس كلباً عادياً ، بل كان مسخاً مخيفاً ، له جسم كلب ، ولكن يتفرع من رقبته ثلاثة رءوس ، مزودة بالحيات السامة ، وله ذيل ملىء بالأشواك ، ضرباته تشبه ضربات السياط ، وكانت مهمته حراسة بوابة الجحيم ، وبحث هيراكليس عن منفذ يهبط منه إلى أعماق الأرض ، وساعدته فى ذلك الربة أثينا والإله هيرميس ، ووصل إلى شاطىء نهر ستوكس الذى يفصل بين عالم الأحياء وعالم الموتى ، والذى لم يكن يسمح بعبوره إلا للموتى فقط ، يحملهم فى قاربه العتيق المعداوى خارون .

واستولى الفزع على خارون عند رؤيته لهيراكليس ، ولم يجرؤ على منعه من العبور ، وحمله فى قاربه العتيق ، وأوصله إلى عالم الموتى .

واستقبله إله العالم السفلى هاديس وزوجته بالترحاب ، وطلب من الإله هاديس أن يسمح له باصطحاب الكلب سيربيروس ووافق الإله هاديس على ذلك إذا

يستطاع هيراكليس أن يخضع الكلب ويرغمه على أن يتبعه دون أن يستخدم هراوته الضخمة أو سهامه القاتلة . وتقدم هيراكليس نحو الكلب المخوف . فى حرص وثبات، وانقض بقبضته القوية على عنقه ، فهب واقفاً يطوح بذيله الرهيب فى كل اتجاه ، ويحرك رءوسه الثلاثة فى وحشية ، محاولا التخلص من قبضة غريمه والانقضاض عليه ، ولم تتراخ عضلات هيراكليس إلا بعد أن استسلم المسخ المخيف لإرادته ، وعاد يجره وراءه حتى وصل إلى ساحة الملك يوروسثيوس .

وبعد أن أنجز هيراكليس هذه الأعمال الخارقة الإثنى عشر أصبح حراً طليقاً ، ثم رحل إلى أيتوليا ، والتقى بفتاة جميلة تدعى ديانيرا فتزوجها ، ثم رحل بها إلى تراخيس وأنجب منها أربعة أبناء : هولوس ، وكتسيبوس ، وجليونوس ، وهوديتيس ، وابنة واحدة تدعى ماكاريا .

وظل هيراكليس يكافح ويغامر ، ينصر المظلومين ويقهر الظالمين، يشن الحروب على الطغاة ، ويقف مع المدافعين عن وطنهم وكرامتهم وكان قد تعود أن يبعث بسباياه إلى زوجته ديانيرا فى تراخيس ، فلما اقتحم مدينة أوخاليا وكسر شوكتها وقتل ملكها يوروتوس احتفظ لنفسه بجارية فاتنة هى الأميرة إيولى ابنة الملك ، وبعث بها إلى زوجته ، وطلب منها أن ترسل إليه ثياباً خاصة كان يرتديها أثناء صلاة الشكر التى يقيمها بعد كل انتصار .

وشعرت ديانيرا بالغيرة الشديدة من الأسيرة الفاتنة ، وتذكرت أن الوحش نيسوس — بعد أن قتله هيراكليس — قد أسرَّ إليها وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أن تحتفظ بدمائه ، وأن تستخدمها لاستعادة قلب زوجها إذا تحول عنها ، وعملت ديانيرا بنصيحته ، فحين أتى الرسول يطلب ثياباً لهيراكليس ، أحضرتها ولطختها بدماء الوحش . ولكن هذه الدماء لم تكن إلا سما ذعافا ، فحين ارتدى هيراكليس الثياب ، أحس بها تحرق جلده ، وحين أراد انتزاعها . نزع جلده معها ، وظهرت عظامه ، وأخذت الدماء تتدفق منه ، والسم القاتل ينخر فى كيانه كله .

* * *

ومن الذين وقفوا فى صف زوس فى حربه ضد التياتن ، بروميثيه Prométhée (ويعنى اسمه : الذى يعرف كل شىء قبل أوانه) فقد كان كما يدل عليه اسمه ، ثاقب الذكاء بعيد النظر ، فعرف أن النصر سيكون حليفاً لزوس ؛ فانضم إليه ، وأصبح ساعده القوى وعقله المفكر ، وانضم معه شقيقه الأصغر إبيميثيه Epiméthée (ويعنى اسمه : الذى يعرف الشىء بعد أوانه) . وأوْلاهما زوس ثقته ، فبعد أن نظم حياة الآلهة فوق قمة الأوليمبوس وخصص مكاناً للجحيم وآخر للنعيم ، وأسند إلى كل إله وظيفة تليق بمكانته وقدراته ، ولم يبق سوى خلق البشر وما يتبعهم من مخلوقات وكائنات على وجه الأرض — فكر فيمن يستطيع أن ينوب عنه فى القيام بهذه المهمة ، فلم يجد أفضل منهما .

وطلب إبيميثيه من شقيقه برومیثیه أن يعتمد عليه فى إنجاز تلك المهمة ، فبدأ بخلق الحيوانات والطيور ، ومنحهم كل المزايا والصفات التى تتميز بها الكائنات الحية على إختلاف أنواعها ، ثم جاء دور خلق الرجل ، فلم يجد شيئاً يمنحه له كى يميزه عن بقية الكائنات الحية ، عندئذ أدركه شقيقه برومیثیه ، ولم يجد أمامه سوى صفات الآلهة ، فخلط التراب بالماء ، وشكل منهما مخلوقاً لايختلف فى صورته عن الإله فى شىء ، ومنحه العقل والتفكير والقدرة على الكلام ، وكان على وشك أن يمنحه الخلود ، لولا تدخل زوس فى اللحظة الأخيرة .

وترى أساطير أخرى أن إبيميثيه هو الإنسان الأول ، وأن برومیثیه خلقه من الصلصال وزوده بالروح والعقل ، فأما المرأة الأولى فهى باندورا Pandore خلقها هيفيستوس من التراب والماء بتكليف من الإله زوس ، وشكلها فى صورة امرأة ، ونفخ فى صدرها فتنفست ، ووضع الكلمات فى حلقها فتكلمت ، ثم جمع زوس مجلس الآلهة وطلب من كل إله وكل إلاهة أن يمنح مخلوقة هيفيستوس صفة من صفاته أو نعمة من نعمه ، ومنحتها أثينا ربة الحكمة ، الذكاء ورقة الحس ، وبعثت أفروديت ربة الجمال والرغبة ، فى جسدها الأنوثة والدفء ، وغمرتها ربات البهجة والسرور بأنفاسهن اللذيذة ، فمنحنها ظلاً خفيفاً وروحاً عذبا ، وجعل كل إله يمنحها طبيعة من طبيعته حتى جاء دور هيرميس رسول زوس فمنحها الكذب

اللذيذ والخداع الحلو والصوت العذب ، ثم أعد زوس صندوقاً فاخراً وملأه بهداياه ، وسلمه إلى هيرميس رسوله الأمين ، وأمره أن يصطحب مخلوقة هيفيستوس إلى الأرض ، ويقدمها إلى إبيميتيه ويسلمها الصندوق هناك . ومنذ تلك اللحظة عرفت هذه المخلوقة باسم باندورا ومعناه هدية الجميع ، فهى هدية من جميع آلهة السماء إلى جميع رجال الأرض ، وبعد أن أوصل هيرميس باندورا إلى إبيميتيه وسلمها صندوق الهدايا قدم إليهما نصيحة عابرة : إذا أردتما أن تعيشا فى سعادة وسلام ، فلاتحاولا فتح هذا الصندوق أومعرفة محتوياته .

وعاشت باندورا مع إبيميتيه عيشة هانئة صافية لايكدرها شىء ، حتى غلبها حب الاستطلاع ، ففتحت الصندوق وكان زوس قد سجن فيه جميع الأرواح الشريرة المؤذية وجميع المتاعب والرزايا والآلام ، وسجن معها روحًا خيرًا واحداً ، هو روح الأمل ، وانطلقت الأرواح الشريرة تعيث فساداً على وجه الأرض ، وكان هذا أصل شقاء بنى الإنسان ، ثم انطلق الأمل ودب فى النفوس ، فأصبحوا قادرين على احتمال متاعب الحياة .

ورغب أفراد البشر ذات يوم أن يقدموا ولاءهم لزوس . فأقاموا وليمة ، ذبحوا فيها ثوراً ، ودعوه إليها . ونزل إليهم من عليائه ، واختلفوا حول تقسيم الذبيحة ، فبينما رأى أفراد البشر أن الهدف من إقامة الوليمة هو مشاركة الإله لهم فيكون نصيبه كنصيب أى واحد منهم ، رأى زوس أن الذبيحة كلها له لأنها هدية له وقربان إليه . واتفق الطرفان على أن يحكم بينهما بروميتيه وأصدر بروميتيه حكمه على الفور ، بأن زوس يمثل طرفاً وأفراد البشر يمثلون طرفاً آخر ، فتقسم الذبيحة بالتساوى بين الطرفين . ورضوا بحكمه ، وبدأ فى تنفيذه ، فسلخ الذبيحة وقطعها ، وفصل العظام عن اللحم ، ثم جعلها كومتين : كومة كبرى تحوى العظام والشحوم والأمعاء وبقية الأجزاء الداخلية الرديئة محاطة بشرائح من اللحم تخفى ما تحتها ، وكومة صغرى تحوى اللحم الخالص ، وكل هذا فعله فى غفلة من زوس ، واختار زوس الكومة الأكبر ، وحملها معه إلى قمة الأوليمبوس ، وهناك اكتشف خداع بروميتيه ، ومن هنا نجد فى الميثولوجيا أن اليونانى اعتاد أن يأكل الأجزاء الطيبة من الذبيحة ، ويترك العظام والشحوم فى المعبد قرباناً للإله .

لم ينس بروميثيه أنه أبلى مع زوس فى حروبه ضد التياتن أحسن البلاء ، وأن زوس بعد أن استتب له الأمر قسم الملك بينه وبين أخويه وأبنائه وأغفله ، ولم يحفظ له هذه اليد . ثم هو لم يكتف بهذا ، فقد أخذ يعمل على الكيد له ، والكيد لمخلوقه الإنسان ، فأزمع إهلاك البشر . وعارضه بروميثيه ، وحال بينه وبين تنفيذ مشروعه ، فكبر ذلك عليه ، واشتد حقده عليه ، فطرده من السماء ، ومحا اسمه من سجل أعضاء المجمع الأوليمبي فهبط بروميثيه إلى الأرض ، ووقف حياته على العناية بشأن بنى الإنسان ، فعدل صورهم ، وأصلح حواسهم ، وعلمهم مالم يكونوا يعلمون . ورأى أن النار تعوزهم ، فاختلسها من السماء وأهداها إليهم ، فأصبحت حظاً مشاعاً بينهم وبين الآلهة ، وكانت مصدر حضارتهم الصناعية ، وقد أثارت فعلته هذه نقمة زوس ، فقيده فى الأغلال ، وشده إلى صخرة جرداء ، فى منطقة قاحلة فوق جبل كاوكاسوس من جبال القوقاز . ووكل بها نسراً ينقض عليه كل يوم ، فيمزق أحشاءه وينهش كبده ، فيبدل كبداً وأحشاء غيرها ، ثم يعود إليه النسر فى ضحى اليوم التالى فيكرر فعلته معه ، وهكذا دواليك إلى أن قيض له هيراكليس ، فقتل النسر بسهم من سهامه النارية وكانت نجاته على يديه .

وكان بروميثيه يثق فى نفسه ثقة لا حد لها ، لأنه كان قادراً على معرفة الغيب والتنبؤ بالمستقبل ، وكان يعلم مصير الآلهة والبشر ، ويرى بوضوح الأحداث قبل وقوعها . وقد عرف أن زوس سوف يهلك الجنس البشرى بالطوفان ، لأنه يرى الشر والفساد قد تأصلا فى نفوس أفراده ، ولا قضاء على هذا الشر والفساد إلا بالقضاء عليهم .

وكان لبروميثيه إبن يدعى دوكاليون Deucalion كان قد تزوج من بيرها Pyrrha بنت إبيميثيه من زوجته باندورا . وكان من الطبيعى أن يحيط بروميثيه ابنه دوكاليون علما بالطوفان ، وأن يشير عليه بما ينبغى أن يعمله . وقد أشار عليه بأن يصنع سفينة ذات ألواح ودسر وأن يركب فيها مع زوجته ، دون أن ينبىء أحداً بأمر هذا الطوفان .

وصدرت أوامر زوس الربانية إلى الرياح والعواصف فانطلقت من معاقلها ، وإلى السحب الداكنة فألقت بأحمالها وأثقالها ، وإلى السماء فاندفعت الأمطار كالجبال من أبوابها ، وإلى المحيطات والبحار فارتفعت الأمواج وفاضت المياه واندفعت فى سرعة رهيبة تغمر كل بقاع الأرض ، وتعانقت مياه الأرض ومياه السماء وضاعت صيحات البشر اليائسة فى خضم هدير الرعد ودوىّ العواصف وقعقعات الأمواج ثم توقف نبض الحياة فى شرايين الأرض ، وأصبح البشر فى خبر كان ، وأصدر زوس أوامره مرة أخرى إلى السماء أن تقلع ، وإلى الأرض أن تبلع ماءها وإلى كل شىء أن يعود إلى ما كان عليه .

ونظر زوس فرأى السفينة قد استقرت فوق قمة جبل بارناس Parnasse، وفيها دوكاليون وزوجته بيرها . إنه يعرف ما يمتازان به من ورع وتقوى . وقد شاء القضاء لهما النجاة والحياة فلا مناص من تنفيذ مشيئة القضاء .

ونزل دوكاليون وزوجته ، وانحدرا نحو سفح الجبل ، حتى انتهيا إلى أطلال معبد دلف ، وتقدما نحو قدس الأقداس المتهدم ، وأخذا يدعوان الآلهة والربات : لئن عمرت الأرض من جديد، لننشرنّ الخير والتقوى بين الناس ، ولنحكمنّ بالعدل ولنأمرن بالمعروف ، ولنقدمن الأضاحى والقرابين .

وسمع زوس دعاءهما ، وتجلى لهما ، وأمرهما أن يخرجا من المعبد وأن يلقيا بعظام أمهما من فوق ظهريهما وهما يسيران الهوينى ، وهكذا بمشيئة زوس سوف تعمر الأرض .

وشعرا بسعادة غامرة . وانطلقا يبحثان عن عظام أمهما ، ولكنهما لم يلبثا أن توقفا ، إن أمهما ليست واحدة ، فلماذا قال رب الأرباب أمكما وهو يعلم ذلك؟ إن نبوءات الآلهة لا تلقى إلى البشر صريحة ومباشرة ، وإنما تلقى دائماً مغلفة تتحدى ذكاءهم ، فماذا يقصد رب الأرباب بقوله أمكما ؟ وفجاءة هتف دوكاليون : فهمتها، فهمتها ، الأرض هى أمنا التى أنجبتنا ، وعظام أمنا هى الأحجار الصلبة ، فلنلق بالأحجار من فوق ظهرينا ونحن نسير الهوينى . وأخذا يلتقطان الأحجار من الأرض، ويلقيان بها من فوق ظهريهما وحدثت المعجزة ، فلا تكاد الأحجار التى يلقيها دوكاليون

تلمس الأرض حتى تتحول إلى رجال ، ولاتكاد الأحجار التى تلقيها بيرها تلمس الأرض حتى تتحول إلى نساء . وهكذا عمرت الأرض وعادت إليها الحياة ، وانتشر فيها النوع الإنسانى فى زمن يسير .

وتروى الأساطير أن دوكاليون أنجب من بيرها طفلا أسماه هيللين ، وهو الجد الأكبر للشعب الهللينى (الإغريقى) ومن بين أبنائه أيولوس ودوروس ، ومن بين أحفاده يون وأخيوس . ومن هؤلاء الأبنـــاء والأحفاد تكونت الشعوب الهيللينية المعروفة : الأيوليون والدوريون واليونيون والآخيون .

★ ★ ★

ويأتى بعد الآلهة أنصاف الآلهة . وهم أدنى منزلة منها وتصورهم الأساطير فى صورة أتباع وحاشية لها ، وتسند إليهم وظائف ثانوية بالنسبة لوظائفها ،وهم كثيرون منهم السيكلوب الملازمين للإله هيفيستوس . ومنهم إريس ، وإنيو ، وكيريس ، أتباع الإله آريس ، ومنهم سيلين والساتير أتباع ديونيزوس ، ومنهم أرجوس رمز اليقظة ، ذو العيون المائة . وإذا نام لم يغمض منها إلا خمسين .

★ ★ ★

ويأتى بعدهم أبطال اليونان ، ومعظمهم من سلالة الآلهة أو ممن يمتون إليها بصلة قريبة . وترجع إليهم الأساطير تأسيس مدنيّة اليونان ، ونهضتهم فى مختلف شئون الحياة ، وتفوقهم على من عداهم من الشعوب . كما تنسب إليهم تأسيس المدن اليونانية ورد الغارات عنها . وقد أنزلهم اليونان منزلة من التقديس لا تقل كثيرا عن منزلة الآلهة ، وخصوهم بصنوف من العبادات ، وقدموا إلى أرواحهم القرابين ، ونصبوا لهم التماثيل ،وشيدوا لهم الهياكل والمعابد ، وأقاموا لتكريمهم أعيادا دينية .وألّفوا الملاحم الشعرية فى الإشادة بهم ، ووصف حروبهم وانتصاراتهم وتعداد مآثرهم وأفضالهم . وما امتازوا به من صفات مكتسبة وموهوبة . وقد جاء فى الإليـــاذة والأوديسا جمهرة منهم اشتركوا فى حرب طروادة .

(٣) نظريات في تفسير أساطير اليونان

منذ فجر الحضارة اليونانية وأساطير اليونان تتعرض للنقد والدراسة ، وأول ناقد يوناني انبرى لنقد هذه الأساطير هو الشاعر اكسينوفانيس Xenophanes الكولوفوني (٥٧٠ — ٤٧٩ ق . م) . فقد نظم مجموعة من القصائد لم يصلنا منها سوى بضع شذرات، وقد هاجم فيها تعدد الآلهة الذي ساد الأساطير اليونانية، كما لم يرض عن ناسوتية هذه الآلهة . يقول اكسينوفانيس : هناك إله واحد ، عظيم بين الآلهة والبشر ، لا يشبه البشر في هيئته أو تفكيره . . . ومع ذلك فإن البشر يتخيلون أن الآلهة قد ولدت ذات ملابس بشرية وأصوات بشرية ، وأجساد بشرية ، وهكذا ، فلو كان للثيران أو للأسود أو الخيول أياد يرسمون بها ، لرسموا آلهتهم في صور تشبه صورهم ، ، وصوّرها ذات أجساد تشبه أجسادهم . وهكذا فإن هذه الهيئة الناسوتية التي نسبها اليونان إلى آلهتهم لم ترض اكسينوفانيس .

ولكن هذا الرفض المطلق لناسوتية الآلهة ، لم يعجب أكثر الباحثين ، ورأوا أن هذه الأساطير يجب أن نبحث لها عن تفسير وأن نعالجها كقصة مجازية لا كرواية أدبيــة . ولكنهم لا يتفقون عن التفسير ولا المعالجة . فيرى ثياجينيس Theagenes الريجي أن المعارك التي دارت بين الآلهــة من أجل اكتمال خلق الكون — مثلا — ليست إلا تصويرا مجازيا للصراع الدائر بين العناصر المختلفة التي يتكون منها الكون . فهيفيستوس وأبوللون — في نظره — يمثلان عنصر النار ، وهيرا زوجة زوس تمثل عنصر الهواء . وبوزيدون إله البحار يمثل عنصر الماء ، وأرتميس تمثل القمر . كما حاول ثياجينيس أيضا أن يثبت أن بعض الآلهة اليونانية تمثل قيما أخلاقية أو عقلانية وذلك عن طريق دراسة لغوية لأسماء تلك الآلهة .

وكتب فريكوديس Pherekydes السوروسي (من جزيرة سوروس ، في القرن السادس ق . م) عن الطبيعة والآلهة ، فخلط بين الأسطورة والقصة المجازية والعلم . ورأى أن عناصر النار والهواء والماء نشأت من كرونوس Cronos وهو الزمن ، ثم نشأت الآلهة فيما بعد من تلك العناصر الثلاثة . فالزمن هو أصل العناصر التي اكتسب منها الآلهة وجودهم .

فإذا وسعنا الخطوة ووصلنا إلى القرن الرابع ق.م وجدنا يوهيمير وس Euhemeros يرى أن الأسطورة ليست إلا تاريخا مقنعا . فالآلهة كانت فى أول الأمر رجالا ، ثم اكتسبوا بمرور الزمن والتمادى فى الخيال نوعا من العظمة والجلال غير أشكالهم ، فتحولوا إلى أرواح مقدسة . وهكذا كانت الآلهة شخصيات عظيمة بين أفراد جيلهم ثم قدسهم أفراد الأجيال التالية .

وننتقل مع الفلاسفة الرواقين والأفلوطينيين إلى القرن الأول الميلادى فنجد بلوتارخوس (٤٦ — ١٢٠ م) يفسر الأساطير على حسب النتائج العملية ، فالربة أثينـــا — مثلا — شخصية معظمة لملكة من ملكات البشر ، ونجد آخرين يفسرون الأساطير تفسيرا سيكلوجيا ، فهى عندهم تمثل المراحل المختلفة التى يجب أن تمر بها النفس البشرية ، فالربة أثينا عندهم تمثل الفهم ، ونجد فريقا ثالثـــا يفسرونها تفسيرا طبيعيا يشير إلى الظواهر الطبيعية ، فالربة أثينا تمثل الطبقة الهوائية السميكة الواقعة بين الأرض والقمر .

فإذا عبرنا العصور الأوربية المظلمة إلى العصور الوسطى لاحظنا أن الاعتقاد السائد هو أن الآلهة والربات اليونانية تنتمى إلى أصل شيطانى ، أو أنها على الأقل ليست سوى مجموعة من الأوثان التى ألقى بها فى غياهب الجحيم فور ظهور المسيحية.

وفى القرن السادس عشر حاول فرانسيس بيكون Francis Bacon (١٥٦١ — ١٦٢٦ م) أن يفسر الأساطير تفسيرا مجازيا ، فنركسوس — مثلا — هو حب النفس وديونيزوس هو المعاناة وسفينكس SphinX أو أبو الهول وهو الوحش الغريب الذى يتخذ جسم الأسد ورأس المرأة وصاحب اللغز فى قصة « أوديب ملكـــا » هو العِلـــم .

وفى أوائل القرن التاسع عشر قام العالم الألمانى ك . ا . موللر K . O . Muller (١٧٩٧ — ١٨٤٠ م) بأول دراسة علمية حقيقية للأساطير ، فقد هاله انتشار الفوضى بين علماء الأساطير ورأى أن سببها هو أن أحدا منهم لم يتوصل إلى المنهج العلمى الصحيح ، فوضع هو هذا المنهج الذى يعتمد على مبادىء عامة ، منها أن شرح الأسطورة يجب أن يسبقه شرح لأصلها . وأن معرفة الحياة والعادات الشعبية

فى العصور السحيقة شىء ضرورى للغاية ، ثم لابد من التمييز بين الحقيقة والأسطورة التى حرّفها الشعراء والفلاسفة ، وأخيراً يجب تحليل المادة الأسطورية إلى عناصرها الأصلية .

ثم جاء ماكس موللر MaX muller بعد أن رحل من ألمانيا إلى إنجلترا وقضى وقتا طويلا فى الدراسات اللغوية المقارنة وتوصل إلى نتائج رائعة ، يطبق النتائج التى توصل إليها على الأساطير ، فإذا كانت اللغة شرطا ضروريا للتفكير وليست مجرد وسيلة جبرية للتعبير عنه ، فإن الكلمات تحتوى على مفتاح أى رموز للأفكار ، وإذا كانت اللغــة تتحدد بالأفكار فإن الأفكار أيضاً تتحدد باللغة ، وإذن فالأساطير صورة من صور الفكر تحددت تحديدا جوهريا بواسطة اللغة ، إلى حد أن من الممكن أن تسمى الأسطورة علة اللغة a disease of Language ، وهكذا فإن المصطلحات الأسطوريــة سابقة لتفكير أسطورى ، وتظهر فى تشكيل الأسطورة خصوصيات اللغة ، من كون الكلمة مذكرة أو مؤنثة أو جمادا ، ومن أن كلمات مختلفة تحمل جميعها معنى واحداً Synonymy أو أن كلمة واحدة تحمل معانى مختلفة Polyonymy ومن تعبيرات مجازية أو استعارية إلى غير ذلك ، ففهم الأسطورة يتحقق قبل كل شىء من خلال اللغة ، ولكن ليس من خلال اللغة وحدها . إذ من خلال اللغة يمكن فهم معظم الظواهر الأسطورية وليس جميعها .

ونصل إلى أ . ب . تايلور Taylor صاحب مدرسة التفسير الأنثروبولوجى : وهى مدرسة ضخمة فى تفسير الأساطير ، تعتمد على دراسة تاريخ الإنسان وأصله وعاداته الاجتماعية ومعتقداته الدينية ، وقد هاجم أتباع هذه المدرسة ، أتباع المدرسة اللغوية ، وجدّوا فى تفنيد آرائهم وإن كانوا قد اعترفوا بصحة بعض هذه الآراء ، واستخدموا بعض النتائج التى توصلوا إليها .

يرى تايلور أن يبدأ الدارس بدراسة المجتمعات المتخلفة ثم المجتمعات الأقل تخلفا ، ثم المجتمعات المتحضرة ، ومن هذه المجتمعات المتباينة عليه أن يجمع الأساطير . ويصنفها فى مجموعات ويقارن بينها ، وكلما زاد عدد تلك المجموعات كان من السهل الحصول على برهان يساهم فى تكوين علم حقيقى للأساطير . وساعد

ذلك على تتبع فعالية عملية خيالية تتكرر بتناسق واضح مع قانون فكرى . وبالتالى فبعد أن كانت قصة معينة تبدو معزولة غريبة صعبة التفسير . فإنها بعد تجميعها مع قصص أخرى فى مجموعة واحدة . تصبح قادرة على أن تأخذ مكانها بين تركيبات العقل البشرى المحددة المتناغمة . إن الحصول على مثل ذلك البرهان سوف يدفعنا إلى ترديد العبارة الآتية : « كما أن الحقيقة أغرب من الخيال ، فكذلك الأسطورة أكثر اتساقاً مع التاريخ » كما أنه سيمكننا فى النهاية من تفسير كل أنواع الأساطير بما فيها زلك التى تتصف بالخيال الشاعرى الرائع والذى يمكن أن نسميه أساطير الطبيعة Nature Myths .

ولاينكر تايلور فائدة اللغة فى تفسير الأساطير ، ويرى أن دارس الأساطير قد لا يستغنى عن اللجوء إلى التفسيرات المجازية فى بعض الأحيان . وخاصة عند تناول أساطير الطبيعة ، أو الأساطير الخيالية مثل أسطورة باندورا كما ترد عند هزيود ، أو قصة إختيار هيراكليس بين طريقى المتعة والفضيلة : ويؤدى كل ذلك فى النهاية إلى إمكان تناول الأسطورة كنتاج عضوى للجنس البشرى عامة . حيث ان الاختلافات الفردية والقومية والعنصرية من ناحية الأهمية إنما تأتى تالية لاخصائص العامة للعقل البشرى وإلى هذا كله فإن تايلور لايرفض النظرية الروحية Animistic theory التى ترى أن الروح هو المبدأ الحيوى المنظم للكون ، وأن كل شىء فى الكون له روح .

ويناصر هربرت سبنسر Herbert Spencer المدرسة الأنثروبولوجية ، ويلقى عليها مزيدا من الضوء ، فيقول : أساطير الطبيعة نوع من عبادة الأسلاف ، نشأت نتيجه لما نسميه « سوء الفهم » ويضرب مثلين لذلك .

هناك بعض القبائل التى تسمى أفرادها أسماء مأخوذة من الطبيعة مثل فجر وشمس وقمر ونور . . . . الخ فلو أن هناك أسطورة تتناول قبيلة من القبائل ، فإن أفراد القبيلة — بمرور الزمن — سوف يخلطون بين الشخص الحقيقى والظاهرة الطبيعية ، وبذلك تكتسب الظاهرة الطبيعية روحا وتصبح شخصا كالقمر أو الشمس مثلا .

وهناك بعض الأفراد يهاجرون إلى قبائل مجاورة ، فيقال عن أحدهم إنه جاء « من عند الشمس الحارقة » أو « من ضفة النهر سريع الجريان » وبمرور الزمن

يعتقد أحفاد الشخص الأول أن جدهم قد انحدر من الشمس ، وأحفاد الثانى أن جدهم قد انحدر من النهر ، ومع مرور الزمن أيضا تكتسب كل من الشمس والنهر — فى نظر القبيلة — روحا وتصبح شخصا .

ويفسر هربرت سبنسر الأساطير التى تتناول الحيوانات متبعا نفس المنهج ، فهناك قبائل تسمى أفرادها أسماء حيوانات مثل فهد ونمر ... الخ ، وبمرور الزمن ينسى أفراد القبيلة الحقيقة ، أويسيئون فهمها ، فيعتقد الأحفاد أن جدهم الأكبر كان فهداً أو نمراً .

كما يناصر المدرسة الأنثروبولوجية وليام روبرتسون سميث william Robertson Smith معتقدا أن الأسطورة تحتل مكان التعاليم فى جميع النظم الدينية القديمة ، ولكنها ليست جزءاً جوهريا من أجزاء الديانة ، إذ أنها ليست ذات وازع مقدس أو قوة ملزمة للعابدين ، فالعابد ملزم بأداء الشعيرة ، لكنه غير ملزم بتصديق ما جاء فى الأسطورة . الشعيرة ثابتة ، والأسطورة متغيرة ، ولابـد من دراسة الشعائر كى نصل إلى تفسير للأساطير ، فالشعيرة ظهرت أولا ، ثم تلتهـا فى الظهور الأسطورة .

وننتهى إلى مدرسة التحليل النفسى Psychological Analysis الذين يرون أن الأسطورة ليست إلا تعبيرا عن ميول وقوى نفسية دائمة غير معترف بها . وأول من توصل إلى هذا التفسير زعيم هـذه المدرسة سيجموند فرويد Sigmund Freud أشار فرويد إلى وجود أوجه شبه متعددة بين أساطير معروفة ورموز تظهر فى الأحلام لتمثل دوافع غريزية قوية ، لذا أطلق على هذه الدوافع أسماء شخصيات أسطورية يونانية وقد بدأ بأقوى دافـع غريزى فى الإنسان وهو عشق الإبن لأمـه وغيرته من أبيه . فسماه عقدة أوديب ، (إذ أن أوديب قتـل أباه وتزوج أمه) ثم انتقل إلى دافع مُـواز للدافع الأول ، وهو عشق البنت لأبيها وغيرتها من أمها ، فسماه عقده الكترا ، (إذ أن الكترا ساعدت أخاها فى قتل أمها كلوتيمنسترا انتقاما لأبيها أجاميمنون الذى سبق أن قتلته كلوتيمنسترا) ثم انتقل إلى دافع ثالث وهو الغرور أو الإفتتان بالنفس، الذى يدفع الإنسان إلى الإعجاب بنفسه وعشق

جمالها فيكون مصيره الموت مثل نركسوس وقد سمى ذلك الدافع النرجسية (نسبة نرجس (نركسوس) .

واحتذى يونج C. G. Jung حذو أستاذه فرويد ، ورأى أن الأساطير ترمز إلى الرغبات والانفعالات التى يشعر بها كل فرد من أفراد البشر على وجه الأرض ، والتى لا يعترف بها فالفتاة تتمنى أن تكون على أكبر درجة من الجمال ، وأن تتزوج أقوى وأغنى وأوسم رجل فى العــالم . وأنه سوف يعثر عليهــا على الرغم من إهمال أسرتها وعداوتها لها ، وعدم وجود وفاق بينها وبين الظروف المحيطة بها ، هنالك تتخيل الفتاة أنها قادرة على التخلص من متاعب تلك الرغبة ، قائلة : إن ذلك من الممكن أن يحدث فعلا كما حدث لسندريللا ، فتبدأ فى قراءة قصة سندريللا أو فى روايتها ، وبالمثل فإن الصبى يريد ألا ينافسه أحد فى حب أمه ، ويتمنى القضاء على منافسيه فى حبها — ومنهم أبوه — لذلك فإنه يشعر بالسعادة عندمــا يقرأ قصة أوديب ، ذلك الشاب المغامر الذى قتل رجلا عجوزا ، ثم اكتشف بعد ذلك أنــه أبوه . وتزوج امرأة حسناء ، ثم اكتشف أنها أمه ، إن أوديب أو ساندريللا ، وهيلين ، وأوديسيوس ، وهيراكليس ، كل هؤلاء ليسوا شخصيات تاريخية بقدر ما هم صور لرغبات وانفعالات وآمال يشعر بها كل فرد من أفراد البشر على وجه الأرض . إن الأساطير العظيمة ، بل حتى الرموز العظيمة — مثل الزهرة التى يعترى الغموض شكلها ، والأرقام الغامضة مثل رقم ٣ ورقم ٧ ورقم ١٢ — دائما وأبــدا واردة عبر تاريخ البشر وآدابه فى جميع أنحاء العالم ، قد تبرز أحيانا كخرافات ، أو كأسس لعقائد عظيمة ، أو كنماذج عامة للفن أو للشعيرة ولكنها « النماذج الأصلية للاشعور الجماعى » وبسبب هذه الشمولية ، فإن الأساطير أو الروايــات العظيمة — كما يعتقد يونج — لا يمكن بأية حال من الأحوال نسبتها إلى مؤلف معين . كما يمكن أن تعاد كتابتها مرة بعد أخرى دون أن تفقد قدرتها على التأثير أو رونقها وجمالها ، إن العمل الذى يقوم به كاتبو هذه الأساطير أو المستمعون إليها أوالقارئون لها على مدى الأجيال المتتابعة . هو عمل جماعى حقا . إنها تصور أعمق أفكــار الجنس البشرى وأحاسيسه ، لذلك فإنها — حسب المقاييس البشرية — خالدة .

الأدب اليونانى

عصور الأدب اليونانى

يقسم المؤرخون عصور الأدب اليونانى إلى خمسة عصور :

العصر الآخى (الموكينى)، ويمتد من نشأة الأدب اليونانى إلى القرن العاشرق.م ،

والعصر اليونى — الدورّى Période – Inio-Dorienne من القرن العاشر إلى السادس ق . م ، والجزء الأول منه يسمى العصر الهوميرى نسبة إلى هوميروس .

والعصر الأتيكى Période attique ، ويشمل القرنين الخامس والرابع ق . م وهو أزهى عصورهم الأدبية . ولذلك يسمى بالعصر الذهبى .

وعصر الإسكندر Période alexandrine ، ويشمل القرنين الثالث والثانى ق.م .

والعصر الرومانى période Romaine ، من القرن الأول إلى الخامس الميلادى.

والعصور الثلاثة الأولى هى التى تمثل الأدب اليونانى البحت ، والخالص من كل شائبة ، وسنقصر كلامنا عليها ، ونفرد للعصرين الأولين بابين ، وللعصر الثالث بابين كذلك ، فنى هذا العصر ظهر النثر إلى جوار الشعر ، فخصّصنا لكل منهما بابا .

الباب الأول

الأدب فى العصر الآخى (الموكينى)

الشعراء والمنشدون السابقون لهوميروس

فى منتصف الألف الثانية ق . م ، وعندما استقر اليونان حول البحر الإيجى، وبدأوا يظهرون قدراتهم الحضارية ، كانت لديهم أناشيد وتراتيل دينية تتغنى بأمجاد الآلهة ، وكانت تلقى أو تنشد فى الأعياد والمهرجانات العامة . ومع أن هذه الأشعار كانت تنشد قبل الحروب الطروادية ، فإنها تركت بصماتها على الملاحم التى نظمت لتروى أحداث هذه الحروب .

وإذا كانت قصص الآلهة أقدم من قصص البشر ، فقد قضى المألوف الملحمى أن يلعب الآلهة دوراً بارزا فى الفعل البطولى كأثر لهذه الأسبقية . وفى العصور السحيقة قبل هوميروس وُجد المغنون الذين ينشدون القصص الملحمى الذى يتحدث عن الآلهة والأبطال جميعا . وكان هؤلاء المنشدون يتفاوتون فيما بينهم فى درجات الإجادة ، وكانوا يتجولون بالعديد من أغانى البطولة التى كانوا يحفظونها على ظهر قلب ، والتى كانوا يخطبون بها آذان السامعين وأبصارهم ، فيؤثرون بها وبطريقة إلقائها وتمثيلها فى نفوسهم ووجدانهم .

ومع التزام المنشدين بالمألوف الملحمى ، وهو محصلة تراث ممتد عبر قرون طويلة، إلا أنهم كانوا يستمتعون — فيما عدا ذلك — بحرية واسعة تجعل رواياتهم تختلف فى كل مرة عن المرة السابقة ، حتى ولو كان المكان هو نفس المكان ، والجمهور هو نفس الجمهور ، إذ أن عقولهم لاتتميز بحرفية « أشرطة التسجيل » وعملهم ليس مجرد « إعادة إخراج » لنص محفوظ عن ظهر قلب ، وإنمـــا هو « إعادة خلق » لقصة معروفـــة معدة لمناسبة معينة ، ومن حق كل منشد أن يُدخل فيها من التغييرات والإضافات ما يراه متسقا مع ميول السامعين ومحركا لمشاعرهم .

وقد وصلت إلينا من هذه الأشعار والأناشيد شذرات متفرقة مرسومة على الأوانى أو منحوتة على الحجر . وعُثر عليها فى أماكن متباعدة ، مثل أثينـــا ، وإيثاكى وبيراخورا (على الخليج الكورينثى) وإيسخيا (على خليج نابلى فى جنوب غرب إيطاليا) وغيرها ، وبعض هذه الشذرات متصل بموضوع الاحتفالات الدينية ، وبعضها يتحدث على الخمر والحب والرقص والصداقة وما إلى ذلك . وبعضها يهدف إلى تخليد ذكرى هدية قدمت لهذا الإله أو لتلك الإلآهة تقربا وتكريما . وكلها منظومة فى الوزن السداسى ، ولم ينظمها شعراء محترفون ، وإذا كانت ملاحم هوميروس تمثل قمة ما وصل إليه أدب هذه الفترة ، فإنها تحمل بعض سمات التشابه مع الشذرات التى وصلت إلينا منه وتخلفها إذن يقبع ماض طويل وتراث عميق من أعمال أدبية لم تصل إلينا .

ويمكن العودة بهذه الأعمال الأدبية المفقودة إلى ما قبل عصر هوميروس ببضعة قرون . أى إلى عصر الحضارة التى سماها القدامى بالحضارة الآخية ، وتحمل الآن اسم الحضارة الموكينية ، ويطلق هوميروس على أهل ذلك العصر اسم « الآخيين » ، أو « الأرجيين » أو « الدانائيين » وكان الآخيون يتكلمون لهجة قديمـــة من اللغة (الهللينية) وصلتنا بعض الأمثلة منها على ألواح من الفخار اكتشفت فى كنوسوس بكريت ، وفى موكيناى — وفى إيبلوس بإقليم مسينيا . وفكّ طلاسم هذه اللغة الفقيه النابغة مايكل فينتريس سنة ١٩٥٣ م فقدم للحضارة الآخية خدمة جليلة .

وفى أواخر القرن الماضى تمكن هينريش شليمان من العثور على موقع طروادة ، ثم انتقل إلى جزيرة البيلوبونيز ، واكتشف أكروبوليس مدينه أرجوس وموكيناى سنة ١٨٧٦ م وتوالت بعد ذلك عدة اكتشافات أثرية أخرى فى مواقـــع متصلة بالحرب الطروادية وملاحم هوميروس ، وعثر شليمان فى مقابر الملـــوك والأمراء بموكيناى على أسلحتهم ومجوهراتهم وأقنعتهم الجنائزية المصنوعة من الذهب ، وهكذا ثبت أن هوميروس كان صادقا فى وصفه لمدينة موكيناى بأنها « غنية بالذهب » ولاشك أن الآخيين قد حصلوا على هـــذه الكنوز الضخمة من حروبهم الطويلة وفتوحاتهم الكبيرة فى مثل آسيا الصغرى موطن الممالك القديمة والغنية . ولاشك أيضا أن هذه المقابر الموكينية — وهى على شكل خلية النحل — تدل دلالة واضحة

على قوة وثراء ملوك موكيناى ، وبراعة مهندسيهم المعماريين . ورقى صناعتهم ولاسيا فى الجوهرات الذهبية والفضية والأحجار الكريمة ودقة فنهم فى السيوف والخناجر المرصّعة بالذهب والفضة ، وفى الأوانى الفخارية التى تحمل رسوما رائعة .

وفى ظل هذه الحضارة الموكينية تطورت الفنون . واحتل الشعر بينها مكانابارزا، وإن اقتصر دوره فى الغالب على مدح الأمراء الأحياء ورثاء من مات منهم .

وينظر اليونان إلى بُناة الحضارة الموكينية على أنهم أبطال ، ويعتبرون عصرهم عصر البطولة ، بل ويعتقدون أن دماء إلهية تجرى فى عروقهم . إذ حققوا من الإنجازات الحضارية ما لم يستطع أى جيل من الأجيال التالية أن يصل إلى مستواها، ثم هم يرون أنهم قد ورثوا عن هؤلاء الأجداد الأمجاد أغانى ملحمية صغيرة تقوم على أساس من الواقع. أى أن لها بذوراً تاريخية وقعت بالفعل فى الزمن السحيق، ومن المؤكد أن الذى حوّل هذه الأغانى الصغيرة إلى قصيدة كبيرة هو شاعر متأخر ولاحق للفترة التى ظهرت فيها هذه الأغانى ابتداء،ومعنى هذا أن هوميروس بالنسبة لتطور الشعر الملحمى يأتى فى نهاية المطاف لافى بدايته .

والواقع أن الإلياذة والأوديسا المنسوبتين إلى هوميروس فى القرن العاشر ق.م ؛ تدلان بما لايقبل الشك ، على أنهما قد سُبقتا بإنتاج أدبى مهّد لظهورهما . فقد بلغتا من السمو فى الألفاظ والمعانى ، والروعة فى الأساليب والتراكيب ، وحُسن التناول للحوادث التاريخية ، ما لايمكن معه أن تكونا أوّل إنتاج أدبى ظهر عند اليونان ، ولابُدّ أن تكونا قد سُبقتا منذ عصور سحيقة بإنتاج أدبى أخذ ينمو ويتطور ، حتى انتهى فيهما إلى ما انتهى إليه من نضج وكمال .

وإذا كان نمو الأدب وإزدهاره،يتبع رقى الأمة التى أنتجته وازدهار حضارتها فإن ما عثر عليه المنقبون من آثار العهود السحيقة ، وفى مختلف بلاد اليونان من حصون وقصور وقلاع وآنية من الذهب والنحاس والزجاج الملون وما إلى ذلك من المرافق ، إذا دلّ على ازدهار حضارتهم ، وترف أمرائهم ونبلائهم ، فإنه يدل أيضا على ما يمكن أن تحدثه هذه الحضارة فى العقول والقلوب والألسنة فينبثق الشعر ويزدهر الغناء .

وتحدثنا بعض الأساطير عن عدد من الشعراء ظهروا منذ أقدم العصور ، وقالوا

الشعر الغنائى الدينى فى تمجيد الآلهة وفى التقرب إليها ، وهؤلاء الشعراء كانوا من أبناء الآلهة ، أو من المقربين إلى « الموسيات » ربات الفنون ، وقد ظهروا فى القسم الشمالى من بلاد اليونان ، وخاصة بمدينتى تراس Thrace وبيريه Piérie . وقد كانت مدينة بيريه مسقط رءوس هؤلاء « الموسيات » ربات الفنون ، ومن هؤلاء الشعراء أورفى orphée ولينوس Linos وموزى Musée وبامفوس Pamphos ويومولب EumolPe وتاميريس Thamyris .

كما تحدثنا أساطير أخرى عن شعراء آخرين ظهروا فى القسم الشرقى من ابلاد اليونان ، فى جزر بحر إيجه Mer Egée وبخاصة فى جزيرتى ديلوس Délos وكريت Crète ، وأنهم كانوا يخصون الإله أبوللون بمقطوعاتهم الغنائية ويستلهمونه الشعر ، ومن أشهرهم أولين Olen وقد ظلت القطع التى تنسبها إليه الأساطير يتغنى بها فى مختلف المناسبات حتى القرن الخامس ق . م .

وإذن فأقدم إنتاج أدبى يونانى لم يظهر فى الشمال فحسب ، وإنما ظهر فى الشرق أيضا .

وهناك دلائل على أن الأدب اليونانى فى هذا العصر لم يكن مقصوراً على « الشعر الدينى » المقدس الذى يقال فى المناسبات الدينية ، وتدور موضوعاته حول تمجيد الآلهة وتفصيل أنسابهم وتعداد وظائفهم ، بل كان يشتمل كذلك على نوعين آخرين من الشعر :

الشعر الوجدانى (الليريكى Lyrique) الذى يتغنى فيه الشاعر عواطفه وأهواءه أو يرثى أحبابه وأعزاءه ، أو يستنهض همم المقاتلين ، أو يستحث عزائم العاملين أثناء مزاولتهم العمل .

والشعر الملحمى الذى يقصد إلى تمجيد أبطال اليونان الأولين ، والإشادة بشجاعتهم فى الحروب ، وتفصيل ما لهم من فضل فى تأسيس المدنية اليونانية . وأكبر شاهد على وجود هذا النوع هو الإلياذة ، التى تقدمه فى صورة ناضجة لا تدع مجالا للشك فى قدم نشأته ، وفى أنها قد وجدت بين يديها تراثا استقت عناصرها منه .

وهذه الأنواع الثلاثة من الشعر كانت فى أول أمرها ساذجة بسيطة ، خالية من المحسنات البديعية والبلاغة اللفظية وسمو الأسلوب ، قريبة من لغة الأحاديث العادية ، شأنها فى ذلك شأن آداب الأمم فى عصورها الأولى .

الباب الثانى

الأدب فى العصر اليونى ـ اللورى

وأهم ما ظهر من الأدب فى هذا العصر أربعة فنون :

الشعر الملحمى	Poésies Epiques
والشعر التعليمى	Poésies Didactiques
والشعر الغنائى أو الوجدانى	Poésies Lyriques
وبذور الشعر التراجيدى	Tragédie

وسنخصص لكل منها فصلا .

الفصل الأول

الشعر الملحمى Poésies Epiques

وفيه يُشيد الشاعر بالأبطال الأولين ، وما كانوا يمتازون به من مواهب وصفات ، وما أظهروا فى حروبهم من ضروب الشجاعة والبسالة ، وما حققوا لشعبهم من عظيم الإنتصارات . وما كان لهم من فضل على البلاد ، وفى هـذا يعْـنَى الشاعر بجمال الأسلوب وروعة العبارة وسمو الخيال والتأثير فى الوجدان ، أكثر مما يعنَى بسرد الحوادث أو تقرير الحقائق ، وإذا ألمّ بشيء من الأخلاق أو العلوم أو مسائل الإجتماع ألمّ بها عرضاً من خلال الحديث عن قصص الحروب والإشادة بأبطالها .

وقد ظهر الشعر الملحمى عند اليونيين ، وهم اليونان الذين هاجروا فى عصور قديمة إلى يونيا Ionie بآسيا الصغرى ، وأنشأوا بها عدة مدن شهيرة منها ميليت Milet ، وكيوس chios ، وساموس Samos ، وإفيز Ephèse ، وكولوفون colophone ، كما أنشأوا بعض مستعمرات ببحر إيجة Mer Egèe ، وبالبحر الأسود .

وأهم ما وصلنا من الشعر الملحمى هاتان القصيدتان المنسوبتان إلى هوميروس . وهما الإلياذة والأوديسا .

(١) هوميروس Homère

إختلف الباحثون حول هوميروس . وهل هو شخصية تاريخية أو شخصية أسطورية ، ونشأ عن هذا الخلاف أعوص مشاكل التاريخ الأدبي ، وهي المشكلة الهومرية : وقد أصرَّ بعض الباحثين على أن هذا الشاعر لم يوجد قط . فأما إسمه هوميروس Homeros ويعني إما الرهينة أو الأعمى . أو — حرفياً — الذي لا يُبصر (ho me horon) ففكرة أبدعها الخيال الأسطوري ، لشخص من نسيج الخيال أطلق عليه هذا الإسم .

وذهب البعض إلى القول بأنه كان هناك عدة شعراء . قالوا قصائد طويلة واندثرت أسماؤهم ، وتناقل اليونان أمشاجاً من هذه القصائد جيلا عن جيل ، وعُني جماعة من رواتهم وأدبائهم في القرن السادس أو الخامس ق . م بجمعها وربط أجزائها بعضها ببعض ، وبعد أن أضافوا إليها قطعاً وأبياتاً إقتضتها ضرورة الربط ، أو دعا إليها الإنتصار لمذهب أو التعصب لرأى أو لبطل من أبطالهم ، جعلوها في صورة قصيدتين (الإلياذة والأوديسا) ونسبوهما إلى هذا الشخص الأسطوري المسمى هوميروس .

وخفف بعض هؤلاء من غلوائهم وقالوا : إنه كان هناك على الأقل شاعران بهذا الإسم . أحدهما نظم الإلياذة ، والآخر نظم الأوديسا .

وقال آخرون إنهما من نظم شاعر واحد ، ولكن الإلياذة من نظم هوميروس الشاعر المتحمس ، أما الأوديسا فمن نتاج سنوات عمره الأخيرة . أى فترة النضج والتعقل ، ويمكن للمرء أن يشبه هوميروس في الأوديسا بالشمس ساعة الغروب .

وأول من أعطى المشكلة الهومرية طابعها الأكاديمي المثمر هو العلامة الألماني الأشهر ف . ١ . فولف Wolf بكتابه « مدخل إلى هوميروس » Prolegomena ad Homerum المنشور في سنة ١٧٩٥ م . وقد بلغ من قوة تأثير أبحاث فولف أن كل من جاء بعده من العلماء الرافضين لوجود هوميروس اعتُبر فولفيا ، أى من أتباع نظرية فولف . وتقوم هذه النظرية على أن ملاحم هوميروس لم تُدَوَّن في عصر نشأتها الذى لم يعرف تدوين الأدب ، كما أنها لا يمكن أن تُحفظ عن ظهر قلب ، ويتناقلها الناس شفاهة عبر الأجيال المتتالية ، لأنها تبلغ من الطول ما يعجز أى عقل بشرىّ عن حفظها .

وقد لعب فرسان المشكلة الهوميرية دوراً بارزاً في اجتذاب الكثير من الأقلام للكتابة عن هوميروس ، ولفتوا الأنظار إلى كثير من الجوانب والتفاصيل التي كانت مهملة من قبل ، والتي تتصل بالنواحي الأدبية والنحوية والعروضية . وكذا الجانب التاريخي وعلاقة هوميروس بالآثار .

وذهب آخرون إلى القول بوجود هوميروس ، ورأوا أن معظم ما في الإلياذة والأوديسا — إن لم يكن كل مافيهما — من تأليفه ، وهذا الرأي هو مذهب جميع مؤرخي العصور القديمة والوسطى. وعلى رأسهم هيرودوت ، وبلوطارخوس وشيشرون واسطرابون وأرسطو ، وعدد كبير من مؤرخي الأدب في العصور الحديثة ، على رأسهم أتفريد مُولَر Ottfried Muller ، وولكر Welker . وهؤلاء يعتبرون هوميروس المبدع الأول . وينظرون إليه على أنه ينبوع الأدب اليوناني الذي تفجر جارفاً من قمة شاهقة ، فسألت منه الأنهار مع كل زمان إلى كل مكان . ملاحمه أشعار مقدّسة توجز جوهر المعرفة الإنسانية ، وتجسد التفوق البشري. إنه مصيب دائماً ، ولا يخطىء أبداً ، ولابُدّ من البحث عن المعْنَى الخفي الذي لم نُدركه أو نستوعبه . ولا مناص في النهاية من أن يكون هو المصيب ونحن المخطئون . يقول أفلاطون : إن من تتسنى له فرصة فهم هوميروس يهيمن على أساليب الفنون جميعاً هيمنة تامة . ويعتبر هيراكليتوس أشعاره منجماً لا ينضب معينه من الورع الديني والحكمة الفلسفية . ولا يقتصر تأثيره على الشعراء . بل يتجاوزه إلى الناثرين . فقد تعلموا منه كيف يكتبون قصة طويلة بأسلوب أدبي شَيِّق ، حتى ليُمكن اعتبار تاريخ هيرودوت ملحمة نثرية .

والذين يؤمنون بوجود هوميروس يعطوننا ترجمة كاملة له . فقد وُلد حوالى القرن العاشر ق.م. وكُني بهوميروس بمعنى الرهينة لوقوعه أسيراً في حرب ، أو بمعنى الخطيب والمحدّث ، لاشتهاره بالخطابة وحديث القصص ، أو بمعنى كفيف البصر ، لأنه فقد بصره في مرحلة مّـا من حياته ، ولعل هذه الرواية جاءت من الاعتقاد الشائع لدى مختلف الشعوب بأن المنشدين الملحميين كانوا في العادة من كفيفي البصر ، يضاف إلى ذلك أن النشيد الهوميري « إلى أبوللو » بيت ١٧٢ ، يتحدث عن شاعر أعمى من جزيرة

كيوس ، ويعتقد أغلب العلماء المحدثين أن هذا البيت يتحدث عن هوميروس نفسه . وأن كيوس كانت موطنه . ولكن مُدُناً كثيرة كانت تنازع كيوس فى نسبة هوميروس إليها . وفى مقدمتها مدينة سميرنى (أزمير بتركيا) ومنها سلاميس ، ويوس ، ورودس ، وكولوفون ، وأرجوس ، وأثينا . وفى كيوس يُعقد كل عام مهرجان « الهوميريات » الذى به يحاول اليونانيون المحدثون إحياء ذكرى شاعرهم القديم العظيم هوميروس .

والذين يرون أنه نشأ بأزمير يقولون : إنه تلقى العلم فيها وأنشأ بها مدرسة لتعليم الصبيان ومعاهد للدرس والمحاضرة للكبار ، ثم زُيِّنت له الأسفار ، فغادر مدرسته ومعاهده ، وطفق يجوب البحار مستطلعاً شئون البلدان والشعوب ، ثم أصيب برمد أفقده البصر ، فقفل راجعاً إلى أزمير ، وتوفَّر فيها على نظم الشعر الملحمى حيناً من الدهر . ثم ألجأته الحاجة إلى مغادرتها ، فغادرها وأخذ يُطوِّف فى بلاد اليونان وغيرها متكسباً بشعره ، مستندياً أكُفَّ العلماء والعظماء والجمعيات والمجالس النيابية . وذاع صيته ، ونبُه شأنه ، وطاب عيشه ، فتفانى فى تجويد شعره . وبلغ به أقصى ما يُمكن أن يبلغه شعر الملاحم من نضج وكمال . وتجلت عبقريته فى فريدتيه الخالدتين : الإلياذة والأوديسا .

(٢) الإليـاذة Iliade

وقد أخذت الإلياذة اسمها من كلمة إليون Ilion عاصمة مملكة طروادة Troad التى كانت ميدانا للحرب التى تتنـاول الالياذة طرفا منها ، وتسمى هذه العاصمة أيضا طروا Troie وبرجام . Pergame .

وطروادة إحدى ممالك آسيا الصغرى ، ويقابلها فى الضفة الأوروبية بلاد اليونان ، فموقعها الجغرافى يمكنها من السيطرة على الممر الاستراتيجى ، وهو مضايق الدردنيل والبسفور البحرية التى تصل البحر الإيجى بسواحل البحر الأسود ، وكان يحكم طروادة شيخ حكيم اسمه بريام Priam ، له أبناء كثيرون ، أشهرهم اثنان :

هكتور ، وكان مثلاً أعلى فى الشجاعة والبسالة .

وباريس Paris (أو الاسكندر) وكان آية فى الجمال والوسامة .

أما بلاد اليونان فكانت مقسمة إلى دويلات كثيرة، على رأس كل منها ملك أو زعيم مستقل ، وكان لبعضهم شأن فى تاريخ البلاد . ومن أشهرهم :

أجا ممنون Agamemnon ، ملك أرجوس بشبه جزيرة البيلوبونيز ، وهو أعظم ملوك اليونان فى عصره .

ومينيلاس Ménélas ، شقيق أجا ممنون ، وزوج هيلين Hélène أجمل بنات العصر ، وهى بنت الإلـه زوس ، جاء بها سفاحا من امرأة من البشر اسمها ليدا Léda ، ولم يقترن بها مينيلاس إلا بعد أن أخذ على ملوك اليونان عهدا أن يقوموا بحمايتها ، ويردوا عنها كل عدوان .

وأشيل Achile ، ملك المرامدة ، وأشجع أبطال اليونان ، ورث الملك عن أبيه بيلى Pélée ، وتروى الأساطير أن أمة تيتيس Thétis كانت من طبقة الآلهة ، ومن فصيلة النيمف ، وأنها غمسته فى نهر بالجحيم يسمى نهر ستيكس Styx من خواص مياهه أن كل جسم تغمره لاتنفذ إليه السهام ، ولا تنال منه السيوف ، ولا تصيبه الجروح ، فاكتسبت كل أجزاء جسمه هذه المناعة ، ماعدا قدميه ، فإن أمه كانت ممسكة به منهما حين غمسته ، فلم تبتلا بماء هذا النهر .

ونستور Nestor ، ملك بيلوس Pylos وأكبر زعماء اليونان حكمة وهدوءا .

وأوديسيوس Odusseus (أو يوليس Ulysse) ملك إتاكIthaque وأكثر زعماء اليونان حيلة وأعمقهم تدبيرا .

وذات يوم أخذت الإلاهة إيريس Iris تفاحة وكتبت عليها « إلى ربة الجمال » وكان بين الحضور ثلاث من إناث الآلهة هن : هيرا زوج زوس وإلاهة الزواج ، وأثينا بنت زوس وربة الحكمة ، وأفروديت ربة الحب والجمال ، وزعمت كل واحدة منهن أنها أحق بالتفاحة ، وأنها المعنية بربة الجمال ؛ ولما لم يتفقن ، اقترحت إحداهن أن يحتكمن إلى باريس بن بريام ، فقبلتا اقتراحها ، وذهبن إلى باريس وحكمنه بينهن ، فحكم لأفروديت بالتفوق فى الجمال على هيرا وأثينا .

وعلى حين أغضب هذا الحكم هيرا وأثينا ، فحقدتا عليه وأقسمتا أن تنتقما منه ، وأن تعملا على إذلاله وإذلال أهل طروادة جميعا ، فإنه قد أرضى أفروديت ، فرأت

أن تكافىء باريس على حسن اختياره وسداد رأيه ، وآلت لتمكننه من أجمل نساء عصرها • وبرَّت بقسمها ، فأتاحت له أن يجتمع بهيلين فى غيبة زوجها ، وألقت فى قلب كل منهما حب الآخر ، وأوحت إلى هيلين أن تفر مع عشيقها إلى طروادة ، حيث يكونان هناك بمأمن من الرقباء .

وعاد مينيلاس ، ولم يجد زوجه ، وعلم أنها فرت مع باريس إلى طروادة ، فاستنفر ملوك اليونان ، واستنجزهم ما كانوا قد عاهدوه عليه يوم اقترانه بزوجه ، وما أخذوه على أنفسهم حينئذ من حمايتها ورد كل اعتداء عنها ، فنفروا جميعا بجيوش جرارة ، تولى قيادتها العامة أجا ممنو ن — ملك أرجوس وشقيق مينيلاس — ولما علم أهل طروادة بذلك استعدوا لملاقاتهم بجيش قوى تحت قيادة هيكتور بن بريام — أخى باريس — ونشبت بين الفريقين حول أسوار طروا — عاصمه طروادة — حرب عوان ، استمر لهيبها عشر سنين وانتهت بانتصار الجيش اليونانى ، وكان ذلك فى عصر سابــق لعصر هوميروس بعدة قرون .

واستمدت الإلياذة موضوعها من هذه الحرب ، ولم تعرض بالتفصيل إلا لما حدث فى المرحلة الأخيرة منها ، وهو احتدام أشيل وغضبه ، وما ترتب على هذا الاحتدام والغضب ، ولا تتناول من مــدة الحرب الــتى استغرقت عشر سنين ، إلا نحو ستة وخمسين يوما من أواخر سنتها العاشرة ، ولكن القارىء لا يكاد ينتهى منها إلا وقــد تكوَّنت لديه فكرة واضحة عن حرب طروادة ، ومجمل ما حدث فى سنيها العشر .

وتبدأ حوادث الإليــاذة بأن يأسر أجا ممنون قائد الجيوش اليونانية كريسئيس Crysies (ويعنى اسمها بنت كريسيس ، من كريس وهى المدينة التى أقيم بها معبد أبو للون) وكان أبوها كاهنا بهذا المعبد ، فيجأر بالشكوى إلى الإله الذى يخدم فى معبده ، والذى كان على أية حال يؤيد الطروادبين ، فيرسل وباء عــلى الجيوش اليونانية ، فيتفشى فيهم الطاعون ، ولم يلبث رؤساء الجيوش أن وقفوا على سببه عن طريق أحد عرَّافيهم ، فطلبوا إلى قائدهم الأعلى أن يرد الفتاة إلى أبيها ويستغفر أبوللون ، عسى أن يرفع عنهم هــذا الوباء ، ولكن كبر على أجا ممنون أن يتخلى عن أسيرته الجميلة بدون عوض . فاشترط لذلك أن ينزل له أشيــل عن أسيرة جميلة كانت قد

وقعت فى سهمه ، هى بريسئيس Briseis (أى بنت بريسيوس ، من بريسى مدينة أخرى مجاورة) ولما علم بذلك أشيل ثارت ثائرته وكاد يبطش بأجا ممنون ، لولا تدخل الإلاهة أثينا التى صدته عن ذلك ، حتى تحفظ للجيش اليونانى وحدته ، ويتم لها بذلك الوصول إلى ما تعمل من أجله وهو القضاء على طروادة وأهلها ، ولولا تدخل قواد الجيش ، وعلى رأسهم نستور الحكيم ، الذى لم يدخر وسعا فى تهدئة أشيل وتهوين الأمر عليه ، و النصح له بالنزول عن أسيرته لأجا ممنون ، وانتهى الأمر بأن أذعن أشيل لرغبتهم ساخطا . ودفع بأسيرته إلى أجا ممنون ، فرد أجا ممنون ابنة الكاهن إلى أبيها ، فقرت بذلك عين أبوللون ، ورفع الوباء عن الجيش اليونانى .

ولكن أشيل ينسحب مع جنوده المرامدة وصديقه باتروكل Patrocle من الحرب . فيحدث هذا ثغرة كبيرة فى معسكر اليونان ، وتألم الإلاهة تيتيس أم أشيل لما أصاب ابنها ، فتلجأ إلى كبير الآلهة زوس ، وتتوسل إليه أن يعمل على هزيمة اليونان ، فيعدها بذلك ، ويمد جيش طروادة بابنه أبو للون إله الشمس ، وترجح كفة الجيش الطروادى ، وكيف لا ؟ وزوس كبير الآلهة يحميه ، وأبو للون إله الشمس يقاتل فى صفوفه ، وأفروديت إلاهة الجمال تعمل على نصرته .

أما جيش اليونان فلم يكن فيه من الآلهة إلا أثينا . ومعها هيرا ملكة السماء وزوجة زوس التى خادعت زوجها وسحبته من المعركة إلى فراشها حتى لا يعين الطرواديين ، ولكن هيكتور بطل أبطال طروادة يخترق الصفوف الأمامية اليونانية ، ويصل إلى سفنهم الراسية على الشاطىء ويشرع فى إحراق إحداها ، عندئذ يسمح أشيل لأتباعه المرامدة ولصديقه العزيز باتروكل بالاشتراك فى الحرب . بل ويقلده أسلحته حتى يخدع الطرواديين ويظنون أن أشيل نفسه قد عاد للحرب ، ويحمل باتروكل على الطرواديين حملات صادقة تشتت جموعهم . وترغمهم على التقهقر ، ويطارد فلولهم حتى أسوار طروادة نفسها التى حاول أن يقتحمها وصده عنها الطرواديون باستماتة ، ووقف أبو للون نفسه دون دخوله إياها ، وحين يرى هيكتور ما حل بجيشه يتقدم الصفوف ويهجم بنفسه على باتروكل ويرديه قتيلا ويستولى على أسلحة أشيل ، ويحارب بها ، ويفل هذا من حد اليونان ويفت فى عضدهم ، فيولون مدبرين ، وهيكتور يتعقبهم .

ويُعدُّ موت باتروكل ذروة الحدث الملحمى فى «الإلياذة» . ونقطة التحول، لأن أشيل ما إن علم به حتى وقع فريسة للحزن، كما أنه لم يستطع أن يخرج للحرب مباشرة إذ كان قد أعطى أسلحته لباتروكل ، ولكن الربة أثينا تحث أشيل على اللحاق بالجيش اليونانى فى حربه الشرسة ، ويقسم ليثأرن لصديقه باتروكل ، وليقتلن هيكتور ولو كان فى حماية الآلهة .

وحين ترى تيتيس ما قرَّ عليه عزم ابنها ، تلجأ إلى الإله هيفيستوس . وتطلب إليه أن يصنع من حديده وناره لأمة حرب وأسلحة لولدها فيجيبها إلى ما طلبت .

ويخرج أشيل فى صبيحة اليوم التالى من فسطاطه ، وقد ارتدى اللأمة واشتكى الأسلحة التى أعدها له هيفيستوس، ويحمل على جيوش طروادة حملة صادقة فيلوذون بالفرار ، ويتحصنون فى معاقلهم ، ولكن قائدهم هيكتور يبرز له ، فتدور بينهما معركة حامية ، تنتهى بمقتل هيكتور ، ويعامل أشيل جثته معاملة وحشية ، إذ يربطها فى عجلته ،ويجرها فى التراب ، ويدور بها حول أسوار طيبة ، ويزمع أن يمثِّل بها ، ويلقيها غذاء للطير والسباع ، ويحرمها الطقوس الدينية ، حتى تذهب روحها إلى الدرك الأسفل من النار .

وتُقام مراسم دفن باتروكل الفخمة ، حيث تعقد المسابقات الرياضية فى الجرى والمصارعة وغيرهما. وبعد مرور اثنى عشر يوما على موت هيكتور يعود أشيل إلى قدر نسبى من الهدوء والسكينة . وبناء على نصيحة من تيتيس يسلم جثة هيكتور إلى أبيه بريام فى مقابل فدية يدفعها هذا الملك المسن الذى جاء ليلا وفق مشورة الآلهة وتأييدهم ، ليزور البطل المنتصر ويتوسل إليه أن يرحم شيخوخته ويرد إليه جثة ابنه ، وتُسلَّم إليه جثة هيكتور التى حفظتها الآلهة من العفن ، فيحملها إلى طروادة ، ويقوم لها بالطقوس الدينية المتبعة ، ويشيعها إلى مقرها الأخير تمشى وراءها الأيامى والثكالى، وفى مقدمتهن أمه هيكوب Hécube وزوجه الوفية أندروماك Andromaque يبكينه ويندُبْن ماينتظرن من صنوف الذل والهوان .

(٣) الأوديسا Odyssée

وقد سميت بهـذا الإسم نسبة إلى بطلهـا الأساسى أوديسيوس Odusseus (أو أوليس Ulysse) وتدور أحداثها حول عودته من حرب طروادة بعد انتهائها بعشر سنين، وما تعرض له أثناء عودته من أحداث وخطوب ، وما تعرضت لـه زوجه الوفية بينيلوب Pénélope وولده الصغير تيليماك Télémaque أثناء غيابه عنهما .

وهى لاتتناول من أحـداث هذه الرحلـة التى استغرقت عشر سنين إلا نحو أربعين يوما ، ولكنها تلم استطراداً بالموضوع العام الذى اقتُطعتْ منه حوادثها ، فيفهم القارىء استطراداً ما حدث فى المراحل الأخرى .

وذلك أن اليونان بعد انتصارهم فى حرب طروادة ، وأثناء عودتهم إلى بلادهم غضبت عليهم آلهة كثيرون . وكان أشدهم نقمة الإله بوزيئدون رب البحار ، فقد أثار عليهم الرياح العاصفة والأمواج العاتية ، فحطم من سفنهم ما حطم ، وأغرق منهم من أغرق ، وضلل منهم فى البحار من ضلل ، فظلوا يخبطون فى البحار خبط عشواء ، وكان أوديسيوس أشقى من ضللهم . وأحقهم بعذاب الإله بوزيئدون ، فقد اعتدى يوما على أحد أبناء هذا الإله وفقأ عينه الواحدة فحرمه نعمة البصر ، فأخذ بوزيئدون يجرعه على سطح البحر أشد ألوان العذاب ، ثم قذف به إلى جزيرة أوجيجيا Ogygia التى تملكها عذراء من عذارى «نيمف» البحار ، هى الإلاهة كاليبسو Calipso ، والتى أُلقى بحبه فى قلبها ، فاستبقته لديها سبع سنين .

وتبدأ الأوديسا بانعقاد مجلس الآلهـة فى غياب بوزيئدون وتسأل الربة أثينـا المجتمعين: لماذا يُحتجز أوديسيوس فى جزيرة منعزلة ؟ ولماذا لاتُـقدَّم إليه المساعدة لكى يعود إلى وطنه ؟ ويتفق معها زوس بأن شيئاً ما لابد من عمله على الفور رغم عداوة بوزيئدون لهذا الإنسان . ويرسل زوس وجيه الأمين هيرميس إلى كاليبسو ويأمرها بإطلاق سراحه .

وفى تلك الأثناء تقوم الربة أثينا بزيارة خاطفة لجزيرة أتيكا — موطن البطل — والتى كان قد رجع إليها كل من بقى من أهلها حيا بعد تلك الحرب ، أو عُلم أنه مات . إلا أوديسيوس الذى انقطعت أخباره عنهم ، وظن معظمهم أنـــه قد لقى حتفه ، ولكن زوجه بينيلوب لم ينقطع أملها فى عودته ، وظلت وفية لعهده ، أمينة على حرمته .

بيد أن جمالها الفاتن ، وطول غيبة زوجها قد أغريـــا بها أمراء الجزيرة ، فتنافسوا فيها ، وكلهم يريد الحُـظْـوة بها ، والفوز بالزواج منها ، على أساس أن أوديسيوس قد مات . وكانوا يحاصرونها . ويعربدون فى قصرهـــا ، ويسرفون فى الإنفـــاق على ولائمهم وملذاتهم من ممتلكات القصر . أما هى فقـــد آثرت — إتقاء لشرهم — أن تصانعهم وتخدعهم حتى يعود زوجها ، أو يشتد ساعد ابنها تليماك Télémaque وكانت تتعلل لهم بأنها يجب أولا أن تتم عمل كفن لهذا الشيخ المسن « لايرتس » Laertes والد أوديسيوس ، ولكنها كانت تنقض ليلا ما تنسجه نهـــاراً .

وتراها الربة أثينا والأمراء يحاصرونها ، فتتخفى فى صورة أجنبى ، وتنصح تليماك بأن يعقد اجتماعا عاما للشعب يطلب فيه ضرورة العمل على أن يغادر الأمراء القصر ، ولكنهم يسخرون منه . فتحبب إليه ركوب البحر للبحث عن أبيه .

ويطلب إلى أعضاء ندوة المدينة أن يجهزوه بفُـلك وزاد . فلا يستجيبون له . إذ كان بعضهم من عشاق بينيلوب ، وبعضهم ممن يسيطر عليه عشاقها .

وحينئذ تمثلت له أثينا فى صورة منتور Mentor أحد أصدقاء أبيه ، وقدمت إليه ما كان يعوزه فى سفره من فلك وزاد ، وتطوع للإبحار معه بعض شباب الجزيرة ، حيث شقوا طريقهم إلى شبه جزيرة البيلوبونيز للبحث عن أبيه .

وظل تليماك يجوب البحار حتى بلغ شاطىء بيلوس Pylos جزيرة الملك نستور Nestor فأكرم الملك وفادته ونصحه بنصائح المجرب الحكيم ، ولكنه لم يكن يعلم عن مقر أبيـــه شيئاً .

فغادر تليماك جزيرة نستور ، واستأنف السفر حتى بلغ إسبرطة ، حيث التقى بمنيلاس وزوجه هيلين ، فاحتفيا به ، ولكنهما لم يستطيعا أن ينبئاه بشيء عن مقر أبيه . لأنهما لايعلمان به .

وينقلنا هوميروس بعد ذلك إلى جزيرة كاليبسو ، حيث وصل هيرميس إليها ، ونقل إلى كاليبسو أمر زوس بإطلاق سراح أوديسيوس ، فلم يسعها الا الإذعان لأمر كبير الآلهــة ، ولكنها أخذت تستعطف أوديسيوس وتبثه حبها ، وتذرف الدموع الغزار بين يديه ، وتعرض عليه أن يبقى معها حرا طليقــا على أن تمنحه الخلود . ولكنه لم يرق لحالها ولم يستجب لإغرائها ، وصمم على مغادرة جزيرتها ، فجمع ألواحا ودسرا ، وصنع منها فلكا صغيرا تمخر به عباب البحر.

ولم يكد عدوه اللدود بوزيئدون إله البحار يحس به على سطـح مملكته حتى ثارت ثائرته ، وأرسل عليه عاصفة هوجاء حطمت فلكه ، وقذفت به على ساحل جزيرة أسطورية هي جزيرة سكيريا Scheria يسكنها شعب مرح يرفل فى بحبوحة السعادة ورغد العيش ، يطلق على أفراده اسم الفيئاسيين Phéaciens ويحكمها شيخ حكيم أسمه ألسينوس Alcinous وله فتاة حاذقة كريمة اسمها نوزيكا Nausica وكانت الفتاة على الساحل بصحبة جواريها حين قذفت الأمواج بأوديسيوس ، فأخذته وآوته وقدمته إلى أبيها ، فأكرم وفادته ، وأغدق عليه وعلى رفاقه الهدايــا ، وأعطى لحكاياته أذنا صاغية . . .

ووصف له أوديسيوس كيف هبط ببلاد أكلة اللوتس الذين قدموا إلى بعض رفاقه بعضا من ثمرها ، فنسوا الأهل والوطن وأحبوا البقاء بها ، ولكنه أرغمهم على الصعود إلى السفينــة ، وأبحر بهــم إلى بــلاد الكيكلوبيس ، وهم مخلوقات وحشية تتوسط وجــه كل واحد منهم عين واحدة مستديرة . وأحدهم ابن للإله بوزيئدون إله البحار ، اسمه بوليفيموس أخذهم أسرى لديـه ، وكان يتغذى على اثنين منهم فى كل وجبة . وقد استطاعوا فى النهايــة أن يتخلصوا منه إذ فقأوا عينه الوحيدة بينما كان يغط فى نوم عميق ، وفروا هاربين من كهفه ، وتخفوا وسط أغنامه . وعند مغادرتهم المكان أحس بوليفيموس بحركة أوديسيوس فسأله عن اسمه

فقال ساخرًا Oudeis (وتعنى الكلمة الاغريقية لا أحد ، وتتشابه صوتيا مع اسم أوديسيوس Odysseus) ويضرع بوليفيموس إلى أبيـه الاله بوزيدون بألا يعيد أوديسيوس إلى وطنه إلا على سفينة غير سفينته ، وبعد أن يفقد كل رفاقه ؟

وبعد ذلك وصل أوديسيوس إلى جزيرة الرجل الذى يتحكم فى الرياح ، واسمه أيولوس ، فأكرم وفادته ، وعند رحيله أهداه جوالا معبأ بكل أنواع الرياح ماعدا الريح التى تقوده لوطنه . وأبحر فى رياح مواتية ، واقترب من وطنه . وغلبه النوم فنام ، وظن رفاقه أن بالجوال كنزا ففتحوه ، فانفلتت الرياح على الفور وأحدثت عاصفة هوجاء قذفت بهم إلى أرض الإيسترجونيين وهم عمالقة يتغذون على لحم البشر حيث أغرقوا بعض السفن التى تقل رفاقه وأكلوهم .

ووصل أوديسيوس ومن بقى معه بسفنهم إلى أرض آياى Aiaie حيث تعيش الربة كيركى بنت الشمس وهى ساحرة بارعة استطاعت أن تحول نصف رفاق أوديسيوس إلى خنازير بسحرها، ولكنه كان يحتفظ بعشب سحرى زوده به هيرميس حين قابله ، فاستطاع بهذا النبات أن يأسرها ويجعلها عشيقته ويحملها على أن تستعيد رفاقه إلى طبيعتهم البشرية . وبعد عام طلب إليها أن تأذن له بالرحيل ، فأمرته أن يعبر أولا نهر الأوسيانوس الذى يحيط بالأرض ليصل إلى دار الموتى ويستشير شبح العراف الطيبى تريسياس ، وأطلعه تريسياس على ما يجرى فى جزيرته وعلى ما ينتظره فى مستقبل أيامه ، كما رأى مشاهد وأعاجيب من العالم الآخر وعاد إلى كيركى وزودته بنصائحها قبل أن يعود إلى وطنه .

ومضى بسفنه ، ولم يكد يقترب من السيرينات حتى جذب صوتهن الساحر بعض رفاقه ، وشدهم إليه شدا ، حتى إذا وصلوا إليهن تحطمت سفنهم وغرقوا ، وحينئذ تذكر نصيحة كيركى . فوضع فى آذان بقية رفاقه قطعاً من الشمع حتى لا يسمعوا صوت السيرينات ، وربط نفسه فى صارى الفلك بحبال قوية ، ووصل إلى المضايق الخطرة الواقعة بين سكيللا وبين الدوامة القاتلة خاريبديس واستطاع أن يجتازها بعد أن فقد ستة من رفاقه . ثم وصل إلى جزيرة ثريناكى Thrinakie حيث مراعى قطعان الإله هيليوس المقدسة ، ونهى رفاقه عن الإقتراب منها ، ولكنهم خالفوا حظره

بسبب جوعهم ونفاد مؤنهم ، فطلب هيليوس من كبير الآلهة زوس أن ينزل بهم العقاب ، فأرسل عليهم زوس عاصفة قويـــة وصاعقة مدمرة ، لم ينج منهـــا إلا أوديسيوس وحده ، ثم انتهى بعد مخاطر جمة إلى جزيرة كاليبسو حيث مكث بها سبع سنين .

تلك كانت الحكايات التى قصها أوديسيوس على الملك ألسينوس ، وقد جلس إليه يستمع إلى حكاياته ومغامراته . ورق الملك لحاله . وعمل على تذليل عودتـه إلى أهله ووطنه فأعد له سفينة وزاداً . وقد واتاه الحظ فى هـذه المرة ، وعصمه القضاء من غضب الإله بوزيلدون ، فبلغ بلاده بسلام . وهناك ظهرت له حاميته الإلاهة أثينا ، ولمسته بيدها فبدلته بصورته صورة شحاذ بائس ، ليخفى أمره على أعدائه ، فتتاح له سبل كثيرة للانتقام منهم .

وسار أوديسيوس متخفيا حتى بلغ منزل إيميوس Eumée الذى كان راعيا لدوابه واستضافه فرحب به ، على عادتهم مع الفقراء والمساكين ، واستطاع أن يقف منه عَرَضا على تفاصيل ما حدث لزوجه وابنه فى أثناء غيابه عنهما .

وفى نفس الوقت هبطت أثينـا على تليماك وهو بإسبرطـة عند مينيلاس وهيلين وأمرته أن يعود فورا إلى أرض الوطن ، وحذرته من كمين أعده له الأمراء . ونصحته بتغيير مسار العودة . وعاد تليماك إلى وطـــنه بعد أن غيّر طريق عودته، وقادته أثينا إلى منزل هذا الراعى حيث التقى بأبيه وتعارفوا واتفقا على كتمان الأمر عن جميـــع الناس ، ودبرا حيلة للقضاء على الأمراء ، فاصطحبا معهما الراعى إلى القصر الملكى .

ودخل أوديسيوس قصره متنكرا فكان كلبه أرجوس Argos أول من تعرف عليه ، ومات عند قدميه . ثم تعرفت عليه خادمته العجوز « يوريكلى » Euryclée فقد عرفته بعلامة فى قدمه تبينتها وهى تغسلها له ، ولكنه طلب إليها كتمان أمره ، فعاهدته على ذلك .

واتفق حينئذ أن قدم فيلوتيوس Fhiloetios أحد رعاة دوابه يقود بعض الأنعام لذبحها فى وليمة عزم القصر على إقامتها ، فكان له حديث طويل مع أوديسيوس

بصدد الأمراء وحال المدينة وطول غيبة مليكها ، وحينئذ رأى أوديسيوس أن الفرصة سانحة للكشف عن أمره لراعييه الأمينين ، فعرّفهما بنفسه ، وطاب إليهما الكتمان .

وقد أوعزت الإلاهة أثينا إلى بينيلوب أن تعرض على الأمراء قوس زوجها ، وتعد بالزواج من يستطيع الرمى به وإرسال قذيفته من خلال اثنتى عشرة حلقة ، إلى هدف منصوب ، فعجزوا جميعا حتى عن مجرد تسديده . وحيئذ تقدم أوديسيوس الذى لا يزال متنكرا كشحاذ ، وطلب أن يجرب قوّته وحظه ، واعترض الأمراء هازئين به ، ولكنه تسلم القوس بناء على رغبة بينيلوب التى قالت : إنهـا ستمنحه بعض الملابس الجديدة إذا نجح . وجعلها تليماك تنسحب من قاعة الرجال . وأطلق أوديسيوس السهم بنجاح ، ومن أول محاولـة ، وهو جالس دون أن ينهض على قدميه ، ثم قال إنه سيجرب مرة أخرى ، ولكنه أطلق السهم ليصيب عنق أنتينووس زعيم الأمراء ، ثم كشف النقاب عن نفسه . ورفض التفاوض ، وظل يصرعهم واحدا بعد الآخر حتى أبادهم جميعا ، وتم شنق الخادمات اللائى كن يضاجعن الأمراء . وطُهرت القاعة بحرق البخور ، ومضت الخادمـة العجوز يوريكلى إلى بينيلوب وأخبرتها بما حدث ، فقالت بينيلوب : إنه قد يكون إلها متنكراً جاء ليخلصها من شرور الأمراء . ولكن أوديسيوس باح بسر لايعرفـه سواه وزوجه بينيلوب وإحدى الوصيفات ، وعندئـذ اقتنعت بينيلوب بأنـه هو فعلا زوجها العائـد بعد عشرين عاما ، فتعانقا طويلا ، وبث كل منهما للآخر شوقه وشكواه ، ثم مضيا معا إلى غرفة نومهما .

وفى الصباح خرج أوديسيوس إلى الحقل حيث يعيش أبوه لايرت Laiert ، وتفاهما معا فى كيفية علاج الموقف المتأزم بعد أن ذاع فى الجزيرة أمر مقتل الأمراء وأخذ ذووهم يطالبون بالانتقام ، وتزعمهم والد أنتينووس ، وذهب لا يرت بعد أن عادت إليه قوة الشباب . وقاد المعركة ضد المطالبين بالإنتقام ، وانتصر عليهم ، وقتل والد أنتينووس ، وأنهى زوس المعركة بصاعقته ، وظهرت أثينا متخفية فى هيئة مينتور ، وأبرمت اتفاق صلح وسلام بين أهل الجزيرة وبذلك تنتهى الأوديسا .

(٤) نظرات فى الإلياذة والأوديسا

وقد وصلت الإلياذة والأوديسا إلى اليونان من نفس الطريق التى وصل منها الشعر الجاهلى إلى العرب ، طريق الرواية والحفظ ، وساعد على بقائهما وعناية الناس بهما مايمتازان به من جمال الأسلوب وشدة الأسْر ، وأنهما تمجدان أبطال اليونان الأولين ، وتشيد بانتصارات الجيش اليونانى . هذا إلى أن محترفى الإنشاد قد وجدوا فيهما مورد رزق لا ينضب ، فكانوا يغدون على المجتمعات فى أثينا وغيرها من المدن اليونانية ، ينشدون الناس ما حفظوه منهما ، فيأسرون ألبابهم ، ويأخذون عطاءهم ، ويظهر أن العلماء والرواة وأولى الأمر قد عنوا بجمع منظومات هوميروس منذ أواسط القرن السابع ق . م . ثم عنى بيزيستراتوس Pisistrate طاغية أثينا فى القرن السادس ق . م ، بجمع منظومات هوميروس وترتيبها وضبطها ، فقد عثر فى بعض مخطوطات روما على أسماء أربعة من الشعراء استعان بهم بيزيستراتوس فى جمع منظومات هوميروس وضبطها ، ثم ظهرت بعد بيزيستراتوس نسخ كثيرة منها النسخة التى كتبها أوسطو للإسكندر ، وعمد علماء الاسكندرية إلى ما وصلهم من هذه المجموعات ، فقابلوا بعضها ببعض ، واستخلصوا منها النسخة التى تتداولها الأيدى إلى هذا العصر . وقد عُنوا بتبويبها ، فقسموا كلا من الإلياذة والأوديسا إلى أربع وعشرين أنشودة على عدد حروف الهجاء . .

ومع ذلك فشأن شعر هوميروس شأن غيره من الشعر الذى يتناقله الرواة معتمدين فى روايته على ذاكرتهم ، لا بد أن يعرض له بعض التحريف والتغيير ، ويضاف إليه ما ليس منه ، ويسقط منه بعض أجزائه ، وقد ثبت هذا لدى بعض الباحثين ، إذ وجدوا أن بعض الأبيات قد سقطت ، فجاء القصص بلونها ناقصا مبتورا ، وأن بعض الأبيات الأخرى قد لعبت بها أيدى النساخ ، فحرّفت فيها وبدّلت ، أو وضعتها فى غير موضعها ، ولكنهم يرون مع هذا أن شعر هوميروس لا يزال فى مجموعه متماسك الأجزاء ، مسلسل الحوادث ، محتفظا بوحدته وصدقه فى الأسلوب والمعانى وسرد الحوادث ووصف الأبطال والأمكنة ، فلا يظهر فى فقرة من فقراته بطل أو مكان أو بلد بغير الصورة التى رُسمت له فى الفقرات الأخرى ، مما يدل على فساد

الرأى الوولنى ، وصحة مذهب القائلين بوحدتها . وفى طبعة اكسفورد تبلغ الإلياذة ١٥٫٦٩٣ بيتا ، والأوديسا ١٢٫١١٠ بيتا .

وقد صاغ هوميروس ملحمتيه فى الوزن السداسى، وقدورثه فيما يبدو من المورث الملحمى ؛ وقد مر قبله بفترة طويلة من التطوير والصقل حتى بلغ هذه الدرجة الكبيرة من القوة والعظمة عندما انتهى إليه وهو وزن يقوم على التقسيم الكمى لا الكيفى ، أى لا يقوم على النبرة ، وإنما على ما للحروف والمقاطع من طول وقصر ، ومقدار الزمن الذى يأخذه كل منها فى النطق ، وهو نظام أكثر طواعية واستقرارا من النظام القائم على النبرة والذى يقوم عليه الشعر الأوربى المعاصر . لأنه يقوم على مبدأ ثابت وهو أن الحرف أو المقطع الطويل يأخذ من الوقت ضعف ما يأخذه الحرف أو المقطع القصير عند النطق ، وكل مقطع يأخذ حجمه الطبيعى ، كما تحسب الحروف المتحركة والساكنة فى العملية كلها ، وقد اصطلحوا على أن هذه الحروف طويلة وتلك قصيرة ، وتركوا بعضها محايدا أى يمكن أن يكون طويلا أو قصيرا .

والوزن السداسى مكون من ست أقدام ، وكل قدم مكونة من « داكتيلون » أى مقطع طويل متبوع بآخرين قصيرين (– U U) فالعلامة (—) تعنى حرفا أو مقطعا طويلا . والعلامة (U) تعنى حرفا أو مقطعا قصيرا ، وهى علامات متداولة ومعروفة فى علم العروض اليونانى . ويمكن أن يستبدل بأى قدم من الأقدام الست (الداكتيلون) قدم سبوندية أى مقطعان طويلان (— —) بل إن القدم السادسة يمكن أن تقتصر على مقطعين أحدهما طويل والآخر قصير (– U) .

والوزن السداسى القائم على التقسيم الكمى من اختراع اليونان ، وقد ساعدت طبيعة اللغة اليونانية نفسها على هذا الوزن ، فهى تتناسب معه تماما ، ولم يصطنع هوميروس لغة الحديث اليومى فى عصره ، وإنما اصطنع لغة الإبداع الفنى للإنشاد الملحمى الشفوى ، والتى ورثها من قرون طويلة من التقنية الملحمية الشفوية المألوفة والمتعارف عليها ، بعد فترات طويلة من الإنشاد والصقل ، ذلك أن الذين اخترعوا الوزن السداسى اخترعوا معه صيغا لغوية مناسبة له ، وأصبحت نموذجا ليس من السهل تجاوزه ، ولأن ما يصلح للشعر الملحمى الجيد من مفردات وأساليب يصلح للشعر الغنائى وغيره ، فقد قلد شعراء اليونان هوميروس بصفة مستمرة ،

(٥) الهوميريون

وهم جماعة من الشعراء انتسبوا إلى هوميروس ، وادعوا أنهم من نسله ، وحملوا لقب أبناء هوميروس Homeridai ونظموا نوعين من الأغانى الملحمية ، رغبوا فى النوع الأول أن يكملوا قصة الإلياذة والأوديسا ، فنظموا ما يسمى الحلقة الملحمية epikos kyklos وهى ثلاثة عشرة قصيدة لم تصلنا منها سوى عناوينها وشذرات متفرقة منها ، ومن عناوين هذه القصائد : معركة التياتن Titanomachia والإلياذة الصغيرة Mikra Ilias وتدمير طروادة (إليون) Ilion Persis وقصة أوديب Oidipodeia وقصة طيبة Thebais ،

وقد انتقد أرسطو شعراء الحلقة الملحمية لفقرهم فى الإبداع وعجزهم عن إتقان البنية الشعرية لقصائدهم . وقد وقفوا مع من تلاهم من شعراء الملاحم فى خط المنحنى الطويل الذى سار فيه الشعر الملحمى بعد هوميروس .

وفى النوع الثانى رغبوا فى أن يستهلوا شعر الملاحم بمقدمات ملحمية تسمى : « الأناشيد الهوميرية » ، فكان المنشد إذا أراد أن يتغنى بالإلياذة أو الأوديسا أو بحلقة ملحمية قدم بين يديها بقصيدة من عنده يستهل بها إنشاده . وقد يكتفى باستهلال قصير لا يتجاوز بضعة أبيات . وقد يصل استهلاله إلى عدة مئات من الأبيات ، وقد وصلنا ثلاثة وثلاثون نشيدا هوميريا ، تحتل ستة أناشيد منها مكانة خاصة لأهميتها الكبرى . وهذه الأناشيد هى : نشيد رقم ٢ « إلى ديميتر » ورقم ٣ « إلى أبوللو » ورقم ٤ « إلى هيرميس » ورقم ٥ « إلى أفروديت » ورقم ٧ « إلى ديونيزوس » ورقم ٩ « إلى بان » .

وفى نهاية النشيد يقول المنشد للإله الذى يخاطبه : « ولكنى سأذكرك ، وسأذكر أغنية أخرى » ويعنى المقطوعة الملحمية التى سينشدها بعد هذا الاستهلال من هوميروس أو غيره .

وفى نشيد إلى هيليوس (الشمس) يختم الشاعر النشيد قائلا (سطور ١٧ — ١٩) « وداعا أيها السيد ، امنحنى بلا حدود ما يدخل البهجة على القلب ، لقد بدأت بمديحك ، والآن سوف أنتقل إلى تكريم جماعة من البشر هم أنصاف آلهة ، أظهرت الموسيات مآثرهم لأفراد البشر » .

والنشيد « إلى ديميتير » يسرد بالتفصيل كيف اختطف هاديس برسيفونا . وكيف حزنت أمها ديميتير على فراقها ، ثم كيف اعتكفت فى قرية إليوسيس ، وانتقمت من الآلهة والبشر بأن نشرت القحط وقضت على الزرع ، وفى النهاية اضطر زوس إلى إعادة الإبنة المخطوفة إلى أمها . لكن الابنة لم تعد فانية بعد ، فقد تجرعت كأس الخلود . أصبحت ربة من ربات العالم السفلى لفترة معينة من كل عام ؛ وذلك بعد محاولات متكررة من الإله هاديس . وفى ذكرى اختطاف برسيفونا تحيى الربة ديميتير فى كل عام أعياد إليوسيس الصوفية .

والنشيد « إلى أفروديت » يحكى قصة إينياس بن أنخيسيس من أفروديت نفسها ، وهى الأسطورة التى قامت عليها إينياذة فرجيليوس أمير الشعر اللاتينى . فلها علاقة بقصة تأسيس روما نفسها ، وقد ترجم شيللى هذا النشيد إلى الإنجليزية فاكتسب شهرة واسعة فى الأدب الانجليزى والعالمى .

ويقدم شعراء الأناشيد الهوميرية الآلهة وهم يرقصون فوق الأوليمبوس ، وقد لف كل إله ذراعيه حول خصر إلاهة ما وراح أبو للو يعزف على قيثارته ، وتشترك معهم ربة الانسجام Harmonia وربة الشباب .

وفى الجزء الأول من النشيد الهوميرى « إلى أبوللو » الذى كان ينشد فى جزيرة ديلوس ، وبعد أن يحدثنا المنشد عن الجماعة المرحة التى تجمعت فوق هذه الجزيرة التى ولد عليها الإله أبوللو ، يطلب من مستمعيه أن يتذكروه ، وأن يتذكروا أغنيته ، فيقول : (أبيات ١٦٥ — ١٧٥) .

« أى أبوللو وأرتميس » ، ألتمس منكما الرحمة والعطف . وبعد ، فوداعا لكم جميعا ، ولتتذكرنَنى من الآن فصاعدا أيتها العذارى ، عندما يأتيكن هنا فى مقبل الأيام أى فرد من أبناء الأرض الكادحين ليسألكن :

ياعذارى أخبرنى أى رجل هو بحق أعذب المنشدين

جاءكنّ هنا ، وبعث فى نفوسكن السرور أكثر من غيره؟

فلتجب كل واحدة منكن ، ولتكن إجابتكن الجماعية :

هناك رجل أعمى يعيش فى كيوس الصخرية

أغانيه هى أجمـل الأغانى جميعا الآن ومستقبلا
وسأحمل صيتك معى طيِّبـا أينما رحلت متجوِّلا
فى الأرض عـبر المـدن وبين كل ساكنيهـا .
وسيصدقنى الناس أجمعون لأن الحق هو ما أخبرهم به .

وقد كان القدامى يعتقدون أن هـذا النشيد من نظم هوميروس نفسه ، ولعل هذا الاعتقاد هو المسئول عن خلق أسطورة أن هوميروس كان أعمى .

الفصل الثانى

الشعـــر التعليمى

Poésies Didactiques

وفيه يعمد الشاعر إلى تعليم الناس شئون دينهم ودنياهم ، وإلى تزويدهم بمختلف الحقائق التى تتصل بثلاثة أنواع رئيسية ، أحدها : مسائل الأخلاق وما يتصل بها من تمييز الخير والشر ، وتعريف الفضيلة والرذيلة ، وبيان الحلال والحرام ، وبث النصائح والعظات وتفصيل ما يجب على المرء نحو ربه وعشيرته ووطنه . والثانى : مسائل العلوم والفنون والصناعات ، فيقرر الحقائق ، ويضع القواعـــد ويستنبط القوانين . والثالث : مسائل التاريخ السماوى والأرضى . فيشرح تاريخ الآلهـة أو الأناسى ، ويقرر الأنساب ، ويبين الأصول والفروع ، ويسلسل الحوادث ويرتبها ، ويبحث عن العلل والأسباب وبربط المقدمات بالنتائج ، إلى غير ذلك من الأمور التى يرى أن من الواجب على الفرد أن يلم بها وأن تعيها ذاكرته .

ومع أن الشعر التعليمى حقائق وتاريخ ، يعمد إلى التعليم أكثر مما يعمد إلى بلاغة القول وسحر البيان ، إلا أنه لا يخلو من جمال الأسلوب ، وحسن العبارة ، وروعة الخيال ، إذ لو كان عاريا من ذلك ما صح أن يكون شعرا .

وإذا كان الشعر الملحمى قد ظهر عند اليونيين وهم الشعوب اليونانية التى هاجرت إلى آسيا الصغرى ، وعند سكان الجزر ، فإن الشعر التعليمى قد ظهر فى قلب إغريقيا الأوربية نفسها ، وفى شبه جزيرة البيلوبونيز ، عند اللوكريين Locriens والدوريين Doriens والبيؤسيين Béotiens سكان مقاطعة بيؤسيا Béotie الواقعة على الساحل الغربى لبحر الأرخبيل ، وكانت عاصمتها طيبة Thébe التى ظلت منافسة لإسبرطة وأثينا عهدا طويلا ، وتحقق لها السلطان والغلبة على كل بلاد اليونان فى مرحلة قصيرة قبيل غزو الإسكندر لبلاد اليونان .

غير أن معظم ما وصلنا من هذا الشعر مؤلف بلغه يونية ويرجع هذا إلى أن شعراء هذا الفن قد اتبعوا فى نظمه الطريقة العروضية التى نظم بها الشعراء اليونيون قصائد

شعرهم الملحمى كالإلياذة والأوديسا . وقد كانت هذه الطريقة مرتبطة ارتباطا وثيقا باللغة اليونية وعباراتها وأساليبها ، ولا يظهر جمالها وأثرها الموسيقى إلا مع هذه اللغة، فآثر الشعراء التعليميون — وقد ساروا عليها فى نظمهم — أن يؤلفوا شعرهم باللغة التى تلائمها ، وهى اللغة اليونية ، ومن ثم استعملوا الوزن السداسى والأسلوب اللغوى الملحمى .

وقد حفظت الآثار لنا من هذا الفن بعض قصائد وأسماء قصائد لعدة شعراء ، أشهرهم قصيدتان تنسبان إلى هزيود Hésiode ، إحداهما قصيدة « الأعمال والأيام » التى تمثل النوعين الأولين من هذا الفن (مسائل الأخلاق ومسائل العلوم والفنون) والثانية قصيدة « التيوجونيا La Théogonia » أو « أنساب الآلهة » التى تمثل القسم الثالث (مسائل التاريخ السماوى والأرضى) .

١ — هــزيود
Hésiode

نشأ هزيود فى عصر لاحق لعصر هوميروس . وأقرب الآراء إلى الصواب ، وأكثرها اتفاقا مع ما تنبئ عنه لغة هزيود وأساليبه ، وما تدل عليه شواهد أخرى كثيرة ، أنه نشأ فى القرن الثامن ق . م . أما تاريخ حياته فهو نفسه يحدثنا عن بعض منه فى قصيدته « الأعمال والأيام » فأبوه ديوس كان يقطن بلدة كيمى Kymé من مقاطعة إؤليد Eolide بآسيا الصغرى (وهذه المقاطعة ، واقعة بين يونيا Ionie وطروادة Troid وكان يقطنها الأوليون Eoliens ويتألفون من العشائر التى وصلت من شبه جزيرة البيلوبونيز بعد أن احتلها الدوريون) . وكان يشتغل بالتجارة فى البحار ، ولم يواته الحظ فى مهنته هذه ، فهاجر من اؤليد إلى إغريقيا الأوربية ، ونزل فى قرية من مقاطعة بيؤسيا Béotie ، هى قرية أسكرا Ascra الواقعة على سفح جبل هيليكون Helicon ، حيث اشترى مزرعة وقف حياته على فلاحتها واستغلالها، وفى هذه القرية نشأ ولداه هزيود Hésiode وبيرسيس Percès .

ونشأ هزيود كما ينشأ أبناء الفلاحين ، فقد أخذه أبوه منذ طفولته بأعمال الحقل وشئون الريف . ولكن هذه الأعمال فيما يظهر لم تستغرق كل أوقاته ولم تستأثر بكل مظاهر نشاطه ، فوقف قسطا غير يسير من وقته وجهده على العلم والثقافة ، والإلمام

بمختلف المعارف السائدة فى عصره . وبفضل هذه المعارف وما كان يتمتع به من ملكة أدبية وحس مرهف وذاكرة قوية وبيان ساحر ، وما أتاحته له صروف دهره من تجارب وعظات ، نشأ فنه الجديد مستوفيا كل عناصر الجودة والشموخ .

وأكبر حدث وقع له بعد وفاة أبيه ، وكان له أبلغ الأثر فى تفتق عبقريته عن فنه الجديد هو اقتسام المزرعة بينه وبين أخيه بيرسيس ، فقد استأثر أخوه بها ، فرفع أمره إلى القضاء — وكان القضاة فى ذلك العهد يتألفون من رؤساء القرى ، وكانوا يسمون الملوك — ولكن القضاة كانوا فاسدين ، فلم ينصفوه ووقفوا فى صف أخيه بعد أن تقاضوا منه رشوة . فأثار هذا غضبه ، وقوىّ من كراهيته للظلم ومقته لسوء الخلق . وأنفق شقيقه كل ما ورثه على ملذاته ، وبدأ يذوق مُرَّ السؤال ، أما هو فاستأنف حياته مزارعا بسيطا ، حتى قابلته الموسيات — ربات الفنون والآداب التسع — فوق جبل هيليكون ، حيث كان يرعى أغنامه، ورأين أن يعوضنه عما ذاق من مر الفاقه، وقسوة الظلم والفساد ، وأن يكافئنه على صبره وكفاحه ، فمنحنه القدرة على نظم الشعر . ولقَّنَّه أنشودة رائعة .

وانطلق لسانه بالحكم والعظات ، وقواعد الأخلاق التى تنفر من الظلم والاعتداء على حقوق الناس ، وتقرر أن كل مال حرام يفضى بصاحبه إلى الوبال ، ويكون مصيره الزوال .

وهكذا كان ظلم أخيه له ، وعدم إنصاف القضاة إياه ، مثاراً لإطلاق لسانه ، وشحذ موهبته ، وتقوية خياله ، وتوجيه فنه نحو الإرشاد والتعليم ، وتمخض هذا كله عن فن جديد نشأ مستكملا جميع أسباب القوة والخلود ، وهو « الشعر التعليمى » .

ولم يرد فيما يتصل بوفاته شيء يقينى ، ولكن ورد فى بعض الأقاصيص أن كمينا من أعدائه تربص له فى الطريق وقتله غيلة ، ثم رمى بجثته فى البحر ، فتقاذفتها الأمواج حتى ألقت بها على الساحل ، وأنه دفن ببلدة أونوى OEnoé بقرب نوباكت Naupacte بمقاطعة لوكريدا ، ثم نقلت رفاقه إلى بلدة أركومين Orchomène بمقاطعة بيؤسيا .

(٢) الأعمال والأيام

تتألف قصيدة « الأعمال والأيام » ، من أكثر من ثمانمائة بيت ، وتنقسم إلى ثلاثة أقسام :

ينتظم القسم الأول منها ٣٨٠ بيتا من صدر القصيدة ويظهر أنه كان فى الأصل قصيدة مستقلة، وأن هيزيود قد نظمها متأثرا بالنزاع الذى كان بينه وبين أخيه برسيس حول المزرعة التى تركها أبوهما لهما، واستأثر أخوه بها، ولم ينصفه القضاة الفاسدون، لأن أخاه كان قد رشاهم ، وهو فى هذا القسم يشير من خلال قصص مجازية إلى الصراعات والخصومات ، ثم يشرح كيف نشأ بين البشر الشر والحاجة إلى العمل ، وذلك من خلال أسطورة باندورا (الأبيات ٤٢ — ١٠٥) .

فقد كان الرجل يعيش على الأرض فى سلام ، بعد أن خلقه الإله بروميثيه ، وصوره فى صورة الإله ، وجعله يمشى قائما على رجلين ، ومنحه العقل والتفكير ، ولكن الإله زوس حين أراد أن ينتقم من بروميثيه ومخلوقه الرجل ، كلف الإله هيفيستوس بأن يخلق المرأة ، وأن يمنحها كل إله وكل ربة صفة من صفاته أو نعمة من نعمه حتى تكون فتنة للرجل ، ثم بعث بها إليه مع هيرميس ، وبعث معها بصندوق فاخر ملأه بهداياه ، ومع أن هيرميس نصحهما بأنهما إذا أرادا أن يعيشا فى سعادة وسلام ، فلا يحاولا فتح الصندوق أو معرفة ما فيه ، إلا أن باندورا ، وقد غلبها حب الاستطلاع لم تستطع أن تقاوم فتح الصندوق . وكان الإله زوس قد سجن فيه جميع الأوبئة والشرور والآلام ، وسجن معها الأمل ، وهذا ما قد يعنى أنه الدواء لكل مآسى الإنسانية ، وشرعت باندورا تبعثر هداياها أى شرورها فى أركان الدنيا ، وامتلأت الحياة بالرذائل والرزايا ، بيد أن باندورا كانت حريصة على أن تضع الغطاء فوق الصندوق قبل أن يتمكن الأمل من الإفلات والخروج للناس المتلهفين على أية بارقة أمل. ولذا فإن آلاف الشرور تهيم بين الناس وتملأ دروب الحياة فى البر والبحر ، ولايزال الأمل محبوسا فى الصندوق . ومن ثم فالحالة البشرية مستعصية وميئوس من شفائها ، بيد أن هيزيود يقدم حلا إيجابيا وحيدا ، إنه العمل، الأمل الوحيد الباقى للإنسان لكى يتحمل الحياة ، وأفضل الأعمال هى الزراعة ، لأنها توفر الأمن

الغذائى وتقضى على المجاعة ، ومع أن هيزيود يعرف تفاصيل العملية الزراعية إلا أنه ليس سعيدا بها ، ويسعده أكثر منها لحظات الراحة التى يقضيها جالسا فى ظل صخرة يشرب الخمر واللبن ، أو يأكل الخبز وبعض قطع من اللحم البقرى ، وهى لحظات نادرة فى حياته .

ومع أن هيزيود يقول (٧٠٢) إن المرء ما استفاد قط خيرا من زوجة صالحة ، وما أصابه قط أسوأ من زوجة طالحة ، فهى لعنة قاتلة ، إلا أنه بصفة عامة يعتبر المرأة فخا منصوبا للرجل ، أو غواية تقوده للهلاك (٣٧٣ — ٣٧٥) . وباندورا عنده هى أولى النساء وأم الشرور وأس العذاب فى الحياة البشرية ، بل هى المخلوق الجميل الذى صنعه الآلهة وبعثوا به إلى الأرض من أجل تعذيب الرجال .

وبعد ذلك يستطرد هيزيود إلى وصف العصور الخمسة التى مر بها العالم ، وكيف ظل الشر يتزايد على وجه الأرض حتى أصبح العالم فى عصره يقاسى من سوء الأحوال ، وأصبح الصراع من أجل الحياة شيئا لا مفرّ منه ، وهو يؤكد بوضوح شديد أن البشرية تسير من سيئ إلى أسوأ ، فى البداية كان العصر الذهبى القديم قلم الإنسانية ، إنه عصر الوفرة والكثرة ، عصر الرخاء والاسترخاء ، عصر السلام والأمان فى ظل حكم الإله كرونوس ، وعندما اختفت هذه السلالة الذهبية من على سطح الأرض ، حلت محلها سلالة أخرى فضية ، وتلتها سلالة برونزية ، ثم أتت السلالة الرابعة سلالة الأبطال ، وهى السلالة التى لا تستمد اسمها من أى معدن من المعادن ، كما أنها السلالة التى انقرضت فى الحروب حول أسوار طيبة وطروادة ، وبعدها جاء عصر السلالة الخامسة الحديدية ، أى العصر الحديدى الذى يتحدث عنه هيزيود (بيت ١٧٤ وما بعده) :

« ليتنى لم أكن بين رجال الجيل الخامس ، بل ليتنى
مت قبله أو ولدت بعده . فالسلالة التى توجد
الآن هى حقا سلالة حديدية ، ولا راحة لأحد
فيها من الأسى والإرهاق نهاراً والهلاك ليلا . . . »

ويتضح من هذه الأبيات أن هيزيود يرى التاريخ فى تطور مطرد نحو الأسوأ .

أى أنه تدهور تاريخى ،وهذه نظرة تشاؤمية للحياة والحضارة البشرية ، وقد مارست هذه النظرة تأثيرا كبيرا على العديد من الشعراء مثل آراتوس ولوكريتيوس وفرجيليوس وتيبوللوس ، بل وعلى فيلسوف مثل أفلاطون ، وما زالت آثارها باقية فى الآداب الحديثة ، ومع أن هيزيود يفسر هـــذا التدهور التاريخى بأن الآلهة يكنُّون للبشرية سوء النية والحقد والحسد وهذا واضح فى أسطورة بروميتيه الذى خدع زوس عندما قدم له عظام الذبيحة وأمعاءها ملفوفة فى كثير من الدهن وقليل من اللحم ، بدلا من أن يقدم له صافى اللحم ، مما جعله ينقم عليه وعلى الإنسان ، إلا أننا يمكننا أن نفسر سيطرة هذا التشاؤم على شعره ، بظروفه الخاصة وتجربته المريرة فى الحياة .

حقا إنه يتحدث عن الأحكام والتشريعات الشفوية التى تصدر عن الآلهة لتصبح بمثابة قوانين غير مكتوبة لها قداستها ، وذلك قبل أن تكتب الدساتير ، ولكن هذه القوانين غالبا ما تحور لصالح الملوك والأمراء ، ولذلك فهو يخاطبهم وينذرهم بأن لا ينسوا أو يتناسوا انتقام الآلهة . فهناك « عشرة آلاف مثلثة » ، (أى ثلاثون ألفا . أو عدد لا حصر له) . من الأرباب الخالدين يمشون عـــلى الأرض مختفين وسط الضباب ، ليراقبوا تصرفات البشر ، وزوس الذى لا يغمض له جفن سيعاقب الأشرار فى النهاية . ولكن هيزيود — بوحى من نظرته التشاؤمية — على يقين تام بأن العدل ضعيف كل الضعف أمام عنفوان الظلم وجبروته ، وهو يؤكد وجهة نظره هذه بقصة « العندليب والصقر » . فقد انقض الصقر بمخالبه على الطائر المغرد ، ثم طار به إلى أجواز الفضاء قائلا له فى خيلاء : « أيها المخلوق البائس ، لماذا تصرخ ؟ هاأنذا ، وأنا أقوى منك كثيرا قد أمسكت بك فى قبضتى ، وعليك الآن أن تذهب أينما شئت أنا ، هذا مع أنك طائر جميل الصوت ، إننى أستطيع الآن إن أردت ، أن أجعلك غذائى . وأستطيع أيضا إن شئت ، أن أطلق سراحك ، أيها الطائر البائس ، إنه أحمق من يحاول مقاومة الأقوى منه ، لأنه لن يستطيع أن يزحزحه ، ولن يناله من المحاولة إلا الألم والعار » .

ومهما يكن من شىء فإن فكرة العدالة هى التى تسيطر على هذا القسم من قصيدته ؛ وتتضمن افتتاحيته الدعاء لزوس رب العدالة ، بل إنه يعود فيقول (ب٢٧٥—٢٨١) :
« أنصت لصوت العدالة ، واهجر أية فكرة العنف . هذا هو القانون الذى وضعه زوس للبشر . إن الأسماك والحيوانات المفترسة والطيور المتوحشة يأكل بعضها بعضا ، لأنها

ليست لديها أية فكرة عن العدالة . أما البشر فقد وهبهم زوس العدالة . وهى التى ثبت أنها أحسن ما يملكون على الأرض، لأن زوس يهب الرخاء والازدهار لكل من يرى الحق ويرغب فى أن يتناقش حوله » .

وهو فيما يعرض من نصائح وعظات يلتقط ما يردده الفلاحون من أقوال ويعيد صياغته صياغة شعرية . كما أنه يعرض حكماً وأمثالا من الموروث الشعبى المألوف ، فيسمى اللص « نائم النهار » Hemerokoites ، ويقول عن قيمة العمل :

« المجاعة رفيق دائم للرجل العاطل ، ومن العمل يصبح المرء غنيا ، ويمتلك قطعانا من الماشية والأغنام . وبالعمل أيضا يصبح الإنسان أكثر قربا من الآلهـة . ليس العمل عاراً . ولكن العار أن لا تعمل » .

وهذا التقليد الذى وضعه هيزيود يضفى على شعره التعليمى قدراً أكبر من الأهمية، لأن المصدر الشعبى يشكل السبب الرئيسى فى نجاح الأعمال الفنية بصفة عامة .

وتقليد آخر وضعه هيزيود وهو أسلوب « الخطاب المفتوح » وهو يزيد من وقع النصح والإرشاد على النفوس فى الشعر التعليمى فهو دائما يخاطب أخاه بيرسيس ، وهو دائما يتألم له أكثر مما يتألم لنفسه . فهو يقول له (فى بيت ٢٨٦) .

« إننى أخاطبك أنت يابيرسيس أيها الأحمق إلى حد كبير وسوف أخبرك ... » .

وهو ينصحه بأن يختار الصراط المستقيم وأن يتجنب طريق الضالين ، لأن السماء تتولى ثواب المستقيمين وعقاب المسيئين هم ومدنهم (ب ٢١٣ — ٢٤٧) .

ويقول له : « إسمع يابيرسيس ، إنه لمن السهل أن يأتى المرء أعمـال الشر . والصعب هو أن يكون الإنسان ممتازا، لذا فأنصتْ لنصيحتى ،ونحِّ جانبا عنك الخجل المزيف من العمل اليدوى ، واجتنب الأساليب الدنيئة » (٣٨٦ وما يليه) .

ورغم أن هـذه المواعظ مزدوجة قصد بها هيزيود إلى جانب أخيه الجمهور العريض ، ولا سيما الذين لا يملكون إلا التمسك بفضيلة العدل والعمل أساسا للحياة وسبيا للوجود . إلا أن بيرسيس كان يأتى دائمـا فى المقدمة وسواء تم ذلك بطريقة

تلقائية أو بصورة متعمدة ، فإن العمل الأدبى يكسب بهذا الأسلوب سلاحا قويا ، إذ من الطبيعى أن يضع السامع أو القارئ نفسه موضع برسيس كلما صب عليه هزيود هجومه أو إرشاداته .

* * *

وينتظم القسم الثانى نحو ثلثمائة وثمانين بيتاً ، (من البيت ٣٨١ — ٧٦٤) وقد نظمه بعد أن تحقق كل ماتنبأ به من سوء عاقبة الظلم والاعتداء على حقوق الناس ، ومن سوء مغبّة الخيانة وعدم الوفاء بالعهود ، ومن أن كل مال يُكتسب عن طريق السُّحْت وأكل حقوق الناس بالباطل يكون وبالا على صاحبه ، ويكون مصيره الزوال ، فقد انغمس أخوه فى ملذاته وشهواته ، وأخذ يبدد أمواله حتى فقد كل ثروته ، وأصبح فقيراً معدماً ، يلجأ إلى الاقتراض أو الاستجداء أو الاحتيال الخسيس .

وقد كان الشاعر فى هذا القسم أهدأ نفساً وأقل انفعالا وسورة . فقد ثأر له القضاء من أخيه ، فسكن بذلك غيظه وهدأت ثائرته ، ولعله لم يعجبه أن يقترض أخوه من الناس ، أو يَسْتَنْدى أكفَّ الأصدقاء ، أو يلجأ فى كسب الرزق إلى خسيس الحيل ، فعالج فى هذا القسم ناحية من نواحى الحياة تتعلق بالعمل الشريف والكدح فى كسب العيش ، ورسم فيه لأخيه سبيل الكسب الحلال ، وحثه على مزاولة الزراعة والعيش من عرق جبينه ، كما بيّن لقومه ما يجب أن تكون عليه حياة الريف وقدم لهم النصائح العملية المباشرة لممارسة سائر الأعمال الزراعية ، وأهمها جميعاً النصيحة بضرورة أن يمتلك الفلاح منزلا وزوجة وثوراً للمحراث حتى لايحتاج إلى الاستعارة من الغير فهذا أمر معيب ، وبنصح الشاعر بتنظيم النسل متسائلا أليس من الأفضل أن يكون للمرء طفل واحد يعيش فى رخاء ؟ وفى حالة اضطرار الفلاح للاستعانة بخادمة فلتكن بلا أطفال . كما أنه يشير على الفلاحين أن يحتاطوا لبرد الشتاء القارس منذ أيام الصيف الحار نفسها .

وفى هذا القسم قسّم هزيود أعمال الحقل إلى مراحل ، تبدأ فى نهاية الخريف بأعمال الحرث ، وتنتهى بعد عام فى الخريف التالى بأعمال الحصاد . وعُنى بأن يتعقب كل فصل من فصول السنة ، ويذكر الأعمال الزراعية التى تتم فيه ، وما ينبغى أن تكون عليه . ويشرح الأمور المتصلة بها ، وبذلك وجد مجالا للحديث عن

الآلات الزراعية المستخدمة فى الحرث والسقى والحصاد ، فتشرح أجزاءها وعناصرها وطريقة صنعها واستخدامها ، وعن الأنعام ووجوه الانتفاع بها فى الزراعة ، وعن الخدم والرقيق وصلتهم بالحقول ، وعن أنواع الملابس وصنوف الأغذية إلى غير ذلك .

* * *

وأما القسم الثالث فينتظم نحو سبعين بيتاً ، وهو عبارة عن تقويم فلكى ، وقد قسّم فيه أيام الشهر من كل عام — وفقاً لعقائد دينية كانت منتشرة فى عصره — إلى قسمين : أيام سعادة تنجح فيها المشروعات وتؤتى أكلها ، وأيام نحس يخفق فيها كل ما يقوم به الإنسان أو بعضه .

فلسنا إذن أمام قصيدة واحدة متماسكة الأجزاء ، وإنما أمام ثلاث قصائد مختلفة فى موضوعها وأغراضها ، وقد اكتسبت إسمها مما جاء فى الجزءين الثانى والثالث .

وتدل بعض مقطوعات هذه القصيدة على أن هزيود كان من الشعراء الغنائيين المحترفين ، وأنه تقدم لمباراة غنائية أقيمت فى مدينة كالسيس Chalcis وانتصر فيها على الشاعر أمفيداماس Amphidamas ، وحصل على الجائزة الأولى ، وأنه وهب الجائزة التى فاز بها إلى الموسيات ربات الفنون .

كما أن من الملاحظ أن العناصر المكوّنة لهذه القصيدة لا يرتبط بعضها ببعض إلا بخيوط واهية يمكن فصمها . فنحن ننتقل من قوائم كاملة للحكم والأمثال ، إلى أحداث ملحمية الطابع ، إلى استطرادات بعضها يتصل بالترجمة الذاتية للشاعر وبعضها بعيد عنها كل البعد ، ثم نصل إلى مجموعات من الأفكار المفيدة عن الزراعة ، وتحذيرات متشائمة من الملاحة (أبيات ٦١٨ — ٦٩٤) وكل هذا أثار الشكوك حول وجود بعض التحريف أو الإقحام فى أبياتها ، وإن كان هذا التشتت نفسه قد أعطى القصيدة خاصية انسحبت على بقية الشعراء التعليميين من بعده : فتأثر بها شعراء العصر الإسكندرى ، وتعلموا كيف يستغلون بمهارة وحذق مثل هذه الاستطرادات بهدف إضفاء الزخرف على عملهم الشعرى .

(٣) التيوجونيا La Théogonia
أو أنساب الآلهة

تعرض قصيدة التيوجونيا – كما يدل اسمها – لتاريخ الآلهة ، فهى مكونة من كلمتين إغريقيتين : Théos بمعنى إلـه . و Gonos بمعنى نسب أو أصل ، فتبين نشأتهم وأنسابهم وأصولهم وشعبهم ، وتترجم لكل منهم ، فتفصل وظائفه وأعماله وتاريخ حياته ، وما إلى ذلك من الأمور التى عرضنا لشىء منها فى حديثنا عن آلهة اليونـان . وهى أقـدم مؤلف تاريخى فى عقائـد اليونـان ، ولـذلك كانت ولاتزال أهم مرجع للباحثين فى هذا الموضوع .

وتبدو القصيدة وكأن مؤلفها قد نظمها بإيعاز من ربات الفنون ، وهو يتحدث فيها وكأنه رجل مميَّز عن بقية الناس ، أو كأن الآلهة قد منحته قدرات خاصة تمكنه من النفاذ إلى خبايا الأمور دون أن يقع فى خطأ . ومع أنه تناول عدداً وافرا من الزيجات الإلهية ، وبالتالى عمليات التناسل المستمرة . إلا أنه ربط بين عناصرها ربطا محكما.ورتب حوادثها ترتيبا منطقيا يسوده الإنسجام،ويتفق مع مناهج البحث التاريخى السليم. بحيث يستشعر القارىء لها حسن التخطيط والتدبير فى مسيرة الكون والكائنات فضلا عما يحس به من جاذبية ومتعة وهو يتابع عمليات الزواج والإنجاب الإلهية المستمرة .

وهو يبـدأ القصيـدة بتضرع إلى ربـات الفنون ووصف للقائه معهن فيقول (بيت ١ – ١١) :

« دعنا نبـدأ فى أغنية ربـات الفنون ، ساكنات الهيليكون ، اللائى يملكهن جبل الهيليكون العظيم والمقدس ، ويرقصن بأقدامهن الناعمة حول النبع القرمزى وحول مذبح زوس القدير ، فبعد أن اغتسلن فى مياه برميسوس أو نبع هيبوس أو أوليمبوس المقدس قمن برقصات ساحرة ورشيقة فوق قمة الهيليكون . ثم انسابت خطاهن وعلى الأقدام انتقلن من ذلك المكان ليلا،يلفهن هواء كثير ، وسرن الواحدة تلو الأخرى وهن يغنين بصوتهن الرخيم ، ويبتهلن إلى زوس لابس الدرع إجيس، وهيرا مليكة السماء والأرض » .

ثم يقول بعد ذلك (بيت ٢١ — ٣٤) :

لقد علَّمتْ ربات الفنون هيزيود أغنيــة جميلة بينما كان يرعى أغنامه على صفح الهيليكون . وقبل كل شيء فإن ربات الفنون ،الموسيات ، بنات زوس لابس الدرع إيجيس خاطبنَـه بهذه الكلمات : أيها الرعاة قاطنى الحقول ، ياللأشياء السيئة التى تستوجب لومكم ، إنكم مجرد بطون شرهة ، أمــا نحن فنعرف كيف نلبس أكاذيب كثيرة فى أقوالنا ثوب الحقيقة ، ونعرف أيضا كيف نتغنى بالحقائق عندما نريـد .

هكذا تحدثت بنات زوس العظيم ذوات اللسان الفصيح ، وبعد أن قطعن فرعا من شجرة الغار المزهرة أعطيننى صولجانا ، ونفخن فىَّ صوتا إلهيا ، لأتغنى بما كان وما هو كائن وما سيكون ، وأمرننى أن أترنم بالآلهة الخالدين ، وأسبح باسمهم دائما . وأذكرهم فى البداية والنهاية »

فهيزيود هنا يرى — كما كـان يرى هوميروس — أن الشعر إلهـام ، ولكن الفرق بينهما أن هوميروس يرى الشعر إلهاما خالصا لا أثر للفن أو الصنعة فيه ، فهو يطلب إلى الآلهة أنفسهم الغناء ، يقول فى الألياذة ، « غنى أيتها الربة » ويقول فى الأوديسا : « غنى ياربة الشعر » أما هيزيود فيرى أن الغناء غناءه هو والفن فنه هو ، ولكن بوحى وإلهام من الآلهة ، وهو يعلن فى وضوح أن ربات الفنون علمنه أغنية جميلة ، ثم يقول إنهن أعطينه الصولجان ، ونفخن فيه صوتا إلهيا ليتغنى ويترنم . وإذن فالإيحاء منهن والشعر منه .

وبعد هذا الاستهلال بمناجاة ربات الفنون ، يأخذ فى الحديث عنهن أنفسهن فيقول (بيت ٣٦ — ١١٥) :

« دعنا نبدأ من ربات الفنون ، بنات زوس من منيموزين Mnèmosyne (ربة الذاكرة) اللائى يتغنين بكل شيء فى السماء والأرض » .

وفى أبيات (١١٦ — ١٥٣) يتناول هيزيود البدايات الأولى للكون ، وبداية تكوين العائلة المقدسة . فى البداية كان « خاؤس » Chaos (الفوضى أو اللاتكوُّن) وأنجب خاؤس « نوكس » Nux (الليل) وإريبوس Erebos (الظلام) وارتمت الأنثى نوكس ، بين أحضان الذكر إريبوس ، ووضعت نوكس بيضة خرج منها

مخلوق لطيف ذو جناحين فى لون الذهب الخالص هو إيروس « Eros » (الحب) وإذا كان الحب وراء كل وجود فقد وُجدت « جايا » Gaia (الأرض) وأنجبت جايا « أورانوس » Uranus (السماء) والتقت الأنثى جايا بالذكر أورانوس ، وتعددت لقاءاتهما ، وأنجب منها التياتن والكيكلوبيس والمسوخ ذوات المائة يـد والخمسين رأسـا .

(وفى أبيـات (١٥٤ — ٤١٠) بينما بسطت جايا (الأرض) الأم الحنون ، صدرها ليمرح عليه جميع أبنائها وبناتها ، عامل أورانوس (السماء) الأب المتعالى بعض أبنائه معاملة سيئة ، ولم يعدل بينهم ، وضاقت جايا بتصرفات أورانوس ، فحرضت عليه أبنائها ؛ ولم يستجب لدعائها منهم غير كرونوس (الزمان) الذى فاجأ أباه وهو يقارب أمه الأرض فاستأصل أعضاءه التناسلية : وقذف بها فى البحر ومن هذا اللقاء الأخير بين جايا وأورانوس أنجبت جايا الجيل الرابع من ذريتهـا جماعة المردة ، وانفصلت الأرض عن السماء،وأصبح كرونوس (الزمان) حاكما للكون . ثم يتحدث الشاعر عن عملية الزواج والتناسل بين التياتن .

(وفى أبيات ٤١١ — ٤٥٢) يتغنى الشاعر بنشيد عرَضى يكرم فيه هيكاتى بنت كويوس من زوجته فويبى ، والتى كانت تحظى بمكانة خاصة لدى زوس . ويمكنها أن تهب الناس كثيرا من الخيرات .

(وفى أبيات ٤٥٣ — ٥٠٦) يتحدث عن سلالة كرونوس وزوجته ريا وكيف أن زوس أصغر أبنائهما قد ثار على أبيه وخلعه عن عرش الكون .

(وفى أبيات ٥٠٧ — ٦١٦) يولد بروميثيه بن جابيت ،ويخدع بروميثيه زوس فى نصيبه من القربان. ويسرق النار من السماء . ويهديها إلى الإنسان ، وينتقم زوس بإرسال باندورا إلى الأرض ومعها صندوق الهدايا الذى يحوى كل الآلام والشرور كما يضع بروميثيه فى الأغلال ويسلط عليه عُقابا كبيرا ينهش كبده . ثم يبدلـه كبدا آخر ينهشه من جديد ليستمر عذابه إلى الأبد .

(وفى أبيات ٦١٧ — ٨١٩) يصف المعركة بين كرونوس وجميـع التياتن والمردة الذين وقفوا فى صفه تحت قيادة التيتن العنيف أطلس وبين زوس بن كرونوس

الذى لم يقف فى صفه من التياتن غير بروميثيه وشقيقه إبيميثيه والتى لم تشهد الأساطير اليونانية معركة أعنف وأشرس منها والتى كان لها كبير الأثر فى تثبيت ملك زوس .

(وفى أبيات ٨٢٠ — ٨٨٠) تلد جايا (الأرض) سلالة جديدة متمثلة فى الوحش تيفوبوس ، فيقضى عليه زوس بصاعقته . ويزيد هذا فى تثبيت ملكه .

(وفى أبيات ٨٨١ — ٩٥٥) بعد أن هزمت سلالة كرونوس كل الشرور يستمعون إلى نصيحة جايا وينصبون زوس ملكا عليهم . ويستطرد الشاعر إلى ذكر قائمة من الآلهة أنجبها زوس من مجموعات الربات .

(وفى أبيات ٩٥٦ — ١٠٢٢) يودع الشاعر آلهة الكون وآلهة أوليمبوس ، ويعدد أسماء أبناء أنجبتها رباتٌ « لرجال » من بين أفراد البشر . ثم يختم قصيدتـــه بدعاء إلى « الموسيات » لتنشدن عن « عشيرة النساء » أو « المثيلات » .

وقد دفعت هذه الخاتمة إلى الإعتقاد بأن هزيود قد ألحق بهذه القصيدة قصيدة أخرى لم يصلنـــا منها سوى شذرات قليلة اسمها « كتالوج النساء » . قيل أن هزيود أرجع فيها أصل الإغريق جميعا إلى جد واحد ، وقد فضل أن يكون ذلك عن طريق ذكر الأمهات لا عن طريق ذكر الآبـاء ، لسببين : أحدهما : أن أغلب القبائـل والعشائر تدعى أنها تنتمى إلى إلـــه واحد ، فمن الأسلم أن يتتبـــع أصل كل قبيلة أو عشيرة عن طريق امرأة من البشر أحبها ذلك الإله الذى تدعى القبيلة أو العشيرة الإنتماء إليه . وثانيهما : أن المجتمعات الواقعة فى شمال بلاد اليونان كانت تعترف بأن الأم — وليس الأب — هى مصدر النسب ، وأن آثار هذه العادة كانت ومازالت قائمة فى الأزمنة التاريخية .

وقصيدة التيوجونيا تمثل الشعر التعليمى التاريخى الذى كان النواة الأولى لعلم التاريخ عند اليونان ، وهى بمثابة مقدمة لتاريخ العالم . وقد استمد هزيود مادتها من الأساطير المنتشرة فى عصره ، ولم يكن هدفه منها التشويق والمتعة ، وإنما نقل المعرفة والتعليم ، وفى ذلك يقول الكاتب الرومانى كوينتليانوس Quintilianus « قلما يصل هزيود إلى أية درجة من السمو ، لأن غالبية قصيدته تضيع فى الأسماء » . فأسلوبهـــا إلى

الأسلوب التاريخي العلمي أدنى منه إلى الأسلوب الأدبي. وكان لابد أن يكون كذلك، إذ أن موضوع القصيدة نفسه لا يواتيه غير هذا الأسلوب.

أما لغتها فهي اللغة اليونية التي ألفت بها قصيدة «الأعمال والأيام» والتي ألفت بها ملاحم هوميروس. إلا في بعض تراكيب وعبارات قد اقتبست من لهجات إغريقيا الأوربية، وبخاصة لهجة دلفيا Delphes. وقد نظمها الشاعر في اللغة اليونية وهي غير لغته، لارتباط الوزن السداسي الذي نُظمت فيه باللغة اليونية، إذ لا يظهر جماله وأثره الموسيقى إلا مع هذه اللغة.

ومع أن القصيدة دخلها شيء غير قليل من التحريف والزيادة والنقص، إلا أنها لا تزال في مجموعها متماسكة الأجزاء، مسلسلة الحوادث. منظمة القصص، محتفظة بوحدتها في الأسلوب العام والمعاني والأفكار، ووصف الآلهة وشرح وظائفهم وما إلى ذلك، فلا يظهر في فقرة من فقراتها إلـه بغير الصورة التي رُسمت له في الفقرات الأخرى، هذا إلى أنها قد التزمَتْ في علاجها لموضوعها خطة واحدة لم تنحرف عنها، فهي ترتب الآلهة حسب أقدميتهم، فتذكر أولًا الأصول، ثم تتكلم عما تفرع عن كل أصل منهم. وإذا عرضت لطبقة تشتمل على إخوة أو أخوات ترجمت لهم أولا مرتَّبين حسب أقدميتهم، ثم عرضت لنسل أكبرهم سناً. ثم لنسل من يليه وهكذا، ولم تَحِد عن هذه الخطة إلا في مواطن قليلة تقتضي بطبعها سلوك طريق آخر.

ومن الملاحظ أنه استبدل بالآلهة التقليديين، آلهة أقل منهم شهرة، فقد جعل من إيروس Eros (الحب) الذي كان في الأصل إلها محلياً في ثيسبياى Thespiai بإقليم بويوتيا قوة كونية عظمى. إنه طفل بلا أب، وهو مولود من الفوضى (بيت ١٢٠ ومايليه). وأضاف العديد من المعاني المجردة كقُوى إلهية مثل (الخصام) وسلالته (التعب، والنسيان، والجوع، والآلام) وكذا سلالة «الليل» (بيت ٢٢٦ وما بعده) بل إنه جعل (الشائعة) Pheme قوة إلهية، وقد يعني هذا أن (الرأى العام) قوة إلهية خفية تعمل في الناس بلا وعي منهم (أبيات ٧٦٣ — ٧٦٤) وربما كانت هذه الفكرة هي أصل المبدأ المعروف والقائل بأن «صوت الشعب هو صوت الإله».

(Vox Populi vox dei)

(٤) تلاميذ هيزيود

يعتبر هيزيود مؤسساً لمدرسة من الشعراء الذين نهجوا نهجه فى الشعر التعليمى وإن كانوا أقل أهمية من الهوميريين وقد شغلوا أنفسهم بالكتابة فى الأخلاقيات و التاريخ والأساطير . وبعض أشعارهم تنسب خطأ إلى هيزيود . ولكن ما بها من ضعف يقطع بأنها ليست له ، وإنما لتلاميذ يقلدون أسلوبه .

ومن ذلك قصيدة « كتالوج النساء » أو « قائمة النساء » Gynaikon Katalogos وتعرف بعنوان آخر هو « المثيلات » Heoiai لأن كل فقرة منها تبدأ بعبارة « أو مثل ألكمينا » (أو أية بطلة أخرى) فنساء كثيرات من الماضى قد ارتفعن بحب الآلهة لهن (مثل . . .) ثم يسرد الشاعر قصة هذه المرأة أو تلك ، وإبنها أو ابنتها من هذا الإله أو ذاك .

ومن ذلك أيضا قصيدة « درع هيراكليس » ووصف الدرع فيها يذكرنا بوصف درع أشيل فى الإلياذة . وهو مثل درع أشيل من صنع هيفيستوس ، وعليه مشاهد من أساطير الآلهة ومن الحياة اليومية . وتؤرخ هذه القصيدة بعام ٦٠٠ ق م تقريبا . وتقع فى ٤٨٠ بيتا ، والستة والخمسون بيتا الأولى منها ترد أحيانا ضمن قصيدة « المثيلات » وهى تتناول قصة « ألكمينا » .

على أن أثر هيزيود لايقف عند اعتباره مؤسسا لمدرسة من الشعراء الذين اتبعوا نهجه : والذين شغلوا أنفسهم بالأخلاقيات وكتابة التواريخ والأساطير المنظمة والمرتبة ، وإنما يتجاوز ذلك إلى اعتباره ممهدا لظهور الشعر الغنائى ، حين تحدث على نفسه ، واهتم بتأكيد ذاته ، كما أنه وضع البذور الصالحة فى تربة العبقرية الإغريقية حين اهتم بالأخلاقيات وصنف ورتب المعلومات ، فأنبتت الفلسفة والفكر الأخلاقى والمنهج العلمى ، هذا إلى أن رأيه ورأى هوميروس من قبله عن الإلهام فى الفن قد ظل سائدا فى عالم الفكر والأدب حتى الفترة الكلاسيكية . وما تزال حية إلى اليوم . وكان

أفلاطون يرى الشعر إلهاما ، ولا يعتبر سيمونيد حكيما (Sophos) فقط ، بل ربانيا (Thèios) أيضا ، واعتبر أريستوفانيس الشعراء (فى كوميديـــا الضفادع ٦٨٦) معلمين للبشرية . ووصف الجوقة فيها ١٠٣٠ وما يليه) بأنها مقدسة . وخلع على نفسه لقب طارد الشرور (alexikakos) وهو لقب شعائرى من ألقاب الآلهة ، وليس هذا كله وغيره إلا ترديدا لشعر هيزيود وفكره فى قصيدتيه « الأعمال والأيام » « وأنساب الآلهة » .

* * *

الفصل الثالث

الشعر الغنائى أو الوجدانى Lyrisme

ظهرت بذور هذا الفن فى العصور السابقة لهوميروس . ولكنه لم يكتمل ويصبح فناً أدبياً بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة إلا فى الشطر الأخير من هذا العصر .

أما فى الشطر الأول فقد كان سلطان الشعر الملحمى – ممثلا فى الإلياذة والأوديسا – طاغياً على نفوس الخاصة والعامة ، فاتجه نحوه أكبر قسط من النشاط الأدبى ، وانصرف المحترفون إلى استظهاره وإنشاده. وعنى الشعراء بتنقيحه وتجويده وكان من جراء ذلك أن ضعفت العناية بغيره من الفنون ومنها الشعر الغنائى . ولكن منذ مبدأ القرن الثامن ق . م أخذ شأن الشعر الملحمى فى الضعف والذبول . وشأن الشعر الغنائى فى الرقى والازدهار ، واتجهت العناية إلى تنقيحه وتجويده واستأثر بأكبر قدر من النشاط الأدبى ، وظلت له الغلبة على جميع فنون الأدب طوال ثلاثة قرون ،

وقد عملت على ذلك عوامل مختلفة :

منها تطور العقلية اليونانية . فالشعر الملحمى يعتمد على دقة الملاحظة الخارجية ووصف ما تحيط به ، أى على مهارة الفرد فى إدراك الأمور الخارجية والتعبير عنها فى أسلوب قوى جذاب ، وهذا ما تقوى عليه الشعوب فى سذاجتها الأولى ، فى حين أن الشعر الغنائى يعتمد على دقة الملاحظة الذاتية وسمو التعبير عنها . أى على مهارة الفرد فى ملاحظة نفسه وبراعته فى وصفه لعاطفته ووجدانه . وهذا ما لاتستطيعه الشعوب إلا بعد أن تقطع مرحلة كبيرة فى الرقى العقلى .

ومن هنا ظل الشعر الغنائى على حالة ساذجة طوال المراحل الأدبية الأولى فى حياة اليونان ، على حين بلغ الشعر الملحمى درجة كبيرة من النضج والكمال .

فلما ارتقت عقليتهم ودق حسهم ونمت فيهم قوة الملاحظة الذاتية . وقفوا على الشعر الغنائى نشاطهم الأدبى فسار قدما فى سبيل الارتقاء ، بينما انحسر مد الشعر الملحمى حتى كاد يختفى .

ومن هذه العوامل تطور حياتهم السياسية والاجتماعية ، فقد كان تكوينهم السياسى والاجتماعى القديم قائماً على نظام العشائر والأسر ، فكل عشيرة أو أسرة تؤلف وحدة سياسية واجتماعية تشبه المملكة المستقلة . وكانت الروابط بين هذه الممالك الصغيرة ضعيفة واهية ، ولكن حدث فى هذا العصر أن انهار نظام العشائر وقام على أنقاضه نظام المدن . إذ أن هذه العشائر قد انضم بعضها إلى بعض ، وأخذت كل مجموعة منها تؤلف وحدة سياسية واجتماعية أطلق عليها اسم المدينة La cité. وحدثت حوادث تاريخية واجتماعية دعت هذه المدن إلى الاشتراك فى كثير من الشئون ، فاتسع نطاق المجتمع ، وتوثقت الروابط بين أجزائه ، وظهرت طائفة من العواطف الوطنية العامة ، كان لابد لها من أداة للتعبير عنها ، فنهض بها الشعر الغنائى ونهضت به .

وفى ظل هذا التطور نفسه بدأت الطبقات الدنيا تحس بعدم الرضا ، وتسعى لتحسين أحوالها ، بل وتطلعت إلى المشاركة فى الحكم ، ولكى تحقق هذا الهدف اتخذت لنفسها زعيما هو فى الغالب من أفراد الأسرة الأريستقراطية ، وكان عليه أن يطيح بنظام الحكم الأريستقراطى ، ويستولى على مقاليد الأمور أى أن يصبح حاكما طاغية Tyrannos ، وهـــذه الكلمة اليونانية تعنى الحاكم الذى لا يستند حكمه إلى الدستور المكتوب أو غير المكتوب ، أى لم يصل إلى الحكم بالطريق التقليدى المألوف ، فالكلمة فى الأصل لا تحمل فى طياتها معنى الظلم والاستبداد ، كما يفهم منها ومن مشتقاتها فى اللغات الأوربية الحديثة . وكان من أثر هذا كله بروز الروح الفردية كما لم تبرز من قبل ، وجاء الشعر الغنائى بكل فنونه كأحسن أداة للتعبير عنها .

وكلمة الشعر الغنائى Lyrike ترجع إلى الصفة اليونانية Lyrikos ويقصد بها الشعر الذى يغنى بمصاحبة أنغام القيثارة Lyra ، ويندرج تحته نوعان : الشعر الجماعى ويسمى مولبى molpe وتلقيه جوقة مصحوبا بالرقص ، مع الإيقاع على

أنغام القيثارة أو الناى (الفلوت) أو الاثنين معاً . وكانت هذه الرقصات تقام فى المناسبات العامة ، ولاسيما المهرجانات الدينية .

والشعر الفردى ويسمى ميلوس Melos ، ويلقيه فرد هو الشاعر نفسه فى العادة، وتصحبه فى الأداء أنغام القيثارة ، ويتغنى بالمشاعر الشخصية ، ويلقى فى مناسبات خاصة ، ويخاطب مجموعة من الأصدقاء المشتركين فى هذه المناسبة ، أو الجالسين على مائدة الشراب .

وطبقاً لما تتحدث به الأساطير كانت كريت مهد فن الرقص . فعلى جبل ديكتى علمت الربة ريا (زوجة كرونوس وأم زوس) جماعة الكوريتيس هذا الفن ، وكانت رقصاتهم الصاخبة هى التى أنقذت الطفل الرضيع زوس من الهلاك على يد أبيه كرونوس ، الذى كان ينوى ابتلاعه خوفاً من النبوءة التى أنذرته بأن أحد أبنائه سيخلعه عن عرش السماء .

وتدل الحفريات الأثرية على أن الموسيقى قد لعبت دوراً بارزاً فى الحياة الاجتماعية والدينية إبان العصر البرونزى فى كريت، إذ يظهر الراقصون والموسيقيون بكثرة على الألواح المصنوعة من البرونز أو الفخار . ومما لا شك فيه أن مراكز العبادة المشهورة مثل إليوسيس وديلوس كانت تحفل بتراث ضخم من الرقص والغناء الدينيين ، وهو تراث متصل لم ينقطع قط منذ العصر البرونزى وحتى عصر هوميروس .

كما أن الرقص والغناء والعزف على القيثارة كانت من بين دروس التربية والتعليم بالنسبة لأبناء الأسر الأريستقراطية وكان كل مثقف يشترك فى الولائم أو الاحتفالات يؤدى دوره فى الترفيه والمتعة ، بتقديم أغنية فردية ، أو جزء من أغنية جماعية ، وكان الفتيان والفتيات يتطلعون بشغف للاشتراك فى جوقات الغناء والرقص ، وكانوا إذا اختيروا للاشتراك فى هذه الجوقات يشعرون بشرف عظيم يتفاخرون به على أقرانهم ، فإذا لم يحظوا بذلك شعروا بخيبة أمل وإحباط .

وللشعر الغنائى أوزانه الخاصة التى يقصد بها التغنى على آلات موسيقية ، غناء فرديا (مونوديا Monodie) أو غناء جماعيا (كورال Choral) وهذا الغناء

قد يكون فى سكون ، وقد يكون فى حركة لاتخرج عن المشى العادى أو الرقص التوقيعى ، فعنصراه الأساسيان هما الكلام الشعرى والموسيقى ، يضاف إليهما أحياناً عنصر ثالث يتمثل فى حركة المشى أو الرقص . وهذه العناصر الثلاثة كانت تجرى جميعها على نسق واحد وفى تلازم تام وارتباط وثيق ، فتكوّن وحدة متناسقة الأجزاء منسجمة الأوضاع .

وجرت العادة أن يقوم المؤلف إلى جوار التأليف بالتلحين والغناء ، وإذا كان اليونان لم يعرفوا من آلات الموسيقى غير آلتين : القيثارة والمزمار **La cithare et La Flûte** فكان المؤلف فى معظم الأحيان يجمع إلى هذه الوظائف الثلاث وظيفة رابعة هى وظيفة الموسيقار ، فيعالج أوتاره فى الوقت الذى يغنى فيه ألحانه ، فإذا تعذر عليه ذلك ، بأن كانت آلة الموسيقى هى المزمار ، عهد بها إلى شخص آخر بعد أن يضع له قواعد العمل ، ويرسم له خطط التنفيذ وفقاً لتلحين القطعة .

وتنسب الأساطير فضل اختراع القيثارة إلى الإله هيرميس ، ولكنها تنسب ملكية أول قيثارة إلى الإله أبوللون .

وتدور موضوعات الشعر الغنائى حول الأمور المتصلة بالوجدان والعاطفة ، ومن ثم سمى كذلك بالشعر الوجدانى ، وإذا كانت الأمور المتصلة بالوجدان والعاطفة متعددة فقد تعددت موضوعاته ، فكان منه الشعر الدينى الذى يقدم إلى الآلهة أثناء إقامة العبادات أو تأدية المناسك تضرعاً إليهم أو استدراراً لعطفهم ورحمتهم .

وشعر المراثى الذى يقال فى بكاء فقيد أو ندب عزيز تعبيراً عن الحسرة والحزن ، وشعر الحماسة الذى يلهب النفوس ويدفعها إلى الشجاعة والاستبسال . وشعر التطريب الذى يتغنى به أثناء مزاولة الأعمال اليدوية ليخفف من التعب والعناء ، والشعر الوطنى الذى يدعو إلى حب الوطن وتقديسه والدفاع عنه ، وشعر الشكوى أو الاستعطاف ، أو التشبيب أو الغزل .

ويتميز الشعر الغنائى بغزارة الصور الشعرية من مجازات واستعارات وتشبيهات ، وتسوده اللهجة الدورية بصفة عامة مع بعض الاستعارة من الموروث الملحمى ، إذ أنه منذ البدايات الأولى للأغنية الجماعية الدورية تطورت لهجة أدبية مصطنعة ،

احتفظت بطابعها الدورى حتى بعد أن تطور هذا الفن على المستوى اليونانى القومى .

وقد انتشر الشعر الغنائى فى مختلف المناطق اليونانية وخاصة بلاد الدوريين وهم الذين استولوا على معظم جزيرة البيلوبونيز péloponèse وكونوا بها دولة قوية كانت عاصمتها اسبرطة .

واشتهر من الشعر الغنائى أربعة أنواع :

القصائد النومية Le Nome والإليجية L'Elégie واليامبية L' lambe والميليكية Méliques .

القصائد النومية Le nome

وهى أقدم الأنواع الغنائية وأسبقها نضجاً ، وتتمثل فى قصائد دينية فى تمجيد الآلهة والإشادة بفضلهم ، وسرد شىء من تاريخهم وحياتهم ، ولها أوزانها الخاصة، وفى العادة يغنيها مغن واحد على صورت القيثارة أو المزمار ، وهى تبدأ بتمجيد الإله المحتفل بذكراه واستغفاره والتضرع إليه ، ويعقب ذلك الحديث عن حياته، وما تم على يديه من أعمال ، وما عرض له من خطوب، كما تصوره لهم أساطيرهم، وتنتهى بمثل ما ابتدأت به من تمجيد واستغفار ودعاء .

ويرجع الفضل فى النهوض بالنوع القيثارى إلى ترباندر Terpandre وهو شاعر من ليسبوس (و Lesbos هو الاسم القديم لجزيرة ميتيلين Mytilène الواقعة ببحر الأرخبيل) وينسب إلى هذا الشاعر أيضاً أنه أدخل إصلاحاً على القيثارة ، فزاد أوتارها إلى سبعة ، بعد أن كانت من قبل لاتتجاوز ثلاثة .

كما يرجع الفضل فى النهوض بالنوع المزمارى إلى أوليمبوس OlymPos وهو شاعر من فريجيا (و Phrygie هو اسم قديم لمقاطعة فى وسط آسيا الصغرى) ولانكاد نعلم شيئاً يقينياً عن هذين الشاعرين وكل ما يدور بصددهما هو من قبيل الأساطير .

(٢) القصائد الإليجية L'Elégie

وبعد القصائد النومية وعلى أثرها فى النضج والأزدهار تأتى القصائد الإليجية ، ونشأ الوزن الإليجى عن تطوير أدخل على الوزن السداسى الملحمى بهدف خلق الإيقاع المناسب للغناء . وتمثل هذا التطوير فى إضافة بيت خماسى مكون من شطرين (hemiepes) وهكذا أصبح الثنائى الإليجى يتكون من بيت سداسى داكتيلى متبوع ببيت خماسى داكتيلى . وهذا البيت الثانى الخماسى فى حقيقة الأمر بيت سداسى اختصرت فيه القدم الثالثة والخامسة (catalectic) ويوزن الثنائى الإليجى هكذا : — uu — uu — // — uu — uu —

وقد ارتبطت كلمة elegeion بمعنى الوزن الإليجى بكلمة أخرى هى elegos التى تعنى « أغنية الحداد » أو « المرثية » ويقول بعض الباحثين : إن تسمية الوزن الإليجى جاءت من العبارة الإغريقية « e e legein » أى « القول أواه أواه » وفى العالم القديم كان الشعر الإليجى بصفة عامة يعرف بأنه شعر المراثى ، فيتحدث أوفيديوس عن « الإليجيةالباكية » أو « البكائية الإليجية » (Flebilis elegeia) ويرى بعض الباحثين أن الربط بين الشعر الإليجى والمراثى ليس هو السبيل الوحيد لفهمه ، فهناك أمثلة قيمة من هذا الشعر بعيدة كل البعد عن المراثى . ويميل العلماء والفقهاء الآن إلى ترجيح أن كلمة elegos جاءت أصلا من كلمة أجنبية وافدة بمعنى « الفلوت » وعلى كل فقد كان الشعر الإليجى فى الأصل أغانى تغنى بمصاحبة الفلوت ، وقد ظهر لأول مرة فى أواخر القرن الثامن ق . م بيونيا على ساحل آسيا الصغرى والجزر المجاورة . ثم شق طريقه إلى بلاد اليونان الرئيسية .

ويمكن التعرف على طبيعة الشعر الإليجى من إلقاء نظرة سريعة على أغراضه وهى :

المراثى . واستخدم فيها الوزن الإليجى منذ وقت مبكر فى جزيرة البيلوبونيز .

وشواهد القبور ، لتخليد ذكرى الموتى بأشعار توضع على قبورهم .

ونقوش الإهداء . التى تحفر على ما يهدى من الأشياء

والأغانى التاريخية ، وقد استخدم ميمنيرم هذا الوزن لسرد تاريخ سميرنا (أزمير) فى قصيدة طويلة بعنوان « السميرنية » (Smyrneis) وكذلك فعل سيمونيد من ساموس ، بالنسبة لتاريخ هذه الجزيرة .

وأغانى الحرب . وهى أناشيد طويلة تخاطب الجنود وتحثهم على الشجاعة فى القتال .

وأغانى الشراب ، وتغنى على أنغام الفلوت أثناء حفلات الشراب ، وتمتاز بالقِصَر .

وقد استخدم هذا الوزن الإليجى طائفة من الشعراء الغنائيين نعرض لبعضهم .

(أ) كالينوس Callinos

وهو أقدم المؤلفين فى القصائد الإليجية ، وقد نشأ بإيفيزيا Ephèse من بلاد اليونيين على بحر إيجه ، وعاش فى النصف الأول من القرن السابع ق.م ، وكتب أشعاراً إليجية يحث فيها مواطنيه على أن يقاتلوا أعداء الوطن ، ومنها :

إلى أى مدى ستظلون هكذا فى استرخاء ؟

متى يا شباب ستصبحون شجعاناً أقوياء ؟

إنكم تغمضون أعينكم عن احتقار الجيران لكم ، فأنتم متقاعسون إلى أقصى حد ، قعدتم فى بيوتكم آمنين ، والأرض كلها من حولكم تشتعل بنار الحرب » .

ومع أنه يتفق مع هوميروس فى الإشادة بالبطولة . إلا أن هوميروس يرى البطولة وحدها هدفاً ، تطلب لنفسها ، ويكفى الإنسان أن يظفر بها ، أما كالينوس ، فيرى للبطولة ثمناً مردوداً هو تكريم الناس للبطل . يقول كالينوس :

« يلبس كل الناس لباس الحداد عندما يموت رجل شجاع أماإذا نجا هذا الرجل من المعركة فيبدو لهم وكأنه سليل الآلهة وينظرون إليه كما لوكان قلعة شامخة تزداد علواً أمام أعينهم لأن ما كان ينبغى أن ينجزه عدد كبير أنجزه هو بمفرده » .

وهذه الأشعار تستخدم الوزن الإليجى وإن كانت ملحمية الطابع .

(ب) ميمنيرم Mimnerme

نشأ فى مدينة كولوفون Colophon من بلاد اليونيين وعاش فى النصف الثانى من القرن السابع ، لأنه ازدهر فيما بين سنة ٦٤٠ و ٦٣٠ ق . م . وكان موسيقياً محترفاً يعزف على المزمار (الفلوت) ، وله فى الحياة فلسفة تعتمد على الاستمتاع بقوة الشباب وعنفوانه ، والأخذ من مباهج الحياة بأكبر حظ ممكن ، وهو القائل :

« آه ما هى الحياة ، وأية متعة لنا فيها بدون أفروديت الذهبية ؟
ليكن الموت نصيبى إن صرت لا أعبأ بمثل هذه الأشياء
فالحب كالسر المكنون ، والهدايا مثل العسل أو النوم »

وهو يلمح الشيخوخة فى الأفق المنظور ولا يجد فيها أية متعة وهو يخشاها ويفضل عليها الموت لأنها مليئة بالأسى ، وهو يعرف أن حياة الإنسان قصيرة إذ يتساقط البشر بسرعة كأوراق الشجر ، وهذا نفس ما قاله هوميروس فى الإلياذة (الكتاب السادس بيت ١٤٦) .

« أجيال البشر كأجيال أوراق الشجر »

ولكن هوميروس كان يرى أن عمر الإنسان قصير فينبغى أن يملأه بأكبر قدر ممكن من أعمال البطولة والمجد ، أما ميمنيرم فقد حاول أن يملأ عمره القصير بشتى أنواع اللذة المتاحة .

وهذا المذهب هو الذى دان به الشاعر الرومانى بروبرتيوس إذ يخاطب فى إحدى قصائده الإليجية شاعراً ملحمياً معاصراً له فيقول :

« ماذا يفيدك أيها البائس أن تغنى أغنيتك الوقورة
وتقول لنا إن أمفيون بنى الأسوار بقيثارته .
فأشعار ميمنيرم فى الحب تفوق هوميروس
والحب اللطيف يتطلب أغانى عذبة الإنسياب »

ومعظم قصائد ميمنيرم تدور حول وصف عواطفه وتباريح غرامه ، ويتوجه بها إلى محبوبة اسمها نانو Nanno ويتميز بصفة عامة بحسن الإيقاع الموسيقى فى استخدامه للوزن الإليجى ، وكذا ثراء قصائده بالصور الشعرية الرائعة والمباشرة ، وقدرته على مخاطبة العواطف وإثارة المتعة .

(ج) تيرتى Tyrtée

عاش فى القرن السابع ق.م ، وهو أثينى الأصل ، ولكنه هاجر من أثينا إلى اسبرطة ، واختار التجنس بالجنسية الإسبرطية . وهناك رواية تقول : إن تيرتى الإسبرطى كان فى الأصل مدرساً أثينيا أعرج ، أرسله بنو وطنه إلى إسبرطة ، بناء على طلب منها — أو استجابة لنبوءة ما — كمساعدة من الأثينيين للإسبرطيين فى الحرب الميسينية الثانية ، التى كانت بالنسبة لإسبرطة مسألة حياة أو موت ، والتى استمرت من عام ٦٨٥ — ٦٦٨ ق.م ، وهذا يعنى أنهم رأوا فيه وحده ما يغنى عن إرسال أى مدد عسكرى أو معونة حربية ، وبالفعل أحدثت قصائده الحماسية أثرها ، لا فى حث الإسبرطيين على أن ينسوا نزاعاتهم الداخلية فحسب — وإنما على أن يحاربوا ببسالة حتى يتحقق لهم النصر .

وتنسب إليه قصيدتان كبيرتان ، تسمى إحداهما العظات Exhortations ، وتدور حول موضوع الفضيلة arete وأهميتها ، وطبيعة الرجل الفاضل أو الإنسان الممتاز aner agathos ، وهو يرى الفضيلة فى الشجاعة ، ويعتبر الرجل الفاضل هو المحارب الباسل ، وتسمى الثانية أونوميا Eunomie وموضوعها، كما يدل عليه اسمها ، الحث على النظام والعدالة ، ووصلتنا منها بعض الشذرات ومنها الشذرة (رقم٥) التى تقول :

« كم هو رائع موت رجل شجاع يقف فى الصفوف الأمامية للدفاع عن وطنه! هيــا نحارب بكل شجاعة من أجل هذه الأرض . هيا نموت من أجل أطفالنا لا نبخل بالحياة ، إليها أيها الشباب ، إلى الحرب فى صفوف متراصة ! . لا تدعوا أى رجل فيكم يسلم اللواء ويهرب بسبب الخوف ، لا تتركوا كباركم . من العار أن تروا بأعينكم محارباً مسناً يسقط فى المقدمة ، برأسه الصلعاء ولحيته البيضاء ، يغطى بيده عورته التى تنزف منها الدماء بعد أن شوه الأعداء جسده ، يا له من منظر كريه ومنفر ! .

بيد أن هذا لو وقع لشاب ... فهو أمر آخر ، فطالما أنه فى ريعان الشباب الزاهى فسيفوز بإعجاب الرجال ، وتعشقه النساء إن نجا من المعركة ، أما إذا سقط

جزحاً فى الصفوف الأمامية بقيت ملاحة حية لا تموت ، قفوا إذن ثابتين ٠٠٠ صامدين » .

وهو مثل كاللينوس يضع التكريم البشرى ضمن غكرة المجد البطولى الأوسع أفقا . وذلك حيث يقول (شذرة ٦ أبيات ١ — ٤) :

« نبيل ذلك الرجل الذى يسقط صريعاً فى الصفوف الأمامية بالمعركة
إنه يثبت قيمته كما ينبغى أن يفعل رجل يحارب من أجل وطنه
وأتعس الناس كافة من يهيم متجولا
كشحاذ هرب من مدينته وحقوله المعطاءة » .

ولغته ملحمية الطابع ، تعكس بعض الملامح الهومبرية .

(د) سولون Solon

أشهر مشرعى اليونان . وأول شاعر أتيكى الأصل والنشأة . إذ أن تـيرتى كما قدمنا أثينى الأصل إسبرطى النشأة . ولد بأثينا حوالى سنة ٦٤٠ ق.م من أسرة نبيلة عرفت باسم أسرة الكورديريديين Corderides وزاول فى صباه مهنة التجارة فى البحار وأصاب منها ثروة طائلة . ثم عاد إلى أثينا حوالى سنة ٦١٠ ق.م فوجدها على أسوأ حال من نواحى السياسة والاقتصاد والقضاء والخلق والدين ، فوقف جهوده على تخليصها من عوامل الفساد والنهوض بها فى جميع فروع الحياة ، وبرز فى الحياة السياسية لأول مرة إبان الصراع بين أثينا وميجارا حول ملكية جزيرة سلامين الملاصقة لشبه جزيرة أتيكا فى الخليج السارونى ٠ إذ نجح بالفعل فى طرد الميجاريين من هذه الجزيرة . ويروى بلوتارخوس أن سولون لكى يدعم ما تزعمه أثينا من تبعية هذه الجزيرة لها منذ القدم ، أقحم فى قائمة السفن بإلياذة هوميروس (الكتاب الثانى) بيتين لايزالان موجودين فيها ، وهما :

« من سلامين أحضر أياس اثنتى عشرة سفينة
ووضعها جنباً إلى جنب مع القوات الأثينية » ٠

وهذه الرواية تثبت سواء كانت صادقة أم كاذبة أن هوميروس كان يؤخذ كسند تاريخى موثوق به إبان عصر سولون ٠

ويقال كذلك فى روايات أخرى إن سولون نظم إليجية من مائة بيت ، وتظاهر بالجنون وارتدى ثياباً تنكرية ، وطاف فى شوارع أثينا يتغنى بها ، وكان مطلعها :

« جئتكم رسولا من حبيبتكم سلامين لكى أتغنى لكم بأخبارها »

(شذرة ٢ بيت ١ — ٢ Bergk)

وقد أشعلت هذه الأبيات الحماس فى قلوب الأثينيين ، فأعادوا إعلان الحرب على الميجاريين واستردوا منهم جزيرة سلامين .

وقد قدر الأثينيون جهوده حق قدرها ، فعهدوا إليه بأكبر وظيفة فى الدولة وهى وظيفة الأركونت Arckonte[1] . وكان ذلك عام ٥٩٤ ق.م ، وفوضوا إليه أمر تسوية النزاع الذى كان قائماً بين الدائنين والمدينين ، والذى بلغ حينئذ درجة كانت تهدد الدولة بشر مستطير ، فاضطلع بأعباء وظيفته وقام بما ندب إليه على أحسن وجه ، وكان أهم الإجراءات الاقتصادية التى اتخذها هى إلغاء الديون القديمة وتحريم استعباد المدين المفلس العاجز عن تسديد ديونه . وقد سميت هذه الاصلاحات باسم « ساى سكتيا » Seisachtheia . أى وضع الثقل ، كأنه قد وضع عن أعناقهم حملا ثقيلا ، واكتسب سولون بهذه الإجراءات شعبية كبيرة ، حتى إنه عهد إليه مع آخرين بوضع دستور أثينا وإصلاح قوانينها ، فقام فى هذا السبيل بما خلد اسمه فى التاريخ ، ووضعه فى صف كبار المشرعين . وقد غادر بعد ذلك أثينا ، وقضى عشر سنين فى رحلات مستمرة وأسفار طويلة زار خلالها كثيراً من البلاد الأجنبية بآسيا ومصر وغيرها . ولما عاد إلى أثينا ووجدها غارقة فى نزاعات داخلية انتهت بتأسيس نظام الطغاة حاول عبثاً أن يثنى الأثينيين عن تأييد بزيستراتوس Pisistrate وخاطبهم قائلا (شذرة ٨ أبيات ١ — ٤) :

« إن جبنكم وحده هو المسئول عن مصيركم التعس

---

(١) هذه الوظيفة كانت فى المبدأ وراثية يتولاها فرد واحد مدى الحياة ، ثم أصبحت منذ سنة ٧٥٢ ق.م موقوتة بعشر سنين ، ومنذ سنة ٦٨٣ ق.م أصبح يتولاها تسعة رؤساء لمدة سنة واحدة ، وقد تولاها سولون وفق هذا النظام .

لا تلوموا الآلهة ، لا تلوموا إلا أنفسكم
فأنتم الذين بأنفسكم حميتم تلك الطغمة
وملأتم بالغرور صانعى العبودية المشينة لكم » .

وقد كان لسولون فى عالم الأدب مكانة لا تقل عن مكانته فى نواحى السياسة والتشريع وشئون الحكم، وله قصائد كثيرة تشهد بألمعيته وعلو كعبه فى هذا الميدان وصلنا منها نحو مائتين وخمسين بيتاً. منها قصيدة فى موقعة سلامين ، وقصيدة فيما كان لإصلاحاته الاقتصادية من أثر فى هناء أثينا وسعادة أهلها ، وقد عرض لها أرسطو فى كتابه « نظام الأثينيين » ومنها :

« لقد منحت الشعب من السلطان ما يكفى ، من غير أن أحرمه شيئاً من حقوقه، أو أن أضيف إليه ما ليس له ، أما الذين كانوا يملكون القوة وكانت ثروتهم تعرضهم للحسد فقد حظرت عليهم أيضاً كل إسراف ، لقد وقفت أمام الحزبين محتمياً بدرقتى أتقى بها من كل جانب ، ولم أسمح لأحدهما أن يتفوق ظلما ...

وقد وضعت حداً لآلام الشعب ، ولمَ ؟ إنى لأستشهد أمام الزمان هذه الأم العظيمة الخيرة ، أم آلهة أوليمبوس ، هذه الأرض السوداء التى انتزعت قديما ، ماكان يقوم عليها من حد ، لقد كانت أمَـة بالأمس وهى اليوم حرة . كثير عدد هؤلاء الذين رددتهم إلى أثينا . هذا الوطن الذى أقامته الآلهة . لقد بيع كثير منهم عدلا مرة وجوراً أخرى . هؤلاء قضت عليهم الضرورة بالنفى ، فهم لا يتكلمون لغة « أتيكا » مشردين فى كل وجه . وآخرون هنا أذلاء قد أذعنوا للسطوة القاهرة، فهم يضطربون فزعاً أمام سادتهم . لقد رددتهم جميعاً أحراراً . هذا ما فعلت بقوة القانون ، لقد وفقت بين القوة والعدل فوفيت بكل عهودى . لقد شرعت القوانين للأخيار والأشرار ، وضمنت لكل منهم نصيباً من العدل ، ولو أن غيرى تولى هذا الأمر ، وكان له من سوء النية ومن الطمع ما ليس لى لما استطاع أن يحكم الشعب ؟ فلو قد أردت أن أسمع لأحد الحزبين فأنفذ مايريد، ثم أسمع للآخر فأحقق رجاءه ، لفقدت هذه المدينة كثيراً من أبنائها . لهذا اضطرتنى مقاومة الحزبين إلى أن أجدنى كمكان الذئب قد حصرته الكلاب من كل وجه .

لأقولن للشعب ، فليس له بد من هذه الصراحة المؤلمة : إنه قد يملك الآن من الثروة ما لم يكن يحلم به ، فأما العظماء الذين هم أشد قوة وبأسا فخليق بهم أن يحمدوا بلائى وأن يتخذونى لهم صديقاً ، فلو أن غيرى منح ما منحته من شرف لما استطاع أن يحكم الشعب ويهدئه دون أن يمخض اللبن ليستخلص منه الزُّبْـد ، ولكنى وقفت بين الفريقين ، كأنى بين جيشين يقتتلان ، حداً لا سبيل إلى تجاوزه » .

وقد ظهرت باكورة أعماله الشعرية فى قصائد خفيفة عن الحب ، تدرجت شيئاً فشيئاً لتصبح أكثر جدية ومليئة بالحكمة والمواعظ حتى إنه اعتبر من الحكماء السبعة، ولكنه مع ذلك لم يكن يحتقر متع الحياة ، ولم يعزف حتى عن « الغلمان فى ميعة الصبا المزهر » « وتاق لحلاوة الفخذ والشفاه » (شذرة ٢٥ بيت ١) ولكنه عندما تقدمت به السن هجر « الحب اليونانى » واتجه لعشق النساء والخمر والشعر ، ويؤكد لنا بلوتارخوس أنه « هرب من عواطف عشق الغلمان ووطد العزم على أن يبدأ حياة جديدة هادئة ، وتهيأ للزواج والفلسفة » .

يقول سولون (شذرة ٢٠) :

« حبيبة إلى نفسى أفعال القبرصية (أفروديت) وديونيزوس
وربات الفنون ، فهى تجلب لى السرور والمتعة »

ويقول (شذرة ١٣) :

سعيد حقاً من له أولاد يحبهم وخيول لها صهيل
وكلاب تتمتع بحاسة حادة فى الشم وأصدقاء يعبرون البحر » .

وروى أن سولون مات فى قبرص وأن عظامه بعثرت فوق جزيرة سلامين تبركاً بها .

(هـ) ثيوجنيس الميجارى

Théognis de Mégare

عاش فى القرن السادس ق.م . وظهر نبوغه فى النصف الأخير من هذا القرن ومنذ حوالى سنة ٥٤٠ ق.م . وقد نشأ من أسرة نبيلة فى بلدة ميجارا Mégare (على برزخ كورينثة) ثم نُفى من بلدته هذه ولم يعد إليها إلا فى أخريات

حياته . وقد ألف عدة قصائد إليجية وصل إلينا منها حوالى ألف وأربعمائة بيت ، تغلب عليها الصبغة التعليمية على طريقة هزيود ، ومعظمها موجه إلى شاب صغير من طبقة النبلاء اسمه كيرنوس Kyrnos بن بوليباوس Polypaos كان صديقاً للشاعر ويظهر أنه أحد أقربائه .

وفى هذه القصائد يوضح الشاعر لصديقه الشاب — على ضوء خبرته وتجاربه فى الحياة — مقاييس الأخلاق وسبل الخير وقواعد المعاملة الكريمة مع الناس وعدة النجاح فى الحياة على نحو ما فعل هزيود مع أخيه برسيس فى قصيدة الأعمال والأيام .

فعلى المرء أن يكون تقياً خاشعاً للآلهة (ب ٨٠٥ — ٨١٠) باراً بوالديه (١٣١) كريماً مع ضيوفه رحيماً بالمستجيرين (١٤٣) أميناً صادقاً مع نفسه ومع غيره (ب ٨٧ — ٩٢) مخلصاً ومستقيماً (ب ٣١٩) فالثروة فى حد ذاتها لا قيمة لها . إن لم تصاحبها الاستقامة وروح البر والتقوى (ب١٤٥ — ١٥٠) وخير ما يتحلى به المرء هو التعقل أو سداد الرأى gnome الذى يحفظ الإنسان من الإنسياق وراء الحماقات . والذى يقوده إلى بر النجاة . أما العجرفة وتجاوز الحدود hypris فهى خطيئة الإنسان الكبرى ، وهى أرذل الرذائل التى ابتلى الآلهة بها البشر (ب ١٥١) . فهى لا تجلب سوى الدمار . وكم من مدن أهلكت ، وهى الآن تهدد ميجارا بالخراب (ب ٤٤ ، ٥٤١ ، ٦٠٤ ، ٨٣٥)

وهو يتخذ من نفسه المثل الذى ينبغى أن يكون عليه كل يونانى ، فيقول (أبيات ٨٦٩ — ٨٧٢) :

ليت السماء النحاسية الهائلة تدق رأسى هذه الساعة
ليتها تزرع الرعب فى قلب كل رجل من أبناء الأرض
إن أنا تخاذلت فى مد يد العون لأحبائى
أو لم أسبب الألم والحزن لأعدائى »

وهو يعترف بأن ما يقدمه لصديقه إنما هو خلاصة ما أفاده من خبرة فى حياته ومنذ طفولته ، إذ يقول : إن ما أقدمه لك من حكمة يا كيرنوس هو ما تلقيته أنا نفسى فى طفولتى على يد طائفة من خيار القوم » (٢٧ — ٣٨) . وهو يقصد طبقة النبلاء التى ينتمى إليها .

وهو لا يكتفى من حب صديقه بالكلمات (إذ يقول (ب ٨٧ وما يليه)

« لايكفى أن تحبنى بالكلمات فقط

بينما قلبك وذهنك مشغولان بشىء آخر .

إما أن تحبنى بحرارة وصدق وإلا فاكرهنى ... وأعلنها صراحة » .

ثم هو يتجاوز النصح إلى نقد الناس وما يسيرون عليه . فهو يأخذ على الدهماء ضعة نفوسهم واستسلامهم لنير الذل والاستعباد (٨٤٦ — ٨٤٩) كما يأخذ على الخاصة (طبقة النبلاء) تهافتهم على المادة وعبادتهم للمال ، حتى إن الواحد منهم لايستنكف أن يختار زوجاً من منبت وضيع إذا كان فى زواجها مغنم مالى . مع أنه لا يرضى مثل ذلك لبهائمه ، فهو يبحث دائماً للنجيبة من إناث البهائم عن الفحل المعرق الأصيل (١٨٣ وما بعده) وهو فى هذه المقطوعة ينفس عن نفسه . إذ أنه أحب فتاة من طبقة النبلاء التى ينتمى إليها وخطبها إلى أهلها ، ولكنهم رفضوا الإصهار إليه لفقره وفضلوا عليه — مع نبله — رجلا غنياً من منبت وضيع .

وهو بعد هذا النقد يقول لكيرنوس : « فلا تعجب بعد هذا يا كيرنوس إذا رأيت الانحلال قد أخذ يدب فى الشعب الميجارى ، فقد اختلط حابلهم بنابلهم وامتزج الوضيع منهم بالرفيع » .

وهذه الروح التشاؤمية هى التى نجدها عند هيزيود فكلا الشاعرين يرى العالم من وراء منظار قاتم . ويتسقط عيوبه ويسىء الظن به . ويعتقد سيطرة نزعة الشر على أفراده . بل إن تيوجنيس لا يأمل كثيراً فى الدنيا ولا فى الآخرة ويقول (أبيات ٤٢٥ — ٤٢٨) :

« أن لا يكونوا قد ولدوا أصلا فهو أفضل ما كان يمكن أن يحظى به أبناء الأرض من القدر . أما إذا ولدوا بالفعل فعليهم أن يمضوا بسرعة نحو أبواب هاديس ليرقدوا هناك فى القبر تحت كومة من تراب الأرض » .

بل إنه يمضى إلى أبعد من هذا فيشك فى عدل الآلهة ، أو على الأقل يبدى عجزه عن فهم ما يدبرون . فيقول مخاطبا الإله زوس (٣٧٣ وما بعده) .

« إن تدبيرك لشئون الخلق ليملأ نفسى حيرة . أنت ملك العالم . وأنت

الغنى بسموك وقدرتك ؛ وأنت العليم بما تكنه صدور الناس وما تخفيه قلوبهم ، فكيف مع هذا يا ابن « كرونوس » يسيغ تفكيرك أن تسوى بين الخبيث والطيب ؛ وبين من تتجه نفسه نحو العدالة ، ومن يجنح إلى الظلم والعدوان ؟ بل إننا لنرى أن كثيراً من هؤلاء الخبيثين ينعمون بالسعادة الدائمة . بينما يشقى الطيبون بالفقر المقيم الذى هو منبع لجميع آلام الخلق » .

ويرى المؤرخون أن شعر تيوجنيس أقرب إلى الشعر التعليمى الخلقى منه إلى الشعر الغنائى . وكان من أثر ذلك أن الأثينيين حين وضعوا نظامهم التعليمى القائم على دراسة ما أثر عن الشعراء القدامى فى التربية الخلقية والأدبية . كان شعر تيوجنيس فى مقدمة ما اختاروه . وإلى هذا يرجع الفضل فى خلود معظم شعره ، ووفرة ما وصل إلينا من إنتاجه .

٣ — القصائد اليامبية L'Iambe

يقال إن القصائد اليامبية إنما سميت باسم الخادمة يامبى Iambé ، فقد كانت الإلاهة دميتير — بعد أن خطف إله العالم السفلى هاديس ابنتها برسيفونا — تسير بمفردها مهمومة فى منطقة إليوسيس ، ودخلت منزل شخص يدعى كيليوس ، فالتقت فيه بالفتاة يامبى ، واستطاعت الفتاة أن تجعل الإبتسامة تعلو شفتى الربة الحزينة ولأول مرة . إذ روت لها بعض الفكاهات المرحة . ويقال إن القدم اليامبية Iambos (u —) أخذت اسمها من اسم هذه الفتاة .

ويرى بعض الباحثين أن اسم هذه القدم مشتق من فعل Iamto بمعنى أهاجم ، إذ أن هذا الوزن كان يستخدم أصلا فى الهجاء ، وهذا الوزن بإيقاعه السريع يقترب كثيرا من الحديث العادى فى الحياة اليومية ، ومن ثم أصبح فيما بعد أداة الحوار بالمسرح اليونانى . والبيت اليامبى يمكن وزنه على هذا النحو .

u — u — / u — u — / u — u —

فهو مكون من ثلاث وحدات metra ، وكل وحدة تتكون من قدمين ، فهو إذن عبارة عن ست أقدام ، ويمكن استبدال مقطع طويل بالمقطع القصير فى بداية أى وحدة ، وأول من برز فيه هو الشاعر أركيلوك Archiloque .

(ا) أركيلوك Archiloque

نشأ ببلدة باروس paros ، وعاش فى صدر القرن السابع ق.م ويعتبر أشهر من نظم أشعاره بالوزن اليامبى ، بل وينسب إليه اختراع القصائد اليامبية ، وتزعم الأساطير أنه كان فى شبابه راعياً بسيطاً لقطعان من الماشية . وذات ليلة قمرية كان يسوق إلى المدينة بقرة من قطعانه يريد أن يبيعها ، وفى الطريق قابلته بعض الفتيات الجميلات ، فوقف يتجاذب معهن أطراف الحديث الفكه الممتع ، وينظر فإذا البقرة تختفى فجأة ومعها الفتيات الجميلات ، بيد أنه عوضاً عنها وعنهن وجد قيثارة قد ظهرت فجأة عند قدميه ، وعاد إلى منزله وقص ما حدث له على أبيه ياتيليسيكيس ورأى أبوه ضرورة الذهاب إلى دلف واستشارة نبوءة أبوللون ، وجاء رد النبوءة كما يلى : « سيصبح أحد أبنائك يا ياتيليسيكيس شاعراً خالداً ذائع الصيت فى أنحاء الدنيا كلها . إنه أول من سيستقبلك بالتحية عند عودتك إلى موطنك » وكان أركيلوك أول من استقبله عندما وطئت قدماه أرض جزيرة باروس قادماً من دلف. وترمز الأسطورة فى أولها بما تنبىء عنه فى آخرها ، فهؤلاء الفتيات الجميلات هن ربات الفنون قد استبدلن القيثارة أى الشعر الغنائى بالبقرة .

وقد انحدر أركيلوك من أسرة نبيلة ، بيد أن أمه كانت من العبيد، وسماه أبوه اسما أريستقراطياً هو أركيلوك ويعنى اسمه القيادة والزعامة ، وقد أحب أركيلوك فتاة جميلة تدعى نيوبوليه Néobulé وخطبها إلى أبيها ليكامبيس Lycambès فرفض زواجها به بعد أن كان قد وافق من قبل . فنفس أركيلوك عن غيظه بنظم قصيدة هجائية عنيفة هاجم فيها عائلة حبيبته بأجمعها ، وبلغ من عنف هذه القصيدة أن الأب وبناته جميعا قد انتحروا من العار الذى سيلاحقهم إلى الأبد .

ومن تغزله فى حبيبته نيوبوليه :

« غرق شعرها ونهداها فى العطور
إنها قد تثير شهوة رجل مسن ، بلغ أرذل العمر
يا لشقائى ! لم أعد بقادر على التنفس بعد أن سيطرت علىّ الرغبة
وهاجمتنى الآلهة بمعاناة قاسية حتى النخاع

لقد هدنى طول الإشتياق : . .

لم تعد تحركنى الولائم ولا متع الشعر

ليتنى أستطيع أن أضم نيوبوليه إلى أحضانى عاريين » .

وكتب أركيلوك بعض القصائد يسرد فيها قصصاً عن الحيوانات والطيور ، ويقال إنه يرمز بها إلى نفسه وظروف حياته ، فنى قصة الثعلب والصقر يقول : إنهما كانا صديقين حميمين ، ثم صارا عدوين لدودين ، إذ ابتلع الصقر صغار الثعلب ، ثم وقع صغار الصقر من عشهم فأكلهم الثعلب ، فهو يتخفّى وراء شخصية الثعلب ، أما الصقر فهو ليكامبيس والد حبيبته الذى افترس أحلامه . يقول الثعلب (شذرة ٩٤) :

« زوس . أى زوس الأب ، أنت تحكم السماء

وتراقب ما يفعل البشر من علياء

يفعلون الحق وغير الحق .

وفى عالم الحيوان أيضاً ، وبقوتك

تحس بما يحدث ، بالفعل الصحيح وبالكبرياء »

وهو يرى الحياة أغلى من أن يفرط فيها لأى سبب ، وحين تلحق الهزيمة بالجانب الذى يحارب فى صفه ، يلقى درعه ويولى الأدبار ، وبدلاً من كتمان هذه الفضيحة ، يعلنها صراحة على الملأ ويجعلها مادة للسخرية فى قصائده (شذرة ٦ Diehl) ويبدو أنه يفضل أن يعيش كلباً على أن يموت أسداً ، فبعد الموت لا يبقى للانسان أى شىء من احترام ، إذ لا يلبث أن ينساه الناس مهما كان شهيراً وقد لا تبقى له إلا الإهانات (شذره ٧) .

وهو مع ذلك يفخر بأنه يعيش للحرب ، والشعر فيقول (شذرة ١) :

« أنا خادمه ، خادم السيد إله صيحة الحرب

وأتقن فنون رباب الفنون التى أحبها إلى أقصى حد » .

والغريب أن نهايته كانت فى إحدى المعارك التى خاضها باروس ضد أهل جزيرة ناكسوس ، قتله رجل يدعى كالونداس ، وأصبح فخراً لباروس شاعراً ومحارباً ، وجاءت نبوءة دلف تدين كالونداس الذى قتل خادم ربات الفنون ، وأطلق على القاتل لقب « الغراب » .

(ب) سيمونيد الأمورجوسي

Semonide d'Amorgos

هو ابن الشاعر كريتياس الذى تنسب إليه بعض القصائد الإليجية .

ولد ببلدة ساموس Samos ثم هاجر منها إلى أمورجوس Amorgos ، ونال جنسيتها ، ولذلك نسب إليها .

وقد ينسب إلى ساموس التى ولد بها ، وكثيرا ما يختلط اسم سيمونيد Semonide من ساموس أو أمورجوس مع الشاعر الآخر الأشهر سيمونيد Simonide من سيوس وسبب الخلط أن الحرف e بالمقطع الأول فى اسم هذا الشاعر وفى اللغة اليونانية بصفة خاصة صار ينطق بصورة تقربه جداً من الحرف i فى عصور لاحقة .

وعاش فى العصر الذى عاش فيه أركيلوك ، وتنسب إليه قصيدتان من أشهر القصائد اليامبية القديمة ، إحداهما فى « بؤس الإنسان » وتتألف من ثمانين بيتاً ، والثانية فى « النساء » وتبلغ مائة وثمانية عشر بيتاً . وفيها يقول : إن عقول النساء على اختلافها يمكن أن نجد لها ما يقابلها فى الحيوانات ، فالمرأة بعقلها إما أن تشبه الخنزيرة أو أنثى الثعلب ، أو الكلبة ، أو أنثى الحمار أو الفرس ، وبعض عقول النساء ترابى المزاج ، أو بحرى الطبع ، أمّا أفضل العقول النسائية ، فهو الذى يشبه النحل ، وتنساب هذه القصيدة فى إيقاع أقرب ما يكون إلى الحديث الدارج ، البعيد عن اللغة الملحمية الوقورة ، أو اللغة التعليمية السامية ، تقول بعض أبيات هذه القصيدة (بيت ٢٧ — ٤٠) :

« فى يوم ما تجدها مفعمة بالضحك ، متألقة
وقد يراها غريب بالمنزل فيمتدحها قائلا :
لا وجود لسيدة أروع
ولا أحلى على سطح الأرض منها
وفى يوم آخر قد يكون من العسير الاقتراب منها
أو حتى إلقاء نظرة عليها ... فهى مجنونة
مسعورة كالكلبة التى تخاف على جرائها
إنها ثائرة لا يمكن لأحد قط أن يهدىء من روعها

صخرة تتحطم عليها جهود الأعداء والأصدقاء على حد سواء
وهى أحياناً كالبحر الراقد فى هدوء لطيف
معظم أيام الصيف حيث يتمتع به البحارة
بلا حدود . ولكنها سرعان ما تنقلب إلى الجنون
فتكتسح كل شيء أمامها بموجاتها العارمة
المرعدة ، المتلاطمة » .

وهذا الخيط الهجائى هو الذى سيتابعه هيبوناكس فيما بعد ، وسيصل به إلى حد البذاءة .

واشتهر سيمونيد بإبجراماته الرائعة . والإبجرامات فن شعرى بدأ فى الظهور منذ أوائل القرن الخامس ق.م ، ووصل إلى أقصى ازدهار له إبان العصر الاسكندرى . والابجرامة تسجيل لذكرى ما على قطعة حجر ، أو معدن ؛ ككتابة اسم ووطن الميت على قبره ، وقد أراد اليونان بفكرهم وفنهم الجماليين أن يكون هذا التسجيل شعراً ، فنشأت العادة أن يكتب بيت أو بيتان لهذا الغرض ، وبزغ الثنائى الإليجى كأحسن وزن ، وإن لم يكن الوحيد فى هذا المجال ، وقد تصدى له كبار الشعراء ، إذ ليس من السهل أن يوجز المرء كل ما يريد قوله فى عبارات قصيرة محكمة ومعبرة .

(جـ) هيبوناكس الإفيسى

يُنسب إلى إفيس ، وعاش بعد أركيلوك بقرن من الزمان . إذ اشتهر فيما بين سنة ٥٤٠ و ٥٣٧ ق.م . ويعتبر صورة مكبرة منه ، ويبدو من اسمه الذى يحمل معنى الفروسية أنه مثله قد انحدر من أسرة نبيلة ، وكان قد نُفى على يد أحد الطغاة إلى كلازوميناى بالقرب من أزمير ، وقد تكون حدة لسانه هى السبب فى نفيه ، وقد اخترع الوزن اليامبى الجديد المسمى « سكازون » Skazon أى الأعرج ، أو « خوليامبوس » Choliambos أى المترنح ، لأنه جعل البيت اليامبى ثلاث وحدات ينتهى بقدم تروخى أو سبوندى ، وهى نهاية مترددة وغريبة . وتدور بعض الشذرات التى وصلتنا منه (شذرة ١٥ — ٢٢) حول قصة حبه لفتاة تدعى « أريتا » Arete .

ويعتبر هيبوناكس شاعر الطبقات الدنيا وقاع المدينة . إذ استخدم لغة دارجة. وكان له تأثير ملموس على الكوميديا ، وعلى الشعر الإسكندرى ، ويقال إنه أول من اخترع فن المعارضات الأدبية .

(٤) القصائد الميليكية

Poésies Méliques

تمثل القصائد الميليكية أرقى أنواع الشعر الغنائى وأبعدها عن شوائب الفنون الأخرى . فهى قصائد غنائية خالصة فى موضوعها وفى أوزانها • فهى لا تعرض إلا للموضوعات الخاصة بالشعر الغنائى والتى تدور حول الوجدان والعاطفة ، وهذا على عكس القصائد الإليجية التى رأينا أنها كانت تنحو أحياناً منحى الشعر التعليمى ، ثم هى مؤلفة من بحور موسيقية توقيعية توائم الغناء الفردى والجمعى ، وتغرى الجسم بمحاكاتها ، فتدفعه إلى الرقص التوقيعى ، وتنظم من حركاته . وهذا على عكس القصائد الإليجية واليامبيه التى رأينا أيضاً أن أوزانها كانت أدنى إلى أوزان الشعر الملحمى منها إلى أوزان الشعر الغنائى . حتى إن الشعراء لم يلبثوا أن صدفوا فى إنشادها عن الغناء التوقيعى والآلات الموسيقية ، وآثروا إلقاءها كما تلقى قصائد الشعر الملحمى .

وتنقسم القصائد الميليكية إلى قسمين ، نقف عند كل منهما وقفة خاصة ، نوضح خصائصه ونترجم لأشهر شعرائه •

أولا : القصائد الميليكية الشعبية

وهى قصائد عامية اللغة ، سهلة الأسلوب ، لا تكاد تختلف عن الحديث العادى ، ساذجة فى تأليفها وموسيقاها ، تجرى فى بحور شعبية سهلة قصيرة . وقد انتشر هذا النوع على الأخص فى جزيرة ليسبوس Lesbos ، (وهو الإسم القديم لجزيرة ميتيلين Mytilène الواقعة ببحر الأرخبيل) ولذلك سمى « بالغناء الليسبوسى » . وذلك أن أهل ليسبوس كان يغلب عليهم السذاجة فى التفكير والبساطة فى أمور الاجتماع ، ومجانبة التعمق فى أمور السياسة • وشدة الرغبة فى الأخذ بحظ وافر من لذائذ الحياة ، وقد انعكس هذا كله على إنتاجهم الغنائى • فتألف من قصائد شعبية عامية اللغة لا أثر فيها لعمق الملاحظة ولا لدقة الخيال ، وجرت بحورها فى أوزان سهلة قصيرة ، ودارت موضوعاتها حول وصف الجمال وشئون الحب والنسيب ، وألوان الطعام والشراب وحفلات العرس ومدح العروسين ، والتوسل

إلى الآلهة ، وما إلى ذلك • وقد كان هذا النوع ينشد فى المناسبات الخاصة كالأفراح وما إليها ، وكان يغنى فى الغالب غناء فردياً (مونوديا Monodie) •

وقد حفظت لنا الآثار من هذا النوع قصائد ينسب أكثرها لشعراء ليسبوسيين ، وأقلها لشعراء غير ليسبوسيين • ومن أشهرهم هؤلاء الشعراء الثلاثة الذين سنترجم لهم

(١) ألسى Aicée

ولد فى مدينة موتيليني ، بجزيرة ليسبوس حوالى سنة ٦٤٠ ق٠م ، من أسرة أريستقراطية ، ونظم أشعاره فيما بين سنة ٦١٠ و ٥٨٠ ق٠م • وكان محارباً جوالا طوّف فى بلاد كثيرة من بلاد اليونان • ومعظم أشعاره مستوحى من تجارب حياته غير المستقرة ، والمليئة بالقلاقل والتقلبات فى معترك السياسة والحرب ،ومغامرات الحب ، وكان إذا فرغ لنفسه غنى للخمر والحب ، وفى رأيه أن الخمر دواء لكل داء • وعلاج شافٍ لكل الشرور بما فى ذلك سوء الحظ والشيخوخة (شذرة٨٦٥) بل إنه كان يرى أن الخمر هدية ثمينة قدمها ديونيزوس للبشر نفعاً لهم ، سواء أكان الجو عاصفاً زمهريراً ، أم حاراً خانقاً (شذرة ٩٠) وله أناشيد فى تكريم أفروديت وإيروس وديونيزوس وأبوللون وأثينا وهيرميس وهيفيستوس ، بل وفى تكريم البطل أشيل وأياس • وكذا عرائس البحر • ويتبين من الشذرات المتبقية له أنه كتب أغانى فردية عن الأحوال السياسية وحفلات الشراب والحب ، بالإضافة إلى بعض القصائد التأملية • ويبدو أنه أعاد صياغة بعض أغانى الفولكلور ، ومع أن الطبيعة لا تلعب إلا دور الخلفية فى أحداث حياته التى يسجلها فى شعره فإننا نجده يخاطب نهراً مقدونياً فيقول (شذرة ٤٥ بيت ١ — ٣)

« أى هيبروس يا أجمل الأنهار
تجرى عبر أفينوس إلى مياه البحر الداكنة الزرقاء
وتفيض بالخير عبر الأراضى الطراقية »

وهو يدعو للتمتع بالحياة قائلا : إننا لا نعيش مرتين ، وينبغى أن نتعلم الدرس من سيسيفوس الذى هرب ذات مرة من العالم السفلى ، وقد كان أحكم الناس ، ولكنه لم يستطع الهرب مرة ثانية . وهو مثل تيوجنيس يرى الفقر يقصم ظهر

الإنسان وينغص عليه عيشته ، لأنه يفقده احترام الناس ، وهو يعقد مقارنة بين هيلين صارخة الجمال وجالبة الخراب على الطرواديين . وبين تيتيس التى تزوجت بيليوس وولدت أشيل .

وقد عاشت سافو مع ألسى فى نفس مدينة موتيلينى ويقال إنه أحب هذه الشاعرة ولكنها صدته ، ووصلتنا أخبار هذا الحب فى شذرة باقية من أعماله (٦٤) يقول لها :
« أى سافو ، أيتها المقدسة ، يا ذات الشعر البنفسجى والبسمة العذبة ، إنى أتلهف للحديث إليك ، بيد أن الحياء يمنعنى » .

وقد ردت عليه سافو فقالت له (شذرة ١٦٠) : « إن كانت الرغبة فى قلبك من أجل الخير والجمال فحسب وإذا كان لسانك عفا لم ينبس ببنت شفة خبيثة فإن الحياء لن يحجب عنى بريق عينيك » .

وكان ألسى يتغنى بأشعاره لنفسه ولدائرة ضيقة من أصدقائه ، وليس بالضرورة فى أية مناسبة عامة أو خاصة ، وهو ينظم أشعاره باللهجة الليسبيسية المحلية ، وإن داخلها بعض مفردات الموروث الملحمى ، ومن المحتمل أن الأوزان التى استخدمها جاءت من الأغانى الشعبية التقليدية . ولا تزال الوحدة العروضية فيها هى المقطوعة التى لا تكاد تزيد عن أربعة أبيات . بل هى فى الأغلب من بيتين فقط ، وهى بالطبع تختلف فى الشكل والمضمون عن الأغنية الجماعية .

وكان ألسى فى مطلع شبابه متمردا على حكم الطغاة الثلاثة ميرسيلوس ، وديتوميتيس وبيتاكوس مما أدى فى النهاية إلى طرده ونفيه إلى بيرها Pyrrha وهناك نظم قصيدة (شذرة ٤٢) يصف فيها اضطراب الأحوال السياسية ، ثم قامت معركة سقط فيها ميرسيلوس صريعاً (شذرة ٣٣٢) فاعتلى كرسى الحكم من بعده بيتاكوس وكان ألسى على علاقة طيبة معه ، ووصلت قوة بيتاكوس إلى الذروة فهاجمه ألسى بقصيدة قال فيها : إن إنتخابه يعد ضرباً من الجنون (شذرة ٣٤٨) وتندر ببعض عيوبه الخُلقية والخَلْقية وانتقد زواجه المغرض (شذرة ٦٩) ونتيجة لهذا الهجوم نفى إلى مصر ، ثم هاجر إلى طراقيا (شذرة ٤٥) وقبل أن يعتزل بيتاكوس الحكم عام ٥٨٠ ق.م عفى عنه فعاد إلى وطنه .

(ب) سافو Sapho ou Sappho

ولدتْ سافو فى مدينة موتيليني – وفى رأى آخر فى قرية إيريزوس Erésos وكلاهما فى جزيرة ليسبوس – وانحدرت من أسرة ثرية تنتمى للأريستقراطية ، وانتماؤها للجنس الناعم جعل منها شخصية فريدة فى التاريخ الأدبى عند اليونان ، حتى إن النقاد اعتبروها وبصفة عامة شاعرة من الطراز الأول ووضعوها إلى جوار هوميروس . ويتحدث عنها سترابون وكأنها « أعجوبة» ويصفها أفلاطون بأنها « ربة الفن » العاشرة ، أى أنه أضافها إلى ربات الفنون التسع « الموسيات » الملهمات لكل شعراء الإغريق .

وجمعت سافو حولها بعض الفتيات الصغيرات ، فى شكل منتدى ، أو جماعة أدبية Thiasos بهدف تعليمهن الموسيقى والشعر ، وعبادة ربة الجمال والحب والتناسل أفروديت ، وأطلقت على منتداها اسم « دار خدمة الموسيات » . وإذا كانت فنون الموسيات تشمل كل ألوان الفن والثقافة ولا تقتصر على الموسيقى والرقص والشعر ، فإن ذلك يعنى أن برنامج الدراسة عندها كان يتضمن مواد جادة للغاية . ولم تكن ترمى إلى تخريج فتيات محترفات فى هذه الفنون ، وإنما كانت ترمى فى الأساس الأول إلى تكوين الشخصية النسائية المتكاملة والصالحة للزواج . وكمدرسة ناجحة وشاعرة موهوبة اقتنعت سافو بأن أفضل وسائل التعليم هو الحب ، فسبقت سقراط بذلك ، ووقف سقراط به عند الجانب الروحى . أما هى فمدته إلى ماوراء ذلك .

وكان الحب بلا منازع هو أهم أغراض الشعر الذى نظمته سافو ، كانت تنظمه فى عفوية وتلقائية حيناً ، وفى رقة ونعومة حيناً آخر ، ولكنها كانت تعانى فى كل حين من عاطفة نارية ، يلعب النساء فيها أهم الأدوار ، وتظهر صورهن فيها دائماً مشرقة بهيجة ، فى حين يتقلص دور الرجل ، ولا نجد له فيها دوراً بارزاً ، ووصلتنا شذرات تتحدث عن هؤلاء النساء بالاسم ، منهن أتثيس Atthis التى تحظى بمكانة خاصة فى قلبها (شذره ٤٠ و٤١) وجيرنو Gyrinno وأنا كتوريا Anaktoria وجونجيلا Gongyla وأريجنوتا Arignota . وفى إحدى الشذرات تقول سافو : إنها تحسد زوج حبيبتها ، فهو كالإله لأنه حظى بها دونها ، وهى عندما تراها يكاد يغمى عليها من شدة الإعجاب وقوة الانجذاب . وهذه العاطفة القوية من سافو تجاه

النساء — رغم مخالفتها للمألوف — لم تنته بها إلى حد المرض أو الشذوذ . ويمكن أن تكون نوعاً من الحب الرومانسي الذي يتبادله أبناء أو بنات الجنس الواحد .

ونظمت سافو أيضاً أغاني الزواج Epithalamia وهي مقطوعات يتغنى بها في أفراح الزواج لتهنئة العروسين ومدحهما والتفكه بوصفهما في صور بهيجة ، وهو ما نطلق عليه الآن في مصر اسم « زفة العروس » .

وتدلنا الآثار على أنه قد تألف من شعرها تسعة أسفار كاملة ، ولكن لم يصل إلينا من هذا كله إلا بعض الشذرات ، وقطعتان كاملتان رواهما المؤرخان دونيس الهاريكارناسي ولونجين ، Denys d'Haricarnasse et Longin .

وتبدو في أوضح صورة مظاهر الشعبية والسذاجة والسهولة في جميع نواحي شعرها ، ألفاظه وأسلوبه وأوزانه ، وخاصة في قصائد الأفراح والزواج .

وقد نفيت سافو من ليسبوس لأسباب سياسية كما نفي ألسي ، وقد كان بينهما علاقات ودية كما ذكرنا . وكانت قد أمضت فترة الصبا في جزيرة صقلية ، فلما نفيت عن الوطن ذهبت إليها ، وكان لها أخوان تحدثت عنهما في شعرها ، وأحدهما وهو الذي يدعى كراكسوس Charaxos وقع في حبائل امرأة ساقطة تعطيها سافو اسم دوريخا Doricha (شذرة ٢٦) ويسميها هيرودوت رودوبيس Rhodopis وقد هجتها سافو في قصائدها هجاء لاذعا وهجت أخاها معها .

ويروى أن أخاها هذا قد أصبح قرصانا بعد أن فقد ثروته في مصر ، ولدينا شذرة أخرى من سافو (٢٥) تتضرع فيها إلى بنات نيريوس (عرائس البحر) أن يُعدن إليها أخاها سالما ، وأن يزرعن في عقله رأياً أفضل عمن يحبونه وينتظرونه . ويؤخذ من روايات كثيرة أنها قد تزوجت من رجل يدعى كيركيلاس Kerkylas من أندروس ، وأنجبت منه بنتاً حملت اسم كليس Kléis وهو اسم أم سافو أيضاً .

ويؤخذ من روايات أخرى أنها شغفت حباً بفتى جميل اسمه فاؤن Phaon ، ولكنه لم يبادلها نفس الشعور وصدها ، مما دفعها إلى أن تلقى بنفسها منتحرة في البحر من فوق قمة جبل لوكاد Leucade بإقليم إبيروس شمال غربي بلاد اليونان .

وتختلف سافو عن ألسي في أنها لم تذكر كثيراً الأحداث السياسية التي عاصرتها

وعانت منها ، ذلك أنها ركزت مشاعرها وكرست موهبتها لعواطفها الخاصة ، وتحكى لنا سافو كيف أن الربة أثينا قد ظهرت لها بعد أن نزلت من السماء فى عربة مجنحة وسألتها عن متاعبها . ثم طمأنتها وبشرتها بأن كل شيء سيكون على خير ما يرام مستقبلا ، وقالت لها عن حبيبتها التى هجرتها (شذرة ١ بيت ٢١-٢٤) .

« إذا كانت تهرب منك الآن فستجرى خلفك فيما بعد
وإذا كانت ترفض هداياك فستمنحك هى الهدايا عما قريب .
وإذا كانت لا تحبك فسوف تخضع لسلطان الحب شاءت أم لم تشأ »

وتتعمق سافو الأحاسيس ولا تقف عند مظاهرها معبرة عن مكنونات نفسها فى غاية من التلقائية والصراحة ، تقول إنها ذات مرة لمحت فتاة تجلس إلى جوار رجل تحبه ، تتحدث إليه وتضاحكه ، فغلبتها العاطفة ، وغشتها مشاعر الغيرة ، وانعكس ذلك فى بعض الأعراض الفيسيولوجية التى اعتورتها فتلعثم لسانها حتى لا تستطيع الكلام ، واندلعت نيران وهاجة تحت جلدها ، وصك مسامعها طنين له دوى ، فامتقع لونها ومالت صفرة بشرتها إلى اخضرار الأعشاب وأحست كأنها على شفا الموت . إذ ستخرج روحها وتفارقها الحياة .

ولأننا نفهم كيف كان يمتلكها الحب تجاه تلميذاتها ، وكيف كانت تريد أن تشاركهن كل ألوان المتعة ، فقد كان فراقهن يسبب لها كثيراً من المتاعب ، وإذا تزوجت إحداهن أو رحلت بعيداً عنها ، فإنها كانت تشعر بفراغ كامل ، وحين تقول إنها كانت حينئذ تود أن تموت فإنا نصدقها ، إنها عندما تحب تذوب فى المحبوب ، فاذا غاب الحبيب فقدت سبب الوجود نفسه ، وأحست بأنها فارغة من الداخل ، والحب عندها « حلو فى مرارة العلقم ومخلوق لامهرب منه (شذرة ١٣٠) بل إن الحياة عندها هى الحب ولا شيء غير ذلك . وهى لاتخجل من عواطفها ولا تتردد فى التعبير عنها ، وهذه العواطف المتبادلة بينها وبين تلميذاتها قد جعلتهن يحب بعضهن بعضاً ، وذات مرة تزوجت إحدى تلميذاتها ، ولكن فى سن متقدمة نسبياً . فشبهتها سافو بالتفاحة التى احتلت أعلى مكان بين أغصان الشجرة ، فلم ينتبه إليها الشبان الذين يجنون الثمار القريبة من أيديهم ، ثم تجرى حواراً بين عروس و « عذريتها » التى جسدتها (شذره ١١٤) .

« العروس : أيتها العذرية ، إيه يا عذريتى ، أين ذهبت بعيداً عنى ؟
العذرية : لن أعود إليك ثانية ... لا لن أعود أبداً » .

وهى تتخذ من الطبيعة خلفية للحب ، وتسمى العندليب « رسول الربيع المتحدث بلسان الحب » (شذره ١٣٦) وهكذا ينضج شعرها بعذوبة قلما نجدها فى الشعر اليونانى كله .

ثم هى وكما ألحنا لاتقصر عاطفتها على تلميذاتها ، فهى تحب أخاها ، وابنتها كليس التى تقول عنها إنها « مثل زهره ذهبية » (شذره ١٣٢) وأنها لا تقايضها بمملكة ليديا الواسعة بممتلكاتها وكل ثرواتها .

وهى تتميز بالصدق والحيوية والدفء ، فتجعلك تحس بأنها امرأه حقيقية أحبت بالفعل ، لا تحتاج إلى أن تستخدم المجاز ، لأنها تتحدث من القلب فيصل كلامها إلى القلب ، فهى تقول : إنى أحبك يا أتثميس منذ زمن بعيد » .

وتصف أفروديت بأنها « مبتسمة بشفتين خالدتين » لا يحتاج فنها إلى صور شعرية يزيده ثراء ، لأنه ذهب إلى ما وراء الصور الشعرية ، وحقق أكثر مما تحققه . تبدو أشعارها غاية فى البساطة وكأنها نظمت بلا جهد ، ولكنها غاية فى الإتقان والروعة ، وذاك هو السهل الممتنع .

(ح) أناكريون Anacréon

ولد سنة ٥٧٠ ق.م . إذ عرف أنه بلغ سن النضج فى النصف الثانى من القرن السادس ق.م . وكانت ولادته فى مدينة تيوس Téos من مدن آسيا الصغرى ، فهو إذن يونى وليس ليسبوسيا ، وترك تيوس سنة ٥٤٥ ق.م عندما كان يتهددها الخطر الفارسى ، وذهب مع بعض مواطنيه لتأسيس مستوطنة جديدة فى تراقيا هى أبديرا . وقضى شطرا من حياته فى جزيرة ساموس المواجهة ليونيا بعد أن استدعاه طاغيتها بوليكرات polycrate لكى يعلم ابنه الموسيقى ، وقضى شطراً آخر فى أثينا فى حاشية هيبارك Hipparque ابن الطاغية بزيستراتوس ،وقد كرم هناك إذ يقال أن تمثالا قد أقيم له فوق الأكروبوليس ، ثم هاجر إلى تساليا Thessalie بعد موت هيبارك فهو شاعر بلاط تقليدى ذو ألمعية ودفء . وقد عمر طويلا ، فعاش نحو خمس وثمانين سنة . وتحدث هو نفسه عن ذلك فى بعض أشعاره ، وعندما مات كان مايزال محتفظا بحيويته . ويقال أنه مات بسبب بذرة عنب توقفت فى حنجرته .

وكان يميل إلى حب الملذات وحياة المتعة . فى هذا الإطار الذى نسميه الحياة اليونية Bios Ionikos فى أكمل صورها ، وهى حياة يمقتها المحافظون على التقاليد القديمة والمدافعون عن الأخلاق القويمة ، بينما يحبها الأدباء والفنانون ويغرقون فيها إلى آذانهم .

وهو من أشهر شعراء الغناء فى موضوعات الحب والنسيب فهو من هذه الناحية يشبه سافو ، ولكنه يمتاز عنها بأن أسلوبه كان إلى أسلوب الخاصة أدنى منه إلى أسلوب العامة . وتشبه بعض قصائده « أغانى الولائم » Skolia ، وهى أغان كانت تؤدى بعد تناول وجبة الغذاء لتسلية الضيوف . ووصلتنا أغنية من أغانى الولائم » عثر عليها فى أتيكا وتقول :

« بالنسبة للإنسان تأتى الصحة أولا فهى أفضل الممتلكات .

وبعدها ثانياً أن يولد جميل القسمات .

وثالثاً الثروة التى يكسبها بشرف .

ورابعاً أيام الشباب يقضيها فى متعة مع الصحاب » ؟

وقد فضل أناكريون وزنا خاصاً أطلق عليه إسمه فيما بعد ، إذ نُظِمت به مجموعة من الأغانى فى وقت لاحق ، وتعرف باسم « الأناكريونيات » AnaKreonte وهذه الأشعار أكسبت الشاعر شهرة عالمية فى عصورنا الحديثة .

وقد أصدر أريستارخوس أعماله فى ستة كتب ، مقسمة إلى الأغانى الفردية Mele اليامبيات iamboi والإليجيات Elégie واحتوت المجموعة الأولى على قصائد غنائية فردية فى الغالب مثل أناشيد للربة أرتميس ، ولإله الحب إيروس ولإله الخمر ديونيزوس . وأغانى حب لكليوبوليس ، وأغانى غداء ، وأخرى لحفلات الشباب وفى الشذرة رقم ١١ نجد قصيدة بعنوان « إلى إيروس » :

يقول فيها :

« إنى أريد ... أريد أن أحب
ولقد زين لى إيروس أن أحب
فأبيت من جهلى أن أصغى إليه
فقبض من فوره على قوس من ذهب
ودعانى إلى القتال ... لبست له الحديد ...
فأمسكتُ بالرمح والدرع !
ونهضت كأنى أشيل
أنازل إيروس فسدد لى سهاماً
حِدتُ عنها فطاشت ، ونفذت سهامه
فتقدم إلىّ يتقد غضباً
وهجم علىّ فاخترق جسمى
ونفذ إلى قلبى ... وانهزمت
يا لها من حماقة أن أتقى بدروع
أىُّ سلاح خارجى ينتصر على إيروس
إذا كانت المعركة قائمة داخل نفسك »

وسئل أناكريون ذات مرة : لماذا لم يكتب أناشيد دينية للآلهة كالشعراء القدامى . بدلا من أن ينظم الأشعار متغنياً بجمال الغلمان ، فرد قائلا : « لأن هؤلاء هم آلهتنا » وهو يقول عن إيروس « سيد الآلهة وسائس البشر » .

ثانياً : القصائد الميليكية الراقية

وقد ظهر هذا النوع فى شبه جزيرة البيلوبونيز بمدن الدوريين ، ومعظم شعرائه منهم ومن ثم أطلق عليه الغناء الدورى ويغلب فى قصائده استخدام اللغة الدورية الفصحى مع مزيج من جمل وتعبيرات من لغات شتى . وتنحو أساليبه نحو تجويد القول وبلاغة العبارة وقوة التأثير ، كما تنحو بحوره وأوزانه نحو دقة التأليف وسمو الموسيقى . وتدور موضوعاته حول الشئون العامة كمظاهر الحياة الإجتماعية والعاطفية والوطنية والدينية . فلا يعرض الشاعر فيه لشئونه الخاصة أو لأمور تتصل بشخصه وعواطفه وذوقه ، وإنما يترجم عن العقل الجماعى ويعبر عما يختلج فى صدور مجتمعه من عاطفة ووجدان .

ومن هنا اتخذ هذا النوع من الشعر مواطنه التى ينشد فيها ، فكان ينشد فى المناسبات الوطنية العامة كأعياد الآلهة وأعياد أبطال اليونان الأولين ، وأعياد الأمراء والملوك ، وأفراح العظماء الذين لهم شأن فى تاريخ بلادهم . وكان يغنيه فى الغالب فرقة من المغنيين ينتمون إلى الأسرات العريقة فى المدينة وإلى أقدم عشائرها وذلك حتى يتلاءم تأليف الفرقة مع سمو الموضوعات واتصالها بالشعور الجماعى والعاطفة الوطنية والشئون العامة .

وإذا كان الغناء — كجزء من الموسيقى — قد شكّل مبدأ مُهِمّاً فى برامج التربية عند اليونان ، واحتل مكانة لا تقل عن تعليم القراءة والكتابة ، فقد نجم عن ذلك توافر أعداد ضخمة من الفتيان والفتيات الذين يجيدون هذا الفن ، ويمثلون كوادر فنية يمكن أن يستغلها أى شاعر غنائى . وإذا كان اليونان بطبعهم — مع ذلك — ميالون إلى ممارسة فن الرقص ، فقد توافرت إذن العناصر الثلاثة الرئيسية للغناء الجماعى (الكورالى) وهى الشعر الجيد المنغم ، والموسيقى المصاحبة ، والحركة التعبيرية الرشيقة ، وصار من اليسير تشكيل الجوقات وتدريبها .

وكان الشعر الغنائى اليونانى يُنـَـظم فى « استروفات Strophe » أو مقطوعات ، ففى كل أغنية كانت الاستروفة أو المقطوعة من الناحية العروضية تتكون من جزءين مختلفين ، هذا منظوم بأسلوب وذاك منظوم بأسلوب آخر ، ثم تأتى الاستروفة الثانية

أو المقطوعة الثانية ، وهي بلورها مكونة من جزءين (ثالث ورابع) فالثالث يماثل الجزء الأول فى الاستروفة الأولى ، والرابع يماثل الجزء الثانى فيها،وهكذا.

ولما شعروا بأن هذا الشكل العروضى للأغانى الجماعية يحتاج إلى بعض التعديل . اتبعوا البنية الثلاثية للأغنية :فصارت الأغنية تتكون من ثلاثة أجزاء رئيسية هى : « استروفة » Strophe أى دورة و « أنتيستروفة » antistrophe أى دورة مضادة ، و « إيودوس » epodos أى ما بعد الأغنية ، وصارت هذه البنية الثلاثية هى الوحدة المتكررة (مع التنويع والتغيير فى الترتيب) بدلا من الاستروفات (المقطوعات) الصغيرة فى الشكل العروضى الأقدم . ويقال إن هذه البنية الاستروفية الثلاثية من اختراع وابتداع ستيزيكور Stésichore .

على أن الشكلية الخارجية هذه المتمثلة فى البنية الثلاثية أو غيرها ، لم تضع الغناء اليونانى فى قالب متجمد ، لأن الأوزان المختلفة تعطى الشاعر فرصة واسعة ومجالا رحبا للاختيار والمفاضلة بينها ، ولأن اللغة الإغريقية بطبعها لغة تركيبية لا تحليلية ، بمعنى أن وظيفة كل كلمة ومعناها يتحددان من نهايتها ، وذلك أتاح للشاعر الهيمنة على كاماته وأوزانه ، وسهل له وضع الكلمة فى أى مكان بالبيت .

وقد نبغ فى هذا النوع من الغناء شعراء كثيرون ، نترجم لسبعة من أشهرهم

(١) تاليتاس Thalétas

والغناء البايانى والإيبوركيمى

Le péan et L'Hyporchème

عاش حوالى القرن السابع ق.م، ونشأ فى بلدة جورتين Gortyne من جزيرة قريطش ، ثم قدم إلى إسبرطة للاشتراك فى إحياء أعياد دينية وفى إقامة صلوات وأدعية للآلهة لكى تنقذ الإسبرطين من وباء تفشى فيهم . فحلا له فيها المقام . فأقام بها .

وتنسب إليه الآثار اختراعات كثيرة فى الموسيقى وبحور الشعر وأغراضه ،وإليه يرجع الفضل فى النهوض بنوعين خاصين من الشعر الغنائى . وهما الغناء البايانى والإيبوركيمى . Le péan et L'Hyporchème وكلاهما كان يتغنى به فى الأصل

لتكريم الإلهأبوللون ، ثم استخدم لتكريم غيره من الآلهة ، وكانت تصحب كليهما الموسيقى ، ويقوم بالغناء فيهما فرقة من الغلمان ، يظل بعضها ساكنا ، ويمشى بعضها الآخر أو يرقص رقصا توقيعيا .

وقد التف حوله طائفة كبيرة من أشهر الموسيقيين والمغنين فتألفت منهم مدرسة كان لها أثر كبير فى النهوض بهذين الفنين .

(ب) ألكمان Alcman

والغناء البارتينى Parthénée

ولد ببلدة سارد Sarde عاصمة مملكة ليديا Lydie بآسيا الصغرى . فى أوائل القرن السابع ، ولكن يظهر من أشعاره أنه من أسرة يونانية لامن أسرة ليدية ، ثم قدم إلى إسبرطة تلبية لوحى إلهى ، حسب ما جاء فى بعض الأساطير ، أو مع مجموعة من الأسرى أو الرقيق ، حسب ما جاء فى روايات أخرى . ثم حرره سيده عندما اكتشف موهبته الغنائية . وكانت إسبرطة فى ذلك الحين مركز الأدب الغنائى وكعبة الشعراء والموسيقيين والمغنين الذين كانوا يفدون إليها من مختلف أنحاء العالم اليونانى وغيره ، وساعدها على بلوغ هذه المنزلة الرفيعة كثرة أعيادها الدينية والوطنية واتخاذ الغناء عنصراً أساسياً فى الاحتفال بهذه الأعياد وخاصة أعياد ديانا وأبوللون . هذا إلى ما كانت تأخذ به بناتها فى ذلك العصر من مناهج التربية البدنية القويمة ، فكان لهذه البيئة أثر كبير فى نبوغ ألكمان فى مختلف أنواع الشعر الغنائى ، ولا سيما هذا النوع الذى ينسب إليه اختراعه ، وهو الشعر الغنائى البارتينى parthénée ، ويمتاز بأوزان قصائده وطرق تلحينها ، وبما يصاحب غنائها من رقص توقيعى تقوم بها فرق من العذارى ، وقد ذاعت شهرة إسبرطة بهذه الفرق ، وكثرة عددها ، ومهارة فتياتها فى فنهن .

وتضم أطول شذرة وصلتنا من أغانى ألكمان « أغنية عذرية » تغنيها جوقة من العذارى ، تتكون من إحدى عشرة فتاة ، تقودهن من تدعى « هاجيسيخورا » Hagesichora أى « قائدة الجوقة » ويبدو أن هذه الأغنية كانت تكريماً للإلاهة

الإسبرطية المحلية « أورثيا » Orthia ، وهى أول مثـــل يصلنا للأغانى الجماعية اليونانية ، وتتحدث عن أسطورة صراع هيراكليس مع أبناء هيبوكئون التى تعنى بصفة عامة أن الكبرياء والصلف يهلكان صاحبهما فى النهاية لا محالة ، ويصوغ ألكمان هذه الفكرة بأسلوب فيه الكثير من الخيال والإبهار حيث يقول (شذره ١ أبيات ١٦ — ١٧) .

« لا تدع أحداً يحاول الصعود إلى السماء على أجنحة الهروب
ولا تدع أحداً يحلم بأن ينال أفروديت على فراش الزوجية »

وبعد سرد هذه الأسطورة تدخل فتيات الجوقة يتحاورن ويتبادلن النكات والفكاهات ، وفى حديث العذارى عن قائدتهن هاجيسيخورا يشبهنها بالشمس الساطعة ، أو بحصان السباق « من سلالة الأحلام المجنحة » أما شعرها « فكالذهب الخالص الصافى » وتشكو العذارى من قلة زينتهن إلا أنهن واثقات من فوزهن وكسب قصب السبق فى هذه المناسبة التى يحتفلن بها . وقد نجح ألكمان فى تقمص شخصيتهن ، وعبر خير تعبير عنهن وعن المجتمع الإسبرطى ، فكانت أغنية العذارى هذه امتداداً لنفسه وأحاسيسه .

ويتغنى ألكمان بالحب، ويقال إنه أحب امرأة تدعى ميجالوستراتا Megalostrata وكانت شاعرة أيضا ، وتدور قصائد غنائية له حول الطعام والشراب ، وحب الطبيعة وسكون الليل وما إلى ذلك . وفى إحدى القصائد يتمنى أن يصبح طائر الربيع المقدس المصبوغ بقرمزية البحر (halykon.) ويقول فى شذرة أخرى « إن القيثارة الجميلة تلعب دوراً لا يقل أهمية عن السيف » (شذره رقم ٤١) .

وجُـمعت قصائد ألكمان قديماً فى ستة أسفار ، وشاعت أشعاره ، وتغنت بها الجوقات فى احتفالات أرتميس وديونيزوس وأفروديت وأثينا وغيرهم ، وقد عُثر فى بعض مقابر قدماء المصريين على بعض أوراق من البردى مكتوب عليها قصيدة من قصائد ألكمان، مؤلفة من أكثر من مائة بيت، وبعث بها مريت باشا (mariette) مدير دار الآثار المصرية الأسبق ، إلى فرنسا ، حيث قام إميل إجر Emile Egger بطبعها لأول مرة ، وهى من نوع القصائد البارتينية التى اشتهر بها .

(حـ) أريون Arion

والغناء الديثيرامبى Dythyrambe

ولد ببلدة ميتيمن Methymne (واسمها الحديث موليفوس) بجزيرة ليسبوس فى أواخر القرن السابع ق.م ، ثم هاجر إلى إسبرطة حيث حاز قصب السبق فى مسابقة موسيقية أقيمت فى بعض الأعياد ، ورحل بعد ذلك إلى كورينثة ، وظل بحاشية طاغيتها برياندر périandre أمداً طويلا ، ويقول هيرودوت (الكتاب الأول ٢٣) إن أريون اخترع الديثيرامب كفن أدبى فى بلاط برياندر ، والديثيرامب أغنية جماعية كنت تنشد فى أعياد الإله ديونيزوس تكريماً له وإحياء لذكراه ، وكانت تؤلف على أوزان خاصة ، وتغنيها وترقص على نغماتها فرقة تتجمع فى شكل دائرة ويرتدى أفرادها جلود الماعز ليتشبهوا بالساتير رفاق ديونيزوس ، وكانت تلقى بلحن قوى النبرات ، مرتفع الجلبة ، شديد الأثر ، مختلط الأصوات. وكان هذا الغناء قبل أريون ساذجاً ، مضطرب التلحين . غير منظم فى عناصره ولا فيما يصحبه من رقص ، فأدخل عليه أريون كثيراً من وجوه الإصلاح والتهذيب والضبط ، وأخضع جميع ما يشتمل عليه من أصوات ورقص وحركات لقواعد فنية دقيقة ، وأحاطها بالتناسق الموسيقى ، ويعزى إليه أنه هو الذى جعل الجوقة تتحلق فى شكل دائرة حول مذبح ديونيزوس لترقص وتغنى أغنيتها التى تمجد هذا الإله ، وهذه الدائرة هى التى ستتشكل فيما بعد مايعرف باسم الأوركسترا فى المسرح اليونانى . وكان إلى نظمه الأغانى الديثيرامبية يدرب جوقات كورينثة على أدائها ، وهو الذى أعطاها بالفعل شكلها الثابت ، كما جعل لكل أغنية موضوعها الخاص وطبيعتها المميزة .

وورد أول ذكر للديثيرامب عند أركيلوك . فهو يقول (شذرة ٧٧) : « إنى أعرف كيف أقود رقصة الأغنية الجماعية الجميلة ، أغنية ديونيزوس الديثيرامبية عندما تكون الخمر قد لعبت بفؤادى » . وفى المرحلة التى يتحدث عنها أركيلوك يبدو أن الديثيرامب كان لا يزال أغنية مرتجلة يقودها أحد المجتمعين على مائدة الطعام وربما كان قائد الجوقة «الإكسارخوس» exarchos يرتجل بعض العبارات التقليدية ، بينما يردد الباقون عبارات مكررة (اللازمة) وعلى حسب ما ورد عند هيرودوت يبدو أنه

كلما تقدمت عبادة ديونيزوس برز دور الديثرامب كجزء رئيسى فى طقوس عبادته . ودخل هذا الفن أثينا إبان عصر الطغاة ، حين كانت المسابقات الديثرامبية تمثل ملمحاً مهماً من ملامح أعياد الديونيزيا الكبرى بعد إعادة تنظيمها .

ويحتل الديثرامب فى الشعر الغنائى الجماعى مكانة خاصة ، ويستحوذ على انتباه الباحثين ، إذ أن أرسطو قال : إن التراجيديا نشأت من تطوير هذه الأغنية الجماعية ، ويؤيد رأيه ارتفاع نسبة الأجزاء الغنائية فى التراجيديات الأولى فهى تشكل ما بين الثلث والنصف فى « المستجيرات » و « الفرس » و « أجاممنون » لإيسكيلوس ، وظلت أغانى الجوقة تشكل جزءاً عضوياً فى التراجيديا اليونانية حتى أواخر أعمال يوريبيديس ، حيث قل فيها دور الجوقة كثيراً ، وتأخذ أغانى الجوقة فى التراجيديا نفس ملامح الأغانى الجماعية فى الشعر الغنائى . فهى مثلها تقوم على أسطورة ذات هدف أخلاقى ، وتحفل بصور شعرية غزيرة ومكثفة ، وتسودها صبغة دورية واضحة ، ويمكن القول بأن أغانى الجوقة فى التراجيديا اليونانية تعتبر قمة من قمم الشعر الغنائى الجماعى .

وازدهر أريون فيما بين عامى ٦٢٨ و ٦٢٥ ق.م وعرف على أنه ابن رجل يسمى كيكلوس وهذا الإسم يعنى الدائرى فهو مشتق من الرقصة الديثرامبية الدائرية ، ورحل أريون من كورينثة بعد أن استقر بها طويلا إلى إيطاليا . وتتصل بسفره إلى إيطاليا أسطورة غريبة رواها هيرودوت (الكتاب الأول ٢٤) وتدل على مبلغ ما اشتهر به من رخامة الصوت وأخذه بألباب السامعين ، وذلك أن المال الكثير الذى جمعه من فنه قد أغرى به بحارة السفينة التى سافر بها إلى إيطاليا . فأجمعوا أمرهم على أن يسلبوه ماله ويلقوا به فى البحر ، فتضرع إليهم أن يسمحوا له قبل أن يقدموا على ذلك أن يغنى بعض قصائده ، فأجابوه إلى رغبته ، فأقبل على غنائه حيتان البحر وأسماكه تشنف خياشيمها وآذانها بساحر صوته ، واقترب من فلكه حوت كبير حمله على ظهره ونجاه مما دبر له من كيد ، وما زال يجوب به عباب البحر حتى أوصله إلى رأس تينار Ténarc فى جنوب شبه جزيرة البيلوبونيز .

ويروى المؤرخ سويداس Suidas أن أريون قد ألف أكثر من ألفى بيت من الشعر الديثرامبى ، ولكن لم يصلنا من شعره إلا قطعة صغيرة يحوم كثير من الشك حول صحة نسبتها إليه

ستيزيكور Stésichore

وأناشيد الأبطال الأولين Hymnes Hérolques

ولد فى بلدة ماتاروس ، وعاش فى بلدة هيمير Himèr وكلتاهما فى صقلية Sicile ، والتاريخ التقريبى لمولده ما بين سنة ٦٣٢ و ٦٢٩ ق.م ولوفاته مابين سنة ٥٥٦ و ٥٥٣ ق.م . وبذلك يكون قد عاش نحو ثمانين سنة فى النصف الثانى من القرن السابع والنصف الأول من القرن السادس ق . م . وجاء إلى أثينا سنة ٤٨٥ / ٤٨٤ ق.م عندما فاز إيسكيلوس لأول مرة بالجائزة الأولى فى التراجيديا . ويظهر أن لفظ ستيزيكور (ومعناه أستاذ فى الموسيقى) كان لقباً ولم يكن اسماً له ، وأن اسمه كان تيزياس Tisias كما يروى المؤرخ سويداس Suidas . ولا نعرف شيئاً يقينا عن حياته وما اتصل بها من أحداث ، وكل ما نعرفه فى هذا الصدد يتمثل فى أمور ظنية ، وبعض أساطير ، فمن ذلك أسطورة كانت ذائعة عند الدوريين ، وذكرها أفلاطون نفسه ، تروى أنه ألف قصيدة غنائية نعى فيها على هيلين زوجة مينيلاس فرارها مع باريس بن بريام ، فحقد عليه أخواها كاستور وبوليكس Castor,et Pollux (وهما من طبقة أنصاف الآلهة) لقذفه أختهما بغير حق ، وسلباه نعمة البصر ، ولكنه بوحى من ربات الفنون أدرك سبب المصيبة ، مما دفعه للإسراع بنظم الأبيات التالية (شذرة ١٩٢) :

« لا ... لا أساس من الصحة فى هذه القصة
فلا أنت أبحرت على السفن ذات الحمولة الكبيرة
لا ... ولم تدخلى أسوار طروادة قط »

فهو هنا فى هذه الأغنية التراجعية المشهورة باسم البالينوديا Palinodia يبرئ هيلين ويثبت أنها أطهر النساء ، فهى لم تذهب مع باريس إلى طروادة بكنوز الذهب بسبب الحب الذى طغى على قلبها ، وإنما شُبه له ، فلم يصحب معه إلا طيف خيال أثيرى على صورة هيلين ، فقرت بذلك عينا كاستور وبوليكس وردا إليه بصره .

والجدير بالذكر أن هذه الأسطورة التى يتحدث عنها ستيزيكور فى هذه الأبيات

عن عدم ذهاب هيلين إلى طروادة كان لها أثر كبير في الشعر الإغريقي ، إذ نجد صداها في مسرحية يوريبيديس عن « هيلين » فهو يورد هذه الأسطورة ويقول إن هيلين لم تذهب قط إلى طروادة وأن مسخة لها هي التي أرسلت إلى هناك . أما هيلين نفسها فقد ذهبت إلى مصر ، وهذا يعني أن الحرب الطروادية لم تقم بسبب هيلين ، وإنما بسبب مسخة لها ، فهي إذن حرب عبثية .

ويتحدث ستيزيكور في أشعاره كأحد الثقات في الأساطير وكشاعر غنائي كبير ، له باع طويل وأفق واسع ، ولأن قصائده كلها تقوم على أساس من الأساطير فقد أصبح مرجعاً مهماً فيها ، فهو في القصيدة التي نظمها للألعاب الرياضية الجنائزية لبيلياس (شذرة ١٧٨ — ١٨٠) يتحدث عن رحلة السفينة « أرجو » ، وفي « الجيريونية » أي قصة إحضار هيراكليس لقطعان جيريون يذكر مناجم الفضة في تارتيسوس ، كما يشير إلى حب هيراكليس الشديد للخمر (شذرة ١٨١) وفي قصيدة حصان طروادة Iliou Persis يتحدث عن إبيوس صانع الحصان الخشبي في طروادة (شذرة ٢٠٠) ثم هو أول من جعل هيراكليس يرتدي جلد الأسد ويتسلح بالهراوة بدلا من الأسلحة الأخرى . وهو أول من قال إن الربة أثينا وُلدت من رأس أبيها زوس مدججة بكامل السلاح ، وهو أول من جعل جيريون مجنحا وله رءوس ثلاثة وأجساد ثلاثة . وكان له بسبب هذه الأساطير تأثير ضخم على فنون النحت والرسم .

وكان ستيزيكور غزير الإنتاج ، خصب القريحة . حتى لقد تألف من إنتاجه ستة وعشرون سفرا ، ولكن لم يصل إلينا إلا أسماء بعض قصائده ، وبعض أبيات متفرقة منها . وإليه يرجع أكبر قسط من الفضل في النهوض بأناشيد الأبطال الأولين Hymnes Héroïques وهي قصائد غنائية موسيقية يدور موضوعها حول تكريم أبطال اليونان الأولين والإشادة بأعمالهم وآثارهم ، وكان هذا النوع الغنائي قبله مقصوراً على تمجيد الآلهة ، فاتجه به إلى أبطال اليونان الأولين ، وغيّر أوزانه ، وأقامه على قواعد مضبوطة واضحة ، وأدخل عليه كثيراً من ضروب التحسين والإصلاح .

ولا يلتبس هذا النوع من الشعر الغنائي بالشعر الملحمي ، فالشعر الملحمي

ليس غنائياً ولا موسيقياً ، ويرمى إلى سرد الحوادث التاريخية المتعلقة بأبطال اليونان فى صورة مسلسلة مترابطة . أما قصائد هذا النوع فمؤلفة فى قطع غنائية موسيقية ، تفترض أن الحوادث المتعلقة بالبطل معروفة ، فهى تتناول بعض أطرافها بدون ترتيب ولا تسلسل تاريخى ، بقصد التغنى بها بمناسبة الاحتفال بهذا البطل .

(هـ) إيبيكوس Ibycos

والغناء الانكوميونى L' Encomion

أو قصائد الإشادة بالعظماء من الأحياء

ولد ببلدة ريجيوم Rhégium (فى جنوب صقلية على بوغاز مسينا Messin وتسمى اليوم ريجيو دو كالابرى Reggio de Calabre) فى أواخر أيام ستيزيكور وهاجر إلى ساموس Samos وعاش فى حاشية طاغيتها بوليكرات Polycrate كما عاش قبله الشاعر أناكريون . وعندما شرع ينظم الشعر قلد مواطنه الشاعر الصقلى الآخر ستيزيكور وأفاد كثيراً من اختراعاته ومناهجه وأساليبه . فكتب عن صيد الدب الكاليدونى (شذرة ٩) ومولد الربة أثينا (شذرة ١٧) وحصار طروادة (شذرة ٢٢) وقد استخدم عدة أوزان ، وامتاز أسلوبه بالخيال الواسع والقدرة الفائقة على الوصف فى معالجة مشاعر الحب وجمال الطبيعة (شذرات ٣٣ و ٣٤ و ٣٦) . وجمع القدامى أعماله فى سبعة كتب واحتوت على قصائد من الشعر الغنائى الجماعى المتطور وقصائد المديح eencomia .

وإليه يرجع الفضل فى اختراع الغناء الإنكوميونى L'Encomion الذى يتمثل فى قصائد تنشد للإشادة بالعظماء من الأحياء . وبذلك دخلت الأناشيد الوطنية L'Hymnes مرحلة ثالثة من مراحل تاريخها ، فقد كانت قبل ستيزيكور تتجه إلى الآلهة ، أى تحلق فى أفلاك السماء ، ثم أخذت تتجه مع ستيزيكور إلى أبطال اليونان الأولين الذين كانوا فى حكم أنصاف الآلهة ، أى أنه أنزلها إلى طبقة بين السماء والأرض ، وانتهى بها الأمر مع إيبيكوس إلى الإشادة بالعظماء من الأحياء ، أى أنه هبط بها إلى عالمنا

الأرضى وجعلها إنسانية خالصة . ومن ثم يشبهون ابيكوس فى عـــالم الشعر الغنائى بسقراط فى عالم الفلسفة ، فقد كانت بحوث الفلسفة قبل سقراط تنحصر عنايتها فى شئون الفلك والعناصر الأولى لتكوين العالم ومسائل ما وراء الطبيعة ، فجاء سقراط فأنزلها — على حسب تعبير شيشرون — من السماء إلى الأرض . أى أنه كان أول من حول اتجاهها من النظر فى الأمور السابقة إلى النظر فى شئون الإنسان .

وتحكي رواية أسطورية عن موت إيبيكوس : إن نهايته كانت على أيلى بعض اللصوص قطاع الطرق الذين هاجموه ، وقبل أن يقتلوه كانت بعض طيور الغرنوق تحلق فوق رأسه . فنظر إليها وقال : هذه الطيور ستنتقم لى » وبعد موته دفن فى ريجيوم . ورأى أحد اللصوص عندما كان يتجول فى المدينة بعض هذهالطيور ثانية ، فقال لأحد رفاقه : « هذه هى الطيور التى ستنتقم لإيبيكوس » وسمعه أحد المارة فألقى القبض عليه وعلى جميع رفاقه وقادهم إلى السلطات لمقاضاتهم . وقد أهاجت هذه الحكاية الأسطورية قريحة الشاعر الألمـــانى الرومانسى شيللر فنظم قصيدة حولها .

(و) سيمونيد السيوسى Simonide de céos

ويسمى السيوسى للتمييز بينه وبين سيمونيد الأمورجوسى الذى ترجمنا له فيما سبق » .

وهو ثالث ثلاثة وصلوا بهذا الفن إلى أرقى درجة أتيح له أن يبلغها فى العصور القديمة ، والآخران هما : بندار pindar وباكيليد Bacchylide اللذين سنترجم لهما هنا أيضاً . وهؤلاء الشعراء الثلاثة من شعراء العصر الأتيكى الذى سيكون موضع حديثنا فى الباب الثالث ، لا من شعراء العصر اليونى — الدورى الذى ندرسه فى هذا الباب ، وإنما ندرسهم هنا لتكتمل حلقات الموضوع . ولنفرغ من أهم مقومات الشعر الغنائى ، ولا نحتاج للعودة إليه ثانياً .

ولد ببلدة يوليس Iulis بجزيرة سيوس Céos وهى جزيرة صغيرة فقيرة الموارد كثيرة السكان فى شرق أتيكا ببلاد اليونيين ، حوالى سنة ٥٦٦ ق.م ، لأب يدعى ليوبريبيس Leoprèpes . وظل بمسقط رأسه حتى بلغ الثلاثين من عمره ، ثم هاجر

إلى أثينا ، والتحق بحاشية هيبارك Hipparquc ابن الطاغية بزيستراس . وحظى من حمايته ورعايته بمثل ما حظى به أناكريون وغيره من الشعراء الذين كانوا فى حاشيته ، وأتيح له فى الوقت نفسه الاتصال بهم ، وبعد أن قتل هيبارك هاجر من أثينا كما هاجر منها معظم هؤلاء الشعراء قاصداً مقاطعة تساليا Théssalie حيث قضى شطرا كبيراً من حياته ، ثم عاد فى أثناء الحرب الميدية الأولى première guerre médique إلى أثينا حيث فاز على الشاعر التراجيدى إيسكيلوس سنة ٤٨٩ ق.م بالحصول على الجائزة المرصودة لأحسن مرثية أو قبرية نظمت للإشادة ببطولة شهداء موقعة ماراثون (وهى من أشهر مواقع الحرب الميدية الأولى وجرت حوادثها بجوار مدينة ماراثون) وبذلك اعتبر سيمونيد شاعر الحرب الميدية المتوج ونبه شأنه وذاع صيته حتى أصبح صديقاً لكبار قادة الجيش فى الحرب الميدية الثانية ، وأشاد بذكرهم فى قصائده . وفى سنة ٤٧٦ ق . م وهى آخر سنى إقامته بأثينا ، وكان حينئذ قد بلغ الثمانين من عمره أحرز نجاحاً آخر بلغ به قمة المجد عندما فاز بالجائزة السادسة والخمسين بنشيد ديثيرامبى نظمه ، ثم غادر بعد ذلك أثينا ، وطوف فى صقلية وغيرها من بلاد اليونان ، واتصل بحاشية ملوك كثيرين ، منهم هيرون Hiéron ملك سراقوسيا ، وفى بلاط هذا الملك التقى بالشاعرين الكبيرين بندار pindar وباكيليد Bacchylide ، وتوفى بسراقوسيا عن تسعة وثمانين عاما ، ودفن بها ، وأقيم له فيها ضريح فخم إعترافاً بما كان له من فضل على الشعر الغنائى

ويقال إن سيمونيد هو أول من اتخذ من التكسب بالشعر حرفة له ، ويحكى أن أنا كسيلاس طاغية ريجيون بعد أن فاز فى الألعاب بفريق من البغال ، طلب من سيمونيد أن يكتب له أغنية نصر epinikion وعرف سيمونيد أن ثمن القصيدة المعروض ضئيل لا يستحق الجهد ، فرفض بحجة أن بغال الطاغية من نسل الحمير وليست جديرة بقريحته الشعرية ، وفطن الطاغية للسبب الحقيقى فرفع الثمن إلى درجة أن سيمونيد نظم على الفور أغنية يصف فيها البغال بأنها « سليلة خيول سريعة » .

وتضم أشعار سيمونيد الإبجرامات وأغانى الديثيرامب وأغانى النصر والمراثى ، وأشهر مراثيه هى تلك التى تغنى فيها بأسطورة دانائى التى ولدت ابنها بيرسيوس

ووضعته فى صندوق وألقت به فى البحر (شذرة ٥٤٣) وتعتبر هذه القصيدة من أفضل قصائد الشعر الغنائى اليونانى كله . وفيها يقول :

« عندما هبت عاصفة
على الصندوق المنحوت
ألقى البحر فى قلبها (دانائى) الخوف والاضطراب
حيث وجنتاها مبللة لم تجف بعد
لفت بيد الحنان طفلها بيرسيوس
وقالت له : يا بنى ... يا له من ألم
نَـعَـم ْ الألم الذى يعتصرنى ... أما أنت فنم ْ
بقلبك ... نبع الطفولة
نم ْ فى هذا الصندوق — القارب
الموصول بعروق البرونز ... نم على هذا الفراش الخشن
الذى يلمع فى الظلام
بينما تتمدد أنت فى الشفق الأزرق
إنك لا تعبأ بهذه المياه المالحة ولا بأعماقها الداكنة ،
ولا بالأمواج تقفز من فوق رأسك ،
ولا بصفير الريح ،
بينما ترقد فى قماط مهدك القرمزى
وتحملق بعينيك الجميلتين إلى أعلى ،
وإذا كان الهول فعلا لا يرعبك
فإنك ستعطى لكلماتى آذاناً صغيرة ... وصاغية
إنى آمرك أن تنام يا بنى .
وأن تدخل النعاس إلى جفون اليم ّ نفسه
وإلى جنون الألم الذى لا حد له
وقد يأتى منك أنت يا زوس الأب

ما ينم عن أنك قد عدلت عن رأيك
فاغفرلى
أية كلمة قد تكون قد بدرت عنى فى جرأة
أو بدون وجه حق وأنا أتضرع إليك »

ومن الملاحظ أن موقف داناى وعواطفها تجاه طفلها وخوفها عليه وتواضعها وجرأتها كل ذلك يجعل من القصيدة شعراً دراميا ، فهى أقرب ما تكون إلى تصوير موقف تراجيدى مؤثر ، بل هى أكثر تعقيداً من الشعر الملحمى، وتتمتع باستقلال درامى عن الأسطورة التى تدور حولها .

ومع براعة سيمونيد فى القبريات أو المرثيات ، واحتلاله مركز الصدارة فى مضمارها ، إلا أننا نجده يسخر ممن يحاولون تخليد أنفسهم ببناء التماثيل الضخمة أو شواهد القبور الفخمة (شذرة ٥٨١) إذ يقول :

« مَن من أولئك الذين يثقون فى قدرتهم الذهنية
سيمدح كيلوبوليس من ليندوس .
عندما يتحدى الأنهار الخالدة والزهور الربيعية اليانعة
ووهج الشمس الساطعة ، وأشعة القمر الذهبية
ودوامات البحر العاصفة ...
يتحدى كل ذلك بشاهد قبر حجرى ؟
كل الأشياء أقل قدراً وقدرة من الآلهة
فهذا الحجر نفسه يمكن أن تسحقه أيد بشرية
وأحمق من ظن أن مثل هذا الحجر يمكن أن يخلد ذكراه » .

ثم هو يحس بالضعف البشرى إذ يقول (شذرة ٥٢١) :
« لأنك إنسان لا تقل قط إنك فاعل كذا وكذا
وعندما ترى إنساناً سعيداً لا تقل قط
كم من الوقت سيدوم ذلك
فحتى الذبابة طويلة الجناح ليست أسرع

فى دورانها من تقلبات الحظوظ »

ومع أنه اتُّهم بعدم احترامه للآلهة، وأنه كان ينزل بعضهم منزلة أدنى من منزلة بعض النابهين من بنى الإنسان ، فقد قال مرة فى مدح أحد الرياضيين : « إنه لا تصمد أمامه قوى الإله بوليكس (من طبقة أنصاف الآلهة وهو أخو هيلين) ولا العضلات الحديدية لإبن ألكمينا (يقصد الإله هيراكليس) إلا أن قصائده لا تخلو من نبرة دينية ، فهو يتحدث عن مدينة تعانى من اعتداء خارجى أو من اضطراب داخلى فيقول :

« إصغين إلىّ ياربات القدر أيتها الجالسات فى أقرب مكان من عرش زوس
وتغزلن بمغازلكن وسائل صلبة
وخططا أو خيوطا من كل نوع وفوق كل تصور
أنت يا آيسا وكلوثو ولاخيسيس
يا بنات ربة الليل ذوات الأذرع الجميلة !
أصغين لتضرعاتنا أيتها الربات شديدات البأس
فى السماء والأرض .
إبعثن إلينا بروح القوانين ذات الصدر الوردى
وأخواتها الجالسات على عروش ناصعة
وربة السلام العادلة .. ذات التاج .
أنعمن على هذه المدينة بنسيان النكبات التى تثقل صدرها » .

ثم إنه رغم أن اتهم كذلك بالتقلب وعدم الوفاء وإجادة الأكل على مختلف موائد العظماء ، فقد كان فى حاشية هيبارك ابن بيزيسترات وقال فى مدحه عدة قصائد ، ولكن لم يتورع بعد قتله أن انضم إلى قاتليه هارموديوس Harmodios وأريستو جيتون Aristogiton وقال فى مدحهما كذلك قصائد كثيرة — رغم ذلك فإن له مواقف لا تخلو من الشجاعة ؛ فقد سأله سكو باس ملك تساليا عن القول القديم المأثور عن بيتاكوس « من العسير أن تكون فاضلا » فلم يقل له : نعم ، من العسير أن يكون المرء فاضلا . ولكنك أنت يا صاحب الجلالة قد حققت العسير ،

وإنما أعطاه مثلا للرجل الفاضل الذى يبذل جهده من أجل الصالح العام نائياً بنفسه عن الحمق والخسة فقال (شذرة ٥٤٢ أبيات ٣٤ — ٤٠) :

« ليس قط وضيعاً أو ذا عقلية فارغة
من سكنت العدالة قلبه
العدالة التى تنفع المدينة .
إنه رجل فاضل
ولا لوم عليه أن أجيال الحمقى تتزايد
فكل الأشياء فى غاية الجمال
ما لم تخالطها الخسة »

وقد ألف سيمونيد فى كثير من أنواع الشعر الغنائى . وفى قصائده نجده يرسم مشاهد تخاطب جميع الحواس . فهو يجعل أورفيوس بموسيقاه يسخر الأحياء والأشياء ، فطيور عديدة تنجذب إلى أنغامه وتسبح حول رأسه ، والأسماك تتراقص وهى تقفز من أعماق البحر (شذرة ٥٦٧) وجاء فى وصفه إن صوتاً مفاجئاً كسر حدة الصمت والسكون عندما ذهبت الريح لتهز أوراق الشجر (شذرة ٥٩٤) وقد قال أيضاً « الشعر رسم ناطق والرسم شعر صامت » وامتازت قصائده بكثرة ما يتخللها من الحكم والأمثال والعظات وحقائق الفلسفة والأخلاق .

وينسب بعض مؤرخى الأدب إليه اختراع القصائد الإنكومية L'Encomion وهى قصائد الإشادة بالعظماء من الأحياء والقصائد الإبينيسية Epinicies وهى قصائد غنائية موسيقية تؤلف للاشادة بالإنتصار فى المباريات الرياضية والألعاب العامة وما إلى ذلك ، والقصائد الترينية Thrène وهى قصائد التأبين وتعداد محاسن الميت عقب وفاته . والحق أن هذه الفنون من الشعر الغنائى قد وصلت بفضل سيمونيد إلى درجة كبيرة من الرقى والصقل والتهذيب ، ولكنه لم يخترع أى فن منهـا ، فالغناء الإنكوميونى يرجع الفضل فى اختراعه إلى ابيكوس كما ذكرنا من قبل ، والغناءان الآخران ليسا إلا نوعين من أنواع هذا الغناء الإنكميونى .

(ز) بندار Pindar

انحدر بندار من أسرة نبيلة فى بويوتيا ، واحتفظ دوماً بميوله الأريستقراطية ويظهر من بعض أشعاره أن أسرته تنحدر من أصول دورية ، وقد ولد حوال سنة ٥٢١ ق.م فى قرية صغيرة بالقرب من طيبة Thèbes بمنطقة جبال السينوسيفال Cynosciphales وعاش فى طيبة وشغف منذ نعومة أظفاره بالشعر الغنائى . وتعلم أصوله على يد عمه (أو خاله) سكوبيلينوس وبعد أن تجاوز سن العاشرة ذهب إلى أثينا ، حيث تلقى العلم على أيدى ، لاسوس من هيرميونى ، وأبوللودوروس ، وأجاثوكليس ، والتقى بإسكيلوس . وما انفك يمارس الشعر ويجوده حتى عُدَّ من عباقرته ، وتعلق به أسطورة قديمة تدل على مبلغ مكانته فى هذا الفن فى نظر مواطنيه إذ تروى أنه وهو فى طفولته الأولى ، جاءت مجموعة من النحل وحطت على فمه وهو نائم ، وأخذت تفرز عليه رحيقها . فكانت هذه بشرى إلاهية بأنه سيخرج العسل المصفى من هاتين الشفتين .

وأول قصائد بندار المعروفة لنا هى البيثية العاشرة المنظومة سنة ٤٩٨ وكان فى سن تناهز الخامسة والعشرين تقريبا ، وهى ليست من روائعه ، ولكنها — فى رأى بونارد Bonnard — تستحق العنـــاية من جانب الباحثين . لأنها تكشف عن كل خصائص مؤلفها فكراً وديناً ، ولاسيا تكريسه نفسه وفنه لأبوللون . وكذا إعجابه بإسبرطة ، وامتداحه للفضيلة المكتسبة ، وفى الحق أنه ظل طول حياته مخلصاً لعبادة أبوللون وآلهة بويوتيا المحليين .

وفى عام ٤٨٠ ق.م ، كان بندار فى الأربعينيات ، وكانت معركة سلامين فى إبانها ، فيقال إنه تعاون مع الفرس الغزاة لأن مدينته — لسوء حظه — كانت قد اتخذت نفس الموقف ومهما يكن من أمر هذه الرواية فإنه بعد انحسار الغزوة الفارسية أشاد بشجاعة اليونان ، وتغنى متباهياً بتحرير البلاد على يد أبطال الحرب . وليس لنا أن نتعجب من موقفه هذا ، لأن كهنة معبد أبوللون فى دلف فعلوا نفس الشىء ، فبعد أن نصحوا اليونان بالخضوع للنير الفارسى الذى لا يمكن اتقاء شره . عادوا بعد تحقيق النصر الساحق لليونان فتغنوا بأمجاد فرسان المقاومة وبطولاتهم . وقد

نالت قصائد بندار فى الإشادة بالبطولة اليونانية عدة جوائز قيمة ، وبفضل هذه القصائد ذاع صيته ، وطبقت شهرته جميع بلاد اليونان ، واتصل بعدد كبير من الملوك والأمراء والقواد ، ومن هؤلاء هيرون طاغية سيراقوسيا الذى استدعاه سنة ٤٧٦ ق.م فشخص إليهو أقام عنده أمداً طويلا . ومر فى طريقه ببركان إتنا ووصف هذا البركان وصفاً ممتعاً فى إحدى قصائده . ولم يقف ذكره عند حدود بلاد اليونان، بل تجاوزها إلى بلاد مقدونيا ، فاستدعاه ملكها الاسكندر الأول ابن أمينتاس Amyntas إلى مقدونيا ، ويروى أن الاسكندر الأكبر الذى ولى عرش مقدونيا بعد ذلك بنحو قرن قد أمرَ جنوده عند اجتياحهم مدينة طيبة ، ألا يمسوا بسوء منزل أسرة بندار. وأنه فعل ذلك إجلالا لذكرى الشاعر وحفاظاً على حسن صلته ببلاده . وقد مات بندار فجأة وهو يناهز الثمانين فى مسرح أرجوس عندما وضع رأسه على ركبتى صديقه الغلام الجميل ثيوكسينوس ذات يوم من عام ٤٣٨ ق.م ، وقد أشاد بذكره بعد وفاته كثير من المؤرخين والفلاسفة والأدباء ، فقد ترجم له هيرودوت وتحدث عنه أفلاطون وذكر طرفاً من آرائه ونقل نصوصا من قصائده وتردد ذكره فى كثير من روايات المسرح اليونانى القديم .

وقد عرف علماء الإسكندرية أشعار بندار وجمعوها فى سبعة عشر كتاباً . تشتمل على أربعة وعشرين ألف بيت . ولكن لم يصل إلينا منها إلا أربعة أسفار تشتمل على أربعين قصيدة فى نحو ستة آلاف بيت ، أى أنه لم يصل إلينا إلا ربع إنتاجه ، ومعظم ما وصل إلينا من النوع الإبينيصى Epinicies الذى يتمثل فى قصائد نصر كان ينظمها تكريماً للأبطال الفائزين فى الألعاب القومية اليونانية ، وإذ كانت هذه الألعاب أربعة أنواع هى : الألعاب الأولومبية والألعاب البيثية والألعاب النيميية والألعاب الإسثمية ، فقد جاء كل سفر يحوى نوعاً من القصائد التى قيلت فيها، فالأول للقصائد الأولومبية ، والثانى للقصائد البيثية والثالث للقصائد النيميية والرابع للقصائد الاسثمية .

وقد وصل بندار بهذا الفن إلى أرقى درجة أتيح له أن يبلغها فى العصور القديمة يقول فى افتتاحية الأوليمبية الأولى (أبيات ١ — ٩) :

« المساء هو أفضل الأشياء
والذهب يلمع كشعلة النار فى الظلماء
وبالنسبة للإنسان قد يكون أفضل من أى شىء آخر الثراء .
ولكن إذا كان عليك يا فؤادى أن تتحدث عن الألعاب الرياضية
فلا تبحث عن شىء آخر ولا حتى عن النجوم فى السماء الصافية

إذ لا شىء يفوق الشمس دِفئا
والنصر الرياضى فى دوامه الخالد كالماء
وكالذهب فى بريقه اللامع وكالشمس
فى مجدها الغالب ودفئها الأبدى »

ويتخلل قصائده كثير من الحكم والآراء الفلسفية ونظريات الأخلاق مما يدل على سعة اطلاعه وإحاطته بمعارف عصره . وقد كتب قصائده باللغة الدورية التى التزمها الشعراء فى هذا القسم من الشعر الغنائى منذ عهد ستيزيكور .

على أن أية أغنية من هذه الأغانى لا تمجد البطل الذى انتصر فى الألعاب الرياضية كسباق الجرى والملاكمة فحسب ، بل يمتد التمجيد إلى أفراد أسرته جميعاً وكذا موطنه ، فهو يمدح المدينة التى أنجبته ، ثم يورد قائمة بالإنتصارات الرياضية وغير الرياضية التى سبق للمدينة أن أحرزتها ، ثم يعبر عن مشاعره الخاصة ويورد قولا سائراً أو حكمة مأثورة مناسبة يختم بها القصيدة .

يضاف إلى ذلك نغمة دينيـــة تسود الأغنية . ولا يقتصر شعور الشاعر الدينى على الاستهلال بالابتهال إلى أبوللون أو زوس ، وإنما تحاول الأغنية أن تعطى تفسيراً دينياً للحياة ، وينزع تعدد الآلهة عند بندار إلى نوع من الوحدانية ، حيث يبرز زوس ربا للأرباب بغير منازع ، فهو يسود ويسوس جميع الآلهة دون اعتراض منهم ، وهناك ملمحان مهمان فى شعر بندار ، الأول يتمثل فى عظمة وعـــدل أبوللون الذى كان الشاعر نفسه خادماً فى معبده ، والثانى إصرار بندار على إظهار استقامة الآلهة . وهو يرفض أية أسطورة تسىء إليهم ، ويقول :

« لا . . لست أنا من يقول

إن لأى إله من الآلهة المباركين معدة شرهة
أنا أتحاشى مثل هذا القول
فمن يتحدثون عنهم بالسوء لهم عذاب أليم »

وآلهته لا يخضعون للسلوك البشرى أو للقوانين الوضعية . ومن ثم فلاينبغى أن تضايقنا أساطير مغامرات الآلهة الغرامية ، إن الخضوع لقوة أفروديت – ربةالجمال والحب والتناسل – الجبارة ، حتى من قِبَل الآلهة ليس عارا ، كما أن النساء اللائى يخضعن أو يستجبن لإغراء من يطارحهن الغرام من الآلهة لسن ملومات .

وإذا كان البطل الرياضى فى لحظة النشوة التى تعتوره بعد انتصاره يقترب من الألوهية ، فإن أغنية بندار التى تمجد هذا البطل يكتنفها جو إلهى عام ، يحاول من خلاله أن يجعلنا نحس بأنه ذو قرابة مع أرباب السماء ، أى أنه يؤله أبطاله . وفى استهلال البيثية الأولى (أبيات ١–١٢) المنظومة عام ٤٧٠ ق . م من أجل هيرون طاغية سيراقوسيا يخاطب بندار قيثارته ويقول إن الموسيقى والغناء يدمجان الأرض والسماء :

« أيتها القيثارة الذهبية
ياكنز أبوللون وربات الفنون شريكاته المتوجات بالبنفسج
تتجاوب مع أصدائك القدم الخفيفة ، وتشيع البهجة
من ألحانك التى تشد المغنى قائد رقصتنا
فيصدح بالاستهلال على أوتارك المهتزة
بوسعك أن تخمدى أُوار شعلة الصاعقة الخالدة
وبوسعك أن تجعلى الصقر ينام على صولجان زوس
وقد أرخى جناحيه السريعتين على جانبيه
لقد أسدلت غلالة سحرية
على ملك الطيور ، على منقاره ورأسه
سلبته عقله
ووضعت على مقلتيه المغلقتين خاتماً لذيذا

إنه يغط فى سبات عميق ، يعلو وينخفض
ظهره الرشيق فى إيقاع رخيم
لقد قهرته أغنيتك السابحة
وحتى آريس العنيف
قد ألقى سهامه الصلبة المدببة جانباً
وأسلم نفسه لنعاس خفيف
إن سهامك أيتها القيثارة تسحر حتى أرواح الآلهة
بفضل سلطان ابن لاتو أبوللون
وربات الفنون ذوات الصدر الفسيح »

وإذا كان الشعر فى رأيه إلهاماً من الآلهة ، فهو هدية السماء له . فضلته به على غيره ، وهو يطلق على نفسه « نبي ربات الفنون » أى المتحدث بلسانهن . ويرى نفسه طائر زوس المقدس ذا الصوت الساحر الرنان ، فى مقابلة سيمونيد وباكيليد اللذين يراهما غرابين ينعقان :

« إنه لحكيم ذلك الذى بالسليقة يعرف الكثير عن الطبيعة
أما الآخرون وإن حصلوا المعارف الواسعة تظل ثرثرتهم
مضطربة وبلا جدوى
مثل هذين الغرابين فى مقابل طائر زوس السماوى »

وهو يؤكد الضعف الإنسانى أمام الجبروت الإلهى فيقول (فى البيثية الثامنة أبيات ٩٥ — ٩٩) :

« حياة الإنسان يوم زائل ، ماذا يكون ؟
أو ماذا لا يكون ؟ إنه طيف فى الحلم
إنه إنسان ، ولكن عندما يهديه زوس البهجة
تلمع الأرض بالضياء
وتصبح الحياة حلوة كالعسل »

ويقول عن الفرق بين البشر والآلهة (النيمية السادسة أبيات ١—٥) :

« البشر والآلهة من سلالة واحدة
كلاهما من نفس الأم التى منها نأخذ أنفاس الحياة

ولكن الفرق بيننا فى القوة لا حدود له
فأحد الطرفين لا شيء
والطرف الآخر أبدىّ الصلابة
يسكن مسكناً ثابتاً ، لا يهتز ولا يفنى » .

وعاصر بندار الشاعرة البيوتية كورينا corinna ، وكانت أكبر منه سناً ، وأبدت كورينا للشاعر الشاب بعض إشارات التودد والحب . وقد أخذت عليه فى شبابه أنه لايهتم بسرد القصص الأسطورى فى قصائده ، وأنه ركز جهوده على الزخرف اللفظى ، فى حين أنها ترى أن أسمى وظيفة للشعر هى صياغة الأسطورة ، وقد أخذ بندار نقدها هذا مأخذ الجد ، ونظم أغنية ضمت عدة أساطير دفعة واحدة فضحكت كورينا وقالت : « على المرء أن يبذر البذور بيده ، لا أن يفرغ كيس حبات البذور دفعة واحدة » .

(ز) باكيليد Bacchylide

باكيليد بن ميديلوس Midylos ، هو ابن أخت سيمونيد (أو ابن أخيه) ولد فى البلدة نفسها التى ولد فيها خاله (أو عمه) وهى بلدة يوليس Iulis بجزيرة سيوس céos حوالى سنة ٥٠٠ ق.م ، وقد وهب نفسه للفن وأحب الأسفار فامتلأت بها حياته . وإن كنا لا نعلم شيئاً كثيراً عن تفاصيلها ، ويذكر المؤرخ بلوتارخوس plutarque أن باكيليد قد حكم عليه بالنفى من سيوس ، ولكننا لانعلم شيئاً يقينياً عن هذا النفى ولا عن أسبابه ، وربما كان على إثر ثورة ديمقراطية قام بها الحزب المؤيد لأثينا . والمهم أن الشاعر قد استقر فى البيلوبونيز ، ولكنه كان قد أرسل أغنية نصر (بايان paean) إلى هيرون طاغية سراقوسيا الذى أحب أن يحيط نفسه بالشعراء الغنائيين ، فاستدعى باكيليد وهناك وجد الشاعر نفسه جنباً إلى جنب مع خاله (أو عمه) سيمونيد ومع بندار ، مما أدى إلى إشعال نار التنافس بينهم وبالفعل تعكس بعض قصائد باكيليد وبندار هذا الروح .

وقد كتب باكيليد فى جميع أنواع الشعر الغنائى كما فعل سيمونيد وبندار من قبل ، ولم يكن لدينا من شعره حتى سنة ١٨٩٧ م إلا خمسون قطعة ناقصة ، منها ثلاث قطع طويلة نوعاً ما ، وباقيها من النوع القصير ، وفى السنة المذكورة

نشر العلامة فريلدريك كينيون F-Kenyon بردية كبيرة كانت قدأرسلت إلى المتحف البريطانى British Museum بعد أن تم العثور عليها فى مصر فى أواخر سنة ١٨٩٦ م فى القوصية ، وكانت تضم تسع عشرة قصيدة من شعره ، تشتمل على نحو ألف وأربعمائة بيت . ومن هذه القصائد ثلاث عشرة قصيدة من النوع الإيبينيسى Epinicies الذى يؤلف للإشادة بالانتصار فى المباريات الرياضية والذى نبغ فيه خاله (أو عمه) سيمونيد وبندار . وقد احتذى فيها مثال سلفه بندار فى أسلوبه وطريقته ، وأما القصائد الست الأخرى فمنها قصيدة هيمنية حماسية Hymne Héroiqueيشيد فيها بأبطال اليونان الأولين ، واحتذى فيها حذو ستزيكور ، وقصيدتان بيانيان Péansوثلاث قصائد ديثرامبية ، الأولى من هذه القصائد الثلاث تسمى Thésée وتتمثل فى حوار غنائى بين قائد الجوقة ويمثل إيجى Eggée ملك أثينا ووالد ثيسيوس وبين بقية أفراد الجوقة ، وكان باكيليد أول من نحا بالغناء الديثرامبى هذا المنحى الحوارى ، فأضفى عليه بذلك صورة من صور الأدب المسرحى . وهكذا أصبح باكيليــد شاعراً معروفاً لنا من خلال أشعاره نفسها ؛ والفضل فى ذلك يرجع إلى رمال مصر . وقد عده كتاب العصر الإسكندرى أحد الشعراء التسع الذين اعتبروهم أرقى من أنجبت بلاد اليونان .

ولكنه من ناحية أخرى يتعرض فى دراسات بعض النقاد للمقارنة ببندار . وفى هذه المقارنة يعتبرونه « بنداراً من الدرجة الثانية » وهذا يعنى أنه لم يلق عندهم التقدير المناسب . وقد عُزى إلى باكيليد أنه قال عن بندار : بأنه « نسر » أو « صقر » أما هو نفسه « فعندليب ميوس » وفى الواقع فإن موضوعات باكيليد هى نفس موضوعات بندار بيد أن لغته أسهل وأوضح ، وأفكاره أكثر شعبية ، ويعبر عنها على نحو أكثر إثارة للمتعة والبهجة ويتمتع بروح السخرية على نحو أعمق وأروع ، وهو يسرد الأساطير بأسلوب بسيط ومباشر ، مثلما فعل عندما قص أسطورة اللقاء بين هيراكليس وشبح ملياجروس فى العالم السفلى (الأغنية الخامسة بيت ٥٠ وما يليه) وليس بلازم أنه كان يقلد بندار فربما يرجع التشابه إلى أنهما نهلا من منهل واحد ، وتناولا نفس الموضوعات .

ولم يكن باكيليد يعتبر نفسه مثل بندار صاحب أفكار علوية أو معلماً أو نبيلا

يتحدث باسم ربات الفنون ، ومع ذلك فيرى بعض النقاد أنه أحسن من يروى الأساطير بين الشعراء الغنائيين وأحسن من يحقق الإثارة فيها بينهم . فهو يحكى للطاغية السراقوسى هيرون قصة كرويسوس الذى هزمه قورش امبراطور الفرس فبنى لنفسه كومة حرق نام فوقها ومات . ويقول فى نهايتها فى إبداع وإثارة (الأغنية الثالثة أبيات ٥٣–٥٦) :

« ولكن ما إن اندلعت النيران
وشبت فى المحرقة بنهم عنيف
حتى أرسل زوس سحابة داكنة محملة بالأمطار
فأطفأ الشعلة الصفراء »

وقد سبق باكيليد سوفوكليس فى مسرحيته « بنات تراخيس » عندما تحدث عن ديانيرا التى أرسلت لزوجها هيراكليس ثوبا مغموساً فى دواء سحرى ، اتضح فيما بعد أنه سم قاتل وحارق . ويقول عنها (الأغنية السادسة عشرة أبيات ٣٠–٣٤ :

« يا لحظها المنكود ، ذات المصير السيىء ! ماذا دبرت ؟!
لقد حطمتها الغيرة العنيفة
والغطاء الكثيف الذى يحجب أحداث المستقبل » .

وبموت باكيليد انتهى العصر الذهبى للشعر الغنائى ، ولكنه كان بمثابة همزة الوصل بين الشعر الملحمى والدراما .

الفصل الرابع

بذور الشعر التمثيلى

(١) الأعياد الدينيـــة

فى العصر اليونى – الدورى الذى نتحدث عنه ، نبتت بذور الدراما ، ثم بلغت أوج ازدهارها فى العصر التالى ، العصر الأتيكى ، وإذا كانت نواة الدراما وبذورها وُجدت فى كافة الفنون الشعبية لدى جميع الحضارات القديمة ، فإن هذه النواة لم تتطور ، وهذه البذور لم تتبرعم وتنمو وتطرح الثمار إلا فى بلاد اليونان : ذلك أن عقليتهم عقلية درامية بالدرجة الأولى ، ونلمح بذور الدراما فى طريقة تفكيرهم وأسلوب حياتهم ورؤيتهم للأشياء ، ونرى هذا واضحاً فى أساطيرهم وملاحمهم وأشعارهم التعليمية والغنائية ، ومن ثَمَّ جاء الشعر الدرامى تكثيفاً مركزاً لكل ماسبق أن أنجزوه فى هذه المجالات كلها .

وإذا كانت الفنون عامة تنبع عند الشعوب القديمة من الشعور الدينى الوجدانى ، فإن الدراما اليونانية تؤكد ذلك ولا تنفيه ، فقد احتضنها الدين اليونانى حين كانت جنيناً ، وبعد أن وُلدت منه ولادة طبيعية رعاها وتعهـــدها بالعناية حتى نمت وترعرعت ، ولازمها ملازمة الأم الرءوم فى كل أدوار حياتها .

فقد جرت عادة اليونان منذ أقدم عصورهم أن يُقيموا للآلهة ومن فى حكمهم من أنصاف الآلهة والأبطال الأولين أعياداً دينية يغنون فيها غناء مؤثراً بما ملأ حياة هؤلاء الآلهة وهؤلاء الأبطال ، ويسردون قصصهم ويفصلون أعمالهم فيفرحون بما نالهم من نعيم ويحزنون لما أصابهم من شقاء .

وكانت هذه الأعياد تقام فى كل أرجاء اليونان وبخاصة فى المدن المقدسة حيث مقر كبار الآلهة وحيث أشهر المعابد كقريطش وديلوس ودلفيا وما إليها من الأماكن التى خلعت عليها الأساطير من الجلال والضياء ما منحها مكانة خاصة وفضلها على غيرها من الأماكن .

فى دلف كان يقام عيد السبتريون تكريماً للإلـه أبوللون ، إلـه الطب والشعر والموسيقى والنهار والشمس والتنبؤات ، فيقوم طائفة من مهرة المغنين وسط الآلاف المؤلفة من الناس الذين اجتمعوا للاحتفال بذكرى هذا الإله * حيث ينشدون القصص المتعلقة بمولده وشجاعته وقتله للحية والحكم عليه بالرق ورجوعه مرة ثانية إلى حظيرة الآلهة وما إلى ذلك من الخطوب التى تتصل به .

وفى عيد الهرواس الذى كانوا يقيمونه لسيميليه محبوبة الإلـه زوس وأم الإلـه ديونيزوس كانوا ينشدون فى قطع غنائية ماتقصه عليهم الأساطير من الأمور المتصلة بهيام زوس بسيميليه ، وبموتها مصعوقة . وانتقال ولدها إلى فخذ أبيه ، ثم خروجه منها بعد انتهاء مدة الحمل ونشأته .

وفى أعياد ديميتير ، إلاهة الأرض والخصب والزراعة وقوى الطبيعة المنتجة كانوا ينشدون فى أشعار غنائية مؤثرة كل الحلقات الأليمة التى تتألف منها سلسلة حياتها ، منـــذ أن خطف الإلـه هاديس ملك جهنم وإله الموت بنتها كورتى (برسيفونا) ، فمضت تبحث عنها مبلبلة الخاطر فارغة الفؤاد تتقاذفها الطرق وتتداولها الأصقاع ، كأنها موكلة بفضاء الأرض تذرعه ، حتى إذا انتهت إلى مدينة اليوسيس — Eleusis فى الشمال الغربى من أثينا — لقيها ملكها حفياً بها ، فعرفت له حسن صنيعه وعلمته فن الزراعة . وهى فى أثناء هذا كله قلقة مضطربة لاتعرف أين ذهبت ولا كيف اختفت بنتها وفلذة كبدها ، ولا يظهر فى ظلمات حياتها ومضة نور أو بارقة أمل يعيد إلى ثغرها ابتسامته إلا عندما تلقى الخادمة الظريفة يامبى Iambé التى أضحكتها بفكاهاتها وأنستها غمها .

وهم يمزجون فى هذه الأغانى مزجاً بارعاً بين مايقصون من أحداث وما يعرضون له من مظاهر الطبيعة المتغيرة على حسب فصول السنة ، فهى حيناً ناضرة بهيجة ترتدى أثواب الأزهار والثمار ، وهى حيناً آخر ذابلة ذاوية قد تعرت من أغصانها وشحب لونها ، وهذا كله يثير فى نفوس السامعين مختلف العواطف وشتى الانفعالات ، يحزنون لما يساور الأم البائسة من قلق واضطراب وما يغشى الطبيعة من ذبول واكتئاب ، ويسعدون لبسمة الأم حين يلوح فى حياتها شعاع أمل ،

وحين يقبل الربيع فيوقظ الطبيعة ويجدد شبابها ، فتتألق فتنة وإغراء ، وتمتزج انفعالاتهم كلها بعاطفة الإجلال لقوانين الطبيعة ونظمها ، وتنبثق من هذا كله معان فلسفية وتعاليم دينية تتعلق بالإنسان ومصيره وضعفه أمام قوة القضاء .

وإذا كانت أهم عناصر الدراما هو التأثير القوى فى العاطفة والوجدان ، فقد كانت أعياد ديميتير إذَنْ بما تشتمل عليه من تحريك مظاهر الوجدان وإثارة قوى الإدراك ، وبما تبعث فى النفوس من حب وبغض ، وانزعاج وهدوء ، وخوف وطمأنينة ، ثم بما كانت تدفع إليه من تأمل عميق ، ونظر فى قوانين الطبيعة ، وتفكير فى مظاهر الكون ، بهذا كله كانت تحوى البذور التى أنبتت الدراما .

ولكن أعياد ديميتير بما فيها من جلال وجمال ومالها من أثر فى نشأة الدراما ، لم تبلغ الشأو الذى بلغته فى هذا أعياد ديونيزوس .

فديونيزوس إله الخصب والنماء والكروم والخمر ، وفى قصته من الأحداث الغريبة والمؤثرات القوية العميقة التى تثير قوى الإدراك وتحرك مظاهر الوجدان ، ما يفوق قصة ديميتير ، فهذا الإله قد ماتت أمه سيميليه ولما تتم مدة حمله . بصاعقة أرسلها عليها حبيبها زوس حين طلبت إليه أن يريها مظاهر قدرته ، وحينئذ انتقل الجنين إلى فخذ أبيه حيث قضى بقية مدة الحمل ، فوُضع بجبل نيزا ، وهناك قامت بحضانته وتربيته الإلاهات المسميات بالنيمف ، وهن إلاهات للأنهار والآبار والعيون والغابات وما إلى ذلك من مظاهر الطبيعة ، ثم تعلم فن الزراعة من الإله سيلين ، المضحك بمجمع الآلهة الأولمبى ، ولم يكد يبلغ أشده حتى اشترك مع أبيه فى الحروب التى خاضها مع المجمع الأولمبى ضد التياتن ، وأبلى فيها بلاء حسناً ، جعل أباه وهو رئيس المجمع يعجب به ويعتمد عليه .

ويثير المغنون بعرض هذه القصة فى نفوس الجماهير التى جاءت تستمع إليها مشحونة بعواطفها الدينية كلَّ ألوان الإثارة ، فهم مفزّعون محزونون لما أصاب هذه الأم المسكينة حين راحت ضحية حمقها وشكها فى قدرة زوجها ربِّ الأرباب ، ثم هم قلقون على هذا الجنين الذى صعقت أمه ولما تتم مدة حمله ، وينتهى قلقهم حين يجىء البشير بخبر انتقال الجنين من بطن أمه إلى فخذ أبيه ، ولكنهم يعودون

إلى قلق أشد حين يتحدث المغنون بخروج الطفل من فخذ أبيه الوثيرة إلى قمة ذلك الجبل الموحش حيث يستقر وحيداً لاأم ترعاه ولاحاضنة تتعهده ولاغذاء يقيم أوده ، ولا يخرجهم من قلقهم هذا إلا علمهم بأن القضاء قد قيض له النيمف * يرعينه ويَقمن بشئونه ، فاستبدله أمهات بأم واحدة ، وهكذا تظل قلوبهم مسرحاً لشتى العواطف والانفعالات حتى ينتهى الحفل .

ويزيد من قوة هذه العواطف وشدة هذه الانفعالات أن المغنين كانوا يعرضون فيها لقوانين الطبيعة التى تخضع لها الكائنات الحية ، ولا سيما مايتصل منها بوظائف الإله ديونيزوس ، فيصفون تتابع الفصول وآثارها على أشجار الكرم التى يميتها الشتاء ، فتيبس جذوعها وتذوى فروعها وتتساقط أوراقها ثم يبعثها الربيع فتسرى فيها عناصر الحيـــاة قليلا قليلا حتى تعود إلى نضرتها الأولى . وهكذا كانت تتلاقى عواطف الحزن والسرور والخوف والطمأنينة التى تبعثها قصة ديونيزوس بعواطف الإجلال لسنن الطبيعة والتأمل فى دقيق صنعها ، وتتجلى معان فلسفية دقيقة تمثل جهل الإنسان بمصائر الأشياء والأحياء ، ولا يقتصر التأثير على مظاهر الوجدان ، بل يتجاوزها إلى مظاهر الإدراك والتفكير .

وكان يساعد على إظهار هذه العواطف والمعانى ما كان يبيحه لهم الدين اليونانى من الاستمتاع بلذائذ الحياة المادية فى الأعياد عامة وفى أعياد ديونيزوس بوجه خاص . فهم يأكلون حتى التخمة ويشربون حتى الثمل وحتى تستخفهم النشوة فيرقصون . وكيف لايكون ذلك والأعياد أعياد ديونيزوس إله الخصب والنماء والكروم والخمر ، ويحمل لقب « حامى الأشجار » Dendritis . ومع أن اسمه ارتبط بالكروم أكثر من غيرها إلا أنها ليست الهدية النباتية الوحيدة التى جلبها لهم ، فهو يعتنى بكل الفواكه ، ومن ثم حمل لقب المزهر Euanthos والمثمر Eukarpos والمورق Dasyllios واليانع Anthios وهو أيضاً الإله الخيّر Euergete طيب النصيحة Eubouleus الذى علم الإنسان زراعة الكروم ورعاية البساتين . وتتجلى قدرته فى فصل الربيع حيث يوقظ الأرض من سباتها الشتوى العميق باعثاً فيها القوة والحياة والدفء ، فإذا هى فى حلة خضراء

مزركشة بألوان زاهية من الازهار والفواكه ، ومن ثم كان ديونيزوس يمثل كافة قوى الإخصاب فى الطبيعة ، وكان عضو التذكير فى الرجل الفاللوس Phallos رمزاً مهماً فى طقوس عبادته .

وديونيزوس فى المقام الأول إله الكروم ومخترع النبيذ،وهو بذلك قوة كبرى من قوى الخير عند اليونان، فبفضل اختراعه العظيم حررهم من المتاعب وخلصهم من الآلام وجلب لهم المتعة وهيأ لهم أسباب المرح ، فلقبوه بالمحرر Eleuthereus والمخلص Lyaios وقالوا عنه : إنه المخلص من الهموم Panton ho Dionysos Lysios واعتقدوا أنهم بمساعدته يمكنهم استئناس قوة الطبيعة المتوحشة ، واستبدال الخوف والعنف والبغض بالأمن والسكينة والوفاق ، أليست الأسطورة تحدثهم بأن الأسود والنمور كانت تجر عربة ديونيزوس فى وداعة وسلاسة ؟ وأن وحوش الغابة كانت تسير خلفها فى استكانة واستسلام، وتحت إمرته وبقوة سلطانه خضع الهنود البرابرة لسيادة النظام والقانون ؟

وإذا كانت الخمر هى التى تبعث النشوة فى القلوب وتدفع الإنسان إلى الرقص ، وقد تلهمه نظم الشعر ، فإن ديونيزوس أصبح مثل أبوللون راعياً للشعر والموسيقى وحمل لقب المغنى Melpomenos ، ولكن مع التفريق بين شعر وموسيقى كل من الإلهين ، فالأناشيد والأغانى البايانية — وهى من وحى أبوللون ولتكريمه — تتمتع بنغم وقور نابع من موسيقى القيثارة ، فالطابع الغالب عليها هو الاتساق فى الشكل والرزانة فى التنغيم ، أما أشعار ديونيزوس فتتمتع بحرية إيقاع الفلوت وحيوية موسيقاه وتسمح بالتنويع فى أساليب اللغـــة للتعبير عن شتى الأحاسيس ، وكذا بالانتقال السريع من المرح والنشوة إلى المعاناة والقسوة ، من المجون الصاخب إلى الهدوء الوجدانى ، تمشياً مع طبيعة الاحتفالات التى تقام تحت رعاية إله الخمر والنشوة ، وهذه الحرية فى الموسيقى والتنويع فى الأساليب ، ثم الخروج على كل القيود الصارمة ، هى العوامل أو العناصر التى جعلت من الأغانى الديونيزوسية الجماعية بذرة صالحة لاستنبات فن جديد يتمثل فى الدراما بفروعها الثلاثة : التراجيديا والكوميديا والمسرحية الساتيرية . فقد أخذ الغناء القصصى الذى

كان ينشد فى هذه الأعياد يرتقى شيئاً فشيئاً ، حتى استحال إلى حوار تمثيلى ، وتجاوز المنشدون سرد القصص والتغنى بها إلى تقمص صفات من ينشدون قصصهم ويحاكونهم فى أعمالهم ، حتى استحالوا إلى ممثلين ، وهكذا ظهرت بذور الدراما فى رحاب الدين ، وكان للأعياد الدينية فضل نموها وازدهارها ، وقد كانت الدراما تمثل فى ريف اليونان ، وكانت تنتقل بها الفِرَق الجوّالة ، إذْ لم يكن المسرح اليونانى قد نشأ بعد .

واشتهر من المهرجانات التى كانت تقام لتكريم ديونيزوس فى أعياده نوعان :

أحدهما : المهرجانات التى كانت تقام فى الربيع ، عندما تستيقظ الأرض من رقادها الشتوى لتستقبل حياة النشاط والحركة ، وتكسوها النباتات والأشجار حلة خضراء زاهية من فضل إله الخضرة ديونيزوس . وعندما يكون نبيذ الموسم الماضى جاهزاً للشرب ، وأهم هذه المهرجانات مهرجان الأنثيستيريا Anthesteria (عيد الزهور) ويقع فى فبراير من كل عام ، وأهم طقس فيه هو الافتتاح الرسمى لبرميل الخمر Pithoegia ؛ بيد أنه فى وقت لاحق أضيف احتفال ربيعى آخر هو مهرجان ديونيزوس بالمدينة أو الديونيزيا المدنية الكبرى . ويقع فى مارس ، وهو أكبر وأشهر المهرجانات جميعاً .

والنوع الثانى . المهرجانات التى كانت تقام فى الشتاء ، بعد انتهاء أعمال الزراعة السنوية وحلول موسم الكروم وجنى الفواكه ، وهذه المهرجانات فى أثينا كانت تسمى اللينايا Lenaia أى أعياد عصر النبيذ ، وكانت تقام فى يناير ، وفى المقابل كانت هناك احتفالات أخرى شتوية ريفية ، تقام فى مناطق أتيكا الأخرى فى غضون شهر ديسمبر ، وأطلق عليها اسم مهرجانات ديونيزوس الصغرى Ta mikra Dionysia

وكان الاحتفال فى هذين النوعين من المهرجانات بسيطاً ، لايتجاوز مجرد تجمهر ريفى من أجل تكريم ديونيزوس ، حيث يتضرعون إليه أن يبـــارك جهودهم الزراعية ، ويزيد من خصوبة أراضيهم وبساتينهم ، ويسير موكب من هؤلاء الفلاحين إلى مذبح ديونيزوس حيث ينحرون ماعزاً كقربان أو أضحية له ، وتتقدم الموكب المقدس عذراء فى أبهى زينة ، وقد تحلت بالجوهرات الذهبية ،

وحملت على رأسها السلة المقدسة التى تحوى قرابين من الفطائر ، وتيجاناً من الزهور لتوضع فوق الأضحية . كما تحوى سكيناً لتذبح بها الماعز . ووراء الفتاة يسير الباقون وهم يحملون أيضاً بعض الهدايا الريفية مثل عناقيد العنب أو حبات التين وأباريق النبيذ وبعضهم يرفع عالياً مسخة تمثل عضو التذكير للرجل (الفاللوس) وهو رمز ديونيزوس إله الخصب ، وأثناء عملية تقديم القرابين تقام الرقصات وتؤدى الأغانى تكريماً للإله . وينتهى اليوم بتبادل أنخاب الشراب العام وبالمرح الصاخب .

وإذا كان للأعياد الشتوية طابعها الذى يختلف عن طابع الأعياد الربيعية ، فقد كان لكل من هذين النوعين أثره فى نشأة نوع من أنواع الدراما .

فالمهرجانات الشتوية كان لها أثرها فى نشأة الكوميديا ومن أجل ذلك كانت تسمى أحياناً تريجوديا Trygodia أى أغنية تفل أو حثالة العنب ، وفى هذه المهرجانات يسير موكب المعربدين (الكوموس) Komos وهم يحملون مسخة لعضو التذكير (الفاللوس) ويرددون أغنية لديونيزوس تنسب إلى الفاللوس ، ويقال لها « الأغنية الفاللوسية) phallikon ، وبين الحين والحين كان قائد الموكب يسلى المشاهدين بإلقاء بعض النكات البذيئة التى يرتجلها ارتجالا ، والتى قد تكون فى صورة مونولوج طويل يلقيه وحده ، أو فى صورة ديالوج أى حوار يتبادله مع بعض المغنين من رفاقه فى الموكب . ومن هذا الخليط الذى يمزج بين الأغانى والنكات والمونولوج والديالوج نشأت الكوميديا ، ومع أن الفن الكوميدى قد تطور عن هذا الأصل البدائى الفج ، إلا أنه قد تخلص من أغاب مظاهر البداوة والغلظة والفجاجة ، وإن ظل يحتفظ ببعض سماتها حتى النهاية ، وكما يبدو فى مسرحيات أريستوفانيس على سبيل المثال .

وفى المقابل كان للمهرجانات الربيعية أثرها فى نشأة التراجيديا ، عندما كان الريفيون يحتشدون لافتتاح براميل النبيذ الجديدة والترحيب بالطبيعة المتألقة بالأزهار والثمار ، والإشادة بفضـــل الإله ديونيزوس ، وسرد ماعرض له فى حياته من خطوب ، وكل هذا فى قطع غنائية مؤثرة ، نالها من التطور بعد ذلك ما أحالها

إلى عروض مسرحية تراجيدية ، أصبحت ترتبط بأعياد ديونيزوس فى المدينة ، أى بالمهرجانات الربيعية بينما لم تدخل التراجيديا فى برنامج أعياد اللينايا الشتوية إلا فى وقت متأخر نسبياً ، وكانت تحتل فى هذه الأعياد مركزاً ثانوياً بالنسبة للكوميديا .

ومع تعدد حفلات ديونيزوس الربيعية فى المدينة فقد اشتهرت من بينها حفلات « الساتير » التى اعتبرها مؤرخو الآداب اليونانيـــة وبعض فلاسفة اليونان أنفسهم كأرسطو الأمهات المباشرة لتراجيديات العصر الأتيكى .

(٢) حفلات الساتير

تخيل اليونان حاشية ديونيزوس التى كانت ترافقه فى رحلاته ومغامراته خليطا من الكائنات الأسطورية التى تمثل قوى الطبيعة الفعالة وتجسد العواطف والانفعالات البشرية ، فهى حاشية تناسب إله الثمار ومنضج الفواكه ومبدع الخمر وراعى الشعر والموسيقى ، ومن أبرزهم الساتير Satyr وهم أنصاف آلهة ، متوحشون ، يسكنون الغابات والجبال ، ونصف الواحد منهم بشرى ، والنصف الآخر حيوانى ، فوجهه وقامته كوجه الإنسان وقامته ، ولكن له قرنـــان صغيران ، وآذان مدببه ، وشعر طويل أشعث ، وأرجل كارجل الجدْى ، ويحمل فى يده مزمارا أو كأسا أو عصا يعلق بطرفها ثمرة صنوبر ويلتف حولها غصن من أغصان الكروم ، ومن طبعه الحيوية الزائـــدة والمرح الفكاهى والمتعة الماجنة والصخب الكثير . ونرى هذه الكائنات فى الرسوم الباقيـــة على الأوانى يحملون اسمـاء مثل كيسوس (Kissos اللبلاب) وأوينوس (oinos الخمر) وكوموس (Komos المجون) وخوروس (choros الرقص الدائرى أو الجوقة) وجيلوس (Gelos الضحك) وكروتوس Krotos دق القـــدم أو الكف فى الرقص) وديثيرامبوس Dithyrambos (وهيبرس (Hybris النشوة) .

ومن أتباع ديونيزوس أيضا طائفة من النساء الباكوسيات أو عابدات باكوس (BaKchai) أوالمجنونيات (Mainades) وهن فتيات عذارى ذوات شعر طويـــل

أشعث ، يلبسن ملابس فضفاضة ويرقصن رقصات صاخبة على أنغام ودقات الصفائح المدورة (الصنج) ويلوحن بصولجان ديونيزوس السحرى ويحملن أسمـاء مثل أسماء الساتير تناسب عبادته مثل خوريا (choreia الرقص) ومولبى (Molpe الأغنية) وإيوثيميا (Enthymia المرح) وميثى (Methe السكر) وكوميديـا (Komodia الأغنية الماجنة) .

ومن أتباعه أيضا جماعة تحمل اسم السيلينوى (Silenoi ويظهرون فى الرسوم بأجساد ضخمة كثيفة الشعر ، لهم ملامح تنم عن حالة السكر وتشى بما يعيشون فيه من فسق ومجـون ، وهم يمثلون كبار السن فى الحاشية ، أى شيوخ الجماعة . ومن أتباعه أيضا الكنتوروى (Kentauroi) لأنهم يمثلون القوة الحيوانية وماتجسده من نشاط وخصوبة ، كما يظهر الإله بان فى زمرته ، ويظهر (الخريف) متجسدا فى صورة امرأة تقدم باكورة فواكه الأرض فى طبق إلى ديونيزوس . وكثيرا مانجد إلى جوار إله الخمر العربيد إله الحب والرغبة إيروس مع ربات الفنون وربات الخير والنعم .

وإذا كان لأعياد ديونيزوس الربيعية بالمدينة أثرها فى نشأة التراجيديا ، فقد اشتهرت من بينها حفلات الساتير ، التى كانت تقام فى القسم الشمالى من مقاطعة البيلوبونيز منذ القرن السابع ق . م .

وقد نسبت هذه الحفلات إلى الساتير ، لأن أفراد الجوقة المغنية فيهـا كانوا يرتدون جلود الماعز ، ليمثلوا رفاق الآله ديونيزوس ، وكـان يخيل إلى كل منهم أن هذا الشعار قد صيره ساتيرا حقيقيا ، فتمتلىء نفسه بما يزيد من قوة تأثره وشدة انفعاله ، ومن ثم كانوا يطلقون على هؤلاء المغنين اسم التيوس ويصفون الحفلات التى كانوا يغنون فيها بالتراجيديات نسبة إلى « تراجوس » ومعناه الماعز فى اللغة اليونانية ، وبذلك دخل فى الأعياد الدينية عنصر هـام من عناصر التمثيل ، وهو الظهور بمظهر الشخص الذى يُراد تمثيله .

وإلى جوار الجوقة كان يوجد المنشد الأصلى الـذى يرتجل أمـام الحفل المحتشد بصوت غنائى قصة الإله ديونيزوس مضفيا عليها كل ما يوحيه إليه خياله ، ومضمنها

إلى أقواله من نبرات الصوت وحركات الجسم ما يتطلبه المعنى وتبعث به الانفعالات وما يحسن به تمثل الإله ، ويزيد به التأثر فى نفوس الجمهور وبذلك ظهرت بذور عنصر آخر هام من عناصر التمثيل وهو محاولة محاكاة أبطال القصة .

وقد كان الجمهور يشاهد أعمال المنشد والفرقة الغنائية متأثرا بها ، ويحمله الفضول أو شدة التأثر أحيانا على الإشتراك فيها كلها ، أو فى بعض أجزائها .

وكانت أغانى هذه الحفلات من نوع الديثيرامب .

والديثيرامب أغنية جماعية تؤديها الجوقة وهى تقوم ببعض الحركات التعبيرية والرقصات التى تشرح وتؤكد معانى الكلمات ، وكانت الرقصة الديثيرامبية تسمى تيرباسيا Tyrbasia ، أما الموضوع الرئيسى لكلمات الأغنية فهو أسطورة ديونيزوس يعرضون لبعضها عن طريق المحاكاة بالكلمة والحركة ، وهم متنكرون على هيئة الساتير ، فيجعلون الأحداث أقرب إلى التصديق والحيوية ، وقد ظلت المسرحية الساتيرية تحتفظ بهذا العنصر التنكرى إلى النهاية ، فكانت أكثر فروع الدراما الثلاثة — أى بالمقارنة مع التراجيديا والكوميديا — قربا من أصلها الديثيرامبى ، وعلى هذه الصورة من الهيئة والملبس كان أفراد الجوقة يرقصون فى دائرة حول مذبح ديونيزوس الذى ينبعث منه دخان القرابين متغنين بمغامرات هذا الإله ، ومؤكدين بحركات الجسم كل معنى حتى يقنعوا المتفرجين بأن ما يرونه ليس مجرد حكاية أسطورية قديمة ، بل هو أمر أقرب ما يكون إلى الحقيقة والواقع .

ومن الطبيعى أن يكون الديثيرامب فى أول أمره ساذجا مضطرب التلحين غير منظم فى عناصره ولا فيما يصحبه من رقص ، ذلك أن القائمين بالغناء والرقص فيه كانوا من الفلاحين ، الذين يقومون بما يقومون به تطوعا وبصورة تلقائية فى احتفالاتهم الدينية ، فكان مجرد أغنية فولكلورية تقليدية أكثر منه ضربا من ضروب الأدب الرسمى ، ولكن دخله من التطوير والتهذيب ووجوه الضبط والإصلاح على أيدى شعراء مهرة ومغنين وراقصين موهوبين ما نحا به نحو الشعر الرسمى ذى القيمة الأدبية العالية .

وينسب إلى أريون فى أواخر القرن السابع ق .م كثير من وجوه هـــذا الضبط والإصلاح والتهذيب ، فقد كان أشهر عازفى المزمار (الهارب)فى زمانه ، وكان أول من أعطى عناوين ثابتة ومحددة لأغانيه الديثيرامبية ، وبعض الروايات القديمة تعزو إليه اختراع الديثيرامب ، ولكن من الأرجح أنه أدخل عليه تحسينات هائلة ويقال إنـه أول من ابـتدع الشكل الدائرى للرقصة الديثيرامبية ، حتى إنَّ الأساطير تسميه « ابن الدائرة » Kykleos huios .

بيد أن الشكل الدائرى قـد يكون أمرا بديهيا وطبيعيا فى رقصات تودى حول مذبح ديونيزوس،ولكن يبدو أنه أول من أوجد النظام والنسق فى مثل هذه الرقصات التلقائية . وربما كان هو أول من ثبت عدد الراقصين فجعلهم خمسين ، وظل هذا العدد دون تغيير بعد ذلك ، ويقال أيضا إنـــه أحدث تطويرا جوهريـــا فى موسيقى الديثيرامب فجعله نظاما أكثر وقـــارا من قبل ، واستبدل بالنغم الدورى الثقيل الموسيقى الفريجية المؤثرة ، واستخدم المزمار (الهارب) إلى جانب (الفلوت) ، ولعل أهم ما يعزى إليه أنـــه أوجد بعض الفقرات التى تلقى بين الحين والحين أثناء الغناء ، أى أجزاء حوارية موزونة ، يلقيها قائد الجوقة ، ويتبادل بها الحوار مع بقية أفرادها ، وهذه الأجزاء الحوارية التى قد تبدو أنها عنصر ثانوى بالنسبة للأغنية الديثيرامبية ، هى أكبر خطوة نحو ولادة التراجيديـا اليونانيـة ، فهى النواة الأولية فى الفكرة الدرامية ككل .

وهكذا تطورت أغنية الديثيرامب ، وخضع كل ما تشتمل عليه من أصوات ورقص وحركات لقواعد فنية دقيقة ، وشملها التناسق الموسيقى ، فلم يعد المغنون يتمتعون بما كانوا يتمتعون به من قبل من حرية وارتجال ، وإنما أصبحوا خاضعين لقيود كثيرة،ولم يعد غناؤهم مقطوعات فى الشكوى من أحداث الدهر مشفوعة بالعويل والنحيب وصرخات الألم وآهات التوجع ، وإنما أصبح نوعا من الشرح والتفسير والتعليق على ما يقول القاص،وبذلك كانت هذه الحفلات الأمهات المباشرة للدراما؛ وكل ما اتخذ حيالها لا يعدو بعض التعديلات التى أدخلت عليها تحت تأثير بعض العوامل الإجتماعية والتطورات الأدبية .

ويختلف الباحثون حول طابع الديثرامب ، فبعضهم يرى أنه طابــع مأساوى جاد ، وأن التراجيديا نبعت منه ، إذ كان موضوعه الرئيسى هو التعبير عن آلام ديونيزوس ، وبالنسبة للساتير ودورهم ، فقد كانوا يقومون بالرقص والغنــاء تعبيرا عن تعاطفهم مع إلههم ومشاطرتهم آلامه . ويتمثل هذا الطابــع المأساوى فى معاناة « عابدات باكوس » المجذوبات كما يظهر فى مسرحية يوريبيديس التى تحمل هذا الإسم ، ويرى آخرون أنه طابع كوميدى هزلى ، إذ أن وجود الساتير فيه يجعل عملية المواءمة بينهم وبين الطابع الجاد أمرا عسيرا ، وهم فى هذا يسترشدون برأى أرسطو الذى يقول إن طابع الجدية فى التراجيديا كان أمرا مستحدثا ، أى نجم عن تطوير أُدخل فى فترة لاحقة على الديثرامب الذى غلب عليه الطابع الساتيرى الهزلى ، والمقولة الكوميدية ، والأوزان المفعمة بالحركــة المرحة والرقص الصامت .

ولكن نظرة واحدة على المسرحيات الساتيرية التى وصلت إلينا ، والتى تعد استمرارا للطابع الساتيرى فى الديثرامب كفيلة بأن تظهر لنا أن الأغنية الديثرامبية لم تكن كوميدية خالصة ولاهزلية خالصة ،وأنها جمعت بين النكات الفجة والسخرية الماجنة وبين العواطف الجــادة ، وواءمت بين كلماتها ورقصاتها بطابعيها هذين المتناقضين من جهة ، وبين هذا الجزء أوذاك من أسطورة ديونيزوس التى يقدمونها من جهة أخرى ، ومن هنــا كان سهلا عليهم أن يركزوا على العنصر الجاد لتطوير التراجيديا ، والإبقاء على الطابع المزدوج فى المسرحية الساتيرية .

وإذا كانت الحفلات الساتيرية قــد تمخضت عن التمثيل التراجيدى ، وكانت الأمهات المباشرة له ، وكان هو ابنها الشرعى ، فإنه بعد تطوره قد أصبح شيئا مختلفا عنها .

فقد أصبح موضوعه بطلا من أبطال اليونان الأولين الـذين ورد ذكرهم فى قصائد هوميروس أو فى أساطير اليونان بعد أن كان موضوعها الإله ديونيزوس ، ولذلك هجرت الفرقة الغنائية عادة ارتداء جلود الماعز .

وأصبح المنشد ممثلا ، لايكتفى بتلاوة قصة بطل الرواية ، بل أصبح يحاكيه فى أقواله وأعماله ، متخيــلا وحاملا الجمهور على التخيل أنه هو نفسه البطل .

ونظمت العلاقات وتوثقت الروابط بين المنشد والفرقة الغنائية ، بحيث سارت أعمالهما فى طريق متسقـــة منظمة ، وتمثلت معظم أقوالهما فى حوار يجرى بينهما من حين لآخر .

وقد تمّت هذه التعديلات والتطورات بفضل شعراء نابهين من أشهرهم إبيجين Epigène وتيسبيس Thespis وفرينيكوس Phrynichos .

(٣) إبيجين Epigène

شاعر دورى من مدينة سيسيونا Sicyone فى مقاطعة البيلوبونيز ، وتعتبره المصادر التاريخية من المصلحين الأوائل للمسرح اليونانى ، ولكنها لا تنسب إليه أى اختراع معين فى التمثيل ، ومن المحتمل أن يكون واحـــدا من الشعراء الدوريين الذين عملو فى أوائل القرن السادس ق . م على نقل الديثرامب من أعياد ديونيزوس إلى أعياد الأبطال الأولين التى كانت تقيمها المدن الدورية لهم ، وبذلك تحقق تعديل من التعديلات التى أدخلت على حفلات الساتير حتى تمخضت عن تراجيديات العصر الأتيكى ، وهو جعل الموضوع متعلقا بالأبطال بدلا من الآلهة .

ولأقدمية إبيجين ومعاصريه ادعى البيلوبونيزيون أنهم هم — لا أهل أتيكا — المخترعون للتراجيديات وأن بلادهم كانت مهدها الأول ، وأن الأتيكيين لم يكونوا إلا مقلدين لهم ، ولكن هذا الإدعاء لا يخلو من الغلو والمبالغة ، إذ أن مجرد احتمال نقل الغناء الديثرامبى القديم من أعياد ديونيزوس إلى أعياد الأبطال الأولين ، مع الإبقاء على بقية عناصره المتبعة من قبل ، لا يكفى فى جعل هذه الحفلات تمثيلا تراجيديا بمعناه الفنى الكامل ، إذ لابد فى التمثيل من ممثلين ولو كان ممثلا واحدا ، ولانعرف أن إبيجين قد حاول إدخال هذا التعديل ، وإن مسرحا لاتتجاوز عناصره العاملة فرقة تغنى وقاصا يروى ، أيا كان نوع غنائه وموضوع قصته ، من المبالغة أن تسمى أعماله تمثيلا .

* * *

(٤) تيسبيس Thespis

ولد بقرية إيكاريا Icaria فى شمال البنتليك Pentélique بغرب ماراثون (من مدن أتيكا) وهذه المنطقة كانت مركزاً كبيراً من مراكز عبادة ديونيزوس . واسم القرية إيكاريا مشتق من إيكاروس البطل الأسطورى الذى حظى بشرف أنه كان أول من إستقبل فى أتيكا الإله الجديد ديونيزوس . وأدخل إيكاروس زراعة الكروم وصناعة النبيذ فى منطقته . فلقى حتفه بسبب ذلك إذ قتله الرعاة من أهلها فى نوبة من نوبات السكر العنيف . فشنقت إبنته إرجونى نفسها حزناً عليه . وتخليداً لموت إرجونى أو تكفيراً عنه قامت شعائر وطقوس سنوية للتطهير ، يعلق العذارى أنفسهن فيها فوق الأشجار .

وكان مولده فى بداية القرن السادس ق . م . وفى إيكاريا أمضى سنوات صباه وشبابه ، وشرع فى تطوير الديثرامب ، وكان أهم تعديل أدخله هو إيجاد الممثل لأول مرة فى مقابل المغنى والراقص ، وكلمة ممثل hypokrites باللغة اليونانية تعنى حرفياً « المجيب » إذ أن عمل الممثل الأصلى كان آنذاك يتمثل فى أن يدخل فى حوار مع أفراد الجوقة بأن يجيب على أسئلتهم . ويهدف هذا التعديل أساساً إلى زيادة الأجزاء الحوارية التى كان قد أوجدها أريون أو غيره من قبل . فبعد أن كانت من عمل أفراد الجوقة أو قائدهم صارت الآن من عمل شخص مستقل أُوجد خصيصاً لهذا الغرض . وقد يبدو هذا التعديل بسيطاً ، ولكنه فى الواقع كان الخطوة الكبرى التى وضعت الأغنية الديثرامبية على طريق الدراما ، وحولتها إلى تمثيلية حقيقية ، وأصبح الممثل هو الذى يقوم بالحدث الرئيسى فى القصة المعروضة ، أصبح هو الشخصية الرئيسية وبطل الأحداث الذى يروى ويمثل ما حدث له هو ، ولم يصبح الأمر مجرد حوار بين أفراد الجوقة وقائدها حول أحداث وقعت لآخرين ، وهذا هو أساس الفكرة الدرامية ككل وكما يرد عن أرسطو فى تعريفه للتراجيديا ، وهو فى الوقت نفسه يمثل الخيط الرفيع الذى يفصل بين الشعر القصصى أو الملحمى والشعر التمثيلى . وقد كان هذا الممثل الوحيد يؤدى كافة الأدوار على التوالى ، سواء كانو آلهة أم ملوكا أم رسلا إلى غير ذلك ، وهو يتخذ هيئتهم بالتنكر . ويتقمص شخصيتهم بالحركة والكلمة

ويعبر عن مشاعرهم ، فلا غرو إذن أن يعتبر تيسبيس لدى القدامى والمحدثين خالق فن التراجيديا .

وقيل إنه هو نفسه الذى كان يقوم بدور الممثل فى مسرحياته ، ويلعب أدوار الشخصيات العديدة التى كان يقدمها على التوالى ، واستطاع أن يفعل ذلك بفضل تغيير ملابسه وتغطية وجهه بالرصاص الأبيض ، ولم يلبث أن اخترع القناع الكتانى ، وكانت أقنعته تصور وجوه الرجال ، أما الأقنعة النسائية فلم تعرف إلا فى وقت لاحق ، واستلزم ذلك أن يقيم خلف المنصة التى كان يقف عليها من قبل قائد الجوقة الديثيرامبية ليتحدث إل أفرادها ، مكانا صغيرا مغطى يمكن أن يتوارى خلفه الممثل لكى يغير ملابسه وقناعه ، وسمى هذا المكان المستحدث « السقيفة » Skene . وهذه المنصة وسقيفتها هى أساس أو نواة « خشبة المسرح » الحديث . ثم هو فوق أنه أول من أوجد دور الممثل ، وأول من أوجد فن الماكياج بما أدخله من أصباغ ووجوه مستعارة ، وأول من أوجد خشبة المسرح بالسقيفة . فهو كذلك أول من نظم الأعمال المسرحية وقيدها بعد أن كانت مهوشة طليقة ، وأول أتيكى جعل موضوع القصة التمثيلية أناسا من أبطال اليونان الأولين بعد أن كانت موضوعاتها لا تتجاوز حياة الآلهة ، فقد سبقه إلى هذا الإصلاح إبيجين ومعاصروه .

وقد أزعجت إصلاحاته هذه فى بادىء الأمر كثيرا من شيوخ أثينا المحافظين ، فقد ساءهم على الأخص حرية التصرف فى أبطال اليونان الأولين الذين كانوا موضع تقديسهم ، إذ يظهرهم على المسرح فى صورة أحياء بعد أن ضمتهم الرموس . ويفترى عليهم الكذب ، ويتقول عليهم الأقاويل ، فيجعلهم يقولون ما يحتمل أنهم لا يريدون قوله لو كانوا على قيد الحياة ، ويعملون أمورا لا تتفق مع ما كانوا يعملونه فى حياتهم وما كانوا يودون عمله .

بيد أنه على الرغم من تذمر هؤلاء المحافظين فقد اشتد كلف الشعب بفن تيسبيس ورأى القائمون بالأمر فى أثينا أن الخير كل الخير فى أن يتلهى الشعب بهذا الفن الجديد ، علّه ينسيه بؤسه وشقاءه ورقه السياسى ، وبفضل كلف الشعب به وعدم مقاومة الحكومة له انتشر انتشارا كبيرا ، وتبارى فيه الشعراء ، فكانت تتقدم منهم أفواج

بقصصهم التراجيدية فى كل عيد من أعياد ديونيزوس متنازعين إعجاب الجمهور وإقباله ، ولم تلبث هذه المسابقات الأهلية أن تحولت إلى مسابقات رسمية تشرف عليها الحكومة ، وتختار شعراءها وتكافىء المبرزين منهم ، على نحو ما سنذكره فى الباب التالى .

ويقول هوراس الرومانى فى كتابه « الفن الشعرى » إن تيسبيس كان يتنقل بين قرى أتيكا ومعه فنه على عربة صغيرة ممثلاً فى الأسواق والمجتمعات صابغاً وجهه بأصباغ مستخرجة من المواد الراسبة فى النبيذ » وفى هذا ما يدل على أن تيسبيس قد ابتدأ تجاربه التمثيلية فى أعياد القرى وأسواقها قبل أن يذهب إلى أثينا ، وأن إيكاريا مسقط رأسه والقرى المحيطة بها قد سعدت برؤية أول تراجيديات يونانية قبل أن تراها عاصمة أتيكا نفسها .

ولم تحفظ لنا الآثار التاريخية شيئاً موثوقاً بصحته من القصص التى مثلها تيسبيس ، ولكن المؤرخ اليونانى سويداس Suidas يذكر أسماء خمس قصص كانت تنسب فى عصره لتيسبيس وهى : ألعاب بلياس المأتمية Les Jeux Funèbres de Pélias والكهنة Les prêtres ، والشبان Les Jeunes Gens ، وبنثى Penthée ، وفورباس phorbas .

وليس من السهل أن نعرف الوزن الذى نظمت به به مسرحيات تيسبيس ولكنا نجد بعد موته بنحو ثلاثين أو أربعين سنة الوزن اليامبى الثلاثى هو المستخدم بصفة منتظمة فى الحوار بالمسرحيات التراجيدية ومن الصعب أن يكون قد حقق هذه الغلبة والسيادة فى مثل هذه المدة القصيرة ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن سولون المشرع الأثينى — وكان يعاصر تيسبيس — كان قد استخدم هذا الوزن فى أشعاره ، فإن هذا يعنى أن هذا الوزن كان شائعاً فى أيام تيسبيس ، وكان هو بالقطع يستخدمه أيضا ، وإذا كان الوزن الرباعى التروخى هو المستخدم — قبل تيسبيس — فى الأغانى الديثرامبية فمن الممكن أن يكون قد استخدمه أيضا مع هذا الوزن . إذ ليس من المتصور أن يكون قد هجر الوزن التروخى القديم كلية ، ولا سيما أن هذا الوزن قد ظل يستخدم حتى بعد عصره .

وبريادة تيسبيس بدأت التراجيديا تخرج عن طوق الأسطورة الديونيزية إلى الآفاق الواسعة للأساطير الأخرى اليونانية العديدة والمتنوعة ، وهذا يعنى أن الجوقة بدأت رويدا رويدا تتخلى عن الطابع الساتيرى . ولكن بعض الباحثين يرى أن مسرحيات تيسبيس كانت لا تزال تدور فى فلك الأسطورة الديونيزية وأن جوقته احتفظت بالهيئة الساتيرية ، ونعتقد أن فكرتنا عن مسرح تيسبيس ستصبح أكثر وضوحا حين نصل إلى مسرحية « المستجيرات » لإيسكيلوس على اعتبار أنها أقدم ما وصلنا من المسرح اليونانى التراجيدى ، وبالتالى فهى الأقرب إلى مسرحيات تيسبيس .

وقد عرضت أولى تراجيديات تيسبيس فى أثينا عام ٥٦٠ ق . م تقريبا . وكانت عروضه تقوم على جهود هواة لا تساعدهم الدولة ولاتعترف بهم . ويروى أن المشرع سولون Solon عاهل أثينا قبل بزيستراتوس شاهد بعض ما كان يعرضه تيسبيس من مسرحيات فى هذا المهرجان السنوى ، ثم توجه للقائه خلف المسرح ، أو فى « الكواليس » كما نقول اليوم ، وقد سجل بلوتارك Plutarck هذا اللقاء التاريخى بقولـــه :

« وكان تيسبيس فى ذلك الوقت قد بدأ يمثل التراجيديات ، ولما كان هذا شيئا مستحدثا فقد شغفت به الجماهير رغم أنه لم يكن بعد قد جعل موضوع منافسة بين الشعراء . وكان سولون ، وهو بطبعه يحب الاستمتاع بكل جديد ، ويقبل تعلمه ، كان يومئذ طاعنا فى السن ، يعيش فى فراغ ،ويستمتع بالحياة بسماع الموسيقى ويشرب النبيذ ، فمضى ليشاهد تيسبيس وهو يمثل ، كما جرت العادة من قديم ، وبعد أن انتهت المسرحية خاطبه وسأله عما إذا كان لايخجل من تقديم كل هذه الأكاذيب أمام كل هذا الجمع الغفير ، فأجابه تيسبيس بقوله : إنه لا بأس بالكذب إن جاء فى المسرحيات وهنا ضرب سولون الأرض بعكازه قائــلا : آه ، ولكننا لو احترمنا مثل هذا العبث وشجعناه ، لوجدناه فى يوم من الأيام ينتقل إلى ما يؤديه الناس من أعمال .

وفى عام ٥٣٥ ق . م تقريبا تأسست المسابقات التراجيدية بأثينا لأول مرة واشترك فيها تيسبيس ، وكان بزيستراتوس قد عاد من منفاه الثانى وبدأ حكمه

الطغيانى الكامل الذى لم ينته إلا بموته عام ٥٢٧ ق . م . ومع أن حكمه كان يمثل خروجا على الدستور إلا أنه أفاد أثينا كثيرا ، واتسمت الفترة الأخيرة منه بالازدهار واقتربت من أن تكون عصرا ذهبيا فى رأى أرسطو ، ففى هذه الفترة أقيمت المبانى العامة الفخمة مثل معبد أبوللون وزوس ، وتأسست المهرجانات الضخمة مثل الباناثينايا العظمى ، وكان بيزيستراتوس راعيا للآداب والفنون فأشرف على إعادة إحياء حفلات الإنشاد الملحمى الهوميرى وجمع نصوص «الإلياذة» و «والأوديسا» المبعثرة فى قلوب وأذهان المنشدين المنتشرين فى أنحاء بلاد اليونان ، ومن ثم فمن المرجح أن الفضل يعود إلى بيزيستراتوس فى ابتكار المسابقات التراجيدية بمهرجانات ديونيزوس الربيعية بالمدينة . ومن ثم فإن عام ٥٣٥ ق . م يعد عاما حاسما لا فى حياة تيسبيس وحده ، بل فى تاريخ الفن الدرامى الذى حظى لأول مرة بالاعتراف الرسمى من الدولة ممثلة فى أعلى سلطة بها .

وصار تقليداً سنويا أن تقام لهذا الفن مسابقات تمنح فى نهايتها الجوائز : ومن المرجح أن تيسبيس لم يعمر طويلا بعد هذا التاريخ ، إذ مات فى الغالب حوالى عام ٥٢٧ ق . م وهو العام الذى مات فيه بيزستراتوس أيضا .

وتمضى ثلاثون عاما ما بين موت تيسبيس وظهور إيسكيلوس كمؤلف تراجيدى ولا شك أن عددا كبيرا من شعراء التراجيديا كان يشترك فى المسابقات السنوية ولكننا لا نعلم شيئا عنهم بل لا نسمع إلا عن ثلاثة منهم هم خويريلوس Choirilos وبراتيناس Pratinas وفرينيكوس Phrynichos ، ويبدو أنهم اكتفوا بالسير على منوال تيسبيس ، فظلت مسرحياتهم بدائية على النحو الذى نراه فى «المستجيرات» لإيسكيلوس . والذى أخذ يطوره بعد ذلك وكما يظهر فى باقى مسرحياته .

(٥) فرينيكوس Phrynichos

ونقف عند فرينيكوس لأنه عالج موضوعات أسطورية بعيدة عن أسطورة ديونيزوس ، بل إنه أول من أدخل الموضوعات التاريخية المعاصرة فى فن الدراما فسرحيته « فتح ميليتوس » تعالج موضوع الثورة اليونية التى قمعها الفرس عام

٤٦٤ ق . م والتى دمروا فيها مدينة ميليتوس ثم احتلوها ، وكانت هزيمة الأثينيين فيها هزيمة نكراء ، وقد جعلت هذه المسرحية الدموع تنهمر من أعين المتفرجين الأثينيين ، وحكموا عليه بغرامة قدرها ألف دراخمة لأنه ذكرهم بمآسى السلالة التى ينتمون إليها . ومنعوا إعادة عرض هذه المسرحية .

ولم يمنعه ذلك من إعادة المحاولة ، فكتب عن الحرب الفارسية ولكنه فى هذه المرة خلد انتصار اليونان لا هزيمتهم ، وذلك فى مسرحية « الفينيقيات » فلاقت نجاحا ساحقا . بيد أن طول الأجزاء الغنائية التى تؤديها الجوقة ، وقصر الأجزاء الحوارية جعلها أقرب إلى التغنى بالأحداث من التصوير الدرامى ، ثم إنه كان يركز انتباهه على رقصات الجوقة ، وكان يتباهى فى أشعاره بالتصميمات الجديدة التى يبدعها ويدخلها على فن الرقص ، والتى كان يقول عنها إنها تتعدد وتتنوع تعدد وتنوع البحر المتلاطم .

وكان فرينيكوس أول من استخدم القناع النسائى ، وأضفى على الفن التراجيدى وقار المعاناة المأساوية وجمال الشعر الرائع ، فأثر تأثيرا ضخما فى شعراء التراجيديا اللاحقين له وعلى رأسهم إيسكيلوس الذى بنى مسرحيته « الفرس » على منوال « الفينيقيات » لفرينيكوس . ويقول ايسكيلوس فى مسرحية « الضفادع » (أبيات ١٢٩٨ — ١٣٠٠) : إن سابقه العظيم فى الشعر الغنائى الجماعى هو فرينيكوس ، وقد أعجب به وقلده أيضا سوفوكليس ، أما أريستوفانيس فعلى الرغم من أنه فى مسرحية » الطيور « (أبيات ٧٤٨ — ٧٥١) يسخر من بعض مبالغاته فى اللغة ، فإنه يثنى عليه فى أغانى الجوقة ، ويشبهها بالعندليب ، أو بالنحلة التى تمتص رحيق النغمات السماوية ، وقد ظلت شعبيته ردحا طويلا من الزمن ، وحتى حرب البيلوبونيز حيث كان الناس لايزالون يرددون أغنية العذارى فى مسرحية « الفينيقيات » ومما يؤسف له ضياع مسرحياته ، فهى فضلا عن قيمتها الأدبية الرائعة تمثل مرحلة مهمة فى تطور الدراما اليونانية .

الأدب فى العصر الأتيكى Période Attique

يعتبر هذا العصر أزهى عصور اليونان ، فقد انتهوا فيه إلى أرقى درجة يمكن أن يبلغوها فى مضمار الحضارة ، كما تجلت عبقريتهم فى ميادين الإنتاج الفكرى على اتساعها وتعددها فأنشأوا كثيرا من فروع العلم والأدب والفن ، واستكملوا ما كانوا قد بدءوه فى هذه الفروع ، وأهم ما تناولوه فى إنتاجهم الفكرى — إذا استثنينا العلم بمختلف فروعه وتطبيقاته — هو : الشعر بقسميه التراجيدى ، والكوميدى ، والنثر ، وأهم فنونه التاريخ والخطابة والفلسفة ، ومن ثم خصصنا لهما بابين ، يتبعان البابين السابقين ، فالباب الثالث للشعر ، وفيه فصلان : فصل للتراجيديا ، وفصل للكوميديا ، والباب الرابع للنثر ، وفيه ثلاثة فصول : الأول للتاريخ ، والثانى للخطابة ، والثالث للفلسفة .

الباب الثالث

الشعر فى العصر الأتيكى

الفصل الأول

التراجيديا

(١) المسرح اليونانى

(أو التياترون Theatron)

نرى من الواجب قبل كل شيء أن نلم ببناء المسرح اليونانى أو « التياترو » اليونانى على وجه التحديد ، فإن هذا يعيننا على تفهم الطريقة التى كان بها اليونان يقدمون مسرحياتهم . وعلى تمثل الجو الذى كانت تمثل فيه التراجيديات والكوميديات والساتيريات اليونانية . وربما قرّب هذا إلى أذهاننا « فنية المسرح اليونانى أو مقوماته التكنيكية » التى كان تصميم التياترو اليونانى يتحكم فيها ، وقد أعد البروفسور ا. م. فريند ، أستاذ الآثار بجامعة برنستون ، رسما تخطيطيا للتياترو اليونانى ، بناه بطريقة تركيبية مما تخلّف لنا من آثار مسرح ديونيزوس بأثينا ومسرح إبيداورس المشهور فى اليونان القديمة ، ومما تخلف لنا من معلومات عنهما . وهذا الرسم التخطيطى يمثل حالة المسرح ما بين سنة ٤٥٠ و ٤٠٠ ق.م.

فقد كان هذا التياترو اليونانى يتكون من صفوف من الدكك أو البنوك المتدرّجة على هيئة نصف دائرة شبيهة بالاستاد المصمم على هيئة حدوة الحصان ، من ناحية الحدوة لا من ناحية الفتحة . وكان المشاهد يصعد على « الكليماكيس Klimakes » — وهو السلم أو الدرج — لينتهى إلى مقعده داخل « الكركيس Kerkis » — وهو

الجناح الخاص به – مارًّا فى الأغلب أول الأمر « بالديازوما » diäzoma – وهو الدهليز أو الممر أو الممشى ، وهو مثل التياترون نصف دائرى . وهذا الدهليز نصف الدائرى يفصل الجزء الأعلى من التياترون عن النصف الأسفل منه . ومن تحت المشاهد مباشرة فى منتصف الصف الأمامى من الجزء الأسفل من التياترون ، كان هناك عرش يجلس عليه كاهن ديونيزوس رب الخمر والدراما ، وهو مكان الصدارة . فقد كان كاهن الإله ديونيزوس بمثابة رئيس الحفل الذى يشرف على العرض المسرحى من بدايته إلى نهايته ، بوصف أن الدراما أصلا لم تكن إلا وجها من وجـــوه الطقوس الدينية التى كانت تقام فى عيد ديونيزوس . وقد كان التياترون الأثينى فى مسرح ديونيزوس يقع على المنحـــدر الجنوبى لجبل الإكربوليس وكان رحبا يتسع لنحو ١٧٫٠٠٠ متفرج .

وكان المتفرج يرى أمامه فى مركز نصف الدائرة ، دائرة تامـــة تسمى « الأوركسترا » Orchestra ، ومعناها حرفيا حلبة الرقص ، وفى مركز الدائرة تماما كان هناك هيكل أو مذبح يستخدم فى بعض المسرحيات التى تنص على استخدامه ، فهو جزء ثابت من « ديكور » المسرح . وفى مأساة « أجا ممنون » مثل حيٌّ على ذلك حيث نرى كليتمنسترا تضرم عليه النيران وتحرق عليه البخور إحتفالا بعودة زوجها أجا ممنون من حرب طروادة . وعلى هذه الدائرة الوسطى كان يجرى جزء من العرض الدرامى ، وعليها أيضا كانت مجموعات الكوراس تقدم رقصاتها وتنشد أناشيدها . وفى النهاية السفلى من التياترون على الجانبين كان هناك « بارودوس » Parodos أو ممشى فسيح ، واحد عن يمين وواحد عن يسار . وكان هذان البارودان يستخدمان لدخول الجمهور وانصرافه ، ولدخول الممثلين ومجموعات الكوارس وانصرافهم أيضا . وبهذا يكون أكثر الأوركسترا الدائرية وهى تقابل عندنا اليوم خشبة المسرح ، محتواة داخل التياترون ، ولا يقع فى فتحة حدوة الحصان منها إلا جزء يسير . وكان هذا الاحتواء عظيم الأهمية، لأنه كان يمكّن الجمهور الجالس على الجانبين من مواجهة الممثلين تماما مثل الجمهور الجالس فى الوسط .

ومن خلف الأوركسترا الدائرية كانت تقع الأسكينا Skema ومعناها المنظر أو المشهد ، أو مانسميه اليوم « الديكور » وهى تمثل واجهة بيت أوقصر أومعبد ويسهل تحريكها . وفيما بعد استُخدم البرياكتوس Periaktus ، وهو مخروط دوّار من الألواح المرسومة تمثل المناظر المختلفة ، تتغير المناظر بمجرد إدارته وكأنه برافان ضخم . وكان للإسكينا فى العادة ثلاثة أبواب تستخدم فى دخول الممثلين وخروجهم . بالإضافة إلى البارودوس الأيمن والبارودوس الأيسر على الجناحين . وكان بين الإسكينا ودائرة الأوركسترا إفريز مرتفع يشبه الرصيف ويسمى لوجيون Logeion ، أو « اللوج » وكان مرتفعاً بنحو درجة واحدة ، وكان يجرى عليه تمثيل أحداث المسرحيات ، وقد ينزل الممثلون من عليه ويتحركون داخل دائرة الأوركسترا . ويمكن القول : بأن « التياترون » اليونانى المدرج يقابل عندنا الصالة والبناوير واللوجات وأعلى التياترو ، وأن الأفريز أو رصيف اللوجيـــون ومعه دائرة الأوركسترا أو حلقة الرقص ، تقابل عندنا خشبة المسرح : وكان وجـــود المذبح الثابت فى مركز دائرة الأوركسترا يسمح للملقن بالجلوس تحته بينما يقدم الممثلون عليه القرابين ، وبهذا يكون مقابلا عندنا للكمبوشة .

ووجود المسرح فى الهواء الطلق وفى خلفيته الإسكينا ، فرض على كتاب المسرح أن يختاروا مشاهدهم مما تجرى حوادثه دائما خارج البيوت والقصور والمعابد ، أى أمامها ، أما ما يجرى فى الداخل ، فقد ابتكروا لتصويره وسيلة ميكانيكية تسمى إيكيكليما éccyclema ، وهى عبارة عن بلاتو أو منصة تجرى على عجل وتُدفع من الإسكينا إلى الخارج ، أى أمام الجمهور .

وفى نهاية بعض المسرحيات التى يعجز الكتاب عن إيجاد حل طبيعى لعُقَـدها المسرحية ، كان يتدخل أحد الآلهة ليحل العقدة أو يفرج الأزمة أو يحسم الموقف ، وإذا كان مأوى الآلهة فى أعالى جبل الأوليمبوس ، فمن المنتظر هبوط هذا الإله من عل ليقوم بدوره فى المسرحية ، ويبدو أن اليونان استعملوا نوعا من الآلات تشبه « الوينش » ليهبط بها الإله ، وإذا لم يكن تدخل الإله حلا طبيعيا وإنما حلا

مفتعلا، فقد نشأ الاصطلاح الساخر فى النقد المسرحى deus ex machina أى إله يخرج من الآلة أو تأتى به الآلة .

وقد كان جمهور المسرح فى أثينا فى القرن الخامس ق. م. جمهورا عريضا ، وكان منضبطا رغم ما تشيعه روح الأعياد فى الناس من رغبة فى الإنطلاق . ولكنه مع ذلك كان يمارس حريته فى التصفيق والتهليل عند الاستحسان ، أو فى الصراخ والصفير وإحداث الضجيج ودق الكعوب فى الدكك أو البنوك عند الأستياء .

٢ — تطــور التراجيديا

تناول التطور فى هذا العصر كثيراً من الأمور المتصلة بالتراجيديا .

فموضوعها الذى نقله « تيسبيس من حياة الآلهة إلى حياة الأبطال الأولين قد أصبح هو القاعدة المتبعة ، وساعد على ذلك ، أن الآلهة — على قربهم من البشر فى تصور اليونان — كانوا يخالفون البشر فى بعض طبائعهم وشئون حياتهم ، فلم يكن من الميسور اتخاذهم موضوعاً لقصة تمثيلية ، ولا أن يجد الشاعر فى حياتهم ما يمثل الحياة الإنسانية تمام التمثيل ، وما يسمح بدرس العواطف البشرية وتحليلها ، وكانت الفلسفة قد امتد ظلها على كل شيء ، وتناولت أجزاء العالم بالنقد والبحث والتمحيص . فلم تعد الآلهة تصلح لأن تكون موضوعاً للتمثيل . لبعد مابينهم وبين الحقيقة الواقعة ، ولما فى وضعهم موضع البحث والنقد من خطر على مكانتهم الدينية ، ثم إن إظهارهم على المسرح يتحاورون فيما بينهم أو يحاورون الناس لم يكن يخلو من غرابة لايسيغها العقل ولا تطمئن إليها النفوس .

وقد حاول إيسكيلوس تمثيل الآلهة فى قصة « بروميثيه مقيداً » (أو مغلولا) وفى قصة الأومينيديس ، ولكن آنس من الجمهور عدم الاستحسان والقصور عن فهمه وتذوقه فلم يعــد إلى ذلك ، وآثر أن يجعل الآلهة من حوادث القصة بمكان المشرف عليها والمدبر لها لاالمشترك فيها . ومضى على سنته غيره من الشعراء .

وكما جلّ الآلهة عن أن يكونوا موضوعاً للتراجيديا ، فقد قصرت الحوادث المعاصرة عن ذلك أيضاً ، إذ لم يكن اليونان فى حاجة إلى بلاغة الشعراء لاستقصاء ما كان فيها ، وهى لاتزال ماثلة فى الأذهان تملأ النفوس وتؤثر فى القلوب . هذا إلى أن الحوادث المعاصرة ليست من الدين فى شىء ، وقد انشعبت التراجيديا من حفلات دينية ، فكان لابد أن يمت موضوعها إلى الدين بسبب . ولم تُمثّل الحياة المعاصرة إلا مرات معدودة ، ومن حاول تمثيلها كان نصيبه الإخفاق ، أو حفظته من الإخفاق ظروف خاصة . فقد مثل فرينيكوس سنة ٤٩٥ ق . م بين يدى الأثينيين سقوط ميليه فى يد الفرس ، فأبكى الشعب وأحزنه ، ولم يلبث أن عوقب على ذلك ، ومثل إسكيلوس سنة ٤٧٢ ق . م قصة الفرس فلم يظفر إلا لأنه مثل فيها انتصار اليونان وهزيمة الفرس فى موقعة سلامين ، ولأن الشعب اليونانى عامة والأثينيين خاصة كانوا سكارى بما أحرزوه من نصر مؤزر على الفرس .

فمن أجل ذلك عمد مؤلفو التراجيديات إلى أبطال العصور الأولى الذين نوّهت بهم الإلياذة والأوديسا وأساطير اليونان ، واختاروا من حياتهم ما يصلح أن يكون موضوعاً لقصصهم وما هو أشد قرباً إلى الحياة الواقعة .

أما الغرض من القصة ، فلم يعد مجرد سرد حوادث تاريخية أو سماع الجمهور لما يُلقيه الممثل أو تتغنى به الجوقة ، وإنما تجاوز ذلك إلى الإبانة عن مغزى خلقى أو اجتماعى ، أو تحليل صفة من صفات النفس ، أو تقرير مذهب ينبغى الأخذ به فى الحياة .

وأما نظام الحفلات فقد تطور إلى الأحسن ، إذ أن الحكومة الأثينية قد اعترفت بالتمثيل رسمياً ، واشتركت فى حفلاته ، وقامت بتنظيمها . وقد اتخذت المسابقة قاعدة لهذا التنظيم ، فكان الشعراء الممثلون يقدمون إلى رئيس معين من رؤساء الحكومة هو الأركونت إيونيم ما كانوا يريدون أن يمثلوه ، فيختار لكل مسابقة العدد المطلوب لها .

وفى عيد الديونيزيا الكبرى كانت تُجرى ثلاث مسابقات :

إحداها فى الكُوميديا . commoedia

والثانية فى التراجيديا Tragoedia

والثالثة فى الديثرامب . Dithyrambus

وكانت احتفالات العيد — قبل حرب البيلوبونيز — تستغرق ستة أيام ، فى اليوم الأول يقام الاحتفال الكبير بالطقوس والمراسم ،وفى اليوم الثانى تجرى مسابقة الديثرامب . وهو نشيد كورالى ينشده كوراس مدرب مكون من خمسين منشداً ، وموضوع النشيد يتصل اتصالا مباشراً بالطقوس الدينية المقامة للإله ديونيزوس وكانت الكوارس المتبارية تقدم عشرة أناشيد ديثرامبية فى يوم المسابقة . وفى اليوم الثالث تقام مسابقة الكوميديا ، ويشترك فيها خمسة من شعراء الكوميديا . كل منهم يتقدم بكوميديا واحدة . وفى الأيام الثلاثة الباقية تجرى مسابقات التراجيديا ، ويشترك فيها ثلاثة من شعراء التراجيديا ، كل منهم يتقدم برباعية (تيترالوجيا) Tetralogia ، منها ثلاث تراجيديات : إما مختلفة الموضوع ، وإما حول موضوع واحد بحيث تتكون منها ثلاثية (تريلوجيا) Trilogia ، ويضاف إلى هذه المسرحيات الثلاث مسرحية خفيفة تمثل فى ختام المجموعة ، هى المسرحية الساتيرية Satyr أى التيسية نسبة إلى التيس ، وهو الرمز الحيوانى للإخصاب والرمز الزوومورفى للإلـه ديونيزوس بوصفه رباً للإخصاب .

وفى أثناء حرب البيلوبونيز التى استمرت من سنة ٤٣١ إلى ٤٠٤ ق . م . خفض عددأيام العيد من ستة أيام إلى خمسة أيام ، وخفض عدد شعراء الكوميديا المشتركين فى المسابقات من خمسة شعراء إلى ثلاثة شعراء . ويعزى هذا الاختصار لظروف الحرب . . وفى فترة هذه الحرب كان برنامج الأيام الثلاثة الأخيرة يتكون يومياً من رباعية تراجيدية فى الصباح ، وكوميديا بعد الظهر .

وكان عرض هذه المسرحيات يكلف أثينا أموالا طائلة ، وكان يقوم بتمويل عرض كل مسرحية أحد المواطنين الأثرياء فى أثينا بأمر من الدولة ، وكان هذا التمويل الإجبارى يعدُّ فى سراة أثينا جزءاً لا يتجزأ من واجباتهم كمواطنين .

وكان الشاعر المسرحى يشرف بنفســـه فى كثير من الأحوال على إخراج

المسرحيات التى يقدمها ، ويشترك فى بعض الأحيان فى تمثيلها . وفى الأغلب كان يشرف بنفسه على تدريب الكوارس والممثلين الذين كانوا جميعاً من الذكور ، حتى فى أدوار النساء .

وكان حضور التمثيل واجباً على كل أثينى بلغ سناً معينة ، وفى أوائل القرن الخامس ق . م كان دخول المسرح بالمجان ، ثم فرض رسم دخول قدره ٢ أوبول ولكن كان يمكن لأى شخص استرداد مادفع من الدولة إذا أثبت حاجته للمال .

وفى أيام التمثيل يزدحم الناس فى الملعب . ويبدأ التمثيل من مطلع الشمس ويستمر النهار كله ، فإذا تم التمثيل اختار الرئيس الذى وكل إليه تنظيمه عشرة قضاة يخرجهم من بين الجمهور عن طريق القرعة ؛ ثم يحلف هؤلاء القضاة ليحكمن عادلين غير جائرين ولا متبعين الهوى ؛ فمن حكموا له بالأولية فهو المجلى فى حلبة التمثيل المستحق للجائزة الأولى ، ويأتى بعده الثانى الذى يليه إجادة وإتقاناً ، أما الثالث فمقهور مغلوب لاحظ له من المكافأة .

ولا يكاد يعلن هذا الظفر حتى يعقبه أثر مادى تنقش عليه نتيجة المسابقة وأسماء الفائزين ، وهذه الآثار نفسها هى التى استخلصها مؤرخو الآداب فى العصور اليونانية ، حين حاولوا إنشاء تاريخ التمثيل والممثلين .

وليس معنى اختصاص هؤلاء القضاة بالحكم ، أن صوت الجمهور لم يكن ذا قيمة ، فإن القضاة أنفسهم كانوا من هذا الجمهور يتأثرون بما يتأثر به . وما كان أشد تأثر الجمهور بما يرى وما يسمع ، وما كان أسرعه وأعنفه فى إظهار شعوره فكان يصفق ويصيح مشجعاً ومهللا عند الاستحسان . وكان يصرخ ويصفر ويدق بالكعوب فى الدكك أو البنوك عند الاستياء والاستهجان ، وكانوا فى أحوال قليلة يقذفون الممثلين السيئين بالفواكه ، وقد روت كتب القدماء حكاية ممثل سيء رجمه الجمهور المستاء حتى أوشك أن يهلك .

(٣) أجزاء التراجيديا

وتتكون التراجيديا من أجزاء محددة :

فهي أولا تبدأ بالبرولوجوس Prologos أي مقدمة ، وهي عبارة عن مشهد يمهد لأحدث المأساة ، ويقدم المعلومات والعناصر اللازمة لفهم أحداث المسرحية ، وقد يكون قاصرا على شخصية واحدة فيسمى : « مونولوجوس » ، وقد تشترك فيه شخصيتان بالحوار ، فيسمى : « ديالوجوس » .

وبعد البرولوجوس يأتي البارودوس Parodos ومعناه الغناء في مكان معين ، وهو أول ظهور الكوراس على المسرح ، ودخولهم إلى دائرة الأوكسترا Orchestra وهم ينشدون ويرقصون ، بحيث يعبر إيقاع حركاتهم وإشاراتهم عن جلال الشعر الذي ينشدونه وعما فيه من مضمون . وجرى العرف أن تكون وظيفة الكوراس بمثابة « معلق » على أحداث الدراما ومواقفها ، باعتبار أنها تتمة ، يعبر عن آرائه وخواطره وملاحظاته على ما يجرى بين أشخاص الدراما ، ويبدو أحيانا معقبا يوضح ما غمض من أحداث ومواقف ودوافع ونوازع ، أو لإبراز ما في طيات التراجيديا من مغزى إنساني شامل يرتفع على خصوصيات مواقفها . ويقف الكوراس عادة على المسرح من نهاية البارودوس حتى آخر المسرحية . وعدد أعضائه في العادة خمسة عشر منشدا ، يتولى قيادتهم أحد أعضائه . ويغني أحيانا غناء منفردا ، ويرقص رقصا منفردا . أو يتحول مع الأحداث إلى شخصية من شخصيات المسرحية .

وكان الكوراس أحيانا ينقسم إلى قسمين يتبادلان الإنشاد . ويجيب أحدهما على ما يطرحه الآخر من قضايا وأسئلة .

فإذا انتهى نشيد الكوراس أعقبه « الإبيزوديون » Epeisodios ومعناه الفصل ، وبه تبدأ أحوادث القصة ، تمثل بالفعل بين يدى الجمهور في قطع من الحوار أو القصص تختلف طولا وقصرا ، ويفصل بعضها عن بعض قطع تتغنى بها الجوقة ، ويسمى ما يفصل بينها من أغاني الجـــوقة ستازيمون Stasimon ، وهكذا تتقدم التراجيديا بتبادل

هذين العنصرين : الإبزوديون والاستازيمون حتى تبلغ نهايتها ، وعدد الإبزوديون أو الفصول لم يكن معينا ولا محددا فى القرن الخامس ق.م ، ولكن فى العصر الإسكندرى لم يتجاوز خمسة فصول ، وأصبح هذا قانونا أثبته هوراس فى كتابه « الفن الشعرى » كأنه حد لا يجوز تعديه .

وبعد سلسلة من فقرات الإبزوديون والاستازيمون يجيء المشهد الذى تنتهى به المسرحية ويسمى إجزودوس Exodos أى خاتمة أو نتيجة. وفى ختامه يختفى الكوراس عن أنظار الجمهور عن طريق الممرين الجانبيين ، وكل هذا يجعل الدراما اليونانية من حيث التركيب الشكلى الخارجى قريبة الشبه من الأوبرا بالمعنى الحديث ، مع فارق هام . وهو أن الأوبرا لا يتخللها حوار مرسل .

وقد كان الممثل فردا واحدا فى عهد تيسبيس . ثم أصبح شخصين فى عهد إيسكيلوس ، ثم ثلاثة فى عهد سوفوكليس ويوريبيديس ، ولم يتجاوز الممثلون هذا العدد ، وكان من الواجب على الشاعر الذى كان يتولى عمل المخرج كذلك ، أن يقسم الأعمال بين هؤلاء الممثلين مهما كثرت أشخاص قصته ، وقد ترتب على ذلك أن الشخص الواحد كان يمثل أحيانا شخصين أو أكثر من شخصين ، وكان الممثل يمثل الرجل والمرأة ، لا يتغير فى هذا إلا الزى . فإن المرأة لم يكن يُسمح لها أن تشترك فى التمثيل .

وقد استلزم تعدد الممثلين تنويعا فى المحاورة ، قرّب القصة إلى الواقع العملى فى الحياة . وجعل أهمية التمثيل مركزة فى حوار الممثلين بعضهم مع بعض ، وبذلك أصبح مكان فرقة الغناء مكانا إضافيا يزيد فى جمال القصة وروائها بدون أن تتوقف عليه العناصر الأساسية للتمثيل .

وكان كل الممثلين يلبسون أقنعة بارزة الملامح يمكن رؤيتها عن بُعد ، وتعبر عن الشخصيات ، وأدى استخدامها إلى تثبيت نماذج هذه الشخصيات ، وتحويلها إلى أنماط قائمة على تجسيم الخصائص الأساسية لكل شخصية فى عقل الجمهور ، وربما أدى هذا التجسيم إلى الإيحاء للناس بأن هذه الشخصيات فوق مستوى البشر ، كذلك كان الممثل التراجيدى يلبس حذاء عاليا يسمى كوثورنوس Cothurnus لتبدو قامته أعلى من القامة المألوفة وليرتفع عن مستوى الجمهور .

(٣) شعراء التراجيديا

الشعراء الثلاثة إيسكيلوس Aeschylus وسوفوكليس Sophocles ويوريبيديس Euripides هم أعظم شعراء التراجيديا اليونانية على الإطلاق . وسنقف عند كل واحد منهم نترجم له ، ونعرض ثلاثة نماذج من أشهر مسرحياته .

(١) إيسكيلوس Aeschylus

هو إيسكيلوس بن إيفوريون Euphorion . ولد فيما بين مارس وسبتمبر من عام ٥٢٥ ق . م . ونشأ فى أسرة من الأسر الأتيكية العريقة والنبيلة ، فورث عنها كثيرا من صفات الأريستقراطية ، فنشأ أبياً أنفاً فى حياته الخاصة والعامة . أما مسقط رأسه فهو ضاحية إليوسيس Eleusis مركز عبادة الربة ديميتير ، حيث كانت تمارس عبادة الأسرار . هناك قضى معظم سنين صباه وشبابه ، فانطبع فى ذهنه منذ نعومة أظفاره ما كان يرى من طقوس دينية فى هذا المعبد الشهير ، ولاسيما موكب المشاعل ، والسير على الطريق المقدس ، وإدخال المتعبدين الجدد إلى الأسرار. فنشأ محافظا شديد التزمت فى شئون الدين . وقد أشار إلى ذلك أريستوفانيس فى مسرحية « الضفادع » ، (بيت ٨٨٦ — ٨٨٧) . فقد جعله فى حواره مع غريمه يوريبيديس يقسم بديميتير الربة التى غذت روحه أيام الشباب . وبالفعل حاول طوال حياته أن يثبت أنه « جدير بأسرارها » .

وأكثر ما نعرف عنه جاءنا من ترجمة قصيرة لحياته فى صدر المخطوط الذى دونت فيه مسرحياته، ثم من إشارات متفرقة هنا وهناك فى أعمال القدماء ، بعضها إلى الأساطير أقرب منها إلى الحقائق .

فهناك رواية حفظها لنا «باوسانياس» تقول : إن إيسكيلوس زعم بأنه فى صباه ، وعندما كان يمضى الليل فى الحقول يراقب بساتين أبيه ظهر له ديونيزوس إله الخمر وراعي المسرح ، وأمره بأن يكتب مسرحية تراجيدية . ومنذ ذلك الحين شرع إيسكيلوس يؤلف تراجيدياته انصياعا لهذه الأمر الإلهى . وواضح أن هذه الرواية تهدف إلى الإيحاء بأنه ملهم ينطق بلسان الأرباب ، تماما مثل الرواية التى تتحدث عن هزيود وعن مقابلته لربات الفنون فوق سفح الهيليكون :

كذلك روى عنه أنه كان من حيث العقيدة الدينية من أتباع مذهب فيثاغورس Pythagoras وهو مذهب دينى فلسفى شديد الروحانية تحتل فيه الفكرة الأخلاقية مكانا بارزا ، ويظن أنه ذو أصول أو وشائج مصرية ، فالروايات تقول : إن فيثاغورس تعلم الحكمة على كهنة مصر ، كما تقول : إنه كان من إخوان الصفا العارفين بأسرار إليوسيس Mystae مركز عبادة الربة الأم «ديمتير» Eleusis Demeter وبنتها الربة العذراء برسيفونا Persephone وهما ربتا الخصب والتجدد وقد كان فى ديانة إليوسيس مكان ملحوظ لفكرة الحساب بعد الموت ، والنعيم والجحيم فى الآخرة . وهى أفكار عرفتها ديانات اليونان المختلفة بصور مختلفة ، ولكنها لم تكن قط من جوهر هذه الديانات كما كانت فى مصر القديمة .

وقد اشترك إيسكيلوس فى كثير من الحروب الميدية guerre medique التى وقعت بين الفرس واليونان فى القرن الخامس ق . م. وظلت مستعرة بينهما نحو خمسين سنة. ويقسمها المؤرخون إلى ثلاث مراحل : الميدية الأولى سنة ٤٩٠ ق .م والثانية سنة ٤٨٠ ق . م . والثالثة سنة ٤٥٠ ق . م .

حارب فى معركه ماراثون Marathon مع أخيه كينيجيروس Cynegerus . ثم بعد ذلك فى معركة سلامين Salamine مع أخية الأكبر أمينياس Amenias ، كذلك يعتقد أنه حارب فى معركة بالاتايا Palataea .

ومن الغريب أن يتعرض إيسكيلوس للمحاكمة بسبب ما نسب إليه من خروج على أصول الدين اليونانى . فبينما كان يعرض إحدى مسرحياته التى كان يشترك فيها هو بنفسه ورد ذكر لعبادة الربة ديميتير ، وظن الناس أنه قد كشف النقاب عن أسرار هذه العبادة وهو أمر غير مباح . فثار الجمهور ثورة عنيفة عليه ، وكادوا يفتكون به ، لولا أنه نزل من فوق منصة التمثيل مندفعا نحو الأوركسترا ومعانقا مذبح الإله ديونيزوس ومستجيرا بحمايته ، ولولا ذلك مانجا من الموت. بيد أنه استدعى للمحاكمة. ومثل أمام مجلس الأريوباجوس ، ولم يكن ليحصل على البراءة لولا أنه ادعى الجهل ، ولولا أن القضاة استندوا فى حيثيات التبرئة على استبساله المجيد هو وأخيه فى موقعة ماراثون دفاعا عن الوطن . وتقول رواية أخرى إن الذين حضروا محاكمته من الأثينيين

شرعوا يرجمونه بالحجارة ، ولم ينقذه غير أخيه الأكبر أمينياس ، فقد كشف عن مكان ذراعه المبتورة إبان موقعة سلامين ، والتى انتصر فيها اليونان على الفرس عام ٤٨٠ ق . م .

وتشيد الروايات بشجاعته وشجاعة أخيه كينيجيروس فى معركة ماراثون ، هذه الشجاعة التى لفتت إليهما أنظار الجميع ، فكرما بوضع رسمين لهما فى النصب التذكارى للمعركة وأبطالها والذى أقيم فيما بعد . كما تشيد الروايات بشجاعة أخيه أمينياس فى معركة سلامين ، وتذكر أنه عند محاولة الفرس الإنسحاب بأسطولهم أمسك أمينياس بمؤخرة إحدى السفن ، ولم يتركها إلا بقطع يده . ومهما يكن من شىء فقد حارب إيسكيلوس فى جميع مراحل الحملة الفارسية الثانية على بلاده من ما راثون إلى سلامين وحتى بلاتايا . وكان لهذه الأحداث المجيدة أثرها فى فكره وشخصيته . وشاعريته أيضا ، حتى أطلق عليه أريستوفانيس لقب « محارب ماراثون » . Marathonomaches

ويظن أن إيسكيلوس كان شاعرا غنائيا قبل أن يكون شاعرا مسرحيا وممثلا . وتدل آثاره على رسوخ قدمه فى فن الشعر الغنائى ، وقد كان له أثر كبير فى قصصه التمثيلية ، وقد رأى تيسبيس وتمثيله التراجيدى المتنقل ، فأعجبه هذا الفن الناشىء وأقبل عليه ، واتخذ التأليف المسرحي والتمثيل مهنة له ، ووهبهما من قوته ونبوغه ما نهض بهما من أوضاعهما الساذجة التى كانا عليها أيام تيسبيس ومعاصريه إلى صورتيهما الفنية المثلى .

وقد اشترك إيسكيلوس سنة ٤٩٩ ق . م . للمرة الأولى فى مباريات الدراما التى كانت تعقد فى أثينا ، وكان يومئذ فى السادسة والعشرين من عمره ، ولكنه لم يفز بجائزة التراجيديا الأولى إلا فى سنة ٤٨٤ ق . م . أى حين كان فى الحادية والأربعين ، وظل النصر حليفه فى كل مسابقة يتقدم إليها . ولكن ظهر له فى آخر أمره خصم شاب فسبقه سنة ٤٦٨ ق . م . وهو سوفوكليس ، ثم لم يلبث إيسكيلوس أن انتصر فى العام اللاحق ٤٦٧ ق . م .

وقام إيسكيلوس بزيارة صقلية ثلاث مرات : الأولى عام ٤٧٦ ق . م . بدعوة من هيرون طاغية سيراقوسيا Ciracause وبمناسبة تأسيس مستعمرة جديدة تسمى

إيتنا Aetna ، وقدَّم هناك مسرحية بعنوان « نســاء إيتنا » ، ويتبين من عنوانها أن موضوعها محلى . والزيارة الثانية عام ٤٧٢ ق. م . حيث عرض مسرحية «الفرس» فى سراقوسيا بناء على طلب من هيرون ، وعندما مات هيرون لم تنته علاقة إيسكيلوس بجزيرة صقلية ، إذ قضى الأعوام الثلاثة الأخيرة من حياته فيها ، وبالتحديد فى مدينة جيلا Gela ، حيث وافاه بها أجله سنة ٤٥٦ ق . م . وعمره تسع وستون سنة ، فدفن بها ، تاركا ولدين هما : إيفوريون Euphorion وبيون Bion ، وقد نشآ شاعرين تراجيديين مثله، وغذت قصصهما المسرح الأثيني حينا من الدهر . كما ظلت قصصه هو تمثل بأثينا وتنال إعجاب شعبها أكثر من قرن بعد وفاته . وكان قد أمر أن يكتب على قبره ما يلى :

« يضم هــذا القــبر رفــات إيسكيلوس
ابن ايفــريون وفخــر جيــلا الخصيبة
كم كان قوى البأس ! هذا ما تستطيع أن تخبرك به
ماراثون،وكذا الميديون طويلو الشعور : فقد عرفوا ذلك جيدا»

وقيل إن أبيات هذه القبرية من نظم إيسكيلوس نفسه قبل وفاته . وقد يؤيد ذلك أن أى شاعر آخر كان سيشرع فى رثائه ، ما كان ليغفل ذكره كشاعر تراجيدى بارع . وقد كرمت الأجيال التالية مثواه ، وتعود الشعراء التراجيديون من بعده أن يزوروا قبره ويقدموا له القرابين ، وأصدر الأثينيون تشريعا خاصا يبيح إعادة عرض مسرحياته فى المسابقات التراجيدية ، وقد فاز ببعض الجوائز بعد موته ، وافتخر بذلك فى العالم السفلى ، على نحو تصوُّر أريستوفانيس وتصويره فى مسرحية «الضفادع».

وقد مات إيسكيلوس فى حادثة ، فقد اختطف نسر سلحفاة ، ولم يكن النسر متمكناً من فريسته ، فأسقطها على الصخور ليهشم قشرتها ، فهوت السلحفاة على إيسكيلوس وقتلته ، وكانت هناك نبوءة حذرته من هذا المصير ، وقالت له : لسوف تصرعك قذيفة من السماء .

وقد اقتبس إيسكيلوس دراماته من مصدرين : من الشعر القصصى الملحمى ، وفى ذلك كان يقول : إنى لأقنع بما يتساقط من مائدة هوميروس . ومن الأساطير المنتشرة

فى اليونان ، غير قصة واحدة هى « الفرس » فقد اقتبسها من حوادث شهدها بنفسه وهى حروب اليونان مع الفُـرس فى موقعة سلامين .

ويُـنسب لايسكيلوس نحو تسعين قصة تمثيلية ، منها سبعون تراجيدية ، وعشرون ساتيرية ، وليس فى ذلك شىء من المبالغة ، فقد ثبت أنه انتصر فى المسابقة التمثيليـــة ثلاث عشرة مرة . فإذا كان الشاعر يتقدم للمسابقة بثلاث قصص تراجيدية وقصـــة ساتيرية ، فقد فاز فى اثنتين وخمسين قصة ، وهذا غير قصصه التى أخفق فيها أو التى لم تمثل على المسرح الأثينى .

ولم يبق من هذه القصص على كثرتها إلا سبع قصص كاملة أصاب نصوصهـــا شىء غير قليل من التحريف ، وهى على حسب ترتيب تمثيلها :

المستجيرات أو المتضرعات	Les Suppliantes
الفـــرس	Les Perses
السبعة يحاصرون طيبة	Les Sept Contre Thèbés
بروميتيه مغلولا	Prométhée Enchaîné
أجاممـــون	Agamemnon
مقدمات القرابين	Les choéphores

الأومينيديس Les Euménides ، أو الصافحات وهى إلاهات وظيفتها عقـــاب المجرمين من بنى الإنسان .

وإذا كان الشاعر الذى يتقدم للمسابقة يتقدم بثلاث قصص تراجيدية ودرامـــة ساتيرية ، وكانت هذه القصص تسمى رباعية Tétralogie كما كانت القصص التراجيدية الثلاث بدون الدرامة الساتيرية تسمى ثلاثية Trilogie وكان من الممكن أن تكـــون هذه الرباعيات والثلاثيات متصلة تتناول موضوعاً واحداً تتقسمه فيما بينها ، وأن تكون منفصلة تلم كل واحدة منها بموضوع خاص ، فقد اصطنع إيسكيلوس الطريقتـــين ، فأنشأ الرباعيات والثلاثيات متصلة ومنفصلة ، وقد حفظ لنا التاريخ ثلاثية متصلة من ثلاثياته هى الأوريستيا L'orestia المؤلفة من « أجاممنون » و « مقدمات القرابين » و « الأومينيديس » ، كما حفظ لنا قصصاً كانت متصلة بقصص أخرى عــدَتْ عليها

يد الضياع ، كقصة « السبعة يحاصرون طيبة » فقد كانت هذه القصة آخر ثلاثية تمثل ما ألمّ بأسرة « أوديب » ، OEdipe ، أولها قصة « لايوس » Laius ، وثانيتها « أوديب » وثالثتها « السبعة يحاصرون طيبة » ثم حفظ لنا التاريخ قصصاً أخرى يظهر أنها كانت منفصلة ، كقصة « الفرس » فليس فى أسماء القصص الباقية ما يدل على أنه كان يسبقها أو يلحقها قصص متصلة بها .

وقد اصطلح النقاد ومؤرخو الأدب على تلقيب إيسكيلوس بأبى التراجيديا « (Patera Tragodias) لأنه هو الذى أعطاها شكلها الحقيقى وصورتها الأخيرة ، وكان أول من ارتقى بها بالتعبير عن العواطف الرفيعة وعمد إلى فخامة اللغة وجلال الشعر ورفعة الفكر مما جعل أرسطوفانيس ينوه به فى كوميديا « الضفادع » ويتحدث عن جلاله واقتداره وشموخه فوق رءوس السامعين .

كما أنه استحدث تزيين المسرح بالديكور ، باللوحات المصورة ، والأدوات ، والمذابح والأبواق ، والأشباح ، والزبانية ، وهى مناظر أمتعت بروعتها عيون المشاهدين ، كذلك ألبس ممثليه الملابس ذات الأكمام التى تتدلى حتى القدمين ، وزاد من ارتفاع الحذاء العالى ليطيل بذلك قامة الممثلين ، وكان كلياندر Cleander أول ممثل استخدمه إيسكيلوس ، ثم أضاف بعد ذلك مينيسكوس Miniscus كظهير له . كما ابتكر — إلى جانب الثياب الجميلة ذات الجلال مما كان الكهنة وحملة المشاعل يتمنونه لأنفسهم كلما لبسوا ثيابهم — كثيراً من الرقصات ، وخص بها أفراد الكوراس ، دون أن يستعين فى ذلك بأى مدرب من مصممى الرقص ، وكان بوجه عام يتكفل بكل ما يتصل بمسرحيته من شئون الإخراج ، ويبدو أنه كان يمثل فى مسرحياته ، فأرسطوفانيس يجعله يتحدث عن نفسه فيقول : إنما أنا الذى أعطيت أوضاعاً جديدة للكوراس ، وبالمثل ، فإن تليستيس Telestes مدرب الرقص ابتكر رقصات كثيرة ، وبفنه صور معنى ما يقال بحركة ذراعيه ، ويقول عنه أرسطوكليس Aristocles : إن تليستيس وهو الراقص الذى كان إيسكيلوس يستخدمه كان فناناً بارعاً حتى إنه كان يوضح أحداث المسرحية بأدائه حين كان يرقص فى مسرحية « السبعة ضد طيبة » .

ويرجع إلى ايسكيلوس الفضل فى تحديد الأوضاع الفنية للقصة ، فليس من شك فى أنه هو الذى وضع للدراما التراجيدية شروطها وقوانينها ، وحدد لها أغراضها . وما إلى ذلك من الأمور التى أصبحت من بعده دستوراً يسير عليه كل من يحاول التأليف المسرحى.

وكان أهم ما يمثل البنية الأساسية عنده أنها ضمت أفكارا ومبادىء متناقضة ، أو بالأحرى أوجـدت الصراع الدرامى ، فكل شخصية من شخصياته تمثل نظاما أخلاقيا أو فكريا معينا يصطدم مع الميول والمبادىء فى الشخصيات الأخرى ، وهذا ما نسميه الحدث الدرامى . وكان هو أول من تنبه إلى إمكانيـة تمثيل الأحداث الجوهرية ذاتها ، وحقق ذلك باستخدام الممثل الثانى ، وبذلك استطاع أن يقـدم المتصارعين دراميا ، أى وجها لوجه ، وهو ما خلع على مسرحياته الدفء والحيوية ثم استطاع أن ينقل مركز الثقل من الأوركسترا حيث الجوقة ، إلى منصة التمثيل ، فتقلصت مشاركة الجوقة فى الحوار الدرامى، وبذلك انتقلت الدراما من كونها ملحمية غنائية إلى أن تصبح تمثيلية درامية .

ولم يختلط ايسكيلوس بفلاسفة عصره ، مثل هيراكليد Héraclide وبارمينيد Parménide واكسينوفون Xénophon ، وتختلف مناهج تفكيره عن مناهج تفكيرهم اختلافا بينا ، فهم لم يتأثرا بعقائدهم الدينية ، أو على الأقل لم يدعوها تسيطر على تفكيرهم . وكان غرضهم تحليل حقائق الكون وشرحها للوقوف على القوانين الخاضعة لها ، وكانوا من أجل ذلك يمثلون عصرا جديدا من عصور التفكير اليونانى ، أما ايسكيلوس فقد سيطرت على تفكيره عقائده الدينية وآراؤه فيما وراء الطبيعة ، وملكت عليه كل شىء ، ولم تترك له أى ميل للبحث فيما عداهـا . فكان بذلك من أواخر الممثلين للعصر القديم ، بيد أنه لم يقف عند عرض الحقائق وتقريرها ، بل حاول شرحها وتحليلها فى صورة أتاحت له تكوين دين مرتبط الأجزاء واضح الدعائم . وفى هذه الصورة يظهر الانسان تتنازعه إرادته الضعيفة التى تنكر ضعفها مغرورة مفتونة بما يظهر لها من قدرة ، وإرادة أخرى أشد منها قوة وأعظم بأسا وأضخم سلطانا ، ولا مناص له من الخضوع لها إن طوعا وإن كرها ، وهى إرادة القضاء .

وإلى جانب هاتين الإرادتين إرادة ثالثة هي إرادة الآلهة ، ولما شاءت من حياة الناس والعالم ، على ألا تمانع القضاء ، وعلى الإنسان أن يدين لها ، ويذعن لما قضت به ، ولكن كبرياءه وغروره وشدة اعتداده بنفسه ، وكل هذه الصفات التي يحاول الإتصاف بها والتي لا يصح أن تكون لغير الآلهة ، تثير حقد الآلهة وغيرتهم وتحملهم على الإنتقام منه . هذا إلى أن الروح الإجرامية تنتقل بطريق الوراثــة من الأصول إلى الفروع ، وأن الآلهة تعاقب الفروع بما اقترفته الأصول . وقد كان بيت أتريوس مثلا حيا على ذلك . فقد حلت اللعنة عليه ، وكانت لعنة يتوارثها أفراد الأسرة جيلا بعد جيل ، وإلى هذا البيت ينتمي أجاميمنون الذي قاد الحملة اليونانية ضد طروادة ، وكليتمنسترا التي قتلت زوجها أجاميمنون فور عودته ظافرا منتصرا من ميدان القتال ، وإيفيجينيا بنت أجاميمنون التي فقدت حياتها في سبيل إنجاحها الحملة اليونانية ، وألكترا التي تحملت ظلم والدتها كليتمنسترا ، وأوريسيس الذي قتل أمه كليتمنسترا انتقاما لأبيه ، ومينيلاس زوج هيلين التي قامت الحروب الطروادية من أجلها .

وسبب هذه اللعنة هو سلوك تانتالوس ابن الإله زوس . وجد أتريوس فقد دعا الآلهة ذات يوم وقــدم لهم على المائدة لحم ابنــه بلوبس ، وأخرج كل إله قطعة اللحم التي تناولها وألقى بها على الأرض في ذعر شديد واشمئزاز واضح ، إلا الربة ديميتير التي كانت غارقة في التفكير في مصير ابنتهــا برسيفونا التي خطفها الإله هاديس وسواء كــان تانتالوس حسن النيــة فيما فعل لأنــه أراد الإحتفاء بضيوفه أو رأى الطعام الذي أعــده للآلهة ليس كافيا فذبح ابنه وقدمه لهم ، أو أراد أن يبرهن على أن من السهل خداع الآلهة دون أن يفطنوا أو يكتشفوا ذلك ؛ أو أراد أن يظهر الآلهة أمــام البشر في صورة آكلي لحم البشر ، فقد قرر زوس عقــاب تانتالوس بعقاب شديد يتناسب مع جرمه ، فقرر أن يهبط إلى العــالم السفلي ، وأن يقاسي فيه ثلاثة أنواع من العذاب : العطش الأبدي ، والجوع الأبدي ، والخوف الأبدي ، فيقف في بركة يرتفع فيها الماء إلى ذقنه دون أن يستطيع الشرب منه ، وإلى جوار البركة شجرة محملــة بكل أصناف الفاكهة دون أن يستطيــع أن يتناول منها شيئا ، وتقع البركة في سفح جبل شاهق شديد الإنحدار ، على قمته صخرة ضخمة في وضع مائل غير ثابت تبدو وكأنها ستنهار فوق رأسه وتهشمه . وهكذا يعيش أبد الآبدين ظمآن والمــاء بين يديه ، جوعان والثمار أمام عينيه ، خائفا والأمان مكفول له ، وهذا هو العذاب الأبدي الذي حل به ، واللعنة التي توارثتها بعده الأجيال التي تنتمي إليه .

المتضرعات Les Suppliantes

تعرض قصة المتضرعات لجزء من أسطورة يونانية قديمة تقول : إن البحر المحيط كان له ابن من الإلاهة تيثيس Téthys (وهى إلاهة قوة الماء المنبتة) اسمه إيناكوس Inachos (وهو نهر بمقاطعة أرجوليد Argolide الجبلية الواقعة فى الشمال الشرقى من بلاد البيلوبونيز) وكان قدماء اليونان يؤلهونه — كما كان قدماء المصريين يؤلهون نهر النيل — وتعتبره أساطيرهم أول ملك جلس على عرش أرجوس Argos عاصمة أرجوليد . وكان لإيناكوس بنت تسمى يو ، اتخذتها الإلاهة هيرا زوج زوس كبير الآلهة ، كاهنة لها ، فأحبها زوس وكان يتردد عليها فى صورة سحابة ، ولم تلبث هيرا أن علمت بذلك فمسختها عجلة صغيرة ، لتخفيها عنه ، ولتحول بينه وبين متابعتها ، ولكن هذا المسخ لم يثنه عن متابعتها . فاستحال إلى ثور ، واستطاع بهذه الحيلة أن يتصل بها ، ولم تخف حيلته هذه على هيرا ، فأقامت على العجلة حارساً يقظاً من أنصاف الآلهة يدعى أرجوس ، كان له مائة عين إذا نام أغمض منها خمسين ، وأبقى الخمسين الأخرى يقظة ساهرة ، (وهو رمز اليقظة والانتباه ، وملك خرافى لمدينة أرجوس) ولما علم بذلك زوس أرسل ابنه هيرميس Hermès وعهد إليه بقتل هذا الحارس ، فأخذ هيرميس يعزف على قيثارته حتى أنام أرجوس نوما عميقا أغمضت فيه عيونه كلها ، فقتله وخلص يو ، غير أن هيرا أبت إلا أن تحول بينها وبين زوجها فأغرت بها قمعة (وهى ذبابة تركب الإبل والبقر والظباء وما إليها إذا اشتد الحر) وكانت أليمة الوخز فأضاعت رشدها ، وجعلتها تهيم على وجهها لا تلوى على شىء ، فمازالت تطوف الآفاق حتى استقرت بمصر ، وثمة التقى بها زوس وأعاد إليها صورتها الإنسانية الأولى . وقاربها فجاءت منه بإيبافوس الذى كان من نسله هذان الأخوان : إجيبتوس (وهو أبو المصريين وأول ملوكهم فى رأى الأساطير اليونانية) وداناووس (وقد تولى ملك مصر قبل أخيه اجيبتوس ، فلما طرده أخوه أصبح ملك أرجوس).

وكان لإجيبتوس خمسون ابنا ، ولدانا ووس خمسون بنتا ، فرغب الأبناء فى الزواج من بنات عمهم ، ولكنهن أبين وأبى والدهن وتركن مصر مع والدهن

إلى مدينة أرجوس وطن أسرتهم الأول . وما بلغنــه حتى قصدن — مستجيرات متضرعات — هياكله وغاباته المقدسة ، التى كانت حرما آمنا لا يصح أن يصاب الملتجيء إليه بسوء ،.

وبينما هن يبتهلن إلى الآلهة أن تدرأ عنهن كيد أعدائهن، إذيقبل عليهن بيلاسجوس Pélasgus ، ملك المقاطعة التى نزلن فيها ، وبعد وقوفه على أمرهن ، وتضرعهن له أن يقبلهن ضيوفا فى مملكته ، وأن يعمل على حمايتهن ، مال إلى إجابة طلبهن ، ولكنه خشى أن تضطره حمايتهن إلى الإشتباك مع المصريين فى حرب ضروس قد تجر الويلات على بلاده، ففضل أن يستشير ممثلى شعبه فى الأمر ويتركهن ومعه والدهن، ويبقين وحدهن يبتهلن ويتضرعن إلى زوس رئيس العالم العلــوى وجدهن وحامى الضعفاء والنزلاء أن ينجيهن من كيد المصريين وبطشهم ، وبينما هن كذلك إذ يعلمن أن الجمعية العمومية قد قبلت ضيافتهن وتعهدت بحمايتهن فيكدن يطرن فرحا، ولكنهن يسمعن صوت داناووس يناديهن من قمة الهضبة الجالسات عند سفحها ويوجه نظرهن إلى سفينة قلعت من مصر ورست فى الميناء القريبة منهن ، وأخذ يخرج منها جنود مدججون بالسلاح . ثم يتركهن وحدهن ويشخص نحو المدينة يطلب من أهلها النجدة والوفاء بما أخذوه على أنفسهم من حماية بناته ، وفى أثناء غيبته يقبل رسول موفــد من الكتيبة المصرية ، يزمع أن يجرهن من شعورهن ، غير آبه بتضرعاتهن ، لأنهن آبقات من مواليهن ومواليه أبناء اجيبتوس ، ويجب على كل شخص إرجاع الآبق إلى مولاه أينما عثر عليه، ويقدم الملك بيلاسجوس Pélasgus ، فتحتدم بينه وبين الرسول المصرى مناقشة حادة ، يهدد فيها الرسول المصرى الملك بالويلات التى تتعرض لها بلاده إذا لم يسلمهن ، ولمصر جيوش قوية شديدة السطوة والبأس ، ويرد الملك بأن وراءه جيشاً باسلا لا يقل عددا وعدة عن جيش مصر ، وتتردد أصوات الجوقة بالدعوات إلى الآلهــة أن تحفظ الدانابيديس وأن تنصر الملك وجيوشه فى المعركة التى لن تلبث أن تنشب بين مصر وأرجوس .

وتقبل الكتيبة الحربية المصرية ، وتنتهى أعمالها بإرغام الدانابيديس على الزواج من أبناء عمهم الخمسين ، ولكن أباهن كان قــد أعطى لكل منهن سكينا مرهفة

وأمرها أن تقتل بها زوجها ليلة زفافها إليه، فنفذن هذا إلا واحدة منهن هي إيبرنستر Hypermnestre التي أشرب قلبها حب زوجها لنسي Lyncé فأبقت عليه ، وفرا هاربين. ولم يلبث لنسي أن تمكن من الثأر لإخوته ، فقتل داناووس الذى حرض بناته على ما ارتكبنه ، وقتل الدانايبديس المنفذات للقتل ، كما أن الآلهة قد عاقبتهن بعد مماتهن بأن جعلت مقرهن التارتار Tartare وهو الدرك الأسفل من النار ، وكلفتهن أن يملأن دنًّا معلقا لا قعر له ، فقضت عليهن بذلك أن ينفقن حياتهن الخالدة فى ملء دن لن يمتلىء أبداً .

ويظهر أن هذه الأسطورة كلها قد جعلها ايسكيلوس موضوعا لتريلوجيا متصلة الأجزاء ، مشتملة على ثلاث درامات ، أولاها « المصريون » التى لم يصل إلينا إلا اسمها ، ويبدأ موضوعها من خطبة أبنـــاء إيجيبتوس لبنات داناووس وينتهى حيث يستقر داناووس وبناته بأرض أرجوس فارين من مصر ، وثانيتها « المتضرعات » وتبدأ حيث ختام القصة الأولى ، وتنتهى باحتدام النقاش بين الرسول المصرى والملك ودعـــاء الجوقة بأن تحفظ الآلهـــة الدانايبديس وأن تنصر الملك وجيوشه . وثالثتها « الدانايبديس » التى لم يصل إلينا إلا اسمها وموضوعها كان يعرض لبقية هـــذه الأسطورة . وهذا هو رأى العلامة هامبرت Hambert ، ولكن العلامة كروازيه Croiset وغيره من المؤرخين يرون أن المتضرعات كانت أول تراجيديا فى التريلوجيا ، وأن القصتين المفقودتين كانتا مكملتين لها ، ويذهبون فى موضوع كل منهما المذهب الذى يتفق مع وأيهم هذا .

الفـــرس Les Persrs

وقصة الفرس هى القصة الوحيدة التى لم يرجع فيها إيسكيليوس إلى الشعر الملحمى أو الأساطير القديمة ، وإنما رجع فيها إلى حوادث معاصرة شهدها بنفسه ، وجعل موضوعها معركة من معارك الحروب الميدية التى نشبت بين الإمبراطورية الفارسية وبلاد اليونان . فقد غرّ الفرس أن لهم جيشاً قوياً ، وأسطولا بحرياً ضخماً مكوّناً من ألف ومائتى سفينة حربية . فسوّلت لهم أنفسهم غزو بلاد اليونان وإخضاعها ، وكانت حينئذ أقل منهم قوة ، ولم يكن أسطولها يزيد عن ثلثمائة

سفينة ، فغزوها لأول مرة فى عهد دارا ، ولكنها على الرغم من ذلك تمكنت من الانتصار عليهم فى موقعة ماراتون Maraton ، فأعادوا الكرة عليها فى عهد جزرسيس بن دارا ، وحينئذ التجأ اليونان إلى كاهن أبوللون ، ليرشدهم إلى الطريقة التى يستطيعون بها ، مع قلة عددهم وعدتهم أن يردوا عنهم غارة الفرس ، فأجابهم بأنهم إذا أعدّوا حوائط من الخشب فإنهم لابد منتصرون عليهم فى كل معركة . وفهم كثير من الزعماء أن المراد بذلك تقوية أسوار المدينة بحوائط من الخشب ، ولكن أحدهم وهو ثيميستوكل Thémistocle ذهب إلى أن المراد بذلك بناء عمارات بحرية . فأخذوا برأيه ، فتمكنوا بذلك من هزيمة الفرس فى موقعة سلامين البحرية وعندئذ فرّ جزرسيس هارباً إلى بلاده ، وتاركاً قيادة الجيش البرّى للقائد ماردونيوس Mardonius الذى لم يلبث هـو أيضاً أن هُزم شر هزيمة فى موقعة بلاتى Platée البرية .

وقد أحدث هذا النصر أثره فى الأمة اليونانية ، فأشعرها بشخصيتها وقوميتها وعظمتها . ومكّنها من الأمن والطمأنينة ، ففرغت للعلوم والفنون ، ووسعت ملكها ، ونشرت مدنيتها ، ووطدت دعائم مجدها وقد اعتبر إيسكليوس شهوده لموقعة سلامين وقيامه بواجبه الوطنى فيها مفخرة دونها أى مفخرة ، فاختار ذلك — دون غيره من مفاخره — ليُنقش على قبره بعد وفاته .

ولم يكن إيسكيلوس وهو يتخذ معركة سلامين وما بعدها موضوعاً لقصته شاعراً بليغاً تتجلى فى شعره بلاغته وقدرته على التأثير فحسب ، وإنما كان جندياً مخلصاً يتفانى فى حب بلاده ، ويترجم عما يملأ نفسه من عاطفة وطنية جياشة .

وتقع حوادث القصة فى مدينة سوس Suse عاصمة بلاد الفرس فى ذلك العهد ، ويظهر القصر الملكى ، وفى ناحية منه ضريح دارا كسرى فارس السابق ، ووالد جزرسيس إمبراطورها الحالى والذى طالت غيبته فى الحروب ، تاركاً إدارة ملكه لشيوخ من النبلاء والأمراء يتكون منهم مجمع الأمناء Les Fidéles وتمثل الجوقة أفراد هـذا المجمع ، ويرفع الستار عنها وقد استبد بها الخوف على مصير الجيش الفارسي الذي انقطعت أخباره منذ أمد طويل ، وتخشى أن يكون

جزرسيس حين جرَّ شعبه إلى تلك الحروب قد ارتكب شططاً وخالف إرادة الآلهـة . وتقبل عليهم أتوسا Atossa أم جزرسيس ، وقد داخلها من الخوف والقلق على ولدها وجيشه أكثر مما داخلهم ، وهى تسرد عليهم ما يساورها من آلام مبرحة ، وما تراه من أحلام مزعجة ، أقربها هذا الحلم الذى رأته البارحة ، والذى تظهر فيه امرأتان لعلهما أختان ، مفرطتان فى الطول والجمال ، وترتديان زياً فاخراً ، إلا أنه من الطراز الفارسى على واحدة ، ومن الطراز اليونانى الدورى على الأخرى . وإحداهما تقيم فى بلاد اليونان ، والأخرى فى بلاد البربر . وتنشب بينهما معركة حامية يعلم بها جزرسيس فيذهب إليهما ليطفىء ثائرتهما ، ويشدهما معاً إلى عربة ويكلفهما أن تجراها ، فأما الأولى فجرَّت العربة ذلولا مغتبطة ، وأما الثانيـة فحرنت وتمردت وحطمت العـربة تحطيما ، وقـذفت بقطعها فى الفضاء ، فسقط جزرسيس مهشماً من عربته ، وبينما هو كذلك إذ أقبل أبوه عليه ، فآلمه رؤية ابنه على هذه الحال . واستبد به الألم حتى أفقده رشده ، فطفق يمزق ثيابه .

وتظل الجوقة وأتوسا يتحاوران ونُذُر الخوف والرعب تُطلُّ عليهما من كل جانب ، وتسألهم أتوسا عن بلاد اليونان وعن الجمهورية الأثينية ، فيجيبونها بما يزيد من حدة آلامها ، وما يقفها على عظمة الأمة اليونانية وبسالة جيشها ، وينتهون إلى أعمال هذا الجيش فى موقعة ماراتون التى هُزمت فيها كتائب فارس شر هزيمة ، وبينما هم يتحدثون مفزَّعين إذ يقبل عليهم رسول من قِبَل جزرسيس يحمل إليهم تفاصيل أكبر نكبة أصيبت بها فارس منذ اشتباكها مع اليونان . ألا وهى هزيمة جيشها فى موقعتى سلامين وبلاتى .

ويتعالى فى المسرح صُراخهم وعويلهم ، حتى إذا هدأت ثائرتهم قليلا أخبرهم الرسول أن جزرسيس مازال على قيد الحياة . ثم أخذ يفصِّل لهم مادار فى موقعة سلامين ، ويسرُدُ عليهم أسماء من لقىَ حتفه من رؤساء الجيش الفارسى وقُوَّاده العظام ، معلقاً على كل إسم بسرد آثاره وضروب شجاعته وكريم مناقبه ، وما إلى ذلك من الأمور التى تأخذ بلب الجمهور الأثينى ، وتملأ نفسه شعوراً بعظمته

وسطوة جيشه الذى تمكن من هزيمة كتائب على رأسها قواد هذا شأنهم شجاعة وحنكة وإقداماً .

حتى إذا فرغ الرسول من حوادث موقعة سلامين البحرية أخذ يقص عليهم الويلات التى أنزلها الجيش اليونانى بجيوش فارس فى جزيرة بسيتاليا Psyttalia وما أصاب هذه الجيوش أثناء تقهقرها من الفتك الذريع الذى حصد رجالها حصداً . وهنا يظهر طيف دارا يسأل الجوقة وأتوسا عن مثار توجعهم وأنينهم ، ثم يقبل جزرسيس فى ثياب رثة ممزقة ، وحالة يرثى لها ، حاملا جعبة لا نبال فيها ولا سهام ، فيعيد على أسماع الجوقة الويلات التى حلت بالجيش الفارسى ، ويصف لهم شجاعة اليونان . وحينئذ ينتهى الهلع بالجوقة إلى مداه ، ويسألونه أسئلة يرمون من ورائها إلى محاسبته على ماقدمت يداه . وإلى اتهامه بأنه السبب فى كل هذه النكبات .

وقد مثلت هذه القصة لأول مرة فى أثينا ، فى عهد الأركونت مينون Ménon سنة ٤٧٢ ق . م، أى بعد موقعة سلامين بنحو سبع سنين ، وصادفت نجاحاً لم تصادفه قصة أخرى ، حتى إن الأثينيين بعد خروجهم من المسرح ، ذهبوا فى مظاهرة كبيرة إلى الهياكل الدينية ، وكانت بعض غنائمهم من موقعة سلامين معلقة على جدرانها ، وأخذوا يقرعونها منادين : الوطن ، الوطن . ولم يكن أريستوفانيس مبالغاً حين أجرى على لسان إيسكيلوس فى قصة « الضفادع » قوله : « لقد استطعت بقصة الفرس أن أبث فى نفوس الإغريق جميعاً الطموح إلى العظمة ، والنزوع إلى أن يظلوا دائماً غالبين » .

بروميثيه مغلولا (مقيدا)
Prométhée Enchaîné

وفى قصة بروميثيه مغلولا خرج إيسكيلوس أيضا على ما اعتاده ، فلم يجعل أشخاصها من أبطال اليونان الأولين ، وإنما جعلهم من الآلهة . ولايكاد موضوعها يتجاوز تعذيب زوس كبير الآلهة لبروميثيه ، بصلبه مغلولا فى صخرة بجبال القوقاز ، لسرقته النار من السماء ، وإهدائها لبنى الإنسان ، وصعقه إياه لكتمانه ما يعرفه عن مصير زوس .

وقد اقتبس إيسكيلوس هذه القصة من قصيدة التيوجونيا Théogonie التى تنسب إلى هيزيود Hésiode والتى فصّل فيها مؤلفها أنساب آلهة الأغريق وحياتهم ، ولكن إيسكيلوس لم يقتصر فى قصته على ماجاء فى هذه القصيدة . وإنما أضاف إلى بروميتيه من نسج خياله ما أظهره مظهر الممثل السماوى لبنى الإنسان ، وما استطاع به أن يحلل نفسية الحـــر الجرىء الذى يتمسك برأيه فى صلابة وشجاعة أمام السلطة المطلقة والاستبداد ، والذى يحافظ على مبدئه مهما لاقى فى سبيله من صنوف العذاب .

تروى الأساطير اليونانية أن بروميتيه بن جابيت كان وليا حميما لزوس ، وقد أبلى معه بلاء حسنا فى حروبه ضد التياتن ، وإليه يرجع قسط كبير من الفضل فى انتصار زوس وفى استيلائه على عرش السماء . ولكن زوس بعد أن خلع أباه كرونوس من العرش وطرده من العالم العلوى ، قسم الملك بينه وبين أخويه بوزيثلون وهاديس ، فمنح الأول السيطرة على البحار ، والثانى الإشراف على شئون جهنم والموت ، وأغفل بروميتيه ومخلوقه الإنسان ، ولم يكتف بذلك بل أخذ يفكر فى الكيد لهما . فأزمع على إهـــلاك الإنسان واستبدال عالم آخر بعالمه ، ووافقه على ذلك أعضاء المجمع الأولمبى ، فلم يستطع بروميتيه على ذلك صبرا ، وأعلن معارضته لرئيس الآلهة . وأظهر له خطل رأيه ، وما يترتب على تنفيذه من وخيم العواقب ، وقد كان طبيعيا أن يقف بروميتيه هـــذا الموقف ، فهو الذى خلق الإنسان وسواه ، ونفخ فيه من روحه ، ووقف حياته على رقيه والنهوض به .

وكبر على زوس . وقد أذعن لإرادته آلهة المجمع الأولمبى جميعا ، أن ينفرد بروميتيه بعصيانه ، وأن تصل به القحة إلى تخطئته فيما ذهب إليه ، فأخرجه من السماء مذموما مدحورا ، ولكن هذا لم يزد بروميتيه إلا عنادا وإصراراً على رأيه ، ورغبة فى النهوض ببنى الإنسان ، موقنا ألا قــدرة لزوس على إهلاكه ، فقد سبق القضاء بتسجيله فى عداد الخالدين ، فمنح بنى الإنسان الأول ، وعدل صورهم ، وأصلح حواسهم ، ووهبهم العقل والتفكير ، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، من زراعة وصناعة وكتابة ولغة وفنون وعلوم ، وذلل لهم الحيوانات ، فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ، ورأى أن النار تعوزهم ، فاختلسها من السماء وأهداها إليهم ، فأصبحت حظا مشاعا بينهم وبين الآلهة ، بعد أن كانت وقفا على عالم السماء .

وقد استثارت سرقته النار وإهداؤها لبني الإنسان نقمه زوس ، فأوحى إلى وزيريه القوة والبطش La Force et laviolence وإلى ابنه هيفيستوس أن يكبلوه بالأغلال ويصلبوه فى صخرة من صخور جبال القوقاز ، فكان ما أراد ،

وظل بروميتيه مغلولا مصلوبا ، يتجرع كئوس العذاب فى هذا القفر الموحش ، بعيدا عن النوع الإنسانى الذى وهبه نفسه ، وضحى بكل عزيز لديه فى سبيل سعادته .

واتفق يوما أن زل لسانه بنبوءة تتعلق بمصير زوس فكان هذا سببا فى مضاعفة النكاية به . فقد بعث إليه زوس بابنه هرميس يسأله عن تفاصيل هذه النبوءة ، فأبى التصريح بشىء رغم ما هدده به ، فأرسل عليه زوس صاعقة لم تهلكه وقد كُتب له الخلود . فلم يسع زوس إلا أن يفكر له فى عذاب يخلد فيه . ووكل تنفيذ ذلك إلى ابنه هيفيستوس وإلى نسر من النسور الجارحة ، أما هيفيستوس فقد كُلِّف عمل قطعة محماة من الحديد يغرسها فى جسم بروميتيه لحظة بعد أخرى ، وأما النسر فقد كلف أن ينقض على بروميتيه فيمزق أحشاءه بمخالبه وينهش كبده ، فإذا مابُدِّل كبدا وأحشاء أخرى ، عاد إليه النسر فى ضحى اليوم التالى فكرر فعلته معه . وهكذا دواليك .

وظل بروميتيه يتجرع كئوس هذا العذاب حتى قيض القضاء له هرا كليس إله القوة ، فكانت نجاته على يديه .

هذه هى الأسطورة التى عمد إليها إيسكيلوس فجعلها موضوعا لتريلوجيا متصلة الأجزاء مشتملة على ثلاث درامات : أولاها « بروميتيه مشعلا للنار » . تبتدىء من الخلاف بين زوس وبروميتيه ، وتنتهى حيث يختلس بروميتيه النار من السماء ويمنحها بنى الإنسان ، ولم يصل إلينا منها إلا اسمها ، وثانيتها « بروميتيه مغلولا » التى نحن بصددها . تبتدىء من صلب بروميتيه وتنتهى بإرسال الصاعقة عليه . وقد وصلتنا كاملة ، وثالثتها « بروميتيه طليقا » ، وتعرض للمرحلة الأخيرة من حياته ، ولم يصل إلينا منها إلا نحو أربعين بيتا رواها الشاعر اللاتينى شيشرون Ciceron فى مؤلفه الفلسفى التوسكولان Tusculanes.

وفى قصة « بروميتيه مغلولا » ، يرفع الستار عن « القـــوة » ، و « البطش » و « هيفيستوس » ، وهم يقودون بروميتيه ، وقد انتهوا إلى « سيثيا Scythie »

حيث جبال القوقاز ، وآخر نقطة فى الكرة الأرضية ، وحيث الصخرة التى قضى زوس بأن يشد عليها بالسلاسل والأغلال وثاق برومیتیه .

وتدعو « القوة » « هيفيستوس » إلى المبادرة بتنفيذ حكم أبيه فى ذلك الإله المتمرد الذى بلغ به الاستخفاف بالسماء وساكنيها أن اختلس منها النار وأهداها إلى بنى الإنسان ، فأشركهم بذلك فى خواص العالم العلوى ، ولا تطاوع هيفيستوس نفسه على صلب إله تربطه به رابطة القرابة ، فتستحثه « القوة » مؤكدة أنه بذلك يثأر لشرفه وشرف أبيه وشرف الآلهة أجمعين . ولا يجد « هيفيستوس بدًّا من شد وثاق برومیتیه بالأغلال ، وإحكام ربطه وصلبه إلى الصخرة ، ثم يخرجون ويبقى برومیتیه وحده مصلوبا يتفجع ويتوجع ، ويفضى إلى قوى الطبيعة بآلامه التى كتمها أمام أعدائه ، يفضى إلى « الهواء » ، الذى يزجى السحاب ، وإلى « الجبال » ، المجللة بالبرد ، وإلى « الشمس » ، التى ترى كل شىء تحت السماء ، وإلى « البحار » ؛ و « الأنهار » ، و « العيون » ، وإلى « الأرض » أم الآلهة والكائنات ، ويشهد هذه القوى جميعا على ما أنزله به زوس ظلما وعدوانا .

وثمة تقبل عليه العذارى النيمف ، نيمف البحار والمحيطات المعروفة بالأوسيانيد Océanides ، (وكانت تمثلهن الجوقة) . فيذكرن له أن قد أزعجهن ، وهن فى قاع البحار ، صوت مطرقة هيفيستوس ، ويسألنه بيان الجريمة التى من أجلها أنزل به زوس هذا النكال ، فيقص عليهن قصته ، ويذكر لهن الأيادى التى قدمها إلى زوس فى حروبه ضد التياتن ، وأنه بفضل مساعدته تمكن من الانتصار عليهم ، ومن طرد كرونوس ومن الاستيلاء على عرش السماء ، ولكنه لم يكد يستتب له الملك حتى أخذ يكيد له ولأوليائه بنى الإنسان ، ثم أزمع على إهلاكهم ، وأن معارضته لهذه الإرادة الحمقاء وعمله على النهوض ببنى الإنسان هما اللذان أثارا عليه غضبه ، ثم أخذ يعدد لهن فضله على بنى الإنسان ، وأنه زودهم بالأمل ؛ وأهدى إليهم النار السماوية التى كانت مصدر سعادتهم ورقيهم ، وعدل صورهم ، وقومها أحسن تقويم ، وأصلح حواسهم ، وزودهم بقوى العقل والإدراك ، وبالقدرة على التعبير ، وبالذاكرة التى لولاها ما قامت للإنسان قائمة ، وعلمهم الكتابة والأعداد والحساب ، وذلل الحيوانات

لركوبهم وزينتهم وحمل أثقالهم وحرث أراضيهم ، وهداهم إلى الملاحة ، وأرشدهم إلى فن الطب محافظة على بقاء نوعهم ، وإلى اكتشاف المعادن وطريقة استخدامها .

وهنا يقبل « المحيط » ، يعرض على ابن أخيه أن يشفع له عند زوس عله يطلق سراحه ، ولكن بروميتيه لا يقبل وساطته ويحذره منها ، إشفاقا عليه من بطش زوس الذى ينكل بكل من يعترض إرادته ، ويضرب له مثلا بنفسه ، وبأخيه « أطلس » الذى حاق به مكره من قبل فقضى عليه أن يظل الدهر حاملا السموات على كتفيه ، وبـ « تيفون » الذى أرسل عليه صواعقه فمزقت رءوسه المائة شر ممزق ، ويقتنع المحيط بسداد رأيه ويتركه ،فيعود بروميتيه إلى الجوقة يتمم لها تعداد أياديه على بنى الإنسان ، ويختم كلامه بأن لديه أسرارا خطيرة تتعلق بمصير زوس .

وحينئذ تقبل « يو » فيقص عليها بروميتيه آلامه التى تجرعها ، والتى قدر عليه أن يتجرعها فى المستقبل ، والطريقة التى سينجو بها من هذا العذاب . وأن الذى سينجيه ابن الكمينا Alcmène ، ويقصد ابنها هيراكليس) ويذكر لها ما سيصيبها هى ، وأن زوس سينفخ فيها من روحه ويولدها إيبافوس ، ثم يعطر زوس وابلا من لعناته وسبابه ، ويختم حديثه معها بأن مُلكَ زوس زائل عما قليل ، وبأن أحد أبنائه سيخلعه عن عرشه .

وتختفى « يو » ، فيتحاور « بروميتيه » ، مع الجوقة . مكررا على سمعها ما تنبأ به عن مصير زوس .

وقد سمع زوس كل ماقيل،فهو الذى يرى العالم من حيث لا يرونه،ويسمع سرهم ونجواهم ، فأرسل إليه ابنه هيرميس يستفسره عما قاله . ويطلب إليه أن يفصح عن غامض تنبؤاته ويفضى باسم من ذكر أنه سيخلع زوس ويسلبه ملكه ، ويعده لقاء ذلك أن يفك أغلاله ويطلق سراحه . ويهدده بالصاعقة إن لم يجبه إلى مطلبه ، ولكن بروميتيه فى حوار بديع قـــد رفض رفضا باتا أن يصرح بشىء ، غير عابىء بوعيد هيرميس ولا حفل بصواعق زوس .

وحينئذ يبرق البرق ويقصف الرعد ، وتهوى الصواعق فتحطم الصخرة ، ويختفى بروميتيه تحت أنقاضها ، ويسدل ستار الختام .

(ب) سوفوكليس Sophocles

هو سوفوكليس بن سوفيللوس Sophillos ، ولد فى خريف عام ٤٩٧ ق. م . فهو إذن يصغر إيسكيلوس بثمانية وعشرين عاما ، ويكبر يوريبيديس بحوالى خمسة عشر عاما ، ومات سوفوكليس فى خريف عام ٤٠٦ أو أوائل ٤٠٥ ق . م) ، عن واحد وتسعين عاما ، أما مسقط رأسه فهى قرية كولونا Colone فى الشمال الغربى من أثينا ، وعلى بعد ميل واحد منها ، وأمضى بهذه القرية سنى طفولته وشبابه ، وظل مرتبطا بها إلى آخر حياته ، فآخر مسرحياته تحمل اسمها ، وهى «أوديب فى كولونا» ، وفيها يتحدث عن قريته هذه حديث المحب لها والمعجب بجمالها فيقول (أبيات ٦٦٨ — ٦٧٣) : « كولونا البيضاء ، حيث تغرد البلابل فى مروجها الخضراء ، بين أشجار اللبلاب والأعناب ، وحيث توفع أزهار النرجس والزعفران الذهبية ، وحيث تنبثق ينابيع كيفيسوس ، وتتجول فى أحضان المزارع » .

ولم يكن سوفوكليس مثل إيسكيلوس سليل أسرة أريستقراطية تكره الديموقراطية فيتأثر عمالها من اتجاه سياسى ، وإنما كان سليل أسرة من أسرات الطبقة الوسطى ، وكان أبوه من المشتغلين بالصناعة ، وكان يملك مصنعين صغيرين للحديد والأخشاب ، ويشترى العبيد والخدم ويشغلهما أو بالأحرى يسخرهما فى صناعاته ، واستطاع أن يجمع من ذلك ثروة طائلة .

وإذا غابت عنا تفاصيل نشأة إيسكيلوس ، فقد حفظت لنا الآثار كثيرا عن نشأة سوفوكليس وحياته ، فقد تربى فى مدارس أثينا النظامية ، وكانت كل مدرسة منها تنشعب شعبتين : شعبة الموسيقى التى تعنى بعـــولد العلوم والفنون والآداب ، وشعبة المصارعة التى تعنى بتربية الجسم وتقويمه وأخذه بالألعاب الرياضية والتدريب العسكرى ، فبرع سوفوكليس فى كل هذه المجالات وبرز بين أقرانه ..

ولأنه كان جميل الصورة ، بديع الهيئة ، رشيق الحركة فى الرقص ، ساحر النغم فى اختير العزف الموسيقى ، فقد اختير ليكون ضمن الجوقة التى أدت نشيد النصر على الفرس فى موقعة ماراتون عام ٤٩٠ ق. م . بل كان هو قائد هذه الجوقة والعازف على القيثارة ولما يتجاوز عمره آنذاك الثامنة .

وقد جمع سوفوكليس إلى حسن الصورة ، وجمال الخلُق ، وطيب العشرة ، رجاحة العقل وقوة الملاحظة ، واحترام التقاليد والمقدسات بدون تزمت ولا غلوّ، وكان لأسرته أثر فى اتجاهه السياسى ، فكان معتدلا يجنح إلى الديموقراطية بدون إسراف ولا غلو ، ولا إغفال لمطالب الأرستقراطية الرشيدة ، كما كان لقريته أثر فى اتجاهه الدينى ، فقد كان فى منزلة وسطى بين التزمت والإعراض عن الدين ، لايغلو غلو المحافظين القدماء، ولا يساير المستهترين المحدثين من معاصريه كالسوفسائيين ، ومن نحا نحوهم ، وهذا على عكس إسكيلوس الذى تأثر بما كان للإلاهة دميتير فى مسقط رأسه إليوسيس من أثر دينى ، فنشأ محافظا شديد التزمت فى شئون الدين .

وقد تزوج سوفوكليس من امرأة تدعى نيكوستراتى ، وأنجب منها ولدا سماه يوفون ، وله ثلاثة أولاد آخرون هم : ليوستينيس ، وستيفانوس ، ومينيكليديس ، ولكنا لا نعرف عنهم شيئا يذكر ، ومع أنه كان زوجا وأبا فقد اتخذ له خليلة سيسيونية ، هى الغانية أرخيبى Archippe وعاشرها معاشرة الأزواج ، وكان إذا ذاك فى سن متقدمة ، وقد جاء منها بولد اسمه أريستون ، وأنجب هذا الولد ابنا سماه سوفوكليس باسم جده ، ونشأ ممثلا تراجيديا ، ومثل قصة جده بعـــد موته ، وقد نشأ بين هذا الولد الذى جاء به من عشيقته وبين أولاده الشرعيين ما ينشأ عادة بين أولاد العلاّت من شقاق ونزاع ، كما أن حادثة طريفة نشأت بين سوفوكليس وابنه يوفون ، فقد رفع هذا الابن على أبيه قضية يتهمه فيها بالسفه . ويطالب بأن يكون هو نفسه قيِّما عليه لكى يحول بينه وبين تبديد أمواله على أبنائه غير الشرعيين ، ولكى يثبت سوفوكليس صحة قواه العقلية ، ألقى بعض فقرات من « أوديب فى كولونا » ، التى كان قد انتهى توا من نظمها ، فبرأته المحكمة من تهمة السفه على الفور ، بعد أن سحرت أعضاءها طلاوة شعره ، وفتنتهم حلاوة البيان فى نظمه ، وقد يمنعنا من قبول هذه الرواية أن أريستوفانيس يصفه فى الضفادع (بيت ٨٢) : بأنه عاش سعيدا ومات سعيدا .

وقد شغل سوفوكليس بعض المناصب الدينية العامة ، فقد عمل كاهنا فى معبد إله الطب أسكلبيوس ، وكان نشيد التكريم (البايان) الذى نظمه الشاعر لهذا الإله ذا شهرة ذائعة فى العالم اليونانى الرومانى ، وظـــل يغنى حتى القرن الثالث الميلادى ، كما كان

سوفوكليس أيضا كاهنا فى معبد البطل الأتيكى ألكون Alkon وهو من أتباع أسكلبيوس ، ويبدو الورع الدينى عند سوفوكليس من طريقته فى معالجة الأساطير التقليدية الموروثة ، حتى إن أحد المعلقين القدامى يصفه بأنه « أكثر البشر خشية للآلهة » the osebe statos بل شاع الاعتقاد لدى الشعب الأثينى جيلا بعد جيل بأنه إنسان مصطفى ، أو مختار ، من قبـــل الآلهة والسماء ؛ بل قيل إنه استضاف إله الطب نفسه أسكلبيوس فى منزله ، وبعد موته قدسه الأثينيون ورفعوه إلى مرتبة البطولة الدينية ، وخلعوا عليه لقب المضيف bexion وبنوا له محرابا يقدمون له فيه القرابين . على أساس أنه يتمتع بقدرة إلهية على تهدئة الرياح الهوجاء . ونُسجت أساطير كثيرة عن علاقته الوثيقة بالآلهة ، وعندما اختفى التاج الذهبى من معبد هراكليس كشفت له الآلهة فى الحلم عن مكان اختفائه . ويُروى أن الأثينيين بعد موته لم يستطيعوا أن يدفنوه فى مقبرة أجـــداده على الطريق إلى ديكيليا Dekeleia فقـــد كان الجيش الإسبرطى بقيادة ليساندروس يحتل هـــذا الموقع ، فظهر الإله ديونيزوس نفسه لهذا القائد ؛ وأمره بالسماح للأثينيين بدفن الشاعر هناك ، حيث أقيم على قبره تمثال للسيرينة .

وهذه المناصب الدينية لم تمنع سوفوكليس من أن يشترك اشتراكا فعالا فى شئون بلاده السياسية والحربية ، فقد انتخب مرتين « ستراتيجوس » ؛ أى قائدا من قواد الجيش ، وبعد أن هزم الجيش الأثينى فى حملته على صقلية ، واضطر الأثينيون تحت تأثير هـــذه الهزيمة إلى تغيير نظامهم السياسى ، انتُخب سوفوكليس عضوا فى الجماعة التى وُكل إليها أمر هذا التعديل ، ولكنه لم يلبث أن تبين له جنوح هـــذه الجماعة إلى الانحراف والاستبداد ، فاستقال معتدا برأيه . ومستمسكا بمبدأ حرية الشعوب .

ومع ذلك فلم يسمح سوفوكليس لشىء أن يشغله عن فنه ، أو يحول بينه وبين إتقانه ، فمنحه جهده ، ووقف عليه مواهبه ونشاطه ، ولم يزل به يجوده وينقحه حتى بلغ به ذروة الكمال ، ولم ينفصل بفنه عن ثقافة عصره ، فإلى جانب سمو لغته وتراكيبه ظهر تأثره بما ساد عصره من فلسفة وجدل وخطابة ، وعمد إلى الرباعيات المنفصلة الأجزاء Tétralogies فحرر الفن من قيود كانت تقف الشاعر مواقف لا تخلو من التعسف

والحرج والخطأ الفنى ، وقد وقع إيسكيلوس فى هذا حين عمد إلى القصص المتصلة الأجزاء ، فجاءت أجزاؤها ناقصة ، يعوز كلا منها الحل أو المقدمة أو العقدة .

وقد نهض سوفوكليس بالفن من نواح أخرى ، فقد عدل عدولا تاما عن القصة ذات الممثلين الاثنين ، ووزع أدوار كل قصة من قصصه على ثلاثة ممثلين . وقد أحسن الانتفاع بهذه البدعة واستخدمها فى ترقية الحوار ووضع أشخاص القصة مواضع مستقرة سليمة ، ومع أنه أول من زاد عدد أفراد الجوقة فجعلهم خمسة عشر بعد أن كانوا فى آخر عهد إيسكيلوس اثنى عشر . إلا أنه أول من أضعف أهمية الجوقة ، فأصبحت التراجيديا بفضل ذلك أقرب إلى التمثيل منها إلى الغناء .

وقد أحدث سوفوكليس فى التمثيل شيئا ماديا لم يكن مألوفا من قبل ، وهو أنه كان يصور على الحائط الذى يقوم وراء المسرح كل ما كانت تشتمل عليه القصة من مناظر ، فأعان بذلك الجمهور على الفهم ، وقارب بين التمثيل والحقيقة الواقعة .
ثم كان سوفوكليس بعد هذا كله مترجما عن روح العصر الذى عاش فيه ، فقد قامت فلسفة هذا العصر على تحرير الفرد من ربقة الآلهة والمجتمع ، وعلى دعامة الاعتراف بشخصيته ، ويرجع الفضل فى بث هذه المبادئ فى نفوس الأثينيين إلى ما حدث فى نظامهم السياسى والاجتماعى من تغيير خطير أدى إلى تدعيم مبدأ الحرية الفردية بين أفراد الشعب جميعا ، وإلى المبادئ الفلسفية التى استأثرت حينئذ بنشاط طائفة كبيرة من المفكرين وخاصة جماعة السوفسطائيين ، فلم يأل سوفوكليس جهدا فى قصصه فى إثبات أن الإرادة الإنسانية تملك حظا غير يسير من حرية الاختيار ، ومن ثم كانت آثاره الفنية تنطوى على اعتراف بالشخصية الإنسانية وتحرير لها من ربقة الآلهة والقضاء .

غير أنه لم يحاول فى سبيل تقرير هذا المبدأ أن يظهر الإنسان مخالفا للآلهة متفوقا عليها ، فما كان يجرؤ على ذلك ، لأنه لا يعتقده من جهة ، ولأنه يعلم من جهة أخرى أنه لو أقدم عليه لأسخط الشعب عامته وخاصته على مسرحه . ولكنه جعل التمثيل إنسانيا بحتا ، أى أن ما تشتمل عليه القصة التمثيلية لم يكن صراعا بين الإرادة الإلهية وبين إرادة الإنسان ، وإظهاراً لقوة الآلهة وشدة بطشهم فى إرغام الإنسان فى نهاية

الأمر على الإذعان لما يريدون ، كما كان الشأن فى قصص إيسكيلوس ، بل كان مجرد صراع بين إرادتين إنسانيتين قد أصرت كل منهما على ماعزمت ، ولا تزالان تتشادان حتى يبلغ النزاع أقصاه ، وثمة تتدخل الآلهة لتفصل بينهما على وجه يظهر مالكل منهما من قوة وبأس ، فبينما كان الآلهة فى قصص إيسكيلوس يشرفون على أعمال الأناسى من قرب ، ولا يغادرون صغيرة ولا كبيرة منها إلا دبروها وأخضعوها لإرادتهم ، إذ بهم قد أصبحوا فى قصص سوفوكليس يتدخلون فى نهاية الأمر ، ويدبرون الحياة الإنسانية من بعيد .

وقد اشترك سوفوكليس فى المسابقة التراجيدية ولما يتجاوز الثانية والعشرين ، وكان يتقدم إليها بأربع قصص كل سنتين ، وانتصر فى عشرين مسابقة . منها المسابقة التى كان أحد خصومه فيها إيسكيلوس سنة ٤٦٨ ق . م . ولم ينهزم قط فى مسابقة ما وكان دائما إما الأول أو الثانى ، وظل كذلك إلى أن وافته منيته سنة ٤٠٥ ق . م . عن واحد وتسعين عاما ، وقد حفظت له أثينا ما قدمه إلى الأدب المسرحى من فضل ، فاتخذت له معبدا ، وقدمت له الضحايا والقرابين ، على غرار ما كانت تفعله حيال أبطالها الأولين .

أما قصصه فقد ذكر قدامى المؤرخين أنها بلغت مائة وثلاثا وعشرين قصة ، ويرى المحدثون أن ليس فى هذا شىء من المبالغة ، فقد نجح عشرين مرة ؛ أى أن ثمانين قصة من قصصه قد نالت إعجاب الجمهور ، وليس بين هذا العدد والعدد المتقدم فرق كبير .

ولكن لم يبق لنا من آثاره هذه كلها إلا سبع قصص ، نرتبها حسب تاريخ تمثيلها :

أياس Aias أو أجاكس Agax وهى أقدمها .

أنتيجونا Antigone وقد مثلت سنة ٤٤٠ ق . م .

الكترا Alectre .

أوديب ملكا OEnipe Roi .

التراكينات Les Trachiniennes .

فيلوكتيت Philoctète وقد مثلت سنة ٤٠٩ ق . م .

أوديب فى كولونا OEdipe à clone وهى آخر قصة مثلها .

أياس Aias

موضوع هـــذه القصة هو أياس بن تليمون ، ملك سلامين كان بطلا من أبطال اليونان أمام طروادة ، حارب فأحسن البلاء،وظهر على الطرواديين فى مشاهد كثيرة ، وحمى اليونانيين جميعا بعـــد أن انهزم زعماؤهم وأبطـالهم ، فما زال يدافع عنهم حتى أقبل أشيل فرد أعداءهم منهزمين ، فلما كان مقتل أشيل جعل اليونان سلاحه جـائزة لأعظم أبطالهم شأنـاً وأجلهم خطرا ، ففاز بهـا أوديسيوس وغضب لذلك أياس فذهب عقله ، وأنحى بسيفه على ماكان فى حظائر اليونان من ماشية ، فلما عاد إليه صوابه استخزى لما فعل فقتل نفسه .

وتقع القصة فى معسكر اليونان بإزاء طروادة أمام خيمة أياس ، وعن يمين خيام أخرى منسقة ، وأوديسيوس يدرس آثار الخطى فى الرمل ، والالاهة أثينـا ترقبه من عل ، وتسأله فيم يكلف نفسه هذا الجهد ؟ فينبئها بـــأن يدَ رجل قـــد امتدت إلى جميع ماشيتهم فنحرتها ، وذبحت معها حراسها ، فتؤكد له أن كل هذا عمل أياس . حين أثاره أمر سلاح أشيل ، وأنه كان يظن وهو يبيدها أنه يصبغ يديه بدماء اليونان ، وكان خليقا أن يتم عدوانه عليهم لو أنها خلت بينه وبين ماأراد، ولكنها حرمته هذا الفرح الأثيم حين خيلت لعينيه صوراً مضللة . فكان يقصم ظهور هذه الحيوانـــات وهو يرى أنه يقتل الأتريين (أجاممنون ومينيلاس) أو يقتل زعيما آخر من زعماء اليونان . ومن أجل أن تُظهر أوديسيوس على جنون أياس تدعـو أياس ليبرز أمـام خيمته ، وتسأله عما فعـل بالأتريين ؟ فينبئها بموتهما ، فتسأله عن خصمه أوديسيوس ، فينبئها بأنه أسير لديه ، وأنه سوف يدمى ظهره بسوطه قبل أن يموت .

ويدخل أياس إلى خيمته ، ثم تستخفى أثينا ويذهب أوديسيوس ، وتدخل الجوقة التى تتألف من أهل سلامين ، وتتساءل عن مصدر هذا اللغط العظيم ، ثم تدخل تكمسا (زوج أياس) فيسألها رئيس الجوقة ، فترد عليه : كيف أحدثك عما لا سبيل إلى وصفه ؟ إن الألم الذى ستعرفه ليعدل الموت ، لقد جن سيدنـــا أياس العظيم فجلب لنفسه العار هذه الليلة ؟ لو ترى داخل خيمته هذه الضحايا التى

نحرت بيده ، والتى تسبح فى دمها ، والتى قدمها إلى الآلهة ! ثم تنبئهم بأنـه بعد ذلك قد ثاب إلى رشده ، وطلب إليهـا أن تقص عليه تفصيل ماكان ، يريـد أن يعرف ماذا ألم به ؟ وهى وقد ملكها الخوف تقص عليه كل ما عمل ، أو على الأقل كل ما كانت تعرف ، هنالك يبعث أنات مهلكة ، ولم يكن يبعثها عالية ، وإنما كان يجمجم بالشكوى كأنه ثور يخور .

ثم يأتى صوته من داخل الخيمة ينادى ابنه أوريزاسيس ثم ينادى أخاه تكروس، فيحس رئيس الجوقة كأنه قد ثاب إليه عقله ، ويطلب إليها أن تفتح الباب ، ويظهر أياس ملقى بين جثث الماشية المكدسة ومازال يهذى ، وهو يتحدث بشقائه لأنه ترك الأتريين البغيضين يفلتان من يديـه ، ويهجم على الثيرة ذات القرون الملتوية وعلى قطعان شريفة من الماعز فهراق دمها الأسود . ثم يتحدث عن بطولة أبيه وبطولته من بعده ولو أن أشيل فى حياته أراد أن يجعل سلاحه جائزة للبطولة لما منحه أحدا غيره ، أما الآن فقد جحد الأتريان شجاعته وحسن بلائه ، ومنحا هذا السلاح رجلا قادراً على كل شر . فكيف يعود إلى وطنه ؟ وبأى وجه يظهر به إذا وصل إلى أبيه تليمون ؟ وكيف يحتمل أبوه عودته إليه صفر اليدين غير ظافر بمثل ماظفر به من تاج المجد والفخار؟ يجب أن يلتمس وسيلة يثبت بها لوالده الشيخ أنه ابنه حقا،وأنه قد ورث شجاعته وبأسه، وقلبا قد وضع فى موضعه ، فإن من الخزى أن يرغب الرجل فى أن تطول حياته حين يعجز عن تغيير ما ألم به من الشقاء

ثم يطلب ابنه ، فإذا حضر إليه ، أخذه بين يديه ، وأخذ يتحدث إليه : إنى أتمنى أن تكون أسعد من أبيك . . . وكن قرة عين لأمك هذه ، لن يسوءك يونانى بالإهانة حتى إذا افترقنا ، سيحميك ويقوم دونك تكروس ، ولكنه غائب اليوم فى طلب العدو ، وأنتم أيها الجند . . . أيها البحارة إنى لأنتظر منكم كما أنتظر من أخى هذا البر ، أبلغوه أيضا أنى آمره بأن يقود هذا الصبى إلى بيتى ، وبـأن يعرفه إلى أبى تليمون وإلى أمى إيريبه ، وليكن هذا الصبى لهما عضدا وعمادا حتى يهبطا إلى مستقر الموتى . أما سلاحى فإنى لا أريد أن يعرض على اليونان جائزة

يحكم فيها القضاة ، أو يقضى فيها الذى خانى ، ولكن يابنى خذ هذه الدرقة التى منحتك اسمها ، هذه الدرقة الكثيفة التى لا تنال ، والتى اتخذت من جلود سبعة من الثيرة ، خذها بهذه الحلقة المثبتة المتينة ، وما بقى من سلاحى فليدفن معى : (ثم إلى تكمسا) خذى هذا الصبى مسرعة وأغلقى بيتى أمـام الخيمة ، لا بكاء ولا أنين . إن المرأة تحب العويل دائما ، أسرعى إلى إغلاق البيت . ليس من مهارة الطبيب أن يصطنع العزائم أمام العلة التى تدعو إلى السكين .

وبعد أن يستخفى أياس فى خيمته يخرج هادئا وفى يده سيف وتتبعه تكمسا ، ثم يتحدث بأنه كان ينطق منذ حين بألفاظ قوية قاسية ، ثم ردته هذه المرأة إلى اللين كما يصهر الحديد ، فقهرت إرادته . فهو يخيل أنه قد عـدل عما صمم عليه من الإنتحار . ويعلن أنه سيذهب إلى الطهر ، إلى تلك المروج التى تتابع ساحل البحر ليغسل عنه أوضار الوزر ، وليتخفف من غضب الآلهة الذى يثقله ، ثم يمضى بعد ذلك إلى مكان بعيد فيخفى هذا السيف المشئوم حتى لايراه أحد ، ويمضى وتدخل تكمسا إلى الخيمة .

ثم يقبل رسول من معسكر اليونان ينبئهم بعودة تكروس ، وأنه لم يكد يبلـغ خيمة القائد فى وسط المعسكر حتى أطاف به اليونان كالدائرة ، ثم جعلوا يستبقون إلى صب الإهانة عليه ، يدعونه أخا المجنون ، وأخا عـدو الجيش ، ويزعمون أنه لن يمنعهم من تمزيق جلده ورجمه بالحجارة حتى يموت . ثم يسأل على أياس ، فإذا أنبىء بأنه قد انطلق منذ حين ، أظهر الخوف عليه لأن كلكاس (كاهن يونانى) أمر تكروس أن يمسك أخاه أيـاس فى خيمته ، لا يهمل فى سبيل ذلك شيئا حتى ينقضى هذا اليوم ، لابد من ذلك إن كان يريد أن يرى أخاه حيا ، وكان يؤكد أن غضب الإلاهة أثينـا لن يتبعه إلا هـذا اليوم فقد كانت ذات يوم تحضه على الحرب ، وتـأمره أن يوجه سلاحه الدامى إلى العدو ، فرد عليها بهذا الجواب الفظيع الهائل : أيتها الملكة ، حضى غيرى من اليونان وأيـديهم بنصرك ، أمـا أنـا فحيث أكون من المعركة فلن تختل الصفوف ، وهكذا أحفظ الإلاهة وأثار غضبها عليه ، ومع ذلك فقد نستطيع بمعونة الآلهة أن ننقذه إذا احتفظ بحياته هذا اليوم ، هذا بالدقة ما قاله الكاهن .

وتدخل تكمسا ومعها أوريزاسبيس ، وحين تعرف النبأ تأمرهم أن يسرعوا ليبحثوا عن أياس ، ولكنهم يعودون دون أن يعثروا عليه ، وتقبل تكمسا مولولة: انظروا هذا أياس قتيلا ، إنه صريع على الأرض حيث لاتقع العين ، وقد اخترق صدره السيف ، وفى أثناء الحديث يسمع عويل يدنو شيئا فشيئا ، ويقبل تكروس ويظل يندب أخاه ويتحسر عليه ، ثم يرون مينيلاس ، فلا يكاد ينتهى إليهم حتى يسوق الحديث إلى تكروس : يا هذا ، لا توار الجثة ، دعها كما هى ، هذه إرادتى ، هذه إرادة قائد الجيش . لقد قدّرنا حين دعوناه لمعونتنا أنه أقبل معنا حليفا صديقا ، فلو بلوناه وجدناه عدوا أشد عداوة لنا من الفريجيين ، فقدهمّ بتقتيل الجيش كله وهجم علينا فى الليل ليقتلنا برمحه ، ولولا أن إلها أطفأ جذوة غضبه لقد كان أنفذ فينا إرادته وقضى علينا الموت الذى دفع إليه هو ، واضطرنا إلى أشنع الخزى ، ثم استمتع هو بالحياة ، ولكن الآلهة منذ حين قد حولت عنا غضبه ، وصبته على الشياه وعلى قطعان الماشية ، ومن أجل هذا لن يستطيع أحد أن يوارى جثته فى قبر وسيظل ملقى على الرمل حتى يصير نهبا لسباع الطير .

ويرد عليه تكروس : تزعم أنك قدت أياس إلى هذا المكان حليفا لليونان ، ولكن ألم يبحر مختارا حراً غير خاضع لأحد ؟ علام تعتمد حين تزعم أنك كنت له قائدا ؟ وبأى حق تريد أن تسود الشعب الذى قاده هو ؟ لقد جئت ملكا لأسبرطة لاسيداً لنا ، ولم يكن لك الحق فى أن تسوده كما لم يكن لـه الحق فى أن يسودك ، لقد أبحرت خاضعا لغيرك ، ولم تستمتع قط بالسلطان الأعلى ، ولم يذعن لك أياس قط ، فاملك على رعيتك وأنبهم إن شئت بهذا الحديث الذى تملؤه الكبرياء ، فأما هو فسواء منعت ذلك أم منعه غيرك ، فسأضعه فى قبره غير حافل بما تقول . أنه لم يحارب من أجل امرأتك كما تحارب رعيتك ، وإنما حارب للعهد الذى قطعه على نفسه ، لم يحارب قط من أجلك ، فإنه لم يكن يحفل بالذين لايعدلون شيئا .

ويحتدم الحوار بينهما وكل منهما مصر على رأيه ، ثم يخرج مينيلاس ، ويخرج بعده تكروس ليهيىء قبرا لأياس .

ثم يدخل تكروس ويتبعه أجاممنون (أخو مينيلاس) ويشتد الحوار بينهما

أيضا ، ويصر تكروس على دفن أخيه ويخاطب أجاممنون: لن أدعك تحرم أخى فى محنته شرف القبر ، تعلّم أنك إن ألقيت هذه الجثة بالعراء فى أى مكان فسنلقى معها جثتنا نحن الثلاثة ، فقد يشرفنى أن أموت مجاهداً فى سبيله أمام الناس جميعاً ، ذلك أشرف لى أن أموت فى سبيل امرأتك أو امرأة أخيك (وهو بهذا يشير إلى أن اليونان إنما كانوا يحاربون فى طروادة من أجل هيلين امرأة مينيلاس التى اختطفها ابن ملك طروادة) .

وفى أثناء الحديث يدخل أوديسيوس ، وبعد حوار بينه وبين أجاممنون ، يوجه إليه الحديث : باسم الآلهة لا تقس على هذا الرجل ولا تلقه بالعراء فى غير قبر ، لاينتصر عليك الغضب ، ولايحملك إلى هذا الحد الذى تطأ فيه العدل بقدميك ، لقد كان أياس من أشد الناس عداوة لى منذ ظفرت دونه بسلاح أشيل ، ومع ذلك فهما يكن رأيه فىّ وبغضه لى ، فلن أجيب على ذلك بإهانته حين أنكر أنه كان أشجعنا جميعا ، نحن الذين أقبلوا لحرب طروادة ، لا أستثنى إلا أشيل ،وإذن فإنك حين تهينه تأثم ، لأنك لا تهينه وحده وإنما تهين قوانين الآلهة ، إذا صرع بطل من الأبطال كان من الإجرام أن تسوءه ولو كان موضع بغضك وعدائك .

ويعلق رئيس الجوقة : من لم يعترف بعد هذا يا أوديسيوس بأنك رجل حكيم فهو أحمق .

ويسرعون إلى حفر قبره وموراته فيه .

أوديب ملكا OEdipe Roi

تعتمد قصة أوديب ملكا على أسطورة تقول : إن لايوس Laïus ملك طيبة Thèbes أراد أن يكون له ولد من زوجه جوكاست jocaste ، فلما استشار الإله أبوللون أعلن إليه ماخبأه له القضاء ، وهو أنه إن رُزق الولد فسيقتله ابنه ، وحين رُزق الولد ، استأثر الحرص على الحياة بنفس الملك ، فأزمع أن يقتل ابنه قبل أن يقتله هذا الإبن ، وأسلم الطفل إلى راع من رعاته وأمره أن يلقيه على الجبل نهباً للسباع ، ولكن الراعى رقّ قلبه للطفل فأسلمه إلى راع آخر للملك كورينتــه Corinthe — فى بعض الروايات — أو علقه من رجليه على شجرة من أشجار جـــبل سيتيرون Cithéron — فى رواية أخرى — وتلقاه الراعى فعطف عليه ورفق به ، وكان ملك كورينته شقياً بعقم امرأته ميروب Mérope ، فدفع إليه الراعى بهذا الصبى ، وتبناه الملك ونَشَّأه تنشئة أبناء الملوك ، وشب الصبى قوى الجسم والنفس معاً ، معتداً بنفسه ، جاهلا لأصله ، ولكنه رأى من لداته وأترابه أنهم يلمحون له بأنه ليس ابن الملك ، فذهب إلى معبد أبوللون ليتبين حقيقة الأمر ، ولم ينبئه أبوللون بأصله ، وإنما أنبأه بأنه سيقتل أباه وسيتزوج أمه ، وسيقترف هاتين الخطيئتين المنكرتين .

وأخذ الفتى طريقه إلى بلد آخر بعيد عن هذه المدينة حتى لا يتورط فى قتل أبيه أو اتخاذ أمه له زوجاً ، وإنه لفى بعض الطريق عند مكان شديد الضيق ، وإذا بعربة تعترضه وتأخذ عليه سبيله ، فيكون الخصام باللسان ، ثم يكون الاقتتال ، وإذا الفتى يقتل صاحب العربة ، وقد تفرق من كان معه من خدم وأنصار ، ومضى الفتى لوجهه راضياً عن نفسه ، مطمئناً لحسن بلائه ، غــير مقدر أنه قد أنفذ إحدى الخطيئتين اللتين أنذره بهما أبوللون فقتل أباه .

وحين اقترب من مدينة طيبة سمع بأن وحشاً غريباً له رأس امرأة وجسم إنسان ، وله مع ذلك جناحان ، واسمــه سفينكس Sphinx أو أبو الهول قد استقر غير بعيد من المدينة على صخرة عالية يرصد من يمر به من الناس فيلقى عليه هذا اللغز : ما كائن له صوت واحد ، يمشى على أربع إذا أصبح ،

وعلى اثنتين إذا زالت الشمس ، وعلى ثلاث إذا أقبل المساء ؟ ولم يستطع أحد حل هذا اللغز ، وكل من عجز عن حله عاقبه بالموت ، فامتلأت قلوب أهل المدينة خوفاً ورعباً ، حتى اضطر كريون Créon أخو الملكة جوكاست والناهض بأعباء الملك بعد قتل لايوس أن يذيع فى أقطـار الأرض ، أن من أراح المدينة من هذه المحنة فله تاجها ، وله الملكة زوجاً .

وسمع الفتى بكل ذلك فأحب أن يجرب ذكاءه وقوته مغامراً بحياته فى سبيل المجد والملك ، وأقبل على هذا الوحش وتلقى منـه السؤال فأجابه : بأن الإنسان هو الذى يمشى على أربع إذا أصبح لأنه يحبو فى الطفولة ، ويمشى على اثنتين إذا انتصف النهار لأن قامته تعتدل وتستقيم إذا شبَّ ، ويمشى على ثلاث إذا أقبل المساء لأنه ينحنى على العصا إذا أدركته الشيخوخـة . وأُفحم الوحش فألقى بنفسه من أعلى الصخرة فمات ، وظفر الفتى بعرش طيبة ، واتخذ الملكة له زوجاً . ولم يقدر أنه بذلك قد أنفذ الخطيئة الثانية فاتخذ أمه له زوجاً .

واطمأن الفتى إلى أنه قد أفلت مما تنبأ له وحى أبوللون . وأسس لنفسه ملكاً جديداً ، بعيداً عن أبويه اللذين تركهما فى كورينته ، ورضى عن رعيته ، ورضيت عنه رعيته ، ورزق الولد ، فله ابنان : إتيوكل Etéocle وبولينيس Polynice ، وله بنتان أنتيجونا Antigone وإسمينا Ismène وهو يرى نفسه سعيداً موفوراً رضىَّ النفس رخىَّ البال .

ولكن المدينة تُمتحن ذات عام بوباء يُفسِد عليها أمرها كله ، فقد هلك الزرع وجف الضرع ، وأسرف الموت فى الناس والماشية والطير ، ولم يغن عن الناس توسلهم إلى الآلهة بالصلاة والدعاء ، أو استعطافهـم بالضحايا والقرابين ، فهم يفزعون إلى ملكهم يستعينونه ، فيرسل الملك إلى معبد أبوللون من يؤامر الإلـه ويستشيره فى هذا البلاء العظيم ، ويعود رسول الملك بما أجابه به أبوللـون : بأن الآلهة لن يكشفوا الضُّر عن هذه المدينة إلا إذا أخذت بثأر لايوس من قاتله ، هنالك يعلن الملك فى حزم وصرامة أنه باحث عن القاتل ، فمنزل به أشد العقاب ، ولكنه لايكاد يبحث عنه حتى يتبين أنه القاتل ، وأنه الآثم الذى اتخذ أمه له زوجاً ، وأنجب منها أبناءه الأربعة .

فأما جوكاست فلم تكد تظهر على الحقيقة البشعة حتى خنقت نفسها ، وأما أوديب ففقأ عينيه بيديه حتى لايرى الضوء .

هذه هى الأسطورة ، وقصة سوفوكليس لاتعرض منها إلا للجزء الأخير الذى يتناول إلمام الوباء بالمدينة ، وأمر الآلهـــة بعقاب القاتل ، واستكشاف الملك أنه القاتل ، واقتصاصه من نفسه .

ونقع القصة فى مدينة طيبة أمام قصر الملك ، وقد اجتمع أهل المدينة أمام أبواب القصر يفزعون إلى ملكهم من هذا الوباء الذى ألمّ بالمدينة ، وأخذ يعصف بكل من فيها وما فيها عصفاً ، ويخرج إليهم أوديب ويعلن إليهم أنه يألم أكثر منهم ، لأن كل واحد منهم يألم لنفسه ، أما هو فيألم لهم ويألم لطيبة ويألم لنفسه ، وأنه قد أرسل كريون بن منيسيوس إلى معبد أبولـّون ليعلم له من الإلـه ما ينبغى أن يصنع ، ويقبل كريون ويعلن إليهم أن الملك أبولـّون يأمرنا أن نطهر الوطن من رجس ألمّ به . وذلك بأن ننفى مجرماً ونقتص من القاتل بالقتل ، ويعلم أوديب من كريون أن القتيل هو حاكم لايوس السابق ، وأنه خرج من المدينة يستشير الآلهة ولم يعد إليها ، فقد قُتل هو ورفاقه جميعاً ، لم ينجح منهم إلا رجل واحد ، ولكن الخوف ملك عليه أمره ، ففرّ ولم يقل إلا أن جماعة من قطاع الطرق لقوا الملك فقتلوه ، لم يقتله واحد وإنما قتلته جماعة ، ويتعهد أوديب ببحث الأمر من أوله .

ويمضى أوديب وكريون ، وتقبل الجوقة تنشد أناشيدها تطلب إلى الآلهة المعونة والحماية ، والرعاية ، ثم يقبل أوديب ويتحدث إلى رئيس الجوقة ، ويعلن أمره إلى المواطنين : إنى آمر أيكم عرف قاتل لايوس بن لبدكوس بأن يدلنى عليه ، ويستنزل اللعنات على القاتل ، ويرد عليه رئيس الجوقة ، بأنه كان حقاً على أبولـّون الذى يأمرنا بالبحث والاستقصاء أن يدلنا على المجرم ، ثم يضيف : وإنى أعرف إنساناً ملكاً يخترق رأيه حجب الغيب ويرى ماوراءها كما يراها أبوللون نفسه وهو تريسياس ، فإذا سألته أيها الملك فسينبئك صادقاً بكل ما كان . ويرد أوديب بأنه لم يهمل هذه الخطة ، لقد استمع لمشورة كريون وأرسل خادمين يدعوانه إليه .

ويدخل الكاهن تريسياس ، وهو شيخ ضرير قد أخذ بيده قائده الصبى ، ويطلب إليه أوديب أن يظهره على كل شىء حتى يطهر المدينة من هذا الرجس ، ولكنه يقول لأوديب: ردنى إلى بيتى ، فهذا خير لك ولى . . . لاأريد أن أوذيك ولا أن أوذى نفسى . وحين يراه أوديب مصراً على الصمت يتهمه بأنه اشترك فى الجريمة ، دبرها وهيأ لها ، وحينئذ يعلن إليه الكاهن : فأنت الرجس الذى يدنس المدينة . . . أؤكد أنك قاتل هذا الرجل الذى تبحث عن أورده الموت . . . بل أزعم أنك تعيش على غير علم عيشة الخزى مع أقرب الناس إليك وأدناهم منك.

وحينئذ يتهمه أوديب ويتهم كريون معــه بأنهما هما اللذان دبرا كل ذلك، فكريون يريد أن يسقطه ويثل عرشه ، مستعيناً بهذا المشعوذ الخائن الذى لايرى إلا المال والذى هو أعمى فى فنه . . .

وبعد احتدام الحوار بين الرجلين يتهيأ تريسياس للانصراف ولكنه يقول : سأنصرف ، ولكنى سأقول قبل ذلك فيم جئتُ هنا ، فإنى لاأخاف وجهك لأنك لاتستطيع أن تهلكنى ،وإذن فأنا أعلن إليك أن الرجل الذى تبحث عنه موعداً متلمراً ، لأنه قتل لايوس ، مقيم هنا على أنه غريب ،وسيعرف الناس أنه من أهل طيبة ، ولن يستمتع بهذا الاستكشاف . إنه يرى ، ولكنه سيفقد بصره ، إنه عظيم الثراء ،ولكنه سيسأل القوت ليعيش . وسيسعى على قدميه إلى منفاه ، متلمساً طريقه بعصاه ، سيعلم الناس أنه فى الوقت نفسه أب وأخ للصبية الذين يعيشون معه ، وأنه زوج وابن للمرأة التى ولدته ، وأنه قد اقترن بزوج أبيه بعد أن قتل أباه ، إذهب إلى قصرك وفكر فى هذا كله ، فإذا أثبت علىَّ الكذب فقل حينئذ : إن الكهانة لا تعلمنى شيئاً .

ويدخل كريون متسائلا عما يوجهه إليه أوديب من تهم خطيرة ، ثم يدخل أوديب ويُباغَت بوجود كريون فيبادهه : هذا أنت إذن ، ماذا تصنع هنا ؟ أتبلغ بك الجرأة أن تأتى إلى هذا المكان وأنت حريص على أن تهلكنى وتنزع منى السلطان؟ ويتنصل كريون ممـــا يرميه به أوديب من تهم ، وتدخل عليهما جوكاست فيعلن إليها أوديب أن كريون يزعم أنى قاتل لايوس ، وأرسل إلىَّ بذلك كاهناً شريراً .

وتنبئه جوكاست بأن ليس فى الناس من يحسن فن الكهانة ، فقد أوحى إلى لايوس بأنه مقتول بيد ابنه الذى يولد منها ، ومع ذلك فالناس جميعاً يؤكدون أن لصوصا من الأجانب هم الذين قتلوه منذ زمن بعيد فى طريق ذى ثلاث شعب ، فأما ابنه فلم تمض على مولده ثلاثة أيام حتى قيده ودفعه إلى يد أجنبية طرحته بالعراء على جبل وعر ، وكذلك لم يتمم أبولُّلون وحيه ، فلم يقتل ابن لايوس أباه ، ولم يُقتل لايوس بيد ابنه .

ويأخذ القلق أوديب وهو يسمع أنه قُتل فى طريق ذى ثلاث شعب ، فيسألها عن الطريق ومكانه ، ثم يسألها عن لايوس ، كيف كان ؟ وماذا كانت سنه ؟ وتجيبه : كان رجلا طويلا قد وخط الشيب رأسه ، وكانت فيه ملامحك ، ويسأل : أكان مسافراً فى جماعة صغيرة أم كان يتبعـه حرس ضخم كما يصنع الأقوياء ؟

وتجيب : كانوا خمسة ليس غير ، وكان بينهم مناد ، وكانت عجلة واحدة تحمل لايوس .

أوديب : آه ، الآن يتضح الأمر ، ولكن من أنبأك بهذا كله أيتها المرأة ؟

جوكاست ، خادم نجا وحده .

أوديب : أهو الآن فى القصر ؟

جوكاست : لا . لقد عاد فرأى أمور المدينة إليك بعد موت لايوس فتوسل إلىَّ آخذاً بيدى فى أن أرسله مع القطعان يرعاها بعيداً عنك وعن المدينة ، وقد أجبته إلى ما أراد . فقد كان يستحق منى أحسن ما يستحقه المولى الأمين .

ويطلب أوديب أن يرى هذا الرجل على وجه السرعة ، ، فإن القلق يأخذه من كل جانب وهو يسمع أن لايوس قد قُتل فى طريق ذى ثلاث شُعَب . ولكن إذا جاء هذا الرجل وقال إنَّ الذى قتل لايوس جماعة لا واحد فقد نجاه من الشقاء ، أما إذا قال إنه واحد ، فهو مقترف الإثم . وتؤكد له جوكاست أنها لا تحفل بالفأل ولا بالطيرة ، فقد أعلن أبولُّون أن لايوس سيقتل بيد ابن يولد منها ، ومن المحقق أن هذا الإبن ليس هو الذى قتل لايوس لأنه هلك قبل أبيه ، ويدخلان القصر .

ثم تخرج جوكاست وفى يدها قربان من التيجان والطيب تريد أن تقربه إلى بوللون ليصرف عنهم هذا الرجس ويحمل إليهم الأمن ، ولكن يقبل رسول غريب يسأل عن قصر الملك وعن الملك بنوع خاص .

ويجيبه رئيس الجوقة : إنك ترى قصر الملك أيها الغريب وإن الملك لفى قصره ، وهذه امرأته أم بنيه ، ويدعو لها بالسعادة ، وينبئها بأن سكان كورينته سيختارون أوديب ملكا عليهم بعد موت بوليب ، وتفرح جوكاست بالنبأ ، وتبعث إلى أوديب ، فإذا جاء أنبأته بأن هذا الرجل جاء من كورينته ينبىء بأن أباك بوليب قد مات ، وإذن ففيم الإسراف فى العناية بوحى دلف وبصياح الطير فى جو السماء ؟ لو صدق هذا كله لكان أوديب قاتل أبيه ، ولكن أباه قد مات وواراه التراب ولم يجرد سيفاً . ولكن الخوف كان يضلله .

وتطمئنه جوكاست : لاتحفل بالوحى منذ الآن .

ولكنه مازال يخاف سرير أمه . ويتساءل الرسول : ومن هذه المرأة التى تثير فى نفسك هذا الهلع ؟

ويجيب أوديب : هى ميروبا التى كان يعايشها بوليب أيها الشيخ فقد تنبأ أبوللون بأنى سأتزوج أمى وسأسفك بيدى دم أبى .

ويطمئنه الرسول : أتعلم أن خوفك لاأساس له ، لأن بوليب لم يكن أباك ، فقد تلقاك هدية منى ، وكنتُ قد التقطتك فى وادٍ من تلك الوديان التى تظللها الغابات فى جبل كتيرون . كنت أرعى القطعان فى الجبل ، ففككتك وكانت قدماك قد ثقبتا فى أطرافهما ، ومن هذا الشر اشتق اسمك (أوديب معناه : ذو القدمين المتورمتين) .

ويسأله أوديب : بحق الآلهة أنبئنى ، أجاءنى هذا الشر من أمى أم من أبى ؟

ويجيب الرسول : لاأدرى ، وإنما علم ذلك عند الذى دفعك إلىّ .

ويعلم أوديب أن الذى دفعه إليه خادم من خدم الملك القديم لهذا البلد ، كان راعياً له ، ويسأل أوديب الجوقة : أيوجد بينكم من يعرف هذا الراعى ، سواء رآه فى المدينة أم فى ريفها ؟

وتجيب الجوقة : أظن أنه ليس إلا هذا الريفى الذى كنت تريد أن تراه منذ حين ، ولكن جوكاست أعلم بذلك منا .

ويسألها أوديب : أيتها المرأة أتظنين أن هذا الرجل الذى كنا ننتظره منذ حين هو الذى يشير إليه الرسول .

وترد : ماذا ؟ عمن تتحدث ؟ لاتلتفت إلى هذا ، اجتهد فى أن تنسى هذا الكلام الذى لا يغنى ، إنى أضرع إليك فى أن تسمع لى وألا تمضى فى هذا البحث ، أيها الشقى وددتُ لو جهلتَ دائماً من تكون . ولكنه يلح فى طلب الراعى ، فتتركه يائسة : واحسرتاه أيها الشقى ، هذا الإسم الذى أستطيع أن أسميك به ، ولن أستطيع أن أدعوك بإسم آخر .

ويعلن أوديب للجوقة : إنى حريص على أن أعرف أصلى مهما يكن وضيعاً ، إن هذه المرأة قد ملأتها الكبرياء ، فهى تستخذى من مولدى الوضيع ، أما أنا فأرى نفسى ابن الجدود الخيرة ، ولا يغض من شأنى نسب مهما يكن .

وفى سذاجة ترد الجوقة متخيلة أنه من نسل الآلهة : من يا بُنَى ؟ من ولدتك ؟ من عسى أن تكون هذه العذراء الخالدة التى منحتك الحياة ، بعد أن اقترنت بالإلـه بان ، أبيك الذى يهيم فى الجبال بعد أن كان أثيراً عند أبوللون ؟ إنه يحب السهول الريفية كلها ، ومن يدرى ، لعل الإلـه هيرميس الذى يملك على جبل كيلين حيث يقيم باكوس نزيل الجبال الشاهقة قد تلقاك رضيعاً من إحدى العذارى الخالدات اللائى يعشن فى جبل هيليكون واللائى يداعبهن الإلـه كثيراً .

ويقبل الراعى بين عبدين ، وبعد أن يتعارف مع الرسول ، يسأله الرسول : أتذكر أنك دفعت إلىّ صبياً لأربيه كما لو كان ابنى ؟

الراعى : ماذا تقول ؟ لم تلقى هذا السؤال ؟

الرسول : هاهو ذا أيها الصديق ذلك الذى كان صبياً حينئذ .

الراعى لتهلكك الآلهة ، ألا تؤثر الصمت ؟ ثم يتوجه إلى أوديب : إنى أقسم عليك بالآلهة ألا تعذبنى ولا تشق علىّ فإنى شيخ كبير ، ويهدده أوديب : سينزل بك الموت إن لم تقل ما يجب أن تقول ، ويجيب الراعى : وأشد من ذلك تأكيداً أنى

هالك إن تكلمت ، ويهدده أوديب بالموت إن لم يتكلم ، ويعلم منه أنه الصبي وُلد في قصر لايوس . وأنه كان يقال إنه ابن الملك . وأن امرأة الملك هي التي دفعته إليه ليهلكه خوفاً من وحي مشئوم . فقد كان يقال إن هذا الصبي لو عاش لقتل أبويه ، وقد دفعتُــه إلى هذا الشيخ إشفاقاً عليه يامولاى ، قدَّرتُ أنه سيحمله إلى بلد آخر حيث يعيش هو ...

أوديب : واحسرتاه ، واحسرتاه ، لقد استبان كل شيء . أيها الضوء ، أيها الضوء لعلى أراك الآن للمرة الأخيرة ، لقــد أصبح الناس جميعاً يعلمون ، لقد كان محظوراً عليَّ أن أولد لمن وُلدت له ، وأن أحيا مع من أحيا معه ، وقد قتلت من لم يكن لى أن أقتله .

ويسرع إلى القصر ، ويذهب الراعيان ، ثم يقبل خادم من القصر، يعلن إلى الجــوقة نبأ مصرع ملكتهم جوكاست ، ثم اندفاع أوديب إلى حجرتهــا ، وهناك يرى امرأته وقد خنقت نفسها ، وكان الحبل المبرم لايزال يدور حول عنقها ، فلا يكاد الشقى يشهد هذا المنظر حتى يدفع من فه زئيراً مروعاً ، فيحل العقدة التى كانت تعلقها فى الهواء . وتسقط المرأة البائسة على الأرض ، هنالك رأينا هولا أى هول ، نرى أوديب ينتزع المشابك التى كانت قد اتخذتها زينة ، ثم يدفع بها فى عينيه صائحاً : إنه لن يرى شقاءه ولا جرائمه ، ثم يتحدث إلى عينيه قائلا : « ستظلان فى الظلمة فلا تريان من كان يجب ألا ترياه ، ولا تعرفان من لا أريد أن أعرف بعد اليوم » كان يدفع هذه الصيحات . ويرفع جفنيه مضاعفاً ضرباته ، وهاتان عيناه الداميتان تخضبان ذقنه ، لم تكونا ترسلان قطرات رطبة من الدم ، وإنما كان ينفجر منهما مطر مظلم دام .

ثم يظهر أوديب دامياً وقد فقئت عيناه ، فلا تكاد تراه الجوقة حتى تندفع : باللألم ذى المنظر الفظيع أفظع مارأيت قط ، أى جنون قد صب عليك أيها الشقى ، أى إله قد انتهى بالقضاء فيك إلى أقصاه ، فصب عليك من الآلام ما يتجاوز طاقة الناس ؟

وفى حوار مؤثر يشكو إليها آلامه وحظه العاثر ، ثم يقبل كريون ، فيطلب أوديب إليه : إقذفنى بعيداً عن هذه المدينة ، حيث لا يرانى أحد أتحدث إلى إنسان ... وأتوسل إليك فى أن تمنح القبر الذى تراه ملائماً لهذه التى فى القصر ، فأنت صاحب الحق فى أداء هذا الواجب لكائن تجمع بينه وبينك صلة الدم ... أما ابناى فلا تتكلف فى أمرهما جهداً ، فهما رجلان ولن تخطئهما وسائل العيش حيث وُجدا ولكن ابنتاى التعستان ماأشد حاجتهما إلى الشفقة ، لم يُقدم إليهما الطعام قط على المائدة إلا وقد كنتُ حاضراً ، ولم تمتد يدى إلى طعام قط إلا وقد كان لهما منه نصيب . إشملها بعطفك ، إنى أضرع إليك فى ذلك ، ودعنى أمسهما بيدى وألثم شقاءهما (وإلى بنتيه) أينها الصبيتان أين أنتما ؟ أدنوا منى ، إدنوا من يدىّ ... وإنى لأبكى عليكما بعد أن حيل بينى وبين رؤيتكما ، أبكى عليكما حين أقدر كل الآلام المرة التى يجب أن تلقياها طول حياتكما من الناس ...

ثم يدخل أوديب إلى القصر يقوده كريون فى بطء وتتبعه ابنتاه والخدم ، وتنهى الجوقة القصة :

أى أبناء طيبة وطنى العزيز ، أنظروا إلى أوديب هذا الذى حل اللغز العجيب الذى أعجز غيره من الناس ، هذا الرجل القوى ، أىُّ أبناء المدينة لم يكن ينظر إلى رخائه وسعادته فى شىء من الحسد ؟ والآن فى أى بحر هائل من الشقاء قُذف به ، ما ينبغى أن نقول عن أحد من الناس أنه سعيد قبل أن يقضى الساعة الأخيرة من حياته دون أن يتعرض لشرٍّ ما .

أنتيجونـــا Antigone

حاول أوديب أن يقنع القضاء والآلهة ببراءته من قتل أبيه والزواج من أمـــه ، فهو لم يرد قتل أبيه ، ولم يقتله وهو يعلم أنه أبوه ، ولم يرد الزواج من أمه ، ولم يتزوج منها وهو يعلم أنها أمه ، فإن كان في هاتين الفَعْلتين إثم ، فليس هو المسئول عنه ، وإنما يُسأل القضاء الذى دبره والآلهة الذين ضللوه حتى تورط فيه على كثرة ما حاول تجنبه والتخلص منه . وهو على كل حال برىء أمام نفسه ، ولا عليه أن يراه الناس بريئاً أو أن يتهموه ويحكموا عليه . وقد بلغ أوديب من براءته ما كان يريد. فقد رضى الآلهة عنه آخر الأمر ، فآووه إلى هذه الضاحية من ضواحى أثينا ، وألقوا عليه السكينة ، وأشاعوا فى نفسه الطمأنينة والأمن ، وجعلوا جثته مصدر بركة للبلد الذى تُدفن فيه . وهم قد عاقوا مدينة طيبة ، وحرموها هذه البركة المتصلة بشخص أوديب حين قضوا أن يموت غريباً وأن يُدفن فى بلد غيرها ، ثم أثاروا فيها الفتنة بين ابْنَىْ أوديب : إتيوكل Etéocle وبولينيس Polynice . اللذين كانـــا قد اتفقا على أن يتناوبا الحكم عاماً بعدعام . وبدأ بولينيس الحكم ، ثم غادر طيبة إلى أرجوس ، وعاد فى نهاية العام ليتولى مقاليد الحكم ثانية ، لكن أخاه الأصغر إتيوكل نقض الإتفاق ، فعاد إلى أرجوس ، وعبأ منها جيشا يفتح به طيبة ، وينصب نفسه ملكاً عليها بالقوة . وقد أوقف على بوابات طيبة السبع سبعة من الأبطال كان هـــو أحدهم ، وعيّـن أخوه إتيوكل ستة أشخاص ليقاتلوا ستة أبطال ، واندفع هو نحو أخيه بولينيس ليقاتله فى الخارج ، وتبادلا الضربات ، ثم أذيع نبأ مصرع الأخويـــن معاً ، ثم يقبل رسول كريون يعلن أن جثة بولينيس يجب أن تترك بالعراء نهباً للوحوش وجوارح الطير ، لأنه شن حرباً على وطنه ، وأن الملك حرم دفنه ، وجعل عقاب من يدفنه الموت . ولكن أنتيجونا تتحداه ، وتدفن أخاها ، وتدافع عن نفسها باسم الشريعة الإلهية التى لا سلطان أمامها للقوانين الظالمة .

وتبدأ قصة أنتيجونا فى مدينة طيبة Thèdes أمام قصر كريون Créon عند شروق الشمس ، وتظهر أنتيجونا Antigone وهى تتحدث إلى أختها إسمينا Ismène عن الشقاء الذى أورثهما إيـــاه أبوهما أوديب ، والذى لم يكن نهايته أن القضاء

جرمهما فى يوم واحد أخويهما ، وقد جادا بنفسيهما معا فى إثر ضربتين تبادلاهما، فقد منح كريون أحد أخويهما ماحرمه على الآخر من شرف القبر ، فأمر بأن يوارى إتيوكل فى التراب ، ويؤدى إليه من الواجبات الدينية ما يسر نفوس الموتى ، بينما أعلن الأمر بأن لايدفن الشقى بولينيس ولايبكى ، وأن يترك — من غير أن يقبر أو تؤدى إليه فروض الدين — نهبا لسباع الطير التى تتأهب لافتراسه . وهى تطلب إليها أن تعينها على مواراة جثة أخيهما . ولكن إسمينا لاتشاركها الرأى ، وترى أن من الخطل أن يعرض الإنسان لما لا يستطيع إنفاذه ، وهى ترى نفسها أضعف قوة من أن تخرج على الدولة . وترد عليها أنتيجونا : اتخذى لك من المعذرة وقاء ، بينما أحاول أنا تأدية الواجب وإقامة القبر لهذا الأخ العزيز .

وتتركها إسمينا تفعل ما تريد .

ويقبل كريون يتحدث إلى الجوقة ، وهو فى هذا الحديث يبرر ما أصدر من الأمر فى شأن ابنى أوديب : أريد أن يقبر إتيوكل الذى امتاز بالشجاعة والإقدام ، ووقف بيننا موقف المدافع عن وطنه ، وأن تقام له الواجبات الدينية التى تؤدى إلى نفوس عظماء الرجال ، أما بولينيس الذى خرج من وطنه طريدا فعاد إليه ومعه جيش من العدو ليدمره ويحرق أسواره وآلهته ، وليجعلنا أرقاء ، ولينقع غلته من دمائنا ، فقد أمرت ألا يدفن ولايبكى ، وأن يكون جسمه بالعراء فريسة للكلاب وسباع الطير .

وترد الجوقة : يا ابن منيكيوس ، ما أحسن ما ادخرت لعدو الدولة وصديقها من جزاء ؛ إنك لتملك تدبير القوانين ، وإنـا على اختلاف طبقاتنا لخاضعون لها أثناء الحياة وبعد الموت .

ثم يقبل حارس مختلط الهيئة يقول بعد تردد طويل : لقد دفنت الجثة ، ووريت فى التراب ، وأقيمت الواجبات العادية ، واستخفى من أقامها .

وتتساءل الجوقة : مولاى ، إنى لأسأل نفسى حائرا ، أليس هذا الأمر عمل الآلهة ؟

ويرد عليها كريون : دعوا هذا اللغو الذى يثير غضبى ، ولا يدل إلا على تقدم

سنكم وضعف عقولكم . . . أرأيتم قط أن الآلهة شرفوا مجرما ؟ ثم يهدد الحارس إذا لم يقدّ إليه المجرم . ويدخل قصره .

ويعود الحارس ومعه أنتيجونا ، ويخرج كريون ، ويعلم من الحارس أنه فاجأها وهى تؤدى إلى الميت شرف الدفن فقادها إليه ، ذلك أنه عاد فأزال التراب عن جثة بولينيس ، وترك عاريا هذا الجسد الذى قد أخذ فيه الفساد ، وتبعث السماء عاصفة قاصفة . ولا تكاد تسكن حتى تظهر هذه الأميرة الشابة ، وكانت تبعث صيحات كصيحات الطير ، وقد رأت عشها خلوا من صغارها . نعم أمام هذا الجسم العارى كانت تملأ الهواء بشكاتها،ولعناتها على الذين نالوه بهذه الإهانة ، ثم تسرع وقد سترت هذا الميت بتراب يابس ، إلى أن تسقيه ثلاث مرات من إناء من النحاس المطروق ، هناك نطير إليها ، ونسرع جميعا إلى أخذها ، فلا تظهر خوفا ما ، نسألها عن هذا الإثم وعما سبقه ، فتعترف بهما جميعا .

ويسألها كريون : ماذا ؟ أتظلين مطرقة إلى الأرض من غير أن تنكرى ما تؤخذين به ؟

أنتيجونا : كلا . بل أنا أعترف به ، وأنا أبعد الناس من إنكاره ،

كريون (إلى الحارس) إنصرف . وإذهب حيث شئت فلا بأس عليك (وإلى أنتيجونا) أما أنت فأجيبى من غير محاولة ، أتعلمين أنى كنت قد حظرت مواراة بولينيس ؟

أنتيجونا : نعم . أعلم ذلك . وهل كان يمكن أن أجهله وقد أعلن إلى الناس كافة؟

كريون : وكيف جرؤت على مخالفة الأمر ؟

أنتيجونا : ذلك لأنه لم يصدر عن « زوس » ولا عن « العدل » مواطن آلهة الموتى ، ولا عن غيرهما من الآلهة الذين يشرعون للناس قوانينهم ، وما أرى أن أمورك قد بلغت من القوة بحيث تجعل القوانين التى تصدر عن رجل أحق بالطاعة والإذعان ، من القوانين التى تصدر عن الآلهة الخالدين ، تلك القوانين التى لم تكتب ، والتى ليس إلى محوها من سبيل ،

لم توجد هذه القوانين منذ اليوم ولا منذ الأمس ، هى خالدة أبدية ، وليس

من يستطيع أن يعلم متى وجدت ، ألم يكن من الحق علىّ إذن أن أذعن لأمر الآلهة من غير أن أخشى أحدا من الناس ؟ وقد كنت أعلم أنى ميتة ، وهل كان يمكن أن أجهل ذلك حتى ولو لم تنطق به ؟ . . . ولقد كنت أتعرض لما هو أشد لنفسى إيذاء لو أنى تركت بالعراء أخا حملته الأحشاء التى حملتنى .

ويسألها كريون : أتظنين أنك أبعد نظراً من أهل طيبة جميعا ؟

أنتيجونا : إنهم يرون رأيى ، ولكنهم يلتزمون الصمت بين يديك .

ثم يقول : إنك تسوين بين من مات فى سبيل وطنه وبين المجرم .

أنتيجونا : إن بولينيس أخو إيتيوكل لا عبده .

كريون : لقد جاء يدمر وطنه ، فى حين قاتل الآخر للدفاع عنه .

أنتيجونا : سواء علىّ ذلك . فإن «هاديس» هو الذى يأمرنى بتشريفهما جميعا .

كريون : ماذا ؟ أيأمرك «هاديس» بالتسوية بين الجريمة والفضيلة ؟

أنتيجونا : ومن يدرى ؟ أيقبل الموتى تمييزك بين الأشياء ؟

كريون : إن أعداءنا لن يصبحوا أصدقاءنا بعد الموت .

أنتيجونا : ولدت لأحب لا لأبغض .

كريون : هذا حسن ، إذهبى إلى الجحيم فأحبى من شئت ، أما أنا فلن أذعن لسلطان امرأة ما حييت .

وتحاول إسمينا أن تقنع كريون بأنها شاطرت أختها دفن بولينيس حتى تشاركها شقاءها ، ولكن أنتيجونا ترد عليها : لقد سألتك المعونة فأبيتها ، فتحاول استعطاف كريون : ما عسى أن تكون حياتى وحدى وبدونها ؟

كريون : لا تذكريها فقد ماتت .

إسمينا : ماذا ؟ أتقتل خطيبَ ابنك ؟

كريون : هناك أرض أخرى يمكن أن تحرث .

إسمينا : ليس هذا ما اتفقا عليه .

كريون : إنى لأكره شرار النساء لأبنائى .

إسمينا : أيها العزيز هيمون ، ما أشد مايزدريك أبوك .

كريون : إنك لتثقلين علىَّ بهذا الزواج .

وتسأله الجوقة : أحقا انك ستحرم ابنك إياها ؟

كريون : « هاديس » هوالذى سيقطع هذا الزواج .

الجوقة : إذن فقد قُضى عليها بالموت .

ويقبل هيمون فيحاول أن يَثنى أباه عن رأيه ويقول له : إن وجهك ليخيف ابن الشعب أن يتحدث عما لا تحب أن تَسمع ، أما أنا فأستطيع أن أسمع خفية عطف المدينة على هذه الفتاة وأنها أقل النساء استحقاقا لهذا الموت الشائن فى سبيل عمل مجيد ، هذا أخوها قتيلا طريحا لاقبر له ، فقد كرهتْ أن تمزقه الكلاب الضارية، وأن تنهسه سباع الطير ، أليست خليقة أن تظفر بتاج من الذهب ؟ هذه هى الأحاديث الخفية التى تدور فى صمت .

ويحتدم الحوار بين هيمون وأبيه ، ويقول كريون : شقى . أتجرؤ على أن تتهم أباك ؟

هيمون : حين أراه يقترف الظلم .

كريون : أمن الظلم أن أحتفظ بحقى ؟

هيمون : إن من سوء الاحتفاظ بالحق أن توطأ بالأقدام قوانين الآلهة .

كريون : أى خائن ! يصلح لأن تملكه امرأة .

هيمون : لن ترانى على الأقل وقد قهرتنى شهوة مخجلة .

كريون : لا تتكلم إلا دفاعا عنها .

هيمون : بل دفاعا عنك وعن نفسى وعن آلهة الموتى .

كريون : لن أسمح بأن تكون لك زوجا ، إنها ستموت

هيمون : لئن ماتت ، فليتبعن موتها موتٌ آخر

كريون : كيف ! أتبلغ بك الجرأة أن تهددنى ؟

هيمون : أؤهددك حين أحارب فيك عواطف ظالمة ؟

كريون : سأعلمك أن تكون أشد عدلا فى عواطفك وميولك .

هيمون : لو لم تكن أبى لقلت إن عواطفك تضاد العقل .

كريون : أيها العبد الدنىء تملكه امرأة ، لاتثقل على بلغطك .

هيمون : تريد أن تتكلم من غير أن تسمع شيئا ؟

كريون : قد يكون ذلك ، ولكنى أقسم بأوليمبوس أنك لن تثقل علىّ بإنكارك من غير أن تلقى فى سبيل ذلك ما تستحق من جزاء (وإلى حرسه) لتُقَدْ هذه المرأة البغيضة ، ولتجدْ بنفسها فى أسرع وقت بأعين حبيبها .

هيمون : لن تجود بنفسها بين يدى ، لاتظن ذلك . ولكن عينيك لن ترياني بعد ، لأتركنك نهبا لما يملكك من غيظ مع أصدقائك الذين يتملقونك .

وترد الجوقة : أيها الملك لقد خرج يملكـــه الغيظ ، وإن اليأس على مثله فى هذه السن لخطر .

كريون : ليعمل ، ليقدرْ أن يعمل فوق ما يستطيع الإنسان ، فلن يحمى هاتين الفتاتين من الموت .

وتسأله الجوقة : فأنت إذن تفكر فى موت الاثنتين ؟

كريون : لا . لن تموت التى لم تأثم . لك الحق .

الجوقة : على أى نحو تريد أن تميت الأخرى ؟

كريون : سأقودها من طريق مقفرة ، وسأحبسها فى نفق خال ، واضعا أمامها قليلا من الطعام لأتقى غضب الآلهة . ولنخلص المدينة كلها من هذا الإثم .

ويخرج كريون . وتظهر أنتيجونا مغلولة اليدين يقودها اثنان من خدم كريون وتظل تبكى نفسها وتبكى أخاها وتبكى أسرتها كلها فإذا دخل كريون وسمعها ، قال للحرس الذى يقودها : أتعلمون أن ليس للشكاة ولا للأنين حد قبل الموت إذا استطاع الإنسان أن يستسلم لهما . ألا تسرعون بها ؟ احبسوها كما قلت فى قبر ذى قبة ، دعوها وحيدة مجفوة ، لتمت ولتدفن حية فى المـــأوى . أما نحن فقد برئت ذمتنا من هذه الفتاة ، ولكن شيئا لاشك فيه ، هو أنها لن تساكن الذين يعيشون على الأرض .

ويقبل الكاهن تريسياس يقوده صبى ، فيعلن إلى كريون أنه سمع أصواتا مختلطة تصدر عن الطير التى كانت تصيح فى نشاط مشئوم صيحات غامضة ، كأنها صيحات

البرابرة ، فعرف أن بعضها كان يمزق بعضا بالمخالب ، وأنها كانت تقتتل ، فأخذه الخوف واجتهد فى أن يقرب للإله من طريق النار على المذبح المضطرم ، وكان الصبى ينبئه بأن الفأل لا يظهر ، وبأن الضحية لاتنبىء بآية ما ، فالمدينة تشقى بهذا الشؤم ، وأنت مصدر هذا الشقاء ، هذه المذابح التى هى بيوت الآلهة . قد جللتها الطير والكلاب بقطع اللحم التى نهشت من جثة ابن أوديب ولهذا لايتقبل الآلهة منا الصلاة ولاالتضحية ولااللهب الذى يرتفع من أفخاذ الضحايا ، وليس من بين الطير مايبعث صوتا ينبىء بخير . لأنها قد امتلأت من شحم الإنسان ودمه . فكّر فى هذا يابنى . إن الخطأ شائع بين الناس جميعا ، ولكن الرجل الحكيم السعيد إذا أخطأ أصلح خطأه ولم يصرّ عليه ، إن الإصرار يلج الموج ، أسمح للموتى ، لاتعاقب جثة هامدة ، أى نفع فى أن تقتل مرة ثانية من ليس له حظ من حياة . إنما أتحدث إليك مخلصا لأنى شديد الحرص على مصالحك . وأى شىء أحب إلى النفس من نصيحة خالصة فيها النفع والفائدة .

ويشتد النزاع بين الرجلين ، ويعلن كريون تمسكه بموقفه : لن أغير رأيى مهما تبذل ، يجب أن تعلم ذلك .

تريسياس : إذن فاعلمْ أنت أيضا أنك لن ترى الشمس تطلع مرات دون أن تؤدى بموت كائن أنت أبوه ، ديةَ موت آخر ، لأنك ألقيت فى بطن الأرض كائنا كان يعيش على ظهرها ، ولأنك أخزيت نفسك ، حبست حياً فى القبر ، وخليت جثة بالعراء بعيدا عن آلهة الموتى ، فى غير ماينبغى لها من الشرف والمأوى ، ليس لك هذا الحق ، بل ليس لك ولا لأى إله من آلهة السماء ، هذا عدوان تقترفه ، لذلك ترقبك الآلهة اللائى يعاقبن المجرمين . ويوكلهن هاديس بالانتقام . . . انتظر قليلا فسيرتفع فى قصرك عويل الرجال والنساء . . . أيها الصبى عد بى إلى الدار . . . ويخرج .

ويحذر رئيس الجوقة الملك من إنذارات الكاهن ، ويشير عليه بأن يطلق الفتاة من سجنها فى بطن الأرض ، وأن يقيم للميت قبرا ، وأن يقوم بذلك فى أسرع وقت ممكن ، لأن عقاب الآلهة سريع الخطى إلى المذنبين .

ويذعن كريون ولكن على مضض : واحسرتاه ، إنى لأعدل كارها عما أزمعت ، ولكنى مع ذلك سأفعل . لا خير فى مقاومة الضرورة .

رئيس الجوقة : إذهب واعمل ولا تكل هذا الأمر إلى غيرك .

كريون : أنا ذاهب الآن ، هلم ، هلم ، هلم أيها الخدم ، من كان منكم هنا ومن لم يكن ، أسرعوا وفى أيديكم المعاول ، أما أنا فما دمت قد غيرت رأيى فسأطلق بيدى أنتيجونا بعد أن ألقيتها فى هذا السجن . (ثم يخرج)

ثم يدخل رسول يعلن هلاك هيمون ، وأنه قتل نفسه بيده ثائراً على أبيه بسبب ما اقترف من جريمة القتل .

ثم تخرج أوريديس زوجة كريون من القصر ، وقد طرق سمعها نبأ كارثة ألمت بالأسرة ، فهى تسأل عما كان يقال ، وتطلب أن يعيدوه .

ويتحدث الرسول : لقد كنت أرافق وأرشد زوجك إلى هذا المكان المرتفع من السهل ، حيث كانت جثة بولينيس ملقاة فى غير رحمة ، وقد مزقتها الكلاب ، وقد غسلنا هذه الجثة بالماء المقدس بعد أن دعونا إلاهة الطريق وإله الموتى أن يقفا غضبهما ، ثم حرقنا ما بقى منها مع أغصان الزيتون الرطبة ، ثم دفناه فى أرض الوطن وأقمنا عليه قبرا ، ثم أخذنا طريقنا نحو الغار الصخرى الذى دفنت فيه الفتاة ، والذى اتخذ حجرة عرس لهاديس ، وإذا أحدنا يسمع صيحة بعيدة وأنينا حادا... ويتبين الملك صوت ابنه ، ويطلب إلينا أن ننزع الصخرة التى تسد فجوة القبر ، أسرعوا . انظروا . وننظر فنرى فى أعماق القبر أنتيجونا وقد علقت من عنقها ، لقد خنقت نفسها بمنطقتها ، وهذا هيمون متهالكا قد طوّق خصرها ، لقد كان يبكى موت هذه التى كان ينبغى أن تخلص له ، وقسوة أبيه ، وضياع حبه ، وهذا كريون يراه فيدفع شكاة جشاء ، ثم يدخل فى القبر ، ثم يسرع إليه ، ثم يصيح من الألم ثم يدعوه . . . اخرج يابنى إنى أتوسل إليك ، إنى أضرع إليك ، ولكن ابنه ينظر بعين حائرة ، ثم يبصق فى وجهه ، ثم يسل سيفه ذا الحدين دون أن يقول شيئا ، وإذا أبوه يتقهقر ثم يهرب ، فإذا هو قد أخطأه . هنالك يحوّل الشقى ثورته إلى

نفسه ، وقد أمسك سيفه ومد فراعيه ، وإذا هو يعتمد عليه بصدره ، فيغمده فيه ، ثم يعانق جثة العذراء عناقا متهالكا ، وإن قليلا من النفس ليتردد بين جنبيه ، ثم يدفع موجا عنيفا من الدم الذى يلطم بحمرته خده الشاحب ، وها هو ذا ميت قد صرع إلى جانب الميتة ، لقد عرف الشقى لذة الزواج فى دار الموتى ، مثل سيء ضرب للناس ؛ يبين لهم ماذا يجر الهوج على الملوك أنفسهم .

وتعود الملكــة إلى القصر دون أن تنبس بكلمة . ويخرج الرسول ، ثم يدخل كريون ومعه جماعة من الخدم وهو يحمل جثة هيمون ، ويندب شقاءه الذى لا يأتيه من قبل غيره ، بل هو مصدره ، ثم يأتى رسول من القصر ، يعلن إلى الملك عظم الكوارث التى تلم به . لقد ماتت زوجه ، هذه الأم الرءوم لهذا الميت ، لقد قتلت الشقية نفسها الآن ، (ويفتح باب القصر وتظهر جثة أوريديس) ويندب كريون زوجه وابنه : آه أيتها الأم التعسة ، آه وا ولداه !

ويواصل الرسول حديثه : لقد ضربت نفسها بحديدة قاطعة عند المذبح ، ثم أغمضت عينيها اللتين كانتا تظلمان شيئاً فشيئاً ، بعد أن ندبت ذلك الحظ المجيد الذى قدر لابنها « ميجاريوس » الذى مات قبل أخيه ، وبعد أن بكت موت هيمون ، وبعد أن استنزلت عليك المصائب كلها لأنك قاتل ابنها .

ويرد كريون : واحسرتـــاه أنا أصل هذا الشقاء كله ، ولن يمكن أن تلقى تبعته على أحد غيرى ، أنا ، نعم أنـا التعس الذى قتلك ، ليس هذا إلا حقا ، أيها الخدم ، قودونى مسرعين ، قودونى إلى مكان بعيد ، لست موجودا ، لقد فنيت .

وتختتم الجوقة حديثها ! إن الحكمة لأول ينابيع السعادة ، لا ينبغى أن نقصر فى تقوى الآلهة ، إن غرور المتكبرين ليعلمهم الحكمة بما يجر عليهم من الشر ، ولكنهم لا يتعلمون إلا بعد فوات الوقت وتقدم السن .

(ح) يوربيديس Euripides

هو يوربيديس Euripides بن منزاركوس Mnésarchos أو منزارشيديس Mnésarchides ، ولد بجزيرة سلامين Salamine وهاجر إلى أثينا أو هاجر إليها أهله فى تاريخ مجهول ولأسباب غير معلومة . ولم يؤرخ اليونان له ولزميليه الكبيرين إسكيلوس وسوفوكليس بما تعودوا أن يؤرخوا به لغيرهم من عامة الناس ، وإنما اختاروا للتاريخ لهم معركة سلامين البحرية الخالدة ، التى انتصرت فيها أساطيل اليونان بقيادة ثيميستوكل Thémistocle على أساطيل الفرس انتصارا باهرا كان له أكبر الأثر فى عظمة الأمـــة الإغريقية ، وشعورها بشخصيتها وقوميتها ، وإتاحة الأمن والهـــدوء والطمأنينة لها ، مما مكنها من توطيد دعائم مجدها ، واتساع ملكها . وتفرغها للعلوم والفنون وانتشار حضارتها . فكان لهذا أثره فى نفسياتهم وتكوين ملكاتهم الأدبية ، فإيسكيلوس كان جنديا أبلى فيها بلاء حسنا ، وسوفوكليس كان يقود جوقة الصبية الذين اشتركوا فى الاحتفال بها . ويوربيديس ولد فى نفس العام الذى نشبت فيه المعركة وقد نقش تاريخ ميلاده على نقش باروس الذى نص على أنه ولد عام ٤٨٠ ق. م . وأن والده كان من الأثرياء ، وإلا لما استطاع أن يعهد بابنه للمعلم بروديكوس الذى كان يتقاضى أجراً فاحشا ، وقد اتسعت ثقافته ، فدرس على بروديكوس وأناكسجوراس وبروتاجوراس وجاءت نبوءة لأبيه تؤكد له أن ابنه سوف يكون ذا شأن عظيم فى المسابقات فدربه على ألعاب المصارعة والملاكمة ، وهى ألعاب عنيفة كما تصفها الإلياذة . وفاز يوربيديس مرتين فى المباريات الرياضية وهو فى السابعة عشرة ، وأراد أبوه أن يقيد اسمه ضمن قائمة المتنافسين فى الألعاب الأولمبية ، ولكن رغبة أبيه لم تجب لصغر سنه ، وكان يوربيديس يهوى الرسم أيضا ، وأبدع بضعة آثار ظلت معروفة بمدينة ميجارا لفترة طويلة ، ثم بدأ وهـــو فى الثامنة عشرة فى نظم التراجيديا ، ولكنه لم يجد الخوريجوس الذى يعد له جوقة إلا فى عام ٤٥٥ ق . م . حين بلغ الخامسة والعشرين ، فاشترك للمرة الأولى فى المسابقة التراجيدية ، وقدم مع روايات أخرى رواية بنات بلياس Les Filles de Pélias وكان ترتيبه الثالث والأخير ، فلم يكن له حظ من المكافأة ، وكان هذا من الأسباب التى حملته على أن يقف حياته على المسرح والشعر ، ولكن

نحس الطالع أبى إلا أن يلازمه فى حياته الأدبية ، فلم ترق قصصه الأولى للجمهور الأثينى ، ولم يحصل على أول انتصار له فى المسابقة التراجيدية إلا بعد أربع عشرة سنة ، أى سنة ٤٤١ق.م ، حيث كان فى أواخر العقد الرابع من عمره ، ولم ينتصر طوال حياته الأدبية إلا خمس مرات ، منها مرة بعد وفاته . ومع أن هذا يدل على أنه كان يلاقى صعوبات جمة فى التغلب على مقاومة الجمهور لقصصه ، وفى محاولة استرضائه ، والاستحواذ على مشاعره ، إلا أنه كان سببا فى تهذيب شعره ، وصدق تمثيله للحياة . وكثيرا ما يكون الإخفاق فى الشىء أو خشية الإخفاق فيه أكبر حافز للمرء على تجويده وإتقانه .

ولم يحاول يوريبيديس ، أو لم يتح له ، أن يتقلد منصبا حكوميا أو يشغل وظيفة من وظائف الدولة ، ولكن ليس معنى هذا أنه لم يعن بالشئون العامة ، فقد عنى بها ولكن عن طريق شعره ، ورأى أن المسرح خير منبر يشرف منه عن كثب على شئون أمته . فلم يرض به بديلا ، ولم يحاول أن يظهر على أى منبر آخر .

وكما لازم نحس الطالع يوريبيديس فى حياته الأدبية ، لازمه فى حياته المنزلية ، فقد تزوج مرتين ، دون أن يوفق فى واحدة منهما ، وقد أثر هذا تأثيرا عميقا فى طباعه ، هذا إلى أنه نشأ سوداوى الطبع ، كئيبا ، لا يأنس كثيرا إلى الناس ، فصادف هذا الشقاء العائلى نفسا حزينة فزادها بؤسا على بؤسها الطبيعى ، وباعد بينها وبين مظاهر البهجة والسرور ، وانعكس هذا كله فى شعره التراجيدى ، فلا يكاد نعثر فيه إلا على ما يستدر الدموع ويثير الأشجان ، ويصف ريب الدهر ونازلات الأيام .

وقد كان من نتائج هذا كله أن أصبح محبا للعزلة ، فكان يقضى كل أوقات فراغه فى مكتبته ، التى أخذ ينميها باطراد ، حتى أصبحت أول مكتبة فى أثينا تزخر بأكبر مجموعة من الكتب القيمة فى مختلف العلوم والفنون ، فاستعاض بالأسفار عن الأصدقاء وعاش بينها قارئا ومفكرا ، مانحا أكبر قسط من وقته للدرس والبحث والاطلاع على آراء الفلاسفة المعاصرين مثل هيراكليت Héraclite وأناكساجور Anaxagor وبرودیكوس Prodicos وقد تأثر بكل ما قرأ ، وأفسح لمختلف النظريات والآراء الفلسفية مجالا فى نفسه ، ولكنه لم يدع واحدة منها تستحوذ على قلبه وتسيطر على تفكيره . فيقف عندها أو يتعصب لها .

وقد صور يوريبيديس عصره تصويرا دقيقا رغم أنه لم يكن على وفاق معه . وكان لقراءاته الطويلة العميقة . ونظراته الفاحصة الدقيقة آثارها فى قصصه ، فهو يعرض للمشاكل الاجتماعية ، ويحلل الواقع المعاصر ، ويبحث فى العقيدة الدينية ، ويتأمل فى خفايا النفوس ، وكل هذا يضايق معاصريه وينفرهم منه ، ويطلق ألسنتهم فيه ، فيتهمونه بالشراسة ، ويرمونه بالكفر وتفاهة التفكير ، ويجعلهم فى حيرة من أمره ، فهل هو مثالى متطرف أو واقعى مبالغ ، هل هو عظيم أو تافه ؟ هل هو ساذج إلى حد البلاهة أو مفكر وفيلسوف ، ولا يرى أريستوفانيس مانعاً من أن يصفه بكل هذه الصفات مجتمعة ، ويصف لنا فى ملهاة « النساء فى أعياد الثسموفوريا » ، كيف اجتمعت الأثينيات واتفقن على قتل يوريبيديس لأنه اهتم بدراسة نفسية المرأة ، وعقد الحياة بالنسبة لهن ، وانتهى الأمر بينه وبينهن بعقد معاهدة مودة ووئام ، كما يصوره فى كوميديا « الضفادع » وهو يدافع عن نفسه أمام إيسكيلوس عندما اتهمه بارتكاب كل الموبقات التى تقدم عليها شخصيات مآسيه .

وتربط القصص والروايات عنه ، بين قصصه وحياته ، فرواية تقول : إن زوجته خدعته مثل ثسيوس أو بروتيوس ، ثم تستشهد بفقرة من إحدى مسرحياته ، ورواية أخرى تقول : إنه كان زوجا لاثنتين معا ، مثل نيوبتليموس ، وكانت كل واحدة منهما أسوأ من الأخرى ، ورواية ثالثة تقول ، إن كلاب الصيد قد قطعته مثل أكتايون ، أو أن نساء شرسات قد مزقته مثل بنثيوس .

ويختلف الدارسون فى الحكم على هذه الروايات ، ثم يختلفون فى تفسير مآسيه . فتتعدد الأسئلة حول آرائه وأفكاره ، هل كان يكره النساء حقا أم يهيم شغفا بهن ؟ هل كان واقعيا أم خياليا ؟ هل كان مؤمنا بآلهة اليونان أم شاكا فيها ؟ هل سار فى ركب السوفسطائيين أم رسم لنفسه مذهبا خاصا؟ هل كان وطنيا غيوراً أم سلبيا ولا مباليا ؟

ومع أنه استمد موضوعات قصصه من الأساطير ، شأنه فى ذلك شأن غيره من شعراء التراجيديا ، إلا أنه عالجها بطريقة مبتكرة ، فاهتم بالواقع الذى يكمن فى طياتها ، وجعل غايته أن يصوره ويحلله ، وقد نظم سلسلة من المسرحيات عن طائفة من النساء اللائى اشتهرن فى العصور الغابرة ، ولم يهتم إلا بتصوير انفعالاتهن والتعبير

عنها تعبيرا دقيقا صادقا ، وقد أغرم بتحليل شخصياتهن تحليلا واقعيا يثير الشفقة فى أكثر الأحيان ، واقفا مع كل شخصية يدرسها ويدرس الظروف والطبع والمزاج الذى يدفعها إلى حياة مليئة بالانفعالات النفسية العنيفة ، مما جعل بعض النقاد وعلى رأسهم الشاعر الكوميدى أريستوفانيس يعتبرونه عدو المرأة ، وفسروا ذلك بأنه قد لاقى كثيرا من المتاعب العائلية . ولكن الواقع أنه لم يكن عدو المرأة ، لم يكن يكرهها ، بل كان مغرما بها ، كان يكره وحشيتها ، ولكنه لم يكن يكره جنسها ، ومن هنا أبدع فى وصف مشاعرها ، وتفنن فى تصوير انفعالاتها . كانت هواية شغلته واستولت عليه فكرس كل مواهبه لإشباعها .

وبعد سنة ٤٠٨ ق . م . هاجر من أثينا إلى بلاد الليديين بآسيا الصغرى ، ثم ارتحل منها إلى « بلا » عاصمة مقدونيا حينئذ ، حيث استقبله ملكها أركيلاؤس استقبالا باهرا ، وأنزله فى جناح من قصره الملكى ، ومنحه جوائز عدة وتوفى بمقدونيا ودفن بها لخمس وسبعين عاما قضاها فى خدمة الفن ، والنهوض بالمسرح الأثينى .

وقد حزنت عليه أثينا حزنا عميقا ، وإذ أبى القدر إلا أن تحرم من رفاته ، فقد أقامت له « سينوتاف » Cénotaphe أى ضريحا من تلك الأضرحة التذكارية التى كانت تشيدها عادة لعظماء رجالها الذين يدفنون فى غير تربتها ، ونقشت عليه أبيات تشيد بساكنه ، ينسبها بعضهم إلى المؤرخ الإغريقى تيسيديد ، وبعضهم إلى الشاعر تيموتيه .

وخلف يوريبيديس ثلاثة أبناء ذكور ، سمى أصغرهم باسم والده ، ونشأ شاعرا مثله . ويقال إنه قام بتمثيل بعض قصص أبيه .

ويذكر مؤرخو العصور القديمة أن يوريبيديس قد كتب اثنتين وتسعين قصة ، ولكن لم يبق منها إلا تسع عشرة قصة كاملة ، منها اثنتان ساتيريتان وهما :

ألسست Atceste ومثلت سنة ٤٣٨ ق . م .

وسيكلوب Le Cyclope ولا يعرف تاريخ تمثيلها .

وباقيها تراجيدى ، ومنها قصة يقطع كثير من المؤرخين أنها لغيره وهى القصة المعروفة باسم ريزوس Rhêsos .

ونعرف على وجه اليقين تاريخ تمثيل سبعة منها هي .

ميديه	Médée	سنة ٤٣١ ق . م
هيبوليت متوجا	Hippolyte Couronné	سنة ٤٢٨
الترواديات	Les Troyenne	سنة ٤١٥
هيلين	Hélène	سنة ٤١٢
أورست	Oreste	سنة ٤٠٨
إيفيجينيا فى أوليس	Iphigénie à Aulis	سنة ٤٠٥
الباكانت	Les Bacchantes (راهبات الإله ديونيزوس)	سنة ٤٠٥

والإحدى عشرة قصة الباقية لانعرف على وجه التحديد تاريخ تمثيلها ، وهي :

أندروماك	Andromaque
الهيراقليين	Les Héraclides
هيكوب	Hécube
المتضرعات	Les Suppliantes
هيراكليس ثائرا	Héraclès Furieux
إلكترا	Eiectre
يون	Ion
إيفيجينيا فى توريد	Iphigénie à Taurides
الفينيقيات	Les phéniciennes

السست Alceste

مسرحية ألسست هى أقدم ما صلنا من إنتاج يوريبيديس ، وعُرضت هذه المسرحية عام ٤٣٨ ق . م على أنها المسرحية الرابعة من الرباعية التيترالوجيا Tetralogia التى كانت تقدم فى المسابقة ، تسبقها ثلاث تراجيديات Trilogia ومعنى ذلك أنها حلت محل الدراما الساتيرية Satyr . فلم يكن يوريبيديس مغرماً بنظم الدرامات الساتيرية ، فاستبدل بها مسرحية تقرب من المأساة وتبعد عن التهريج الذى نجده فى المسرحية الساتيرية ، ولو أنها كانت تتضمن بين شخصياتها شخصية نصف هزلية تشيع فيها جوًّا مرحاً ، وهذه الخصائص تنطبق على مسرحية ألسست التى يلعب فيها هيراكليس دوراً مضحكاً يصوِّره يوريبيديس بطريقته الخاصة ، فهي لنيست

مأساة بالمعنى الصحيح ، بل مسرحية شبه ساتيرية أو شبه مأساة ، لأنها تجمع بين عنصرى الجد والهزل .

وتدور هذه المسرحية حول تضحية البطلة ألسست بنت بلياس بحياتها من أجل الحب . فهى تُقدم على الموت طواعية فى سبيل أن تنقذ زوجها « أدميت » مؤسس مدينة « فير » وملكها ، والذى كان غير جدير بهذه التضحية والفداء . وهذا الزوج كان قد استضاف أبولّلون فى قصره وأكرم وفادته ، ورداً على هذا الجميل وفـر له أبوللون فرصة النجاة والبقاء على قيد الحياة ، شريطة أن يجد بديلاله من الأسرة الملكية ، أو حتى فرداً من أفراد الرعية ، لكى يأخذ دوره ويحل محله فى رحلة الموت . ولكن الملك لم يجد أحداً يفتديه بحياته متطوعاً . حتى أبواه الطاعنان فى السن قد رفضا التنازل عن البقية الباقية من أيام العمر الغالية فى سبيل حياة إبنهما الملك الشاب . ولكن ألسست الزوجة الوفية أقدمت على هذه التضحية بنفس راضية ، وجاءها ملك الموت وقادها بدلا من زوجها إلى العالم الآخر ، وفى أثناء قيام أدميت بمراسم الدفن وفد هيراكليس ضيفاً عليه ، فأكرمه وأخفى عنه حقيقة الحداد الذى يعيش فى ظله القصر وأهله ، وبينما كان هيراكليس يعربد فى كرم الضيافة الملكية ، ويعاقر الخمر المعتقة ، عرف من الخادم المتجهم — وتحت الضغط — حقيقة الأوضاع ، فتأثر وصمم على أن يعيد ألسست من عالم الموت حية إلى زوجها ، وقد أنجز وعده بالفعل ، وعادت السعادة الزوجية ترفرف على أروقة القصر .

وقد أجاد يوريبيديس كل الإجادة فى رسم أبطال مسرحيته وتحليل نفسياتهم وعواطفهم ، وخاصة إخلاص ألسست لزوجها ، وإيثارها له على نفسها ، وشجاعتها النادرة ، وقدرتها الفائقة ، كما أجاد كل الإجادة فى تصوير ما أصاب زوجها وخدمها من ألوان الحزن عليها والألم لفقدها .

أما الإله هيراكليس فقد جاء به يوريبيديس ليصبغ المسرحية صبغة ساتيرية ، ومن ثَمَّ لم يغفل أى صفة من صفاته البارزة ، جلبته ، شراهته فى المأكل والمشرب ، كرمه ، شريف عواطفه وشدة تأثره ، ولم يحاول يوريبيديس أن يثير العطف على ألسست ، لأنها رجعت من عالم الموتى بالقوة .

ولمسرحية ألسست مكانة كبيرة فى نفوس كثير من الشعراء والكتاب الفرنسيين ، ومن أشدهم إعجاباً بها الشاعر الفرنسى العظيم راسين ، وقد سمى موليير بطل روايته « النفور » Misanthrope باسم ألسست .

هيبوليت Hippolyte

كان تيزيه Thésée ، وهو من ملوك أثينا الخرافيين قد تزوج من فتاة شابة رائعة الجمال قوية الحس عميقة الشعور تسمى فيــلدر Phidre ، وكان له ابن شاب رائع الشباب جذاب فاتن للنساء ، يسمى هيبوليت ، جاء به من زوجته الأولى أنتيوب Antiope ملكة الأمازونيات ، وهو شعب خرافى مكون من نســاء فقط ، يسكن ضفاف نهــر الترمودون Thermodon بكابادوس Cappadose ، وكن يبعثن إلى أزواجهن بأولادهن الذكور ، ويحتفظن بالإناث .

ولم تكد الفتاة ترى الفتى حتى هامت به ، وكانت حياتهما معا فى بيت واحد تلهب عواطفها ، وكان قربه منها يزيد قلبها وجسمها اشتعالا ، وقاومت ما استطاعت ، ولكنها لم تلبث أن سقطت فريسة مرض عضال ، ورثت لحالها مربيتها ، وألحت عليها أن تفضى إليها بمصدر آلامها ، وبعد تردد طويل أفضت إليها بسرها وكشفت لها عن مستور حبها ، وما تعانى بسببه من آلام جسام لم تستطع احتمالها فوقعت صريعة المرض. وقد فكرت كثيرا فى أن تلبى داعى حبها ، ولكنها فى كل مرة كانت تحجم عن ذلك تلبية لنداء ضميرها وكرامتها .

ورأت المربية ألا وسيلة لإنقاذها مما هى فيه إلا أن تقف هيبوليت على حب زوجة أبيه له ، وما كان لذلك من الآثار السيئة على حالتها النفسية والجسمية ، عله يرق لحالها ، فيجود بوصل ينقذها مما هى فيه ، واعتقدت أن الفرصة سانحة لذلك ، فإن تيزيه كان قد خرج للصيد ، وعارضت فيلدر أول الأمر ، ولكن المربية ما زالت بها حتى اقنعتها لأنه السبيل الوحيدة إلى شفائها .

وعرضت المربية الأمر على هيبوليت ، ولكنه ردها على أعقابها كاسفة البال خائبة السعى ، ورفض بشمم وإباء ما عرضته عليه ، مراعاة لحرمة أبيه ، وخضوعا لوحى ضميره ، وحفاظا على خلقه الكريم ، واستمساكا بمبادئه النبيلة ، بيد أنه أقسم لها أنه لن يبوح بما جرى بينهما لمخلوق .

وقد أثرت هذه الصدمة أيما أثر فى نفس فيلدر ، التى لم يسعها — وقد قضى على أملها الوحيد ، وفقدت شرفها ، ودنست كرامتها — إلا أن تنتحر ، ولكنها أزمعت

أن تثأر لنفسها من هيبوليت . فكتبت رقعة لأبيه تتهمه فيها بارتكاب ما كافت تود أن يرتكبه ، ولما رجع تيزيه من سفره ، وعثر على تلك الرقعة معلقة فى يد زوجه المنتحرة ، ثارت ثائرته، وطرد ولده من بلده ، واستنزل عليه لعنات الإله بوزيدون Poséidon (إله البحر والملاحة) وطلب إليه أن يميته شر ميتة ، فاستجاب دعوته ، وأخرج من البحر وحشا غريبا جفلت منه الخيول التى شدت إليها عربة هيبوليت فى طريقه إلى المنفى ، فسقط من عربته معلقا من يده بعنان خيوله ، التى لم تزل تجره وتنهب به الأرض نهبا حتى هشمت جسمه على الصخور ، ومات أشنع ميتة .

وقبل أن تفيض روحه أطلعت الإلاهة أرتيميس Artémis والده على الحقيقة ، فذهب من فوره إلى سرير ابنه المحتضر ، واستغفره من ظنه السيء به ، ومن تسببه فى موته ، وحزن حزنا عميقا على وفاته .

وقد أعطى يوريبيديس الدور الأساسى فى القصة لهيبوليت ، وأبدع فى وصف ما تحلى به من صفات كريمة : عظمة نفسه ، شممه ، نبل مقاصده ، وفاؤه بعهده ، إجلاله لأبيه ومحافظته على كرامته، أما دور فيدر فكان دوراً ثانويا ، بيد أنه لم يقصر فى الإبانة عن العناصر العاطفية التى ظل قلبها مسرحا لها وقتا غير قصير : هيامها بهيبوليت ، تكتمها لآلامها ، خيالاتها الشعرية ، تناقض اتجاهاتها أحيانا ، فلا تكاد تقدم إجابة لداعى حبها ، حتى تحجم تلبيه لنداء ضميرها وكرامتها .

وهذه القصة تعديل لقصة أخرى سابقة اسمها هيبوليت الصغير ، كان يوريبيديس قد أظهر فيها فيدر بمظهر المرأة الجريئة التى لا تأبه لشىء فى سبيل الحصول على غاياتها.

ميديه Médée

كان « أزون » Aéson حاكما لمدينة « يولكوس » بمقاطعة « تساليا » ، ثم خرج عليه أخوه « بلياس » Pelias وخلعه من العرش ، واغتصب ملكه ، وعهد أزون بابنه الصغير « جازون » Jason ، إلى المربى العظيم « خيرون » Chiron فتولاه بالعناية والرعاية ، وكبر جازون وأصبح شابا قويا ، وفكر فى استرداد ملك أبيه من عمه ، وذهب إلى يولكوس وتوجه إلى قصر عمه الذى بوغت به وبعودته ، ولكنه تمالك نفسه متظاهرا بالفرح . وتقدم من ابن أخيه معانقا ومرحباً ،

فلما جلس إليه وفهم سر عودته ، أشار عليه بأن يختار من بناته من يشاء ، ويتخذها له زوجا ، وله الحكم من بعده ، ولكن جازون رد فى هدوء ؛ بأنه إنما جاء ليسترد ملك أبيه الذى وهبه إياه زوس ، وهو يرى أن الاحتكام إلى العقل خير من الإحتكام إلى السيف ، فهو يترك الثروة كلها لعمه لا يريد منها شيئا ، وهو لا يطالب بأكثر من عرش أبيه . ويتظاهر عمه بالموافقة ، ولكنه يعلقها على شرط مستحيل لا يمكن تحقيقه ، فيقول له : لك ما طلبت يابنى إذا أحضرت لنا « الفرو الذهبى » وأقسم لك بزوس أنك متى أحضرته تخليت لك عن العرش ، وتنازلت لك عن كل شىء .

والفرو الذهبى — كما تقول الأساطير — فرو الكبش الذى ظل يحمل على ظهره « فريكسوس » وأخته « هيليه » طائرا بهما فى طبقات الجو ، حتى انتهى إلى « كولشيد » . وهناك ضحى به فريكسوس قربانا للآله زوس ، وأهدى فروه الذهبى إلى ملك كولشيد ، الذى علقه فى شجرة ، وكلف بحراسته حيوانا خرافيا يسمونه « الدراجون » .

ووافق الشاب على إحضار الفرو الذهبى ، وأبحر مع صفوة من أبطال اليونان إلى أرض كولشيد على شاطىء البحر الأسود حيث يوجد الفرو الذهبى ، فلما انتهوا إليها اتجهوا إلى قصر ملكها ، وقدموا أنفسهم إلى الملك وأعلنوا إليه أنهم أتوا يطلبون الفرو الذهبى ، ورد الملك : إنى أحب الأبطال ، وأحب المغامرين منهم خاصة ، وسوف أعطيكم الفرو الذهبى إذا أثبتم شجاعتكم ، لقد استطعت فيما مضى أن أشد إلى المحراث ثورين أقدامهما من البرونز ، وأنفاسهما من لهيب النار ، وسيطرت عليهما ، وحرثت حقلا من أرضى ، وبذرت فيه أسنان تنين كانت تنبت فى الحال رجالا مسلحين ، كنت أستأصلهم فى التو حتى لا يستفحل أمرهم ، هذا ما قمت به ، فأيكم يستطيع القيام بما قمت به فسيفوز بالفرو الذهبى ويعود بـه ، ولزم جازون الصمت برهة ، ثم قال : لقد قبلت المهمة رغم بشاعتها ، وسأقوم بها ولو انتهت بى إلى الموت .

وكانت « ميديه » بنت الملك قد تسللت لترى الزائرين وتسمع أحاديثهم ،

فوقع بصرها على جازون ، وعندئذ رماها « كيوبيدون » إله الحب بسم نفذ إلى أعماق قلبها ، فأشعل جسمها نارا ، وإذا هي هائمة بجازون ، هياما ملك عليها أمرها كله فقررت أن يكون لها ، وقد كانت ساحرة ، فصممت على أن تساعده بفنها السحرى وتعاويذها السحرية ، ومكنته بذلك من الإستيلاء على « الفرو الذهبى » ورأت أباها يـدبر له مؤامرة تمنعه من أخذ الفرو الذهبى ، فنصحته بأن يرحل هو ورفاقه فى الحال ، ورأت أنها لا تستطيع أن تعيش بدونه ، فخرجت آبقـة معه ، تاركة أهلها ووطنها من أجله .

ثم ذهب جازون وبصحبته ميديه التى اتخذها له زوجا ، إلى كورينته بعد أن أغرت بنات بلياس ، ودفعتهن إلى قتل أبيهن وعاشا معا عشر سنين عيشة راضية أنجبا خلالها طفلين : « ميرميروس » و « فيريس » وغمرته بأياديها البيضاء حتى لقد عملت ، عن طريق فنها السحرى ، على إعادة نضرة الشباب إلى والده وكان قد هده الكبر ، وكان خليقا بزوجها أن يحفظ لها كل هذه الأيادى ، ولكنه لم يحفظ لها منها شيئا ، ثم خان عهدها ، وغدر بها ، وهجرها ، ومن أجل أغراض نفعية دنيئة تزوج من « كريوز بنت سيزيف » ملك كورينته وقتئذ .

ومن هنا تبدأ أحداث القصة ، فإن هـذه المرأة التى أحبت زوجها من كل قلبها ، ومن أجله خانت أهلها وهجرت وطنها ، كانت تعتقد أنه سيخلص لها مدى الحياة ، ولن يتخلى عنها أبدا ، حتى تنسى ألم الإغتراب وعذاب الضمير ، ولكنه هجرها وتزوج غيرها فجن جنونها ، وجلست تفكر فى الإنتقام منـه ، فصممت على قتل منافستها ، وجاءت بثوب جميل وبللته بعطر مميت ، ثم وضعته فى صندوق وكلفت ولديها أن يحملاه ويقدماه هدية لزوج أبيهما ، فذهبا به ، وما ارتدته حتى اشتعل جسمها نارا ، وأصبحت رماداً فى لمح البصر ، ولم يكد أبوها يقترب منها حتى أصبح مثلها ، ثم فكرت فى مصير ولديها منه « ميرميروس وفيريس » وقررت ألا تتركهما لمن يسيء معاملتهما أو يمعن فى إذلالهما ، فذبحتهما بيدها ، مستهينة بفعلتها وبما تسببه لها من الآلام والشجون ، فى سبيل شفاء غليلها ، وإجابة داعى غيرتها ، والعمل على بعث الأسى فى نفس زوجها الخائن حينما يصل إليه خبر موت ولديه

هذه الميتة الشنيعة ، وتعذيبه بذلك ، والثأر منه ، والقضاء على هناءته ، ثم فرت هاربة على عربة شد إليها « دراجون » وظل يطير بها مخترقا طبقات الهواء حتى انتهى بها إلى أثينا ، وهناك تزوجت بملكها « إجيه » .

هذه خلاصة القصة ، وهي من أحسن القصص التي كتبها يوريبيديس ، ومن أشدها إثارة للعواطف ، رسم فيها ، فأحسن الرسم ، كثيرا من الإنفعالات النفسية وحركات الوجدان : غيرة ميدييه ، حقدها ، تفكيرها في أفظع الجرائم وأشدها هولا على نفسها ، ، اضطرابها وحوارها مع نفسها قبل قتل ولديها تتجاذبها عاطفتا الأمومة وحب الإنتقام .

وقد رأى يوريبيديس — وهو مصيب في رأيه — أن ميدييه وحدها كافية لأن تملأ تراجيديته ، فلم يشأ أن يعطي لغيرها دورا هاما فيها ، كما سنرى في بعض مناظرها وحوارها .

وفي المنظر الأول نرى المربيـــة تتحدث عن السفينة « أرجو Argo » التي حملت جازون ورفاقه إلى « كولشيد » بحثا عن الفرو الذهبي الذي طلبه بلياس ؛ فلولا هـــذا الفرو الذهبي ما رأت ميدييه جازون . وما هامت به حبا ، وما تركت وطنها وجاءت لتستقر معه في كورينته ؟

ألا ليت السفينة « أرجو » لم تخترق صخور « السوميليجاديس » في البحر المظلم ، ولم تشق طريقها إلى أرض « كولشيد » ويا ليت أشجار الصنوبر لم تسقط تحت ضربات الفئوس في سهول « بليون » ويا ليت الأبطـــال الصناديد لم يبحروا بحثا عن الفرو الذهبي « لبلياس » عندئذ لم يكن يكتب عن مليكتي ميدييه أن تقلع نحو « يولكوس » ذات البروج ، بعد أن جنت بحب جازون ، ولم يكن يقدر لها أن تقيم هنا في كورينته مع زوجها وولديها ، بعد أن أغرت بنات « بلياس » ودفعتهن إلى قتل أبيهن .

إنها كانت تدخل السرور على قلب الذين لجأت إلى أرضهم وعاشت بينهم ، وكانت تبذل قصارى جهدها لإرضاء جازون . وتلك هي السعادة القصوى عندما لا يدب الشقاق بين الزوج وزوجته ، أما اليوم فقد سادت بينهما البغضاء والكراهية ، لقد أصيبت ميدييه في أعز علاقاتها وأصدقها ، ذلك أن جازون خانها وخان ولديها ،

فهجر مضجعها إلى فراش ملكي وتزوج من ابنـــة سيزيف ملك كورينته ، فإذا ميدييه البائســـة تذكر بصوت صارخ ، الأيمان التى قطعهـا على نفســه ، عندما وضع يده فى يدها ، وعاهدها عهدا صادقا على أن يخلص لها على الدوام ، وهاهى ذى بدورها تشهد الآلهة على مارتكبه جازون فى حقها . لقد أضربت عن الطعام واستلقت على الأرض ، واستسلمت للأحزان ، ومنذ أن شعرت بالإهانة التى لحقت بها ، وهى تنكس رأسها ، وتدفنها فى الثرى ، إنها لاترفع بصرها ، بل تقضى وقتها كله فى البكاء والنحيب ، صماء كالصخر أو كموج البحر . لاتستجيب إلى توسلات أصدقائها ، ولـكنها تلتفت أحياناً ، وتكشف عن جيـد أبيض كالثلج الناصع ، وتبكى أباها وبلدها ، وبيتها الذى خانته لتتبع الرجل الذى وصمها بالعار .

لقد أدركت هذه المسكينة ، من الكوارث التى نزلت بها ، ماجنته من هجران وطنها ، إنها تمقت ولديها ، ولا تبتهج لرؤيتهما ، لذا أخاف أن تتخذ قراراً خطيراً ، إنها مثقلة بالهموم ، وسوف لاتتحمل الإهانة . إنى أعرفها ، وأخشى أن تتسلل إلى غرفتها حيث يوجد فراشها ، فتغمد السيف الباتر فى قلبها ، أو تقتل الملك زوجها ، فتجر على نفسها مصيبة أفدح . إنها مخيفة ، ومن يتعرض لغضبها لن يحرز نصراً مبيناً .

وهاهما هذان ولداها قد عادا بعد التمرن على السباق . إنهما لايكترثان بالمصائب التى ألمت بأمهما ، لأن روح الشباب لاتحب الألم .

ويتحدث إليها المربى الذى يرافق الولدين ، فينبئها بمصيبة جديدة ، وهى أنه سمع أن سيزيف ، ملك هذه البلاد سوف يطرد هذين الولدين وأمهما من كورينته ولـكنه ليس واثقاً من صحة الخبر ، ويتمنى ألا يكون صحيحاً ، ثم تطلب المربية إلى الولدين أن يدخلا البيت ، وإلى المربى أن يعزلها عن أمهما بقدر المستطاع ، فقد رأتها بالفعل تنظر إليهما فى قسوة ووحشية ، كأنها تريد بهما شراً . ثم يسمع صوت ميدييه من الداخل :

ويلٌ لى ! ، ماأتعسنى ! ماهذه الأحزان ؟ وما هذه الـكروب ؟ واحسرتاه .

ليت الموت يطوينى . . . آه ماأشقانى ، وما أشد ما أعانى من حزن وألم ، وأنتما ياولدىَّ ، يامن أنجبتكما أم بغيضة ، عليكما اللعنة ، ولتهلكا مع أبيكما ، وليحل الدمار بالبيت كله .

ثم تدخل الجوقة ، وهى تمثل الكورينثيات ، فتسأل المربية !

هل سمعت صوت ميدييه البائسة ؟ وسمعت صراخها ؟ إنها لم تهدأ بعد ، خبرينى أيتها العجوز ، لقد سمعتُها تنتحب داخل الدار ...

وترد المربية: لقد انهار المنزل ، ولم يبق منه شىء . لقد أصبح جازون زوجا لابنة الملك ، بينما رقدت ميدييه فى مخدعها تذوب أسى ، لاتسمع صديقاً مواسياً ، ولا لفظاً شافياً .

ويأتى صوت ميدييه من الداخل : ليت صاعقة من السماء تشق رأسى ، فما فائدة العيش بعد ذلك ؟ ويحى ، ويحى ، فليطونى الموت ، وليخلصنى من تلك الحياة البغيضة . . . أى زوس العظيم ، وأنت يا أرتميس الجايلة ، أشهدا على ماأعانى ، من هذا الزوج البغيض ، بعدما ارتبط معى بأقدس الأيمان ، ليتنى أراه يوماً مع عروسه ، وقد تمزقت أوصالها إرْباً إرْباً ، بعد الإساءة التى تجاسرا على إلحاقها بى ، ياأبتاه ، يا وطناه ، الذى هجرته بعد أن ذبحتُ أخى ، ياللعار !

وفى منظر آخر نرى ميدييه وقد خرجت من الدار تتحدث إلى الجوقة : أيتها الكورينثيات ، لقد خرجتُ من الدار حتى لاتلمننى . . . لقد حطمتْ نفسى تلك المصيبة التى لم أتوقعها ، لقد قضتْ علىَّ — يا صديقاتى — وأفقدتنى طعم الحياة ، ولم أعد أتمنى غير الموت ، لأن زوجى الذى كان كل شىء لى فى الوجود أصبح أسفل الناس أجمعين .

فنحن ، معشر النساء ، أشقى الكائنات الحية التى تفكر ، إذ يجب علينا أوَّلا أن نشترى زوجاً بثمن باهظ ، ونتخذه سيداً لنا ، ثم نواجه بعد ذلك أعقد المشاكل وأشدها إيلاماً ، هل الزوج طيب أم خبيث ؟ لأن الانفصال عن الزوج يسىء إلى سمعة المرأة التى لايحق لها أن تُطلِّقه ، فإذا تبين لها أن الرجل الذى يشاركها الفراش يختلف عنها فى عاداته وأخلاقه ، وجب عليها أن تكون مُلْهَمَة ،

لتعرف من تلقاء نفسها كيف تعامله ، فإذا أفلحنا فى مهمتنا . ورضى السيد عن الحياة المشتركة فى غير ملل أو ضجر ، فعندئذ نسعد فى عيشنا ، وإلا فالموت أفضل ، لأن الزوج إذا سئم الحياة المنزلية ، استطاع أن يترك البيت . ويذهب ليتحدث إلى أقربائه وخلانه ، وينسى همومه وأحزانه . أما نحن فيتحتم علينا أن نوجه اهتمامنا إلى شخص بالذات ونتعلق به ، ورغم ذلك يقال عنا : إننا نعيش فى البيوت عيشة خالية من الأخطار . بينما يحمل الرجال حرابهم ، ويذهبون إلى ساحة القتال ، فكم كنت أتمنى أن أحمل الدروع وأحارب ثلاث مرات ، فهذا أفضل من أن أعانى آلام الوضع مرة واحدة .

ولكن مالنا وهذا الحديث الذى لايعنيكن كما يعنينى ، فهذا بلدكن ، وذلك بيت أبيكن ، وتلك صحبة الأصدقاء ، وبهجة الحياة ! أما أنافوحيدة ، لاوطن لى، أهانى زوجى بعد أن اختطفنى من بلد غريب ، فليس لى الآن أم ولا أخ ولا أقارب أقيم بينهم ، لأبعد عن مصائبى . لذا فأنا أريد منكن أن تستجبن إلى طلبى هذا ، إذا توصلت إلى حيلة أو مكيدة لأنتقم من الآثام التى اقترفها زوجى ، وأعاقب زوجته ، وأباها الذى زوجه إياها ، فعليكن أن تلزمن الصمت ، لأن المرأة هيوب بطبعها ، تخاف الحرب والسيوف ، إما إذا اعتدى على حقوقها فى فراش الزوجية ، فلا يوجد أحد أكثر منها تعطشاً للدماء .

ويرد عليها رئيس الجوقة ! لك ماتطلبين ، فأنت ياميديه محقة فى الانتقام من زوجك ، ولا عجب أن تندبى حظك وتحزنى على بلواك .

وفى منظرآخر نراها تعلن إلى الجوقة ماصممت عليه : سوف أقضى الآن على أعدائى الثلاثة ،وأتركهم جثثاً هامدة : الأب وابنته وزوجى معهما . أى صديقاتى ! وسائل الإعدام عديدة ولكنى لاأعرف بأيها أبدأ ! هل أشعل النار فى بيت الزوجية ؟ أم أتسلل خلسة إلى مضاجعهم ، وأغمد السيف الباتر فى قلوبهم ؟ لكن عقبة واحدة تقف فى سبيلى ، ذلك أنهم إذا قبضوا على عند دخولى لأضرب ضربتى القاصمة ، فسوف يصبح موتى أضحوكة لأعدائى ، فالأفضل لى إذن أن ألجأ إلى الوسيلة التى أتقنها كل الإتقان ، فأتغلب عليهم بفعل السحر والرقى ... فهيا

انهضى يا ميديه ، واستعينى بعلمك الغزير ، وخططك البارعة ، وتقدمى إلى حيلتك المخيفة ، فهذه ساعة الجرأة والإقدام ، فأنت تشعرين بما تعانين ، ويجب ألا تصبحى أضحوكة للأسرة المالكة بعد زواج جازون منها ، أنت ياسليلة النبلاء ، ياحفيدة الشمس فأنت بارعة فى فنون السحر ، هذا إلى أننا معشر النساء أقدر الخلق أجمعين على عمل الشر : وأشدهم عجزاً عن عمل الخير .

وفى منظر آخر نرى جازون قد جاء يلومها على تصرفاتها ! . . . لقد كان بوسعك أن تقيمى فى هذه البلاد ، وتسكنى فى هذا القصر ، لو استجبت عن طيب خاطر لرغبات السادة أصحاب النفوذ هنا ، لكنك ستُطردين من هذه الأرض نتيجة لتهورك فى الكلام الذى لا أكترث له أبداً ... لكن حماقاتك لم تنته عند حد ، فلم تكفّى عن سب الحاكم ، فحق عليك النفى من هذه الديار . ومع ذلك فإنى لا أتخلى عن أصدقائى فى هذه اللحظة نفسها ، وها أنذا جئت الآن لاهتمامى بمصيرك أيتها المرأة ، فأنا لاأريد أن تطردى مع ولدينا وأنت فى حاجة إلى مال أو عَوْن ، فالنفى يَجُرُّ كثيراً من الويلات ، فإذا كنت تكرهيننى : فلن أريد بك سوءاً .

وترد ميدييه: أيها الوغد الخسيس، فأنا لاأجد أقذع من الشتائم أَصِمُ بها جبينك، ها أنت ذا تأتى إلىَّ ، يا أبغض الناس إلى نفسى، وإلى الآلهة، وإلى الخلق أجمعين! ليس من الإقدام ولا من الشجاعة أن تواجه أصدقاءك بعد أن أهنتهم ، أما الوقاحة فهى أبشع الرذائل الإنسانية ، ومع ذلك فخيراً فعلت بمجيئك ، لأنى أروِّح عن نفسى عندما أوذيك بالشتائم التى تسمعها منى ، والآن سوف أحدثك عن علاقتنا منذ بدأتْ : إن اليونانيين الذين أبحروا معك على السفينة أرجو ، يعرفون أنى أنقذتُ حياتك عندما أُرسلتَ لتشدَّ إلى النَّيْر ثيرانا تلفظ اللهب ، وتبذر بذور الموت ، ثم قتلتُ — من أجلك — الأفعوان الذى التفَّ حول الفرو الذهبى بطيات قشورة المتعددة، وخاصم الكرى ليسهر على حراسته ، وبذا أضأت لك نور النجاة ، خنتُ أبى وبيتى ، وجئتُ معك إلى يولكوس ، ثم جعلتُ بنات بلياس يقتلن أباهن شر قتلة ، وهكذا

خلصتك من كل المخاوف ، وكان جزائى على ما قدمتُ لك ، يا أخسَّ الناس ، أن غدرتَ بى وتزوجتَ غيرى ، بعد أنجبتَ منى أطفالا ! ، فلو كنتُ عاقراً لا غتفرتُ لك هيامك الشديد بهذه الزوجة . إنى لم أعَدْ أثق فى أيْمانك ، ولستُ أدرى إذا كنتَ تعتقدُ أن آلهة الماضى لا يحكمون فى الحاضر ، أو أن البشر قد استنُّوا لأنفسهم قوانين جديدة ، واحسرتاه ! كم مرة أمسكتَ يمينى ! وكم مرة لمست ركبتىّ ، وكم مرة عانقتُ هذا الوضيع ، فضاع عناقى سُدى ، وهكذا خابت آمالى .

فتعال إذن أحدِّثك كصديق ، ولكن أى خير أنتظر منك ؟ دعنا من ذلك ، فسوف تكشف أسئلتى عن وضاعتك . والآن إلى أين أتوجَّه ؟ هل أعود إلى بيت أبى الذى خُنته ؟ أم إلى وطنى الذى هجرته لكى أرافقك ؟ أم أذهبُ إلى بنات بلياس البائسات؟ فسوف يرحِّبْن بى أجمل ترحيب بعد أن قتلتُ أباهن . وهكذا أصبحتُ عدوة لأحب الناس فى أسرتى ، ولكى أنال رضاك حاربتُ الذين كان يجب ألا أسىء إليهم ، ولذلك جعلتنى أكثر اليونانيات سعادة ، فكنتَ زوجها رائعاً ، عجيبـــاً فى إخلاصه ، آه ما أشقانى ، فإذا نُـفيتُ من هنا وطردتُ ، وأصبحت شريدة مع ولديك الوحيدين ، فأى عار للزوج أن يرى إبنيه وزوجته التى أنقذت حياته يهيمون فى بؤس وشقـــاء .

أى زوس ، لماذا جعلت للناس علامات واضحة يتعرفون بها على الذهب الخالص من الزائف ، ولم تدمغ الرجل الفاسد بعلامة تميزه ؟

وفى منظر آخر نراها تعلن إلى الجوقة ما صممت عليه :

سأحدثكن عن كل خططى ، فاسمعن حديثا غير سار ، سوف أرسل إلى جازون واحدا من خدمى يتوسل إليه أن يحضر أمام عينى ، فإذا جاء نى تحدثت إليه فى رقة وعذوبة ، وأكدت له أنى موافقة على تصرفاته ، وأنـه لم يجانب الصواب عندما عقد قرانه الملكى الذى خاننى من أجله ، وأعترف بأنه اتخذ قرارا موفقـــا يعود عليه بالخير العميم ، وسوف أضرع إليه أن يوافق على بقاء ولدينا ، لا لأنى أريد أن أتركهما ليتعرضا للإهانة فى أرض العدو ؛ ولكن لكى أتمكن من قتل ابنة الملك بخديعتى ؛ فسوف أبعث بهما يحملان لها هذه الهدايا لينجوا من النفى ، وسوف

يقدمان إليها ثوبا خفيفا وتاجا من الذهب ، فإذا أخذت هذه الزينة ، ووضعتها على جسمها ، فسوف تهلك فى الحال ، وسوف يهلك معها كل من يلمسها ، بتأثير السموم التى سأبلل بها هذه العطايا .

والآن سأتحدث بلغة أخرى ، فأبكى الجرم الذى سأقدم عليه بعد ذلك،فسوف أقتل ولدىّ ، ولن ينقذهما أحد من يدى ، سوف أدمر بيت جازون كله ، وأرحل عن هذه الديار ، وأهرب من ذبح ولدى ، من أبشع الجرائم وأشدها نكرا .

إذن فليكن مايكون ، فماذا يجنيان من هذه الحياة ، فليس لى وطن،ولا بيت ، ولا ملاذ من البؤس والشقاء ، فلقد ارتكبت خطيئة كبرى ، عندما هجرتُ منزل أبى ، واستجبت لإغراء ذلك اليونانى الذى ستقتص لنا منه الآلهة قصاصا عدلا ، فلن يرى أبدا ابنيه اللذين أنجبهما منى ، ولن يعقب من زوجه الجديدة ولدا ، إذ كُتب عليها أن تموت بسمومى شر ميتة ، فلن أسمح لأحد أن يحسبنى ضعيفة متراخية ، بل على النقيض من ذلك ، قاسية على أعدائى ، رحيمة بأصدقائى .

وقبل شروعها فى قتل ولديها ، نراها فى محاورة مع نفسها ، تتجاذبها عاطفتا الأمومة وحب الإنتقام :

ولدىّ ، سيكون لكما على الأقل بلد ومنزل تنعمان فيه بعيدين عنى ، وتسكنانه ما حييتما بعيدين عن أمكما . أما أنا فسأذهب إلى المنفى ، فى أرض غير هذه الأرض قبل أن أنعم بكما ، وبرؤيتكما سعيدين ، وقبل أن أهيىء لكل منكما حجرة عرسه،وأزف له عروسه ، وأزينها له بيدىّ،وقبل أن أشعل شموع هيمنيه ، (إله الزواج) آه! يالى من بائسة ! قد خارت قواى ، لقد كان عبثا — ولدىّ — إنى ربيتكما ، ولقد كان عبثا أننى تحملت من أجلكما متاعب جمة ، وأسلمت نفسى لجذوة الأشجان سعيا وراء سعادتكما ، وتحملت آلام وضعكما ، لقد بذرت فيكما كل أمانىّ ، فكنت أرجو أن تكونا مصدر سعادتى فى هرمى ، وأن تدفنانى بأيديكما ، ولكن الآن قد قُضى على هذه الآمال العذبة .

سأحيا — محرومة منكما — حياة بؤس وشقاء ، وأنتما — ولدىّ — لن تريا أمكما ، وستقبلان على حياة أخرى غير حياتكما الأولى ، وا أسفاه ، وا أسفاه ! ما بالكما — ولدىّ — تحدّقان فىّ ، مالكما تبتسمان لى إبتسامة الوداع الأخيرة .

وا أسفاه ! ما العمل ؟ تخذلني قواى عندما أرى تلك النظرات العذبة التي تحدقان بها فى وجه أمكما ، لا ! لن أستطيع . . . لست ممن تطاوعهم نفوسهم على إرتكاب مثل هذا الجرم الشنيع . سأصحب ولدىَّ معى فى المنفى ، فمن الحمق أن أمزق قلبي وأضيف إلى جروحه جرحا جديدا ليس أقل منها إيلامـــا ، بإرتكاب الجريمة التي تحدثني نفسى الآن بارتكابها ، والتي لن أصل من ورائها إلا إلى مأرب ضئيل ، وهو معاقبة والدهما ، لا لا ! يقينا لا ! ، لست ممن يستطيعون الإقدام على مثل هذا .

ولكن ماذا دهانى؟،مابالى؟! أأعرض نفسى للسخرية والفضيحة؟ كيف يسوغ لى ألا أنتقم لنفسى ؟ وألا أكيد لمن يكيدون لى ؟ وألا أعاقبهم على ما ارتكبوه . . . يجب أن أكون شجاعة جريئة . . . ياله من خوَر أن أدع عواطف الضعف تنفذ إلى قلبي وتحول بينى وبين تنفيذ ما أزمعت تنفيذه .

ولدىَّ ، لتدخلا القصر ، ولتهدأ سورتكَ يا قلبي ، لا تقدم على هذا الجرم الشنيع ، لتدع هذين الولدين المسكينين ياللك من قاس ، لتدعْهما يتبعانى فى منفاى ويملأ حياتى سعادة .

لا ، وأقسم بآلهة الإنتقام ، لن أقبل أن يكون ولداى موضع سخرية لأعدائى بعد منفاى أو بعد مماتى، يحتقرونهما ، ويعيرونهما بأننى لم أقتص من والدهما ! لابد أن يموتا ، وإذا لم يكن من موتهما بد ، فلأذقهما — أنا أمهما — كأس الحمام بيدى ، قد صدر الحكم وهو لايقبل نقضا ولا تعديلا .

لقد وضعت الأميرة التاج فوق رأسها ، وارتدت ثياب عرسها ، وهاهى ذى تلقى حتفها ، ولكن ما دمتُ سأتبع طريقا مشئوما ، وأدفع ولـــدى إلى طريق أشد بؤسا وشقاء ، فلأذهب لأودعهما الوداع الأخير .

(وتنظر إلى القصر ، وتطلب ولديها ، فيخرجان) .

ولدىَّ ، لتمدا إلىَّ أيديكما الجميلة ، لتمداها إلى أمكما تلثمها ! (تضمهما إلى صدرها وتقبلهما) ياللك من يد عزيزة ، ورأس غالية ، وطلعة بهيجة ، ووجه مضىء ، ياللك من قبلات عذبة ، وخدود نضرة ، وأنفاس يتضوّع منها المسك ، أتمنى لكما السعادة ولكن فى الحياة الأخرى ، أما فى هذه الحياة ، فقد أبى والدكما

إلا أن ينزعها منكما ، إرحلا ، إرحلا (تبعدهما عنها وتطلب إليهما أن يرجعا إلى القصر) ، لقد خارت قواى ، فلم أعد أستطيـــع النظر إليهما ، لقـــد قضتْ علىَّ الآلام . إننى أدرك بشاعة الجرم الذى سأرتكبه ، لكن الغضب الذى يملأ صدرى هو مبعث الشرور والآثام .

وفى منظر آخر ترى رجلا مقبلا كانت تتوقع قدومه فتعلن ذلك إلى الجوقة :

أى أصدقائى ، لقد انتظرت هذه اللحظة منذ وقت طويل . فهأنذا أرى أمام عينى رجلا من أتباع جازون ، جاء يلهث ، وتشهد أنفاسه أنه سوف يعلن شرا مستطيرا ويندفع الرسول :

أى ميديه ، يامن ازدريت القوانين ، فارتكبت إثما بشعا ، اهربى ، اهربى ، سواء فى مركب بأشرعة ، أو فى عربة مسرعة .

ميديه : ماذا جرى ؟ وماذا يحتّم الفرار ؟

الرسول : لقد ماتا فى الحال ، الأميرة الصغيرة ، وأبوها سيزيف ، هلكا بفعل سُمِّك الفتاك .

ميديه : ما أروع ما قلت ! سوف أتخذك — من الأن فصاعدا — صديقا لى ، وأعتبرك من الذين أحسنوا إلىَّ .

الرسول : ماذا تقولين ؟ هل تفكرين تفكيراً سليما أم أصابك الجنون؟أتبتهجين لسماع هذا الخبر أم ترتعدين خوفا ، بعد أن دمرت البيت الملكى ؟

ميديه : فى مقدورى أن أجيب على سؤالك،ولكن دعنا من هذا،لا تنصرف من هنا ، أخبرنى كيف هلكا . فسوف يزداد سرورى إذا علمت أنهما ماتا شر ميتة.

وفى المنظر الذى تقتل فيه ولديها نراها تعلن ذلك إلى الجوقة :

لقد صممتُ — ياأصدقائى — على إرتكاب جريمتى ، فسوف أقتل ولدىَّ على وجه السرعة ، وأرحل عن هذه الديار ، فان اتباطأ وأتركهما يلقيان حتفهما على يد عدو أشد قساوة منى . لا شك أنهما ملاقيان الموت ، وما دام هذا قضاء محتوما فسوف أقتلهما كما أنجبتهما ، فهيَّـا تجلدْ ياقلبى ، فيم إرجاءِ الجرم البشع الذى لامفر منه ؟ وأنتِ ، أيتها اليد الشقية ، إليك بالسيف خذيه ، وأمسكيه ، وسيرى بى

إلى نهاية الحياة البائسة: لا تتجنبني يا ميديه، لا تذكرى أنهما ولداك الحبيبان، وأنك أمهما التي وهبتهما الحياة من قبل. إنسيهما هذه اللحظة على الأقل، وابكيهما بعد ذلك » (وتدخل القصر)

الجوقة : يا أرض اشهدى، ويا أشعة الشمس المتوهجة انظرى إلى هـذه المرأة القاتلة، قبل أن تذيق ولديها الردى وتذبحهما، إذهب إذن، أيها النور الذى ينبثق من زوس، إذهب واكبح جماح هذه النفس الطائشة، واكتب الحياة لولديها، واطرد من القصر روح الغضب التى أيقظتها آلهة الشر.

عبثاً ما تحملت من آلام الأمهات، وعبثاً ما لقيت من هموم ومشقات، لماذا يستولى على نفسك هذا الغضب الثائر؟ إن اليد التى تدنسها دماء ذوى القربى لا تجد ماء نقيا يغسلها.

الولدان (داخل القصر) : آه.

رئيس الجوقة : أتسمع صراخ الغلامين؟ أتسمع! يالك من امرأة بائسة شقية

أحد الغلامين (من الداخل) : ويحى! ما العمل؟ إلى أين أهرب من يد أمى؟

الغلام الثانى (من الداخل أيضا) لا أدرى يا شقيقى العزيز، إننا حتما من الهالكين.

رئيس الجوقة : هل أدخل لأنقذهما من الموت؟

أحد الغلامين : أنقذنا بحق الآلهة!! أنقذنا فى الحال

الغلام الثانى : ها نحن على وشك الهلاك، تحت حد السيف الباتر.

رئيس الجوقة : يالك من مسكينة تعسة. هل قُدَّ قلبك من صخر أم حديد؟ حتى تقتلى ولديك، ثمرة أحشائك، وفلذة كبدك

* * *

وقد كتب قصة «ميديه» ومثلها على المسرح اليونانى قبل يوريبيديس شاعر يدعى نيوفرون السسيونى، ولكنه لم يُجِدْ فيها إجادته.

كما كتبها الشاعر اللاتينى سنكا، وكتبها الشاعر الفرنسى كورنى ١٦٣٥ - وللرسام الشهير دولاكروا صورة جميلة فى متحف ليل، تمثل ميديه وهى متأهبة لقتل ولديها.

الفصل الثانى

الكوميديا La Comédie

(١) نشأة الكوميديا وتطورها

نشأت الكوميديا اليونانية كما نشأت التراجيديا من أعياد ديونيزوس ، فقد كانت طقوسها تتضمن كثيرا من الحركات التمثيلية وتشتمل على عواطف متضاربة ، يعبر عنها أتباع الإله أحيانا فى حزن عميق مصحوب بالشكوى والأنين ، نشأت عنها التراجيديا ، وأحيانا أخرى فى بهجة وسرور تصحبهما نكات غليظة وضحكات عالية كانت بمثابة البذور التى نشأت عنها الكوميديا .

وكانت حياة ديونيزوس مليئة بالخطوب المؤلمة والأحداث السارة . وكان اليونان يعتبرونها رمزا للظواهر الطبيعية التى تتعرض لها زراعة الكروم . فشجيرات العنب تخضر أوراقها ، وتنبثق براعمها وتتفتح أزهارها فى الربيع ، ثم تثمر وينضج عنبها فى الصيف ويُجمع ويُعصر عنبها فى الخريف ، وأخيرا تصفر وتذبل فى الشتاء ، وكان ذبول الأوراق وموت الأغصان يُثير الآلام والأحزان ، كما كان موسم الحصاد يقابل بالمرح والابتهاج ، وكان اليونان يمجدون هذا الإله بإقامة الاحتفالات والمهرجانات التى يعبرون فيها عن مشاعرهم بالغناء والرقص .

وكانوا يتجمعون فى هذه الأعياد حول فرق غنائية يرأس كل فرقة منها منشد أصلى يرتجل مقطوعات من الغناء الديثيرامبى Dythyrambe يتغنى فيها بقصة الإله ديونيزوس ، فيتحدث عن ميلاده والأخطار التى واجهها . ويذكر أياديه البيضاء على بنى الإنسان ، ويشيد بقواه السحرية التى يضعها فى الكروم . وما يتخذ من ثمارها من خمور ، ويضيف إلى أقواله من حركات الجسم ونبرات الصوت ما يتطلبه المعنى ، وتنبعث به الانفعالات . ويزيد به التأثير فى نفس الجمهور ، وكان غناء الفرقة يتمثل فى مقطوعات ترددها من حين إلى حين كلما وقف المنشد .

ويختلط فيها صوت الغناء بالصرخات الحادة المؤثرة وعبارات الاستغاثة بالآلهة ، وكانوا يرتدون جلود الماعز ليظهروا بمظهر الساتير أتباع الإله ديونيزوس .

وكانت هذه الأناشيد وهذه الأغانى فى مبدأ أمرها غير منظمة الأوضاع ولا خاضعة لقواعد ثابتة ، ومن ثم كان يتخللها كثير من العبارات الهزلية والنكات المضحكة والمحاورات الساخرة التى تمثل البذور الأولى للكوميديا القديمة . ويقول أرسطو : إن التراجيديا والكوميديا بدأتا فى صورة أناشيد مرتجلة ، وإن الأولى نشأت من الأغانى الديثرامبية ، وهى أشعار غنائية تنشدها الجوقة تكريما للإله ، أما الثانية فصدرت عن أناشيد المرح والمجون .

وكان أهل الريف فى أعياد ديونيزوس يرددون هـــذه الأغانى المرحة عندما يتركون بيوتهم ، ويملئون الطرقات ، ويطوفون بالحقول ، ويسعون بين الكروم ويتجمعون حول موائد عامة للطعام والشراب . يأكلون حتى التخمة ، ويشربون حتى الثمل ، ثم ينتشرون وهم مخمورون فى مجموعات مرحة صاخبة ، ويقومون باستعراضات ماجنة يغنون فيها ويرقصون ، وقد لبسوا ثيابا تثير الضحك وتوجوا رءوسهم بأكاليل من أغصان الشجر وأوراقه ، وكانوا يتبادلون فى هذه الحفلات الشتائم اللاذعة ، ويبتكرون النكات البذيئة ، ويحملون صورا مكبرة لعضو الاخصاب Phallos ، وكان يقف بينهم منشد يمجد إلـه الخمر ويتغنى بالتبذ ، وتحيط به جوقة تردد بعض الأدعية والابتهالات .

ومن هنا رأى النقاد أن كلمة Komodia بمعنى ملهاة مشتقة من كلمة Komos بمعنى استعراض ماجن ، مخالفين بذلك أرسطو الذى كان يرى أنها مشتقة من كلمة Kome بمعنى قرية . ومن أعياد ديونيزوس التى كانت تقام فى القرية عيد يسمى عيد الكوموس Cômos وقد كان له أثر كبير فى نشأة الكوميديا .

ويقول أرسطو : « إن الكوميديا نشأت من هذه الأغانى Phallika التى انتشرت فى كثير من بلاد اليونان ، وفى صقلية بالذات حيث ظهر شاعرها الكبير إبيكارم Epicharmos . فهذب هذه الأناشيد وألـف منها ، لأول مرة ، ملهاة قصيرة » أخذت تتطور وتتحددُ بين يديه ، فاستمد موضوعها من الحوادث اليومية التى تثير

الضحك ، وصوّر فيها شخصيات هزلية كالتابع ، والجندى المغرور ، والسكير ، ويؤكد أرسطو أن هذه الملهاة التى ابتكرها إبيكارم انتقلت من صقلية إلى أثينا حيث بلغت أقصى درجات الكمال فى منتصف القرن الخامس ق . م . وليس من السهل أن نتتبع مراحل تطور المسرحية الهزلية ، ونذكر التجديدات والتغييرات التى أضافها كل شاعر من شعراء الكوميديا ، لأن الغموض أحاط بتطورها وارتقائها . ولقد عبر أرسطو عن ذلك بقوله : « إننا نعرف كل ما طرأ على التراجيديا من تطورات متتالية ، ونعرف من نظم فيها ، أما الكوميديا فنجهل نشأتها » .

ولكننا نستطيع أن نتبين أن هذه الأعياد واستعراضاتها قد اجتازت عدة تطورات ، وأُدخل عليها كثير من وجوه التعديل والتنظيم والتنقيح . حتى انتهى بها الأمر إلى التمثيل الكوميدى .

(٢) عناصر الكوميديا وأجزاؤها

للكوميديا عناصرها التى تتكون منها ، والتى تختلف فيها عن التراجيديا اختلافا بيّنا .

فمن حيث اللغة السائدة فى حوار الممثلين وغناء الجوقة ، فهى اللغة السهلة المتداولة التى لا تُعنى بالبلاغة والزخرف والعبارات الفخمة ، وإنما تتخير الجمل المؤثرة ، وأساليب التورية والنقد اللاذع ، مع الحرص على التسلية وإثارة الضحك . بيد أنها كانت تترك لغتها هذه إذا كانت تتحدث بلسان فيلسوف أو شاعر تراجيدى أو لغوى متقعر ، فتُحاكى لغته مع عرضها فى قالب هزلى ساخر .

ومن حيث حوادثها التى تعالجها . فهى تعتمد على حادث أصيل يخترعه الشاعر ، وتتفرع منه جميع حوادث القصة ، وليس من اللازم أن يكون هذا الحادث ممكن الوقوع — كما هو الشأن فى التراجيديا — فقد يكون مستحيلا ، وقد يتجاوز العالم الأرضى إلى عالم السماء . أو عالم الطيور . وقد يجعل الشاعر الآلهة يظهرون ويتحدثون إلى الناس ، أو يأتى بالجوقة فى صورة سحب تطرب الجمهور بغنائها الشجى ، أو فى صورة ضفادع تُسلّيه بنقيقها الرتيب .

كما أنه ليس من اللازم أن يحافظ الشاعر الكوميدى على ما يحافظ عليه الشاعر التراجيدى من وحدة الزمان والمكان ، فمع عدم تغير الديكور Décor يمكن أن ينتقل المنظر من المدن إلى القرى وبالعكس . بل ينتقل من الأرض إلى السماء . ومن زمن إلى زمن . ومن عصر إلى عصر .

وليس من اللازم كذلك أن يقيد الممثلون فى الكوميديا أنفسهم فى حركاتهم وأعمالهم وأقوالهم بما يتقيد به الممثلون فى التراجيديا فهم فى كل هذه الأمور يتمتعون بحرية واسعة ، ما دام الغرض من الكوميديا هو تسلية الجمهور وإضحاكه .

وليس من اللازم أيضا أن يستمسك الشعراء فى الكوميديا بما استمسك به الشعراء فى التراجيديا من أن يكون عدد الممثلين ثلاثة أفراد . فمع أن هذا هو الأصل فى الكوميديا كذلك إلا أن شعراءها كثيرا ما خرجوا على هذا الأصل ، وضموا إلى هذا العدد ممثلا أو أكثر للقيام بأدوار إضافية (باراكو ريجيم) Parachorégèmes

كما أنهم لم يخضعوا للقواعد الثابتة التى تعارف عليها شعراء التراجيديا فيما يتصل بملابس الممثلين الكوميديين ووجوههم المستعارة وتشكيلات أعضائهم وطرق تنكرهم ، وإنما كان كل شاعر يتصرف فى ذلك على حسب هواه ، وما يريد للمثلين أن يمثلوه ، ولكنه كان يحافظ دائما على أن يظهروا فى هذه الأمور جميعا بمظهر هزلى مضحك .

ثم هم لم يقفوا فى عدد أفراد الجوقة عند العدد الذى وقف عنده شعراء التراجيديا ، وهو خمسة عشر . وإنما تجاوزوه فبلغت جوقة الغناء فى التمثيل الكوميدى أربعة وعشرين مغنيا . واتبعوا فى ملابسها ووجوهها المستعارة وأشكال أعضائها وطرق تنكرها ما اتبعوه فى كل ذلك مع الممثلين ، فكل شاعر يتصرف بحسب هواه وما يريد للجوقة أن تمثله . ولكن على أن يظهرها بمظهر يثير الضحك ويسلى الجمهور .

ومع أن الكوميديا تعتمد على حوادثها التى تعرضها فى إثارة الضحك وتسلية الجمهور ، إلا أنها لا تقصد إلى عرض هذه الحوادث لذاتها ، وإنما تستعين بها لتوضيح فكرة ، أو انتصار لرأى ، أو نقد لمذهب ، وقد اتجهت إلى نقد كل ما هو حديث من النظم والأوضاع والتقاليد واستهجانه وعرضه فى صور هزلية مضحكة ،

واتجهت بنوع خاص إلى محاربة النظريات الفلسفية الحديثة التى أخذ السوفسطائيون فى ذلك العهد ينشرونها بين الناس ، بل إلى محاربة الدراسات الفلسفية على الإطلاق ، لاختلافها مع المناهج القديمة للتفكير اليونانى ، ثم إلى محاربة ما استُحدث من وسائل الترف والرفاهية عند ذوى اليسار والغنى ، بل إلى محاربة جميع ما استُحدث من وسائل الإصلاح والتهذيب والرقى فى النواحى المادية ، وكذلك ما استُحدث فى الموسيقى والغناء والشعر المسرحى ، وخاصة ما استحدثه يوربيديس فى التمثيل التراجيدى .

وحين نعمت بالحرية الواسعة فى ظل الديموقراطية ، فقد اتجهت إلى نقد رجال الحكم ، والسخرية منهم ومن مناهجهم فى إدارة شئون البلاد . وكان هذا النقد ينصب على أفراد الحكام لا على أصول الحكم ونظم السياسية ، وكان يتجه إلى السخرية والتسلية والإضحاك ، ولكنه مهما كان بعيدا عن قصد التعرض للنظم السياسية فى الحكم . فقد كان ينطوى على نقد لبعض المناهج العامة المُتَّبعة فى شئون الإدارة وطرق التنفيذ ، ولا سيما إذا كان الشاعر من ذوى البصر العميق كأرستوفانيس .

ولا يعمد الممثلون أو المغنون إلى إخبار الجمهور بالهدف من القصة ، وإنما تنتهى بهم حوادث القصة وحوارها إلى إقناع الجمهور به . وتوضح الصورة الدرامية الفكرة التى يريد الشاعر أن يقررها ويبثها فى رُوع الناس ، وإذا انتهت حوادث القصة إلى عقدة ، فقد يكون حلها نفسه محققا للفكرة التى يهدف الشاعر إلى تقريرها ، وإذا اشتملت المناظر الأولى من القصة على العقدة وحلها ، تتابعت مناظرها الباقية فى صور تزيد فكرتها وحلها وضوحا وبيانا .

ومع أن مضمون التمثيلية الكوميدية هو الجد كل الجد . إلا أن الإطار الذى تعرض فيه هو الهزل كل الهزل ، إذ يظهر الممثلون فى صورة مهرجين مضحكين ، بعيدين عن الأدب والحياء ، تختلط فى أحاديثهم وعباراتهم أفكار الرجال العقلاء بخيالات الأطفال السُّذج ، بلَغْو المعتوهين والمجانين .

وأما جوقة الغناء ، فللمؤلف مطلق الحرية فى أن يجعلها تمثل ما يشاء من

الأناسىّ أو مظاهر الكون أو قوى الطبيعة أو أنواع الحيوان أو النبات أو الجماد ، وقد عمد أريستوفانيس إلى كل ذلك ، فأظهر الجوقة فى بعض رواياته تمثل الأناسى ، كما أظهرها فى روايات أخرى تمثل الطيور أو الضفادع أو الحشرات أو الزنابير أو السحب أو الجزائر . ولكن هذا المظهر لم يكن يتم إلا ريثما يعلم الجمهور به ، ثم تنسلخ منه ، وتعود إلى طبيعتها البشرية ، مع افتراض الجمهور أنها ما زالت تمثل المظهر الذى أراده لها المؤلف .

هذه هى العناصر الرئيسية للكوميديا . ومنها تتكون أجزاؤها ، التى تبدأ بالمقدمة أو البرولوج Prologue وتتمثل فى حوار بين الممثلين يأخذ طابع المزل ، ويسبق دخول فرقة الغناء ، ويعطى الجمهور فكرة عن موضوع القصة ، وما تهدف إليه من تقرير رأى سياسى أو اجتماعى أو خلقى .

ثم يعقب ذلك البارادوس Parados أى دخول فرقة الغناء . التى كانت تدلف إلى أمكنتها راقصة مغنية بمقطوعات تؤديها بطريقة هزلية مضحكة ، وكانت تؤدى معظم غنائها وهى متحركة راقصة . وكان رقصها يؤدى فى أنواع شتى ، ولكن النوع الغالب كان رقص الكورداس Cordace وهو رقص عنيف الحركات ، مضطرب الأوضاع ، تتخلله قفزات فجائية مضحكة ، وهذا بجانب ما كانوا يأتون به من حركات أخرى تتطلبها القصة ، كالمشى العادى والهرولة والوثب والسير فى صفوف .

ثم يأتى بعد ذلك منظر الصراع أو المعركة Le Combat وفيه يظهر خصمان عنيفان يتوعد كل منهما الآخر ويهدده ، ويصلان أحيانا إلى التماسك بالأيدى . ثم تخف حدة المعركة ، وتستحيل إلى مناظرة يتعصب فيها كل منهما لرأى يناقض رأى خصمه ، وتنتهى بانتصار الرأى الذى يريد الشاعر أن يقرره ويحمل الجمهور على اعتقاده ، وحينئذ ينتهى الفصل الأول من الرواية وينسحب الممثلون .

وقبل أن يبدأ الفصل الثانى تقوم فرقة الغناء بما يسمونه الباراداز Pradase وتنقسم الباراداز إلى قسمين . يبدأ القسم الأول بخلع أفراد الجوقة أرديتهم وتقدمهم نحو صفوف الجمهور بضع خطوات وغنائهم قطعة صغيرة . ثم يلقى رئيسهم (الكوريفى Coryphée) خطبة كانوا يسمونها الأنابست Anapestes ، ثم يتلو أفراد

الجوقة قطعة طويلة كانوا يسمونها الجملة الطويلة Longue Phrase أو الخانقة Etouffement ومن هذه الأمور الثلاثة (قطعة الغناء ، والخطبة ، والخانقة) كان يتألف القسم الأول من الباراداز ، أما القسم الثانى فكان يتألف من أربع قطع غنائية : تسمى أولاها ستروف Strof ، وثانيتها إيبرهيم Epirhème ، وثالثتها المقابلة للستروف Anti—Strof ، ورابعتها المقابلة للايبيرهيم Anti—Epirhème

هذه هى الصورة الكاملة للباراداز ، ولم توجد إلا فى أقدم قصص أريستوفانيس ، ثم أخذ ينتقصها من أطرافها ، ويكتفى ببعض أجزائها ، حتى انتهى به الأمر إلى حذفها جملة واحدة ، فظهرت قصصه الحديثة خالية منها .

ثم يأتى بعد ذلك الفصل الثانى ، ويتألف من مناظر مسلسلة مترابطة ، يمثل كل منظر منها جزءاً من القصة . ويفصل بعضها عن بعض مقطوعات غنائية تؤديها الجوقة ، وفى هذه المناظر يوضح الشاعر فى صورة درامية الفكرة التى يريد أن يقررها ويستدل على صحتها ، ويغلب على المنظر الأخير طابع المرح والسرور ، وينتهى بإقامة وليمة أو الاحتفال بعُرس أو نحو ذلك .

ثم تنتهى القصة بما يسمونه الخروج Exode ويتمثل فى خروج الممثلين وفرقة الغناء من المسرح فى عدة ثُلَل راقصة مغنية .

(٣) شعراء الكوميديا

كانت صقلية أسبق المدن إلى احتضان الكوميديا ، والسير بها فى طريق الصقل والتهذيب ، لما جُبل عليه أهلها من نزوع إلى المرح والدعابة والسخرية والمحاكاة الهزلية للأعمال والأقوال ، وقدَّمت بذلك أول شاعر كوميدى وهو إبيكارم .

وبعد انتصار اليونان فى موقعتى سلامين وبلاتى Salamine , Platée أى فى عصر لاحق لظهور الكوميديا فى صقلية ، وجدت الكوميديا فى أتيكا مناخا ملائما لها ، وأتيح لها من وسائل النهوض والرقى ما لم يتح لها فى أى منطقة أخرى من مناطق اليونان . غير أنها وجدت بعض الصعوبات قبل أن تأخذ مكانتها

إلى جوار التراجيديا ، فقد كانت الحكومة تصدر من حين لآخر قوانين تقيد حريتها وتعوق تقدمها ، وتحط من شأنها . فمن ذلك ما ذكره بلوطارخوص Plutarque من أن الحكومة قد أصدرت قانونا حظرت به على أعضاء المحكمة العليا (أريئوباج Aréopage) أن يؤلفوا قطعا كوميدية ، وفى سنة ٤٤٠ ق . م صدر قانون آخر يحظر أن يمثل على المسرح الكوميدى أعمال منسوبة للمنشوابن ولأولى الأمر . ثم ألغى هذا القانون سنة ٤٣٧ ق . م ، ثم أعيد العمل به مرة أخرى سنة ٤١٦ ق . م ، ولكن الكوميديا قاومت كل ما يعترض طريقها ، وأثبتت أنها جديرة بمكانة لا تقل عن مكانة التراجيديا ، فاعترفت الدولة بها ، وأشركتها فى المسابقات الرسمية التى كانت تنظمها للتراجيديا . وأشهر أفراد الرعيل الأول من مؤسسى الأدب الكوميدى فى أتيكا الشاعر كراتينوس . وهو الذى مهد الطريق لشاعر الكوميديا الأكبر أريستوفانيس .

وقد كان شعراء الكوميديا الذين يتقدمون للمسابقة الرسمية كل عام يقدمون تمثيلياتهم للأركونت إبونيم — شأنهم فى ذلك شأن شعراء التراجيديا — وكان يختار منهم — كما كان يختار من شعراء التراجيديا — ثلاثة فقط ، هم أمثلهم جميعا ، وهم الذين تمثل رواياتهم فى الأيام الثلاثة المحددة لها ، ويمنح أولهم الجائزة الأولى ، وثانيهم الجائزة الثانية ، ويعتبر ثالثهم مخفقا لاحظ له من المكافأة ، غير أن كل شاعر من شعراء الكوميديا كان يتقدم بتمثيلية واحدة ، بينما كان كل شاعر من شعراء التراجيديا يتقدم بأربع تمثيليات ، منها تمثيلية ساتيرية .

(١) إبيكارم

وُلد إبيكارم بجزيرة كوس Cos ، من جزر الدوديكانيز فى بحر إيجه ، بين سنتى ٥٢٠ و ٥٠٠ ق . م ، على ما يظهر ، ثم انتقل وهو شاب إلى مدينة ميجار Mégar Hyblaea بجزيرة صقلية ، واستقر به المقام فى سراقوسيا ، من مدن صقلية أيضا ، حيث شرع فى تمثيل بعض رواياته كوميدية منذ سنة ٤٨٦ ق . م على حسب ما يروى المؤرخ سويداس Suidas

وقد جعله أفلاطون أنبه مؤلف فى الشعر الهزلى أو شعر الملهاة (الكوميدى) Poésies Plaisantes ، كما جعل هوميروس أنبه مؤلف فى الشعر الجدى Poésies Sérieuses.

وينسب إليه أرسطو الفضل فى أنه جعل الكوميديا قصة ذات عقدة وموضوع تتابع حلقاته حتى تنتهى إلى حل ، وأنه نظم أعمال الممثلين والمغنين وأقوالهم ، وقيدها بقواعد ومناهج مرسومة ، وأقامها على أوضاع شبيهة بالأوضاع التى كانت تقوم عليها التراجيديا .

ولا نستطيع أن نتمثل طريقته فى التأليف واختيار الموضوعات . إذ عدت العاديات على مسرحياته ، ولم يصلنا إلا عناوين بعضها وفقرات صغيرة منها ، وهى تشير إلى أنه فى بعضها كان يلجأ إلى الأساطير التى تتصل بالآلهة أو الأبطال يقتبس منها ما يحوّره ويعرضه فى قالب هزلى مضحك ، وفى بعضها الآخر كان ينظر فى أحوال اليونان وشئونهم المعاصرة ، ويؤلف منها ما يعرضه فى صورة هزلية مضحكة .

(ب) كراتينوس Cratinos

شاعر أثينى سطع نجمه فى سماء الأدب الكوميدى بين سنتى ٤٤٩ و ٣٢٣ ق . م . وقد عدت يد الضياع على قصصه كما عدت على قصص إبيكارم . فلم يصل إلينا إلا عناوين بعضها وقطع صغيرة منها . ومنها نستطيع أن نتبين أنه كان يهاجم رجال الدولة الذين ينتمون إلى حزب الشعب ، وخاصة بيريكليس Périclès ، كما كان يحارب الميوعة التى تفشت فى عصره فى شباب أثينا . ويحمل حملات شعواء على فجور الأريستقراطية المترفة ، وعلى الشعوذة والتدفقات الأجنبية الدخيلة ، وعلى نظريات السوفسطائيين التى كان يرى أنها تحمل فى طياتها معاول هدم لأخلاق الشعب ومثله وتقاليده .

ولأنه كان هجاء عنيفا فقد شبهه النقاد بالشاعر الهجاء اركيلوك ، وقالوا إنه حذا حذوه ، فكان نقده لاذعا ، وهجوؤه مقذعا وتهكمه صريحا ، لم يعبر عنه

بكلمات رقيقة كما فعل أريستوفانيس ، بل بعبارات قاسية ، ينال بها من لا أمانة عندهم ولا خلق لديهم »

وقد عاصر فى شيخوخته أريستوفانيس الذى كان حينئذ فى عنفوان شبابه ، ولم تؤثر شيخوخته فى نشاطه وصفاء ذهنه ، ولم تنزله من مكانته الأدبية ، فقد دخل مع أريستوفانيس فى عدة مسابقات رسمية وحصل على الجائزة الثانية سنة ٤٢٤ ق . م وعلى الجائزة الأولى سنة ٤٢٣ ق . م عن تمثيليته الشهيرة القارورة La Bouteille وكل هذا دفع أريستوفانيس إلى التحامل عليه، فوصفه فى بعض رواياته بأنه قد أصبح فى شيخوخته أشبه شىء بجهاز اضطربت أوضاعه ، واختل نظامه ، وتفككت أجزاؤه .

ورغم تحامل أريستوفانيس عليه ، فلا شك أنه هو الذى مهّد لأريستوفانيس أن ينتهى إلى المكانة التى أصبح فيها عميدا للكوميديا اليونانية ، وزعيما لشعرائها دون منازع .

(ج) أريستوفانيس Aristophane

كان حكام أثينا يقسمون أراضى البلاد التى يحتلونها إلى قطع يوزعونها بطريق القرعة على مواطنين يستعمرونها ، وكان هؤلاء المستعمرون يسمون « كليروك Clérouques » وكان والدا أريستوفانيس يملكان إحدى هـذه الضياع فى بلدة إجين Egine بوصفهما كليروك ، ويعيشان من غلتها ووُلد لهما أريستوفانيس فى هذه البلدة حوالى سنة ٤٥٠ ق . م . وقد برزت مواهبه وعبقريته منذ طفولته ، ووصل فنه إلى مستوى رفيع وهو لم يتجاوز بعد العقد الثانى من عمره ، فقد تقدم إلى المسابقة الرسمية سنة ٤٢٧ أى وسنه حوالى عشرين سنة ، بأول تمثيلية له ، وهى « المدعوون إلى مائدة هيراكليس » أو « ضيوف هيراكليس » Convives d,Héraclès ونال فى هذه المسابقة الجائزة الثانية ، ولم تحفظ لنا الآثار التاريخية من هذة التمثيلية إلا اسمها ، وبعض قطع صغيرة يفهم منها أنها كانت تتجه إلى استهجان طرق التربية الحديثة .

وقد توالت تمثيلياته التي بلغت زهاء أربعين تمثيلية ، والتي تتناول بالنقد اللاذع كثيراً من مظاهر الحيـــاة الأثينية في ذلك العهد ، ولكن لم يصل إلينا منها كاملا إلا إحدى عشرة تمثيلية هي على حسب تاريخ تمثيلها :

١ — الأكارنيين Acharniens سنة ٤٢٥ ق . م . وقد تقدم بها إلى المسابقة ، ونال بها الجائزة الأولى ، مع أن منافسيه كانا من أشهر شعراء الكوميديا وأرسخهم قدما فيها ، وهما : كراتينوس ويوبوليس Eupolis و Cratinos وفيها يحمل حملة عنيفة على صانعي الحروب ، وخاصة من تسببوا في حروب البيلوبونيز التي نشبت بين أثينا وإسبرطة ، والتي امتدت من سنة ٤٣١ إلى سنة ٤٠٤ ق . م .

٢ — والفرسان Les Chevaliers سنة ٤٢٤ ق . م

وقد تقدم بها إلى المسابقة ، وحصل بها على الجائزة الأولى أيضا . وفيها يحمل حملة شعواء على الزعماء الديماجوجيين الذين يتمسحون بدهماء الشعب ، متظاهرين بأنهم يعملون لمصلحتهم ليوطدوا مكانتهم لديهم ، وخاصة الزعيم الشعبي كليون Cléon ، على الرغم من أن ذلك كان عقب ما أحرزه كليون من انتصار حربي باهر في موقعة سفاكتيرى Sphactérie (وسفاكتيرى : جزيرة في البحـــر اليوني Mer Ionienne تجاه بيلوس Pylos . وحدثت فيها المعركة التي انتصر فيها الزعيم الأثيني كليون على فرقة من جيش إسبرطة . وكان ذلك سنة ٤٢٥ ق . م) .

٣ — والسحب Les Nuées سنة ٤٢٣ ق . م .

وقد تقدم بها إلى المسابقة ، ولكنه أخفق فيها إذ كان ترتيبه الثالث . فأعاد كتابتها متداركا فيها ما بدا له من أوجه الخطأ والنقص . ووصلتنا النسخة المعدلة . وفيها يسخر من مناهج سقراط والسوفسطائيين وطرق التربية الحديثة .

٤ — والزنابير Les Guêpes سنة ٤٢٢ ق . م وفيها ينتقد هواية التقاضي التي شاعت عند كثير من الأثينيين نتيجة لفراغه وبطالته و تعلقه بتوافه الأمور ، والتي كانت نتيجة للمناهج السياسية للزعماء الشعبيين الديماجوجيين ، فهو يخفي نقدا لهذه السياسة وهؤلاء الزعماء أيضا .

٥ — والسلم La Paix سنة ٤٢١ ق . م .

وموضوعها يكاد يتفق مع تمثيلية الأركانيين ، فهو يندد بمساوئ الحرب وما تجره على البلاد من ويلات ، ويشيد بالسلم وما يحقق من سعادة وهدوء . وكان ذلك بمناسبة معاهدة السلام التى أبرمها القائد الأثينى نيسياس Nicias مع إسبرطة فى السنة نفسها وفى أثناء حروب البيلوبونيز .

٦ — والطيور Les Oiseaux سنة ٤١٤ ق . م . ولا يبدو فيها مغزى واضح ، سوى النعى فى الخطوات الأولى منها على ما ساد الأثينيين من تنازع وميل إلى الخصومة والتقاضى ويظهر أن الغرض منها كان تسلية الجمهور وإضحاكه ، وموضوعها يدور حول شخصين اثنين : بيزيتير Pisétaire وإفيلبيد Evelpide اللذين سئما من إقامة فى مدينة لا ينفك أهلها يتنازعون ويقاضى بعضهم بعضا ، فرحلا منها حيث التقيا بجماعة من الطيور التى كانت تمثلها الجوقة ، فانعقدت بينهما وبين الطيور صداقة متينة ، وأقاموا معا فى مدينة بين السماء والأرض . أنشأوها وسموها نيفيلوكوكسيجى Néphélococcygie ، وحاول بنو الإنسان الصعود إليها فأوسعهم سكانها ضربا بالعصى وردوهم على أعقابهم ، وحاول الآلهة السيطرة عليها فاستخدم أهلها الحيلة فى استبعادهم بعقد معاهدة تضمن حسن الجوار بينهم .

٧ — وليزيسترات Lysistrate سنة ٤١١ ق . م . وتدور حول الموضوع الذى تدور حوله قصتا الأكارنيين والسلم .

٨ — وأعياد ديميتير Fêtes de Déméter سنة ٤١١ ق . م . أيضا وتدور حول التهكم بالشاعر التراجيدى يوريبيديس ، ولكنها لا توضح المآخذ التى يأخذها أريستوفانيس على هذا الشاعر .

٩ — والضفادع Les Grenouilles سنة ٤٠٥ ق . م . وهى أشهر تمثيلياته وأروعها ، وحصل بها على الجائزة الأولى فى مسابقة هذا العام . وتشتمل على نقد واضح العناصر للشاعر يوريبيديس فى فنه التراجيدى .

١٠ — وجمعية النساء L'Assemblée des Femmes سنة ٣٩٢ ق . م . وفيها يتهكم بالاتجاهات الشيوعية التى أخذت تظهر فى الفلسفة المعاصرة ، وخاصة

فلسفة أفلاطون — وإن لم يصرح باسمه — فيصور جماعة من النساء تكونت منهن الأغلبية الساحقة لمجلس الأمة فأقررن دستورًا جديدًا لإقامة جميع فروع الحياة الاجتماعية على دعائم شيوعية ، وهنا يبين أريستوفانيس فى صورة ساخرة ما ينجم عن هذا الدستور من نتائج هدامة خطرة ، وما يشيعه من مظاهر الفساد والانحلال والغش والكذب فى جميع فروع الحياة .

١١ — وبلوتوس Ploutos سنة ٣٨٨ ق . م . وهى تعديل وتنقيح لتمثيلية بهذا الاسم ظهرت أول مرة سنة ٤٠٨ ق . م . ويتهكم فيها بالاتجاهات الشيوعية أيضاً .

وقد استطاع أريستوفانيس بسعيه الدائب فى تطور فنه وترقيته ، أن يرقى بالكوميديا اليونانية إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه من النضج والكمال . كما استطاع بآرائه التى كان يبثها فى تمثيلياته أن يحدث أعمق الآثار فى وجدان الشعب الأثينى وتفكيره . وفيما كان يسير عليه من نظم ، ويؤمن به من عقائد . ويقدم إليه من فلسفات ، فاستحق بفضل هذا كله تلك العبارة التى نقشت على قبره تمجيدا له « لقد حاولت ربات الجمال إقامة معبد يخلد مع الزمان ، فلم تجد أحسن من قلب أريستوفانيس » .

وسنخص ثلاثا من مسرحياته بوقفة خاصة .

(١) السحب Les Nuées

ومسرحية « السحب » من أشهر مسرحيات أريستوفانيس ، وقد عرضها فى أثينا فى عام ٤٢٣ ق . م ، ولم تفز إلا بالجائزة الثالثة ، ومعنى ذلك أنها فشلت فشلا ذريعا ، وحز ذلك فى نفسه ، فعكف على صقلها وتنقيحها ، متداركا ما بدا له فيها من وجوه النقص والخطأ ، وهذه النسخة المعدلة هى التى وصلت إلينا ، ولكنها لم تعرض مرة أخرى على مسرح أثينا فى القرن الخامس ق . م ، وتدور المسرحية حول السخرية اللاذعة من مناهج سقراط والسوفسطائيين وطرق التربية الحديثة ، فالسوفسطائيون هم « الذين هدموا التقاليد القديمة ، وأفسدوا الأخلاق القويمة ، وهزوا عروش الوطنية ، وعلموا الشباب الجدل ، وزينوا لهم طرق التفكير السقيم ، وأبعدوهم عن التفكير السليم » .

ومع أننا نعرف أن سقراط قد أنفق حياته كلها فى مهاجمتهم والتهكم على تعاليمهم الهدامة ، إلا أن أريستوفانيس جعلهم فى هذه المسرحية رائدهم الأكبر . محتذيا فى ذلك من شعراء الكوميديا كراتينوس Kratinos ويوبوليس Eupolis ولعل مصدر هذا الخلط أنهم اعتقدوا أنه كان مثلهم يتقاضى من تلاميذه أجرا ، أو أنهم رأوه مثلهم ثائرا على التقاليد البالية ونظم التربية القديمة التى لا تتفق مع تفكيره ، ثم رأوه مثلهم مولعا بالجدل . أو أن مظهره الخارجى أغراهم باتخاذه شخصية فكاهية ، فقد كان يمشى دائما فى الطرقات عارى القدمين . رث الثياب ، يجادل كل من يلقاه ، أو يقضى الساعات الطوال سابحا فى أفكاره ، غارقا فى تأملاته .

وتدور المسرحية حول أب من الفلاحين البسطاء هو ستربسيادیس Strepsiades (المراوغ) قد أرهقته النفقات الطائلة وكبلته الديون التى جرّها عليه إسراف ابنه فيديبيديس Pheidippides ،فوجد الأب أن أفضل سبيل للتخلص من ديونه هو أن يتتلمذ على سقراط كبير السوفسطائيين ، ليتعلم الجدل والخداع ، فيتمكن من التغرير بالدائنين والهروب منهم ، «اعتقاداً منه بأن سقراط سوف يلقنه القدرة على الكلام ، والبراعة فى تزيين العبارة ، وسوف يجعله كثعبان الماء ، قادرا على الالتواء والتغير ، أو كالثعلب الماكر ، أو كالكلب النهم ... فإذا أتقن هذه الحيل ، فسوف تضرب شهرته فى الآفاق ، وتبلغ سماء عليين » .

وتبدأ المسرحية بحوار بين سقراط والأب يريد سقراط أن يعرف ماذا يرغب الرجل فى تعلمه ، ويجيب الرجل : فن الخداع . ثم يمضى الحوار بينهما على هذا النحو :

سقراط : إنك لا تعرف شيئا عنا ، باسم زوس ، ولكن نَمْ هناك .

الأب : ماذا تريد أن أفعل ؟

سقراط : فكر فى الأشياء التى تصادف هوى فى نفسك ؟

الأب : لا ، أتوسل إليك ، ليس هناك من أمل ، وإذا كان علىَّ أن أستلقى وأفكر ، فدعنى استلقى على الأرض .

سقراط : دع هذا ، تقدم إلى الفراش .

الأب : يا لسوء حظى ، كم سأعانى من لدغ البق الآن !

الجوقة : فكر وافحص بدقة كل شيء يدور حولك . عليك أن تفكر فى كل شيء بدقة ، وتقلّبه على جميع الوجوه ، وإذا واجهتك أية صعوبة فانتقل بسرعة إلى فكرة أخرى ، وأبعد النوم الهادىء عن عينيك .

الأب : لا ، لا ، لا ، لا

الجوقة : ماذا ألمّ بك ؟ ممّ تشكو ؟

الأب : سوف أهلك ، إن الكورينثيات تزحف على الفراش لتلدغنى ، إنها تلتهم ضلوعى ، وتمتص دمى ، لم تترك شيئا فى جسدى ، إنها تحفر فى ظهرى ، وسوف تقضى علىّ .

الجوقة : لا تحزن كثيرا .

الأب : كيف ذلك ؟ وقد فقدت مالى وجلدى وحياتى وحذائى وفوق هذا كله سأظل مستيقظا أغنى ، وهكذا سأفنى بعد فترة قصيرة .

سقراط : هذا حسن . ماذا أنت فاعل ؟ ألا تتأمل ما حولك ؟

الأب : نعم ، باسم بوزيدون !

سقراط : سوف تهلك أيها البائس .

الأب : حدث ذلك بالفعل يا عزيزى .

سقراط : لا تضعف ، ضع الغطاء على رأسك وابحث عن فكرة بارعة .

الأب : كم تمنيت أن تظهر لى فكرة صائبة من بين هذه الأغطية .

سقراط : دعنا نرى ماذا يفعل صاحبنا ، هل تنام يا صاح ؟

الأب : لا ، بحق بوزيدون ، إننى لا أنام .

سقراط : ألا تمسك بشيء فى يدك ؟

الأب : لا ، بكل تأكيد .

سقراط : لا شيء على الإطلاق ؟

الأب : لا شيء سوى . . .

سقراط : ألا تفكر قليلا ؟

الأب : فيم أفكر ؟ أخبرني يا سقراط .

سقراط : فكر فيما تريد . أنبئني .

الأب : لقد سمعت ما أريده آلاف المرات . إنني لا أريد أن أدفع فوائد ديوني على الإطلاق .

سقراط : ركز تفكيرك الرقيق المرهف ، وادرس الموضوع بدقة ثم ابحث عن العمل الصحيح .

الأب : يا لشقائي ! !

سقراط : هدئ من روعك . إذا طرأت لك فكرة ، ولم تصل فيها إلى حل موفق فدعها جانبا ، ثم عد إليها ثانية وفكر فيها جيدا .

الأب : شكرا يا عزيزي سقراط .

سقراط : ماذا أيها العجوز ؟

الأب : لقد هداني التفكير إلى وسيلة للتخلص من دفع فوائد ديوني ! !

سقراط : أخبرني ما هي ؟

الأب : إذا اشتريت ساحرة من تساليا فسوف أجعل القمر ينزل ليلا . ثم أضعه في علبة مستديرة مثل المرآة أجعلها تحت رقابتي .

سقراط : وهل سيفيدك مثل هذا التصرف ؟

الأب : سيفيدني حتما ، فإن اختفاء القمر يجعلني لا ادفع فوائد ديوني .

سقراط : ولم هذا ؟

الأب : لأن النقود تقترض كل شهر .

سقراط : حسنا ، سأعرض عليك حيلة أخرى : إذا أدانتك المحكمة بدفع خمسة تالنت ، أخبرني ماذا أنت فاعل لإلغاء هذا الحكم ؟

الأب : لست أدري . ولكن علي أن أفكر وأبحث عن حيلة أخرى .

سقراط : لا تركز كل تفكيرك حول نفسك فقط ، ولكن أطلق لتفكيرك العنان في الهواء مثل الخنفساء أو الجعلان .

الأب : لقد هداني تفكيري إلى حل موفق للمشكلة ، وسوف تعترف بأنه في غاية التوفيق .

سقراط : ما هو ؟

الأب : إنك ترى عند العطارين حجرا جميلا يشعلون منه النار .

سقراط : أنت تقصد الكريستال .

الأب : هذا صحيح . ولكن ما رأيك إذا أخذت هذا الحجر ووقفتُ به في الشمس في نفس اللحظة التي يكتب فيها الكاتب قرار اتهامه . فسوف أتمكن من إذابة الشمع الذي تكتب فوقه الكلمات .

سقراط : فكرة بارعة باسم خايريتيس .

ثم يمضي الحوار بينهما على هذا النحو ، ويتبين سقراط غباء الرجل ونسيان ما تعلمه ، فيقترح عليه أن يبعث ابنه ليتعلم بدلا منه ، ثم يدخل منزله . ثم يعود ويخرج الأب وهو يدفع ابنه أمامه ويقول له فيما يقول .

الأب : . . . وسوف أعلمك شيئا في غاية الأهمية حتى تصبح رجلا ، ولكن لا تعلمه لأي شخص آخر .

الإبن : قل لي ما هو ذلك الشيء ؟

الأب : إنك أقسمت الآن باسم زوس .

الإبن : أنا ؟

الإبن : فما أجمل أن تعلم أنه لا وجود لزوس يا بني .

الإبن : إذن ما هو الموجود ؟

الأب : إن الزوابع هي التي تحكم بعد أن طوّحت بعرش زوس .

الإبن : ويحك ! كم أنت غبي .

الأب : يجب أن تعرف أن تلك هي الحقيقة .

الإبن : من قال ذلك ؟

الأب : سقراط وخايرفون الذي تمكن من معرفة قفزات البراغيث . .

الإبن : هل وصلت إلى هذه الدرجة من الغباء حتى تثق بهؤلاء المعتوهين ؟

الأب : حسِّن ألفاظك ، ولا تصب الإهانات على رجال مهرة وصلوا إلى درجة كبيرة من الحكمة ، إنهم لا يقُصون شَعْرهم ، ولا يتدلكون بالزيت ، ولا يترددون على الحمامات توفيرا للمال . أما أنت فتنتظر وفاتى حتى تقضى على البقية الباقية من أموالى . تقدَّمْ بأسرع ما يمكن حتى تتعلم بدلا منى .

الإبن : ما هو الشيء المفيد الذى يمكن أن أتعلمه من هؤلاء الرجال ؟

الأب : هل تريد أن تعرف الشيء المفيد ؟ إنها المعرفة الإنسانية كلها ، فسوف تعرف نفسك ، وتعرف جهلك وغلطك . ولكن انتظر هناك برهة .

وينتهى الحوار بينهما بأن يقنع الأب ابنه بتلقى دروس سقراط ثم يتجه إلى سقراط الذى ساءه سفاهة الإبن :

الأب : لا تضقْ به ذرعا ، إنه ذكيٌّ بطبعه ، فقد كان يلهو وهو طفل ، فيبنى المنازل ويصنع السفن ، والعربات الصغيرة من الريش ، ويعرف كيف يعمل من قشر الرمان ضفادع بمنتهى الإتقان ، علمه منهجىْ الاستدلال ، المنهج القوى ، والمنهج الضعيف ، حتى يتمكن من التغلب على المنهج القوى ، وإذا لم يتمكن من استيعاب المنهجين ، فليتعلم المنهج الضعيف بأى وسيلة من الوسائل .

سقراط : سأعلمه منهجا من المنهجين ، فعليه أن يختار أصلحهما لنفسه : أتركه :

الأب : إعلم أنى أريد أن يتعلم كيف يرفض كل قضية عادلة :

(يعود سقراط إلى منزله ، ويخرج المنهجان وهما يتشاجران) .

الصواب : تقدم هنا . هل لديك الجرأة أن تظهر أمام المستمعين ؟

الخطأ : لتذهب حيثما تريد ، فسوف يصبح من السهل القضاء عليك إذا تحدثنا أمام جمع من الناس .

الصواب : أتتمكن من القضاء علىَّ ؟ من أنت إذن ؟

الخطأ : منهج من مناهج الاستدلال .

الصواب : المنهج الضعيف ؟

الخطأ : سأقضى عليك يا من تدّعى أنك أقوى منى .

الصواب : بأى خديعة سوف تقضى علىّ ؟

الخطأ : بالقواعد الحديثة التى اكتشفتُها .

الصواب : تلك القواعد التى ازدهرت بفضل هؤلاء السفهاء .

الخطأ : بل قل هؤلاء الحكماء .

الصواب : إنى سأقضى عليك دون رحمة .

الخطأ : أخبرنى ماذا أنت فاعل .

الصواب : سأذكر لك الحقائق .

الخطأ : إنى سأهدم هذه الحقائق وأعارضها ، لأنى أنكر وجود العدل .

الصواب : أتقول إن العدل لا وجود له ؟

الخطأ : لنَرَ إذن أين يوجد العدل ؟

الصواب : عند الآلهة .

الخطأ : إذا كان للعدالة وجود فلماذا لم يُعدم زوس حين قيّد والده بالسلاسل ؟

ويشتد النزاع بينهما حتى يكادان يتماسكان بالأيدى ، فتتدخل الجوقة وتحول بينهما ، ثم توجه حديثها إلى الصواب .

الجوقة : ... تقدم يا من توّجت أجدادنا بكثير من العادات المفيدة . أسمعنا صوتك الحبيب ، وحدّثنا عن طبيعتك .

الصواب : سوف أحدثكم عن التربية القديمة ، التى ازدهرت عندما كنتُ أتهلل العدل بنجاح كبير ، وأحترم الجميع لاعتدال تصرفاتهم ، فلم نكن نسمح للأطفال أن ينطقوا بكلمة واحدة ، وكنا نراهم وهم يسيرون فى الشوارع فى نظام جميل فى طريقهم إلى المدرسة ، وكان شباب كل حى من الأحياء يسيرون فى نظام دون معاطف ، متماسكين حتى ولو كان الثلج يتساقط عليهم ، وكان المربى يعلمهم نشيدا من هذه الأناشيد وهم فى اعتدال تام . « أثينا يا رهيبة الجانب ، يا من دمّرت المدن »

أو « هناك ضوضاء تتردد من بعيد » . وإذا حاول أحدهم الضحك أو أضاف نغمة لينة إلى صوته ، كان يُضرب ضربا مبرّحا ، ويعامل على أنه عدو لربات الشعر . وفى مدرسة المصارعة كان على التلاميذ أن يجلسوا ويمدوا أفخاذهم دون أن يرتكبوا أية رذيلة أمام النظارة . وعندما يقفون ثانية كان عليهم أن يسوُّوا طبقة الرمل ، ولا يتركوا أمام النظارة آثاراً واضحة ، ولا يُسمح لأى صبي بتدليك جسده بالزيت إلى ما تحت سرته ، وهكذا يكتسب جسدهم نضرة وحيوية ، ولا يُسمح لهم بالاقتراب من مُحِبِّيهم وإثارة عواطفهم بحديث رقيق أو نظرة شهوانية ، ولا يُسمح لهم أن يسبقوا من يكبرونهم سنا فى تناول الطعام ، ولا أن يتناولوا الفجل ولا بذر اليذسون أو ورق البقدونس ، ولا أن يكثروا من أكل السمك أو السمان ، أو يجلسوا القرفصاء .

الخطأ : تلك تعاليم بالية رجعية تعود إلى أعياد زوس الممتلئة بالجندب ، أيام الشاعرين كيكيديس ويوفون .

الصواب : بفضل منهجي قدمتُ إلى بلاد اليونان أبطالا مرموقين ، ولكنك تعلم تلاميذ الوقت الحاضر أن يُلقوا بأنفسهم فى معاطفهم منذ وقت مبكر ، إنهم يستثيرون غضبي عندما أشاهدهم فى أعياد باناثينيا إذا اضطروا إلى الرقص ، أراهم يسترون أفخاذهم بدروعهم متجاهلين أثينا (موجها كلامه إلى الإبن) وهكذا أيها الشاب ، هل لديك الشجاعة أن تثق بى وتختارنى أنا الاستدلال القوى الذى يتبع العدل والحق ، سأعلمك كيف تكره الأجورا ، وتعزف عن حمامات السباحة ، وأن تخجل من الأشياء المخجلة ، وأن تمتلىء غضبا إذا أهينت كرامتك ، وأن تتخلى عن مقعدك لمن يكبرك سنا ، وألا تكون جافا مع والديك ، وفى كلمة واحدة ، تبتعد عن كل شىء خسيس ، حتى لا تلوث صفاتك الفاضلة التى يجب أن تتحلى بها ، ولا تندفع وراء راقصة ، فمن المحتمل إذا وجدت السعادة فى مثل هذه المناظر ، أن تصادف راقصة خليعة تقذفك بتفاحة ، وبهذا تقضى على سمعتك الطيبة ، لا تجادل والدك ، واحذر أن تؤذيه أو تذكره بالشيخوخة التى أمضاها فى تربيتك .

الخطأ : أيها الشاب لا تثق ، بحق ديونيزوس ، فيما يقول حتى لا تكون صورة طبق الأصل من ذلك الذى يسمونه « ابن أمه » .

الصواب : ستمضى الوقت فى مدرسة المصارعة تلمع قوة وصحة ولا تذهب إلى الأجورا تتجاذب الحديث بطريقة جافة كما هو متبع الآن ، ولا تتعرض لأى اتهام بسبب حادث بسيط ، وتدخل بذلك فى مناقشات ومحاورات ، ولكن ستذهب إلى الأكاديمية لتجرى تحت شجرة الكرم ، وقد توجت بالقصب الرفيع فى صحبة أترابك من الشبان . على أن تمضى وقت راحتك تشم رائحة أشجار السرو الجبلى وأفرع الحوز النضرة ، ومقابل ذلك تنعم بفصل الربيع ، وتستمع إلى حفيف شجر الدردار (ثم يتكلم بحماس) فإذا وهبت نفسك وعملت بما نصحتك به فستنعم دائما بصدر رحب وبشرة نضرة وأكتاف عريضة ولسان فصيح ، أما إذا اتبعت تقاليد شبابنا العصرى فسوف تذبل بشرتك وتصبح أكتافك نحيلة وصدرك ضيقا ولسانك طويلا وأهدابك هزيلة ، وستسبح فى خيال واسع فى ساحة القضاء ، وسوف يقنعونك بأن تنظر إلى القبيح على أنه حسن ، وتنظر إلى الحسن على أنه قبيح ، وباختصار سوف تنهمك فى الرذيلة مثل أنتيماخوس .

الجوقة : يا لها من كلمات غمرت الآفاق بحسنها ، ويالشهرة تلك التقاليد التى تمارسها : انى أشم رائحة حلوة للفضيلة التى يتضمنها حديثك ، سعداء هؤلاء الرجال الذين عاصروا أيام ازدهارك . (ثم توجه الكلام إلى الخطأ) وأنت يا من تملك فنا يمتاز برقته وتأنقه ، عليك أن تقدم براهين جديدة ، فقد أبلى الرجل بلاء حسنا .

رئيس الجوقة : يبدو عليك أنك تريد أن تعد كل حيلك القوية ، وتتمكن من الرد عليه حتى لا تكون موضع سخرية .

الخطأ : كدتُ أختنق غيظا ، وكم أنا مشوق للتنديد ببراهينه . لقد نعتنى بالاستدلال الضعيف بين المفكرين ، لأنى كنتُ أول من اكتشف وسائل إبطال القوانين والأحكام العادلة . إن الإفادة من البراهين الضعيفة والانتصار بفضلها فن يساوى آلاف الدراهم وأكثر . أنظرْ ، سوف أبطل طريقته فى تعليم الشباب التى يفخر بها ، أو لم يسمح لك بالاستحمام فى الماء الساخن (موجها حديثه إلى الصواب) فعلام تعتمد فى تحريم الحمامات الساخنة ؟ !

الصواب : لأن هذه طريقة وضيعة تخلق من الرجل إنسانا جبانا .

الخطأ : كفى . لقد تأكدت من خطأ زعمك ، ولا يمكنك الإفلات . أخبرنى

إذن مَنْ مِنْ أبناء زوس أكثر جرأة ، أخبرنى عن ذلك الذى أتم أجل الأعمال ؟

الصواب : فى رأيى لا أجد من يفوق هيراكليس .

الخطأ : هل شاهدت على الإطلاق حمامات هيراكليس الباردة ؟ ! ومن ذا الذى يفوق شجاعته ؟

الصواب : نتيجة لمثل هذه الحيل امتلأت الحمامات بالشباب الذى تعود قضاء يومه فى المراء والثرثرة .

الخطأ : إذا كنت تلومهم لترددهم على الأجورا فإننى أمدحهم ، لأنه إذا كان التردد على الأجورا شرا مستطيرا ، فلماذا جعل هوميروس كل أبطاله الحكماء ، ومنهم نستور ، يتكلمون وسط الجموع الغفيرة ؟ أما البلاغة فقد حرّم على الشباب ممارستها ، ولكنى أعارضه فى ذلك ، وقد حثهم على التزام الاعتدال ، وكلاهما شر مستطير . هل كان الاعتدال فى وقت ما ذا فائدة لأى إنسان ؟ تكلم ، وحاول أن تدحض ما أردده .

الصواب : لقد كان مفيدا لكثيرين . لقد أمدّ بولوس بالسيف .

الخطأ : سيف ؟ يا له من هدية جميلة ! [آه الشقى] إن بائع المصابيح قد كسب مالا وفيرا بفضل خبثه ، ولم يكسب سيفا ، باسم زوس .

الصواب : نعم . لقد تزوج بيليوس Pélée من تيتيس مكافأة لاعتداله واستقامته .

الخطأ : لقد تركته جانبا ورحلتْ ، لأنه لم يكن شديد الحميّة ، ولم يدخل عليها السرور فى فراشها طوال الليل . إن المرأة تفضل أن تغتصب . أما أنت فعجوز غبى (موجها كلامه إلى الإبن) أنظر أيها الشاب ماذا تجلبه لك الاستقامة . كم من ملذات ستُحرم منها ؟ ستحرم من الصبية والنساء واللحم المسلوق والخمر وضحكات البهجة ، وما فائدة الحياة إذا حُرمت من كل هذه الأشياء ؟ دع هذا ، ولنتجه إلى ضروريات الطبيعة الإنسانية ، فإذا تعلقت بك إحدى النساء ورغبت فيك بشدة ، ثم زنيت وضُبطت وأنت على هذه الحالة فسوف تهلك ولا تستطيع أن تنطق ببنت شفة ، وإذا تصالحت معى فسيمكنك أن تلبى جميع رغباتك ، ترقص وتضحك ولا تخجل من أى شىء ، وإذا ضبطت وأنت ترتكب فاحشة فعليك أن تخبر الزوج

أنك لم تقترف إثما ، وردد على مسامعه حوادث زوس الذى هزمه الحب والنساء ، كيف يمكنك أيها المخلوق الضعيف أن تصبح أقوى من الإله ؟ !

الصواب : وهل تنتظر أسوأ من هذا ؟

الخطـأ : ماذا تقول لو ضربتُـك لهذا السبب فقط ؟

الصواب : سألتزم الصمت . وماذا بعد ذلك ؟

الخطـأ : (مندفعا) : أجبنى إذن من هم المدافعون عنك ؟

الصواب : أبناء فاسقون .

الخطـأ : إنى أثق بقولك . ومن هم شعراء المأساة ؟

الصواب : أبناء فاسقون .

الخطـأ : حسنا ما تقول ، ومن هم الجماهير الشعبية ؟

الصواب : أبناء فاسقون .

الخطـأ : أتعترف أنك لم تقل شيئا ! . والنظارة من هم على العموم ؟ أنظرْ إليهم .

الصواب : انى أنظر إليهم .

الخطـأ : ماذا رأيت ؟

الصواب : إنهم فاسقون بوجه عام بحق زوس .

الخطـأ : وماذا تريد أن تقوله ؟

الصواب : لقد ُهزمتُ أيها الفاسق (ثم يتجه نحو مدرسة سقراط) باسم الإله تسلَّموا معطفى فإنى سأنضم إليكم (يعود إلى مدرسة سقراط)

الخطـأ : (إلى الأب) هل ترغب فى أن تأخذ ابنك ؟ أو تدعنى أعلمه فن الكلام ؟

الأب : علمه وعاقبه ولا تنس أن تجعل لسانه لاذعا . ليستعد للمحاكمات البسيطة من ناحية ، وللمهام العظام من ناحية أخرى .

الخطأ : لا تهتم ، فسوف أعيده إليك سوفسطائيا ماهرا .

ويتخرج الابن من مدرسة سقراط سوفسطائيا ماهرا ، ويسعد الأب بابنه ،

إذ لم يتُح فى استطاعة الدائنين إلحاق أى ضرر به ، ولكى يُظهر الابن مدى إتقانه للدروس العصرية التى حصلها ، فإنه يضرب أباه ضربا مبرحاً ، ويثبت له بالبرهان أنه محق فى ذلك . ولم يجد الأب مناصا من أن يحرق مدرسة سقراط فيشعل فيها النيران انتقاما وغيظا لما أصابه من جراء تعاليمها الحديثة .

الزنابــير Guêpes

ومسرحية « الزنابير » عُرضت عام ٤٢٢ ق . م وفازت بالجائزة الثانية فى أعياد اللينايا ، وفيها يسخر أريستوفانيس من هواية التقاضى التى استحكمت حينئذ عند كثير من الأثينيين ، كما ينقد فى سخرية لاذعة نظام محاكم المحلفين القضائية حيث كانت بضعة أبولات (أصغر عملة يونانية) تدفع أجرا للمواطن الذى يحضر كمحلف أية جلسة من جلسات هذه المحاكم . مما جعل قطاعا كبيرا من المواطنين الاثينيين يعتمد على هذا الأجر كمصدر رزق وحيــد . وكان رواج هذا النظام القضائى نتيجة لفراغ الشعب وبطالته ، وتعلقه بتوافه الأعمال . وقد أخفى أريستوفانيس وراء ذلك نقدا لاذعا لجماعة الزعماء الشعبيين الدماجوجيين (الغوغائيين) وخاصة كليون ، لأن مناهجهم السياسية هى التى أدت بطبقة الدهماء إلى هذه الحال .

وتدور المسرحية حول أب وابنه ، والتناقض بينهما واضح من أول الأمر ، ونجده فى اسميهما ، فالأب يسمى « فيلوكليون » أى « المحب لكليون » وابنه يسمى « بديليكليون » أى « الكاره لكليون » . والأب تجسيد حى للشعب الأثينى المولع إلى حد السخف بالتقاضى وإجراءاته التى يمقتها الابن . وقد حاول الابن علاج أبيه من عشق الإجراءات القضائية بكل وسيلة ، ولكنه فشل ، فلجأ فى النهاية إلى سجنه بالمنزل . لكن كبار السن من المحلفين — أعضاء الجوقة — قد جاءوا إليه فى الفجر . متنكرين فى هيئة الزنابير ، وصحبوه إلى المحكمة ليمارس هوايته .

وبين فيلوكليون وبديليكليون يدور حوار ساخن حول مزايا وعيوب النظام القضائى ، ويسرف فيلوكليون فى سرد مزاياه بدافع المنافع التى يحصل عليها هو شخصيا منه ، بينما ينقض بديليكليون هذه المزايا ، ويبرهن على أن القضاة ليسوا إلا مطية الحكام الغوغائيين الذين يستغلون الدخل العام فى مصالحهم الشخصية ، بدلا من إطعام

الشعب الجائع . ويتحول أفراد الجوقة عن موقفهم ، ويجبر فيلوكليون على ممارسة هوايته برفع القضايا والدفاع فيها بالمنزل ، بادئا بقضية كلب المنزل « لابيس » الذى كان قد سرق قطعة من الجبن . ويتعهد بديليكليون بتربية أبيه اجتماعيا ، فيأخذه بتهذيب سلوكه وإصلاح هندامه ، ويصحبه معه إلى الولائم والحفلات ، ولكن النتيجة كانت سيئة ، فقد صار أبوه مدمنا للخمر ، مولعا بالرقص والمجون ، يهين ضيوفه ورفاقه ، ويسلك سلوكا أخرق بوجه عام .

الضفادع Les Grenouilles

وتمثيلية الضفادع من أشهر تمثيليات أريستوفانيس وأروعها . وقد ظهرت سنة ٤٠٥ ق . م . وحصل بها فى مسابقة الكوميديا فى نفس السنة على الجائزة الأولى . وتشتمل هذه التمثيلية على نقد لاذع للشاعر التراجيدى يوريبيديس فى كثير من عناصر فنه ، وكان يوريبيديس قد توفى قبل تمثيلها بعام . وفيها يبدو الإله « ديونيزوس » إله المسرح وحامى التراجيديا وهو مشفق على مصير هذا الفن بعد أن توفى إيسكيلوس وسوفوكليس ويوريبيديس ، ويرى أنه لم يبق فى أثينا من بعدهم « أديب موهوب يحلق فى سماء الأدب ، فشعرؤها ليسوا إلا أوراقا بلا ثمر ، لا تسمع منهم إلا أنغاما خافتة ، وأصواتا ضعيفة تذوب فى الفضاء ، وتذهب مع الريح » ، فيزمع أن يبعث أفضلهم من قبره ليتابع رسالته الفنية ، وأثناء عبوره نهر العالم الآخر (ستيكس Styx) إلى الدار الآخرة عند الآله (هاديس Hadês) كانت جوقة من الضفادع تصحب أصوات المجاديف فى المـــاء بأغنية من أعذب الأغانى ، وفى العالم الآخر يتردد تفكيره بين إيسكيلوس ويوريبيديس ، فيتركهما يتحاوران ويتفاضلان ويتبادلان الحجج والبراهين ، وكل منهما يحاول أن يثبت أحقيته فى التربع على عرش التراجيديا فى العالم الآخر . وفى هذه المناظرة ذات الطابع المنزلى يتراءى مضمون جدى ، يشف عن آراء جمالية وفنية تمثل ما كان رائجا منذ عهد بريكليس ، عصر أثينا الذهبى . إذ نرى فى هذه المناظر أن إيسكيلوس كان داعية للفضائل الدينية والتقليدية فى تراجيدياته ، بينما كان يوريبيديس هادما لمبادئ الدين والخلق التقليدية بثقافته السوفسطائية . ولم يتورع أن يصور الآلهة والأبطال نهبا للنقائص والعيوب التى يتعرض لها عامة الناس ، فقضى بذلك على قداستهم ،

هذا إلى تكلفه فى الأسلوب ، وحيله المسرحية التى يجافى بها طبيعة الفن . ويقترح إيسكيلوس على الآله ديونيزوس الذى يحكم بينهما أن يوضع يوريبيديس فى الميزان فهذا وحده يستطيع أن يكشف عن حقيقة أشعارهما . وينتهى وزن الشاعرين باستقرار رأى ديونيزوس على اختيار إيسكيلوس فيبعثه من مرقده إلى الحياة الدنيا ليتابع رسالته فى النهوض بالفن التراجيدى ، وليعيد للتراجيديا مجدها القديم .

وهذا بعض ما دار من الحوار بين شخصيات الرواية .

كسانتياس (خادم ديونيزوس) يسأل خادم الإله هاديس Hadès ، إله العالم الآخر : ضع يدك فى يدى بحق أبولـون ، قبّـلنى ، ودعنى أقبّـلك ، خبرنى بحق زوس ، ما هذه الضوضاء التى تنبعث من الداخل ؟ ما هذا الصياح ؟ وما هـذا الضجيـج ؟

خادم هاديس : إنهما إيسكيلوس ويوريبيديس .

— ما بهما ؟

— إن حدثا جسيما هز أرجاء عالم الموتى ، وثورة خطيرة اندلع لهيبها هناك .

— لمـاذا ؟

— إن قانونا من قوانين هذا العالم ينص على أنه يحق لأفضل الشعراء الذى يتفوق على زملائه هنا ، أن يتناول طعامه فى دار الضيافة ، وأن يتربع على العرش إلى جانب إله الموتى .

— حسنا .

ويظل الفائز محتفظا بالعرش حتى يظهر من يفضله فى فنه ، وعندئذ يتخلى له عن المكان الذى يتبوؤه .

— وما الذى أزعج إيسكيلوس إذن ؟

— إنه كان صاحب السـيادة فى فن التراجيديا ، باعتباره أبرع الذين نظموا فيـه .

— ومن يحتل الصدارة الآن ؟

— بدأ يوريبيديس ، منذ أن حل بهذه الديار ، يظهر أمام النشالين واللصوص

والمجرمين الذين يقتلون آباءهم ، وما أكثرهم فى عالم الموتى ، فكانوا يستمعون إلى مناوراته الخداعة ، ومنطقه الأخاذ ، وحججه البراقة ، فيعجبون به أيما إعجاب ، ويعتبرونه أبرع الشعراء وأحكمهم ، وعندئذ استولى عليه الغرور ، واغتصب العرش من صاحبه .

أو لم يرجموه بالطوب ؟

— لا ، بحق زوس ، إنما صاحوا عاليا ، وطالبوا بمحاكمة المتنازعين ، لإثبات أيهما أبرع فى فنه .

ويمضى الحوار بينهما ، ثم يعلن خادم هاديس أن المباراة ستبدأ فى الحال ويطلب إلى صاحبه الدخول ، ثم تغنى الجوقة تمهيدا للمباراة .

الجوقة : لا شك أن إيسكيلوس . ذا الصوت الرنان ، سيغضب كل الغضب ، عندما يرى غريمه سليط اللسان يقف إلى جانبه ، ويكشر عن أنيابه ، ويستعد للنزال . عندئذ تثور ثورته ، ويتطاير الشرر من عينيه ، ثم يدور بينهما حوار فى لغة منمقة ، وعبارات سيالة متدفقة ، فهذا الذى يهتم بالتفاصيل الدقيقة يدافع عن نفسه أمام المبدع المبتكر ، وحينئذ يقف شعر رأسه ورقبته . ويعبس وجهه ويحتقن ، ثم يُخرج العملاق من فمه ألفاظاً كالحجر ، يرد عليها بلغة لاذعة منمقة ، تستثير الحقد ، وتفصل الأبيات وتحلل الكلمات ، وتشوه جمال الشعر وتقضى عليه .

(ويظهر على المسرح ديونيزوس ويوريبيديس وإيسكيلوس)

يوريبيديس (إلى ديونيزوس) : لا تلمنى ، فسوف لا أتنازل عن العرش ، لأنى أبرع منه فى فنى .

ديونيزوس (إلى إيسكيلوس) : فيم هذا الصمت يا إيسكيلوس ؟ لقد سمعتَ ما قال .

يوريبيديس : سوف يتعالى ويتكبر ، كما اعتاد أن يفعل فى مسرحياته دائما .

ديونيزوس : يا لك من شيطان رجيم ، لا تبالغ فى زهو وافتخار .

يوريبيديس : إنى أعرفه حق المعرفة ، لقد اختبرته منذ وقت بعيد ، فوجدته قاسيا متغطرسا ، ثرثارا ، لا يسيطر على لسانه ولا يتحكم فى ألفاظه . لا يهتم إلا بنحت كلمات رنانة جوفاء .

إيسكيلوس : أحقا يا ابن . . . أحقا ما تصفنى به من أوصاف ؟ أنت يا أتفه التافهين ، يا صانع المتسولين . يا حائك الخرق ، ولكن لن يطول هراؤك ، ولن أتركك تتمتع بترديد هذه الحماقات . . . أنت ، يا من أدخلت الأناشيد الكريتية فى مسرحياتك ويا من أبحت الحرام فى تراجيدياتك[1] .

ويتدخل ديونيزوس بينهما : أى إيسكيلوس ، كف عن هذا أيها الوقور ، وأنت يا يوريبيديس ، تجنب ثورته أيها المسكين . ابتعد قليلا إذا كنت عاقلا حتى لا يرميك فى غضبه بكلمة ضخمة فى جبهتك تجعل الدم يتدفق منها . . . (ثم يخاطبهما) هيا أحضرا بخوراً ونارا لأقيم الصلاة قبل أن أستمع إلى حواركما البارع ، حتى أتمكن من إصدار حكم عادل فى هذه المباراة ، وأنتم يا أعضاء الجوقة : أنشدوا معى نشيداً لربات الشعر :

وتنشد الجوقة نشيداً لربات الفنون بنات زوس التسع العذراوات الطاهرات ، إيذانا ببدء المباراة .

ويردد إيسكيلوس هذا الدعاء : أيا ديميتير ، يامن أذكيت فؤادى أعينينى لأظل خليقا بأسرارك .

ويعلن يوريبيديس أنه يعبد آلهة غير آلهة اليونان ويصلى لهم ، فيأمره ديونيزوس أن يبتهل لهؤلاء الآلهة وأن يصلى لهم .

يوريبيديس : أيها الأثير الذى يغذينى ، ويُنطق لسانى ، أيها العقل ، وأيتها الخياشيم الحساسة ، ساعدينى حتى أفند الحجج التى يتقدم بها غريمى . (ثم يبدأ يشرح الحيل التى كان يستخدمها ذلك الرجل الدجال ليخدع المتفرجين السُّذّج) كان يبدأ أولا بإظهار شخصية ما يجعلها تجلس بمفردها ، ولا تكشف عن وجهها كأنها دمية ، لا تلفظ ببنت شفة . وكان أعضاء الجوقة ينشدون النشيد تلو النشيد بينما كانت شخصياته تلزم الصمت . . . وبعد هـــذه السخافات عندما يصل إلى منتصف التراجيديا كان ينطق بعدد من الكلمات الضخمة التى تشبه الثيران ،

---

(١) يشير إلى أن يوريبيديس أباح زواج الأخ من أخته فى تراجيديا « إيولا » Eole . وكان دين اليونان وتقاليدهم تحرم ذلك .

كلمات غريبة لا يعرفها المتفرجون ، أما الألفاظ الواضحة فكان لا يستعمل منها شيئا .

ويسأله إيسكيلوس : وأنت يا عدو الآلهة ، ماذا كنت تفعل بتراجيدياتك ؟

يوريبيديس : ما إن تسلمتُ منك التراجيديا بعد أن حشوتها بالعبارات الرنانة ، والألفاظ الضخمة ، حتى جعلتها أخف وطأة . وخلصتُها من الكلمات الثقيلة . ثم تجنبت الثرثرة والمهاترة . وتجنبت الغموض والإبهام ، وجعلت أول شخصية تشرح ، بمجرد ظهورها ، فكرة التراجيديا الأصلية ، ولم أسمح لأحد أن يقف خاملا بلا حراك ، بل كان الجميع يشتركون فى الحوار ، السيدة والسيد ، والصبية والعجوز ، إذا دعت الضرورة ، والعبد أيضا .

إيسكيلوس : أولاً تستحق الموت على هذه الجرأة البالغة

يوريبيديس : لا بحق أبوللون ، إنى لم أفعل إلا ما هو ديموقراطي . . . ثم علّمتُ هؤلاء (يشير إلى المتفرجين) كيف يتكلمون . . . وعلّمتهم كيف يُطبّقون القواعد الدقيقة ، ويقيسون الشعر ، وكيف يفكرون ، ويبصرون ، ويفهمون ، وكيف يفتنون ويتشككون ، وكيف يُقلّبون كل شىء على مختلف الوجوه .

إيسكيلوس : هذا صحيح .

يوريبيديس : وقدّمتُ على المسرح مناظر من الحياة المنزلية التى نألفها ونعيشها ، وبذلك مكنت المتفرجين من دراسة مسرحياتى وانتقادها ، فأصبحوا قادرين على تتبعها وتحليلها ، لأنى لم أكتب لهم بأسلوب مزخرف مصقول ، ولم ألغِ تفكيرهم ، لا ، ولم أبعث فيهم الدهشة بأن أعرض عليهم أناسا يمتطون جيادا مطهمة تزينها جلاجل رنانة . . . تلك هى الأفكار التى رددتها كثيرا على مسامع المتفرجين (يشير إليهم) وطبعتُها فى نفوسهم ، بأن أدخلتُ فى مسرحياتى المنطق والبحث والتحليل . فأصبحوا يفكرون فى كل شىء ويفحصونه ويهتمون بإدارة المنزل اهتماما أكثر ، ويدرسون بعناية فائقة كيف يحدث هذا ، وأين يوجد ذاك ؟ ومن أخذ تلك الأشياء ؟

وتستحث الجوقة إيسكيلوس أن يتكلم ، ويقول له رئيس الجوقة : هيّا يا من

كنتَ أول يونانى أوجد الألفاظ الفخمة ، واستعمل فى التراجيديا أسلوبا منمقا ، تشجع ، واترك ماء الينبوع ينهمر ويتدفق .

إسكيلوس : لقد أغضبتنى هذه المقابلة أشد الغضب ، فالرد على هذا الرجل يتعب أمعائى ، ولكن أجبنى (مخاطبا يوربيديس) — حتى لا تظن أنى عاجز — ماذا يجب توفيره فى الشاعر ليحوز إعجابنا ؟

يوربيديس : براعته وتوجيهاته ، لأننا نخلق مواطنين أصلح .

إسكيلوس : قل لى أية عقوبة تستحق إذن ؟ إنك لم تفعل من ذلك شيئا ، بل أفسدت الأشراف والأخيار .

ديونيزوس : الإعدام ، فلا تسأله عن ذلك .

إسكيلوس : أنظر إذن أى نوع من الأشخاص أختار مسرحياتى : رجالا شجعانا ، وشبابا قوى البنيان . . . ممن يحيون بين الحراب والرماح والدروع . والقبعات والخوذات التى يزينها الريش .

يوربيديس : ويحى ، لقـــد زحف الوباء من جديد ، سوف يقضى علينا بخوذاته .

ديونيزوس : وأنت يا إسكيلوس ، ماذا فعلت لتعلمهم هذه الشجاعة النادرة ؟ تكلم بلا غضب ، لا تفتخر ولا تفاخر .

إسكيلوس : نظمت تراجيديا يملؤها آريس (إله الحرب)

ديونيزوس : ما هى ؟

إسكيلوس : « سبعة ضد طيبة » فكل من رآها كان يتوق بشدة إلى خوض المعركة . . . ثم قدمت تراجيديا « الفرس » التى علمت فيها الناس التشوق دائما لقهر العدو ، وبذلك قستُ بأروع الأعمال . . . لم أصور — بحق زوس — زانيات مثل فيدرا[1] ، أو ستينيبويا Stheneboia [2] ولا يستطيع أحد مطلقا أن يدعى أننى عرضت فى تراجيدياتى امرأة عاشقة .

---

(١) فيدر : وقعت فى غرام ابن زوجها الذى سميت التراجيديا باسمه وهو هيبوليت . وأعرض عن حبها .

(٢) وستينيبويا : زوجة ملك أرجوس ، أحبت بلليروفون Bellerophon =

يوريبيديس : لا ، بحق زوس ، فلم يكن فيك شيء مطلقا من أفروديت .

إيسكيلوس : ولن يكون ، أما أنت وأتباعك فقد أثقلت كاهلكم بعبء جسيم حتى ألقتك أرضا .

ديونيزوس : هذا صحيح بحق زوس ، لأنك قد قاسيت ، يا يوريبيديس ، من العيوب التى تنسبها لزوجات الآخرين .

يوريبيديس : وما الضرر الذى تُلحقه نسائى بالمدينة ، يا أتعس الناس ؟

إيسكيلوس : لقد حملت زوجات شريفات لأزواج أفاضل على شرب السم عندما وُصمن بالعار ، بسبب بلّيروفون وأمثاله .

يوريبيديس : وهل قصة فيدرا التى كتبتُها حقيقية أم خيالية ؟

إيسكيلوس : إنها حقيقية بحق زوس ، ولكن يجب على الشاعر أن يُخفى الإثم ، لا يذيعه ولا يلقنه ، فمعلم المدرسة هو مربى الأطفال ، والشاعر هو مربى الشباب ، لذا يتحتم علينا أن نذكر الفضيلة على الدوام .

يوريبيديس : وعندما تنطق بكلمات كالجبال . أيمكن بذلك أن تعلم الفضائل ؟ إنما كان ينبغى عليك أن تستخدم لغة البشر .

إيسكيلوس : ولكن يتحتم علينا ، أيها الشيطان الرجيم ، أن نبتكر عبارات سامية تناسب الأفكار والحكم الرائعة ، ومن الطبيعى أيضا أن يستخدم أنصاف الآلهة عبارات أكثر سموا ، ويرتدون ثيابا أكثر فخامة من ثيابنا ، فأنت ترى أنى علّمت الفضائل . أما أنت فقد قضيت عليها تماما .

يوريبيديس : بماذا ؟

إيسكيلوس : أولاً بأن ألبست الملوك ثيابا مضحكة حتى يظهروا أمام الناس فى صورة تثير الشفقة .

يوريبيديس : وما الضرر فى ذلك ؟

= صديق زوجها . فلما لم يبادلها حبا بحب ، اتهمته بأنه حاول الاعتداء عليها ، ولما انكشف أمرها تجرعت السم وماتت .

إسكيلوس : لقد نتج عن هذا أنه لا يوجد غني واحد يريد أن يصبح ظاهر الثراء — بل أصبحوا جميعا يتباكون ويدعون الفقر ويرتدون الخرق البالية .

ديونيزوس : هذا صحيح بحق دميتير .

إسكيلوس : ثم إنك علمت شبابنا اللغو والثرثرة التي صرفتهم عن الساحات الرياضية والمدارس ، وأقنعتهم بضرورة الرد على رؤسائهم ، ومناقشتهم ، بينما كانوا ، فى زمانى ، لا يعرفون إلا المطالبة بأقواتهم والانصراف إلى عملهم .

ديونيزوس : هذا صحيح ، بحق أبوللـون .

إسكيلوس : أليس هو مصدر الشرور كلها ؟ أو لم يعرض على المسرح نساء فاسدات(١) . ونساء يلدن فى المعابد(٢) ، وبنات يتزوجن من إخوتهن(٣) ، ويقررن أن الحياة ليست هى الحياة ، وترتب على ذلك أن غصت مدينتنا بالمهرجين والمضحكين الذين يخدعون الشعب دائما ، ولم يعد بها اليوم من يستطيع أن يحمل شعلة السباق بعد أن أهملنا الرياضة البدنية وتمريناتها .

وتحثهما الجوقة على مواصلة الحوار ، ولكن إسكيلوس يعرض شيئاً آخر .

إسكيلوس : كفانا نقاشاً ، لأنى أريد وضعه فى الميزان ، فهذا وحده يستطيع أن يكشف عن حقيقة أشعارنا ، ويفحص عباراتنا فحصاً دقيقاً .

ديونيزوس : اقتربا إذن ، إذا كان لابد أن نزن الشعر كما يوزن الجبن ،

(عندئذ يأتى بميزان ضخم ، فيقف إسكيلوس ، ويوريبيدس فى كفتيه) .

ديونيزوس : والآن أنشدا أشعار كما من فوق الميزان

يوريبيديس ينشد أول بيت من مسرحية ميدييه : Médée

ليت السفينه أرجو لم تندفع بسرعة فائقة . . .

وإسكيلوس ينشد بيتاً من مسرحية فيلوكتيت : Philoctetes

---

(١) يشير إلى مربية فيدرا فى تراجيديا « هيبوليت »

(٢) كما فعلت الكاهنة أوجا فى التراجيديا المسماة باسمها فقد اتصل بها هيراكليس وأنجبت منه ابنها « تليفا » Telephe الذى وضعته فى معبد الإلاهة أثينا .

(٣) كما حدث فى تراجيديا « إيولا » حيث تزوجت « كاناكا » KanaKe من شقيقها « مكاريوس » Makareos »

أبا نهر سبرخيوس Sperchios ويامراعي البقر . . .

ديونيزوس يصيح عالياً ، وإيسكيلوس ويوريبيديس يتركان الميزان .

ديونيزوس : إن كفة إيسكيلوس أرجح ، لأنه وضع فى كفته نهراً ، فبلل بيته بالماء كما يبلل تجار الصوف غزلهم (وإلى يوريبيديس) أما أنت فقد وضعت بيتاً خفيفاً ذا أجنحة .

يوريبيديس : فلينشدنا بيتاً آخر حتى أرد عليه .

ديونيزوس : فلتبدأ إذن من جديد .

يوريبيديس ينشد بيتاً من مسرحية أنتيجونا :

إن الإقناع ليس له معبد آخر إلا الألفاظ . . .

وإيسكيلوس ينشد بيتاً من مسرحية نيوبا :

إن الموت هو الإله الوحيد الذى لايحب الهدايا .

ديونيزوس : أتركا الميزان . إن كفة إيسكيلوس هى الراجحة أيضاً ، لأنه وضع فيها الموت ، أثقل الشرور كلها .

يوريبيديس : وأنا وضعت الإقناع ، فبيتى ممتاز .

ديونيزوس : لكن الإقناع خفيف ، لا معنى له ، فابحث عن بيت آخر من النوع الثقيل ، بيت قوى عظيم يميل كفتك .

يوريبيديس ينشد بيتاً من مسرحية ملياجروس Meleagros :

وأمسك بيمناه خشبة لها ثقل الحديد . . .

إيسكيلوس ينشد بيتاً من مسرحية جلوكوس :

فعربة تسقط فوق عربة ، وجثة فوق جثة . . .

ديونيزوس (مخاطباً يوريبيديس) لقد خدعت هذه المرة أيضاً فهو قد وضع فى الكفة عربتين وجثتين يعجز عن رفعهما مائة من المصريين .

ثم يرفع الميزان ، ويظهر هاديس إله العالم الآخر . .

ديونيزوس : إنى لاأستطيع الحكم بين الشاعرين ، لأنى صديق لهما ، وأريد الاحتفاظ بصداقتهما ، فأحدهما ، بارع مبدع ، والآخر سار ممتع ؟

هاديس : ألن تفعل إذن شيئاً مما جئت من أجله ؟

ديونيزوس : وماذا يحدث إذا حكمت بينهما ؟

هاديس : ستأخذ معك من تحكم له بالتفوق حتى لاتذهب زيارتك عبثاً . . . احكم بينهما .

ديونيزوس : إليك الحكم الذى سأصدره ، سأختار ذلك الذى تميل إليه نفسى (يشير إلى إيسكيلوس) .

يوريبيديس : اختر أصدقاءك ، واذكرْ أنك أقسمت بالآلهة أن ترجعنى إلى بيتى .

ديونيزوس : لقد أقسمت ، ولكنى سأختار إيسكيلوس .

يوريبيديس : ماذا فعلت يا أخبث الخبثاء ؟

ديونيزوس : لقد حكمت بتفوق إيسكيلوس . ولم لا ؟

يوريبيديس : أتستطيع أن تنظر إلىّ بعد أن ارتكبت هذا العمل المخزى ؟

ديونيزوس : أى عار ؟ ما دام المتفرجون لا يعتبرونه هكذا .

ويطلب هاديس إلى ديونيزوس وإيسكيلوس أن يدخلا قصره حتى يكرمهما قبل أن يرحلا . ويدخلان .

وتنشد الجوقة : لقد علمتنا التجارب أن السعيد فى حياته هو ذلك الذكى الألمعى ، فهذا الذى برهن على رجاحة عقله سوف يرجع إلى داره لينفع بنى وطنه ، وينفع أهله وخلانه . وذلك بفضل ذكائه ، فمن الأفضل إذن ألا يجلس المرء إلى جانب سقراط يلغو ويهذر معرضا عن الشعر ، مغفلا أهم عناصر الفن المسرحى ، فالأحمق من ضيع وقته فى أحاديث جوفاء ، ومناقشات تافهة .

(ويظهر إيسكيلوس وديونيزوس وهاديس)

هاديس : سلاماً إيسكيلوس ، اذهب وأنقذ مدينتنا بنصائحك السديدة ، وعلمْ الأغبياء فما أكثرهم .

إيسكيلوس : سأفعل ذلك ، أما أنت فأعط مقعدى لسوفوكليس ليحتفظ لى به ، فربما أعود مرة أخرى إلى هذا المكان ، فإنه يعتبر فى رأيى ، الثانى لبراعته ، ولا تدع هذا الدجال المشعوذ المهرج يجلس على العرش مطلقاً .

هاديس : (إلى الجوقة) أضيئوا مشاعلكم المقدسة ، ورافقوه وأنشدوا ، تمجيداً له ، بعض مقطوعاته وأغانيه . (ويفعلون) .

الباب الرابع

النثر فى العصر الأتيكى

الفصل الأول

التاريخ

(١) نشأة التاريخ

بدأ فن كتابة التاريخ بلغة أدبية ودقة علمية فى يونيا ، ولكنه لم يبدأ قبل القرن السادس ق . م . ومن أوائل الذين كتبوا فى التاريخ فيريكيديس بن بابيس السيروسى (من جزيرة سيروس التى تقع قرب ميلوس) وقد عاش فى بداية القرن السادس ق . م وكان معاصرا للحكماء السبعة ، قيل إنه كتب خمسة أو سبعة أعمال سردية عن تناسل الآلهة ، فهى إذن أعمال أسطورية كان يسير فيها على نهج هزيود . ثم جاءت جماعة « اللوجوجرافيين » الذين حاولوا تنظيم المادة الأسطورية بجمع الروايات المبعثرة وترتيبها وتصنيفها ترتيبا وتصنيفا قائمين على التناسل والأنساب.

ومنهم سكيلاكس (من كارياندا) الذى استخدمه الإمبراطور الفارسى داريوس لرسم خريطة جغرافية تصور مسار رحلة بحرية إلى بلاد العرب .

ومنهم هيكاتايوس (المولود حوالى عام ٥٢٥ ق . م) وكان جغرافيا أيضا ، واستشهد به هيرودوت كثيرا ، وألف كتابين : أحدهما : وهو « الأنساب » حاول فيه أن يخص البشر بما كان الآلهة قد احتكروه عند هزيود والثانى وهو « دورة حول الأرض » حاول أن يصف فيه أجزاء من أوربا وآسيا وإفريقيا وصفا جغرافيا ؛ مع تفصيل القول فى بعض سمات سكانها ، وقد كان واعيا بطبيعة المادة التى يتعامل معها ، فهو يقول : « وهــذا الذى أسجله هنا هو ما سمعته يروى على ألسنة آخرين واعتبرته حقيقيا » وقد استطاع أن يضع فى الإطار الجغرافى أمام جيله صورة للماضى السحيق ، فكان بحق « من مؤسسى التاريخ » .

ومن الكتاب اللوجوجرافيين هيرودوروبس (من هيراكليا) وقد كتب سيرة عقلانية للبطل هيرقل (هيراكليس) . كما اتسمت بالعقلانية روايته عن رحلة السفينة « أرجو » .

وتعتبر كتابات جماعة « اللوجوجرافيين » استمرارا للتراث الملحمى عند هوميروس وما تلاه ؛ إلا أن هذا التراث كان تاريخا بدائيا أو أسطوريا يهدف إلى إمتاع الناس أكثر مما يهدف إلى رصد الوقائع وتسجيل الحقائق ، فى حين أن هذه الكتابات — مع أنها استمرار له — إلا أنها تستبدل بالشعر النثر ، ويتزايد فيها عنصر الحقائق على حساب الأساطير .

(٢) المؤرخون

(١) هيرودوت

هو أبو التاريخ Pater historiae كما لقبه بحق خطيب روما المفوه شيشيرون . عاش فيما بين عامى ٤٨٥ و ٤٢٨ ق . م ، ومسقط رأسه مدينة هاليكارناسوس فى إقليم كاريا الواقع فى الجنوب الغربى من آسيا الصغرى ، ولكنه لم يستقر فيها إذ كان كثير الترحال . فزار أماكن كثيرة فى العالم القديم ، بيد أنه أحب مدينة أثينا وأحبته فمنحته حق المواطنة فيها ، وعاش فيها ردحا طويلا من الزمن ، وأصبح من الشخصيات المعروفة هناك . وقد كتب هيرودوت تاريخ الحروب الفارسية ، وأمدته أثينا بزاد وافر من الخبرة الواسعة والعلم بالأساطير والتاريخ اليونانيين ، كما أقام فترة فى يونيا هذا بالإضافة إلى أن مسقط رأسه هاليكارناسوس كان مركزا للتأثيرات الفارسية ، فإذا أضفنا إلى ذلك أنه زار مصر وبلادا أخرى فإننا نستطيع أن نتخيل مدى الخبرة الواسعة والمعلومات الغزيرة التى كانت لديه .

وهيرودوت يؤرخ للحروب الفارسية التى قامت بين الفرس واليونان ، لكنه لا يسرد الأحداث ويصف المعارك والحروب فقط وإنما يحاول أن يتتبع نشأة الشعوب التى اشتركت فى الحرب ، وأن يتناول آلهتها وعاداتها ومظاهر مجتمعاتها ووسائل معيشتها ، لذا جاء تاريخه مليئا بالأساطير ، زاخرا بقصص الآلهة والأبطال والملوك

وقد قسم علماء الأسكندرية أعماله إلى تسعة كتب ، جعلوا عنوان كل كتاب اسم واحدة من الموسيات التسع .

وهو فى الكتاب الأول يتناول العصور المبكرة لتاريخ الفرس ، ويتتبع العلاقة بين الفرس واليونان منذ العصور الأسطورية ، ويشرح لنا كيف أن مجموعة من الفينيقيين اختطفوا يو io من أرجوس فما كان من اليونان إلا أن اختطفوا يوروبا من صور ، ثم اختطفوا ميديبه من كولخيس ، عندئذ اختطف باريس هيلين زوجة مينيلاس . عندئذ نهب اليونان كل ما استطاعوا أن ينهبوه من آسيا انتقاما لاختطاف هيلين ، ومن هنا نشأت الكراهية وازداد العداء بين اليونان والآسيويين . ثم ينتقل إلى قصة الملك كرويسوس ، ويخلط فيها بين العنصر التاريخى والعنصر الأسطورى ، ثم يواصل روايته فيصف عادات أهل بابل فى إسهاب وتفصيل رائعين يدلان على عمق نظرته وسعة أفقه .

وينتقل إلى الكتاب الثانى فيجد القارىء نفسه على ضفاف النيل فوق أرض الفراعنة بناة الأهرام ، ويستغرق وصفه للعادات والتقاليد والآلهة والديانة المصرية أكثر من نصف الكتاب الثانى ثم يصف عهد مينا وخلفائه ، ونجده فجأة يبدأ فى رواية جزء من أسطورة هيلين ، وتستمر رواية هذا الجزء من الأسطورة تسعة فصول كاملة ، ثم ينتقل إلى قصة رامبسينيتوس ثم يتحدث عن بناة الأهرام ، ثم عن وضع الأحباش بالنسبة للمصريين ثم يتناول عهد الآلهة ، ثم يواصل روايته فيتناول الآلهة الإثنى عشر أعضاء المجمع الأوليمبى ، ثم يتحدث عن أسرة بسماتيك ، ثم يعود كعادته للأساطير فيتناول أسطورة أوزوريس ويصف قبره ثم يتناول فى خاتمة الكتاب قصة أمازيس .

وهيرودوت يستهل كتابه ببيان الغرض منه فيقول : هذا تسجيل للتقصى historie الذى قام به هيرودوت من هاليكارناسوس ، لكى لاتنمحى أعمال الناس فى الماضى ، وحتى لاتفقد حق التمجيد والتخليد الأعمال العظيمة والعجيبة التى قام بها اليونان أو الأجانب وقبل أى شىء آخر لماذا حارب كل منهم الآخر » .

فطبيعة تاريخه هو البحث والتقصى ، وهدفه تسجيل أعمال الناس فى الماضى

حتى لا تتمحى ، وحتى لا تفقد الأعمال العظيمة والعجيبة حق تمجيدها وتخليدها ، وهو لايفرق فى هـذه الأعمال بين أن تكون لليونان أو الأجانب ، فهو لايغمط أحداً حقه ، ولقومه اليونان أعمالهم التى تستحق التمجيد والتخليد ، وللأجانب أيضاً أعمالهم التى تستحق التمجيد والتخليد . ولكنه قبل هذا كله يريد أن يرجع المسببات إلى أسبابها ويعرف لماذا حارب كل منهم الآخر .

والمستقصى لتاريخ هيرودوت يرى أن الأجزاء الأولى منه تمثل الخلفية الأساسية للأحداث التى تجرى فى الأجزاء الأخيرة ، وهذه الخلفية مليئة بالاستطرادات التى تخرج كثيرا عن الموضوع الرئيسى ، والتى اضطره إليها أن نظام الحواشى لم يكن معروفا فى أيامه ، فسجل معلوماته واستطراداته كلها فى المتن ، كما استعاض عن الخرائط الجغرافيـة التى لم تكن معروفة فى أيامه أيضا ، بما ترسمه الكلمات من خرائط وصور .

وهو يبدأ تاريخه بالتهديد الليدى إبان القرن السابع ق .م ، ويستمر فى وصف هزيمة ليديا على يد قورش وخليفتيه داريوس وقمبيز حتى ينتهى إلى إكسركسيس ويهتم بدراسة الفرس ووصف ممالكهم التى شملت بـابل ومصر ، ثم يتحول إلى إفريقيا وهزيمة قمبيز فيها ، مبديا اهتماما واضحا بوصف السكان ، وتحمسا شديدا لمعرفة السلالات ، ومن هذه الناحية كـان أول من وضـع حجر الأساس فى علم الأنثروبولوجيا والذى يرجع فيه معظم الفروق بين الشعوب إلى الظروف الطبيعية.

وقد بذل جهدا كبيرا وناجحا فى تصنيف الشعوب وفق صفاتهم الجسديـة ولغـاتهم وعبـاداتهم وطقوسهم وطرائق حيـاتهم . وفى كل مرة يضرب لنـا الأمثلة المناسبة .

وهو يتعرض فى الأجزاء الأولى من كتابه بين الحين والحين للتاريخ الإغريقى إبان القرن السابع والسادس ق . م ، ولكنه لا يكاد يصل إلى صراع الفرس مع اليونانيين فى آسيا الصغرى حتى يولى كلا منهما من العناية مثل الآخر ، وفى الأجزاء الأخيرة من الكتاب يتحدث بالتفصيل عن الأحداث السياسية والوقائـع العسكرية مهتما بالملابسات والظروف التى تحيط بالناس والتى تدفعهم إلى هذا الاتجاه أو ذاك من اتجاهات الحياة .

وحرص هيرودوت على أن يزور مواقع المعارك الفارسية وكان فى أكثر ما يروى شاهد عيان ، ولكنه كان يتوسع أحيانـــا فى سرد ما سمعه من معلومات ، وقد وقع بسبب ذلك فى أخطاء عن مصر كان فيهـــا ضحية المرشدين الذين كانوا يقصون عليه أخبارا لم تكن كلها صحيحة . ولم يزر هيرودوت فارس ، ولكنه قابل بعض الفرس فى مصر أو غيرها واستقى معلوماته عنهـا منهم ، والحق أن مصدر هيرودوت الأساسى هو الروايات الشفوية المتناقلة ، ولكنه كان على وعى تام بأن كل ما يُـروَى على مسامعه ليس قابلا للتصديق ، وكان يعتمد فى المقام الأول على ماتقع عليه عيناه وتسمعه أذناه ، فكان يسجله بغض النظر عن مصداقيته بالنسبة له ، فقد قال له الفينيقيون : إنهم عندما استداروا بسفنهم حول إفريقيا فى نقطة ما من رحلتهم أشرقت الشمس عن يمينهم ، وكان هذا بالطبع صحيحا . ولكنه لم يكن يعرف كروية الأرض فكذبهم وسجل ما زعم أنه كذب ، وقد تبين بعد ذلك أنه صحيح ، وهكذا أفدنا كثيرا من هذا الحياد العلمى ، وقد لفت نظره فى مصر مايجلب النيل من طمى غزير ، وتنبأ بأن مصبات النيل ستنغلق ذات يوم من غزارة هذا الطمى ، وعندئذ ستنشأ مصر جديدة فى البحر الأحمر ، وقد يتم ذلك بعد عشرين ألف سنة .

ولم ينج هيرودوت — مثل غيره من شعراء التراجيديا — من تأثير الملاحم عليه ، وقد كان خاله (أو عمه) بانياسيس شاعرا ملحميا تغنى بأعمال هيراكليس . وامتاز تاريخه النثرى بما تمتاز به الملحمة الشعرية من انسياب وتدفـق ، وعرض لشخصيات قوية مثيرة ، واستطراد لأحداث وروايات تلذ السامعين وتنفعهم ، مع فيض من التفاصيل ، وميل لتقديم المفاجآت ومعالجة للموضوعات المهمة فى خطب الشخصيات الرئيسية وهم بصدد اتخاذ قرارات حاسمة . وبذلك استطاع فى براعة أن يوظف التقنية الملحمية لصالح أغراض التاريخ ، ويتفق مع هدفها فهو يسرد الأفعال العظيمة والعجيبة ، وهى تتغنى « بأمجاد الرجال » Klea andron .

وقد تأثر كذلك بشعراء التراجيديا وفى مقدمتهم سوفوكليس الذى كان صديقا له ، ويظهر هذا التأثير فى بداية تاريخه ، عندما يخبرنا كيف أن كرويسوس ملك

ليديا حاول تجنب نبوءة تقول : إن ابنه سوف يُقتل بواسطة سلاح حديدى ، فمنع ابنه من ممارسة أى رياضة أو هواية خوفا عليه من الموت ، ولكن رجــلا يدعى أدراستوس يقبل على الملك طالبا اللجوء إليه ، فيقبل الملك لجوءه ويمنحه رعايته ، ويستطيع هذا اللاجىء أن يقنع الملك بالسماح لابنه بأن يشاركه فى رحلة لاصطياد خنزير وحشى ، وينجحا معا فى قتل الخنزير ، ولكن الرجل يخطىء فيقتل ابن الملك ، وتتحقق النبوءة ، فالقصة — كـــا نرى — تحاكى ما جاء فى بعض المسرحيات التراجيدية .

ويتشابه المضمون الفكرى لما يرويه هيرودوت — تاريخياً — عن قمبيز قائد الحملة الفارسية على مصر ، وما يقصه إيسكيلوس — تراجيديًّا — فى مسرحية « الفرس » عن إكسركسيس حفيد قمبيز وقائد الحملة الفارسية على بلاد الإغريق ، فكلاهما غرّتـــه قوته العسكرية ، فشنّ حرباً ظالمة على الشعوب المجاورة له ، وبينما نجحت حملة قمبيز فى الإستيلاء على مصر ، فقد فشلت حملة إكسركسيس فى الإستيلاء على بلاد اليونان ، إلا أن نهاية كل منهما كانت واحـــدة ، وهى نهاية كل متغطرس جبار ، وكما علل إيسكيلوس نهاية إكسركسيس المأساوية بالصلف والعجرفة وتجاوز الحـــد (الهيبريس hybris) فإن هيرودوت علل نهاية قمبيز المفجعة بالغطرسة وتعـــدى الحدود . فقد ارتكب أشنع الجرائم فى حق مصر والمصريين ، وسخر من معبوداتهم ، وحاول قتل عجلهم المقدس أبيس ، بل إنه بدافع الصلف أيضاً أرسل حملة على الواحات فى قلب الصحراء ، فهلكت ، ثم انتهى أمره إلى الجنون .

وقد انعكست عليه ، كما انعكست على كل الكتابات الأدبية شعرية كانت أم نثرية ، حركات النقد والتشكيك فى اللاهوت التقليدى ، بيد أنه بصفة عامة يقبل بوجود آلهة الأوليمبوس التقليديين ، ويجل معابدهم وطقوسهم ، بل ويبذل جهدا ملموساً للايحاء بأن نُبوءات دلف صحيحة ، وقد تبدو أول الأمر غير صحيحة ، ولكن لا تلبث صحتها أن تتأكد فى نهاية المطاف ، وهو يؤكد قداسة دلف بما حدث للفرس حين هجموا عليها فهبت عليهم عواصف البرق والرعد ، وتساقطت عليهم قطع الصخور من فوق جبل البارناسوس وردُّوا على أعقابهم مدحورين . . .

وهو يتحدث بما يتحدث به الموروث الملحمي من ظهور الآلهة والإلاهات للناس ، فقد ظهر الإله بان للشاب فيدبيديس وهو يجرى حاملا أنباء الغزو الفارسي إلى إسبرطة . وظهرت هيلين لامرأة من إسبرطة ، ومع تصديقه لبعض الأشياء التي تبدو لنا غير قابلة للتصديق ، إلا أنه في أحيان كثيرة يتهكم من الذين يصدقون مثل هذه الأشياء ، فهو يقبل من الأثينيين إيمانهم بوجود ثعبان مقدس يعيش فوق الاكروبوليس ، ويسخر من حقيقة أنهم يقدمون فطيرة معسولة له كل شهر كما لو كان مخلوقاً يسعى ويحيا ويأكل بالفعل . وكما قبل هيرودوت بوجود آلهة اليونان ، فقد قبل بوجود آلهة المصريين القدامى ، بل سلط الضوء على نقاط التشابه بينهما ، فكان بذلك رائداً من رواد علم الديانات المقارنة . ويمكن القول بأن معتقداته هي معتقدات الرجل العادى إبان القرن الخامس ق.م ، مع بعض التعديل الطفيف في هذا الجانب أو ذاك .

وهو يتحدث عن حقد الآلهة أو حسدهم phthonos لأفراد البشر الذين يحققون انتصارات خارقة أو يتمتعون بقدرات فائقة ، ويطبق هذه الفكرة على كل من كرويسوس ملك ليديا وبوليكراتس طاغية ساموس . فقد كان كرويسوس أغنى بني البشر في عصره ، وكان كريماً مع كهنة معبد دلف ، حفياً بنبوءاتهم التي ضللته بسبب غموضها ، وانتهت حياته بالهزيمة القاضية على يد قورش . وخلعه عن العرش ، ثم موته ، وكان بوليكراتيس أكثر حظاً وذكاء ، جمع إلى سلطان الطغاة الجبار ، ثروة القراصنة وسطوتهم في البحار ، وكان إلى ذلك راعياً للفنون والآداب ، وانتهى به الأمر إلى أن وقع ضحية الخداع فهُـزم شر هزيمة على يد الفرس

وفكرة حسد الآلهة يمكن تأويلها كفلسفة كونية ، أي كتفسير لنظام الكـون . فالخطة العامة للأشياء تستوجب ضرورة الحفاظ على التوازن والإنسجام ، بحيث لـو تحطم أحدهما أو كلاهما كان على الطبيعة أن تعيد النظام المفقود بطريقة أو بأخرى . ثم إن فكرة حسد الآلهة ترتبط بناحية سيكلوجية هي أن النجاح الزائد يقـود إلى التكبر والصلف ، بل والعمى .

هكذا ابتدع هيرودوت هذا الفن الجديد ، فن التاريخ النثرى من بنات أفكاره .

يقصد إمتاع جمهوره وإفادته ، وكان فناناً من الدرجة الأولى ، يعرف كيف يلوّن فى أسلوبه وينوع فى نغمته ، ليجذب جمهور مستمعيه أو قرائه ويشد إنتباههم . كما كان مفكراً يتمتع بعقلية الباحث المدقق ، وجمع بين التقوى الدينية المتماسكة والتفتح العاصم من التعصب والحافز على التعرف على الديانات الأجنبية ؛ فتفرّد من بنى قومه بعـــدم التعصب ، وتحصيل المعرفة وفهم النظريات وجمع الحقائق والمعلومات من كل مصدر .

(ب) توســـيديد Thucydide

انحدر توسيديد بن أولوروس من أسرة أثينية نبيلة تمتلك المناجم فى تراقيا ، وعاش فيما بين عامى ٤٥٥ و ٤٠٠ ق . م تقريباً فهو من الجيل التالى لهيرودوت مباشرة ، والذى شاهد أكبر التغيرات فى التاريخ اليونانى كله ، شاهد توهج العصر الذهبى لأثينا ، كما عاصر فترة تآكلها من الداخل بسبب الديماجوجيين ، وشاهد سقوطها فى النهاية ، على يد غريمتها إسبرطة عام ٤٠٤ ق . وقد اشترك فى حرب البيلوبونيز التى اندلعت نارها عام ٤٣١ ق . م وفى عام ٤٢٤ ق . م كان على رأس أسطول بحرى يرابط فى تراقيا ، وكان عليه الوصول إلى أمفيبوليس للدفاع عنها ولم يصل فى الوقت المناسب فسقطت المدينة فى يد القائد الأسبرطى براسيداس ، فعوقب بالنفى من أثينا ، ولم يعد إليها إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، وكان ذلك بعد عشرين عاماً ، ولم يلبث إلا بضع سنوات ، ثم وافاه أجله .

وهو يستهل تاريخه مع بداية الحرب البيلوبونيزية ويقول : لقد بدأت تاريخى مع بداية الحرب نفسها لاعتقادى بأنها ستكون حرباً طويلة جديرة بالتسجيل أكثر من أية حرب وقعت حتى الآن » ، وهذا التقييم المبدئى للحرب يعتمد على أنه رأى أن جميع المدن اليونانية ولأول مرة فى التاريخ تنقسم إلى قسمين متصارعين ، ينحازُ أحدهما إلى أثينا ، والآخر إلى إسبرطة ، بل إن هذه الحرب تمتد لتشمل أطرافاً أجنبية أخرى تورطت فيها . فمن المعقول أن تمتد وتطول وتنهك كل الدويلات اليونانية التى اشتركت فيها ، بل وأن تكون نقطة تحول فى تاريخ الحضارة اليونانية التى اتخذت بعدها مساراً جديداً .

وقد تأثر توسيديد بالحركة الثقافية الأدبية والعلمية والفلسفية ، التي سادت القرن الخامس ق . م وتأثر بنوع خاص بمنهج هيبوكراتس (أبو قراط) الذي يلقب بأبي الطب والذي كان قد أسس مدرسة كبيرة لهذا العلم ، وسلك مناهج مستحدثة لم يسبقه إليها أحد . فمن هذه المدرسة تعلم توسيديد كيف ينشيء علماً للتشريح السياسي ، على نمط علم التشريح الطبي فلفهم الكلي العام لابد من تفتيته إلى جزئيات صغيرة ، وللوصول إلى التشخيص الصحيح للأمراض diagnosis لابد من ملاحظة الأعراض بدقة وتصنيفها ، ثم مقارنتها بالحالات الأخرى . وقد طبق توسيديد هذا المنهج فى معالجة موضوع الوباء الذى تفشى فى بداية هذه الحرب فيما بين عامى ٤٣٠ و ٤٢٧ ق . م والذى كان قد أصيب هو به أيضاً ، إنه يسجل لنا أعراضه المتفشية فى أثينا ، مع ملاحظة أنه فريد فى نوعه ، فمن المحال علاجه أو تعليله . ولكنه ككاتب سياسى يسلط الضوء على نتائجه السيكلوجية ، وعلى عبثية النبوءات والصلوات الهادفة إلى تجنبه . وهو يقرن تفشى الوباء بتفشى الأمراض السياسية فى المجتمع الأثينى واليونانى عامة ، إذ يقول : « ولكى تتناسب الكلمات مع التغيير الواقع فى الأحداث ، كان علينا أن نغير معانيها المعتادة والمألوفة ، فما كان من قبل يوصف عادة بأنه طائش وفيه تجاوز ، صار الآن هو بعينه ما يسمى الشجاعة المتوقعة من جانب عضو ما فى أى حزب ، وأصبح التريث الحذر والاحتياط للمستقبل ، يعنى الجبن والتخاذل . أما فكرة الاعتدال فتستخدم كستار يخفى وراءه رجلا بلا رجولة . أما إذا حاولت أن تتفهم أى مسألة من كل جوانبها فهذا يعنى الآن أنك أصبحت رجلا لاتصلح لشيء . الحماس المتطرف هو الآن سمة الرجل بالمعنى الكامل للكلمة ، كما أن التآمر والإنقضاض من وراء الظهر على العدو صارت أموراً مشروعة بدعوى الدفاع عن النفس » .

وهذا المنهج العلمى التاريخى الذى أخذ نفسه به توسيديد جعله يتناول الأحداث من وجهة نظر سياسية محددة كما جعله لايعتمد — مثل هيرودوت — على الحكايات الشعبية والروايات الشائعة ، ولا تأسره الشخصيات الملحمية أو الأحداث

التراجيدية كما تأمره الروح العلمية أو الحقيقة المجردة التى ينبغى ألا يدخر وسعاً فى البحث عنها أو السعى إليها . ومن هنا لم تدخل فى تاريخه الأنثروبولوجيا ، ولم يلجأ إلى الجغرافيا لشرح المعارك كما فعل هيرودوت . ولكنه يبدى إعجاباً خاصاً بالذكاء الإنسانى فيصف ثيميستوكليس بأنه الرجل الذى يفعل الأشياء المناسبة فى الوقت المناسب . ويحرص على الجانب الدينى والأخلاقى ، حتى ليدين انكماش العقيدة الدينية وتدهور الأخلاقيات اللذين واكبا الوباء وأديا فى النهاية إلى حدوث الانشقاق الداخلى ، الذى أدى إلى ضعف الدولة وعجزها عن مواجهة الأخطار الخارجية ، وهو يدعو إلى أن تكون الدولة قوية ولو على حساب بعض الاعتبارات الأخلاقية : ومن ثمَّ فهو لايعترض على الحملة الصقلية المشئومة التى هاجمت فيها أثينا مدينة آمنة لاذنب لها إلا إنها وقفت على الحياد وكل ما يأخذه على الحملة هو سوء تخطيطها وتدبيرها .

ومع تدينه فهو لايؤمن بالخزعبلات مثل هيرودوت ، ولا يرجع كل شيء للحظ أو القدر ، فليس القدر إلا شيئاً لايمكن أن نراه أو نلمسه أو نتنبأ به ، وليس تدخلا خارجياً تفرضه قوى فوق مستوى البشر والطبيعة ، وهو يتبع ديموكريتوس فى مقولته : « الحظ وهم خلقه البشر ليبرروا به عجزهم العقلى » وليس فى تاريخه ماينبيء بإيمانه القوى بالقدر أو فكرة الانتقام الإلهى . فمصائر البشر تقررها أسباب طبيعية وفى مقدمتها قرارات البشر أنفسهم ، وحتى الطاعون الذى اجتاح أثينا وكان يمكن اعتباره ضربة من ضربات القدر أو الحظ العاثر يفسره بأنه قصور فى بعد النظر أو غموض فى الرؤية .

والتزام توسيديد بالمنهج العلمى الصارم الذى التزمه وتركيزه على هدفه الرئيسى جعله أقل مخزوناً من هيرودوت فيما يتصل بالمعلومات التى نريد نحن أن نعرفها ، بيد أن فضوله كان يدفعه أحياناً إلى تخطى حدود منهجه فكان يستطرد استطرادات مهمة نذكر منها استطرادين : فى الاستطراد الأول عالج بداية الحضارة اليونانية ، وقَبِلَ الحكايات الأسطورية القديمة عن الحرب الطروادية . ولكنه أخضعها لشيء من المنهجية العلمية المستحدثة فى ضوء

ما تم العثور عليه آنذاك من آثار . وهدفه توضيح أن اليونان بدءوا بداية متواضعة ، ومن ثم فإن الحرب البيلوبونيزية تكتسب أهمية قصوى لأنها أكبر من كل الحروب السابقة . وفى الاستطراد الثانى تناول تاريخ اليونان فيما بين نهاية الحروب الفارسية وبداية الحرب البيلوبونيزية وأعطى لنا موجزاً لتاريخ الخمسين عاماً السابقة لاندلاع حرب البيلوبونيز . وهو بذلك يحلل بذور العداوة بين بطلى هذه الحرب : أثينا ، وإسبرطة ، والتى تتلخص فى تزايد قوة الأولى وغيرة الثانيـة منها ، ثم التناقض بين نظام الحياة فى المدينتين

وهو لايخفى رغبته فى أن تكون أثينا قوية بأية طريقة ، وأن تحكم الدنيا لو استطاعت وبأى ثمن ، وليس هـذا لأنها وطنه ومسقط رأسه فحسب ، وإنما لأنها تمثل وتجسد المثل الأعلى الذى يحلم به ويربطه بشخص الزعيم الأشهر بريكليس ، وهو يذكر لهذا الزعيم ثلاث خطب قالها فى الأثينيين من المحتمل أن يكون قد جمعها . وأعاد صياغتها ، وفى الخطبة الأولى يعالج الزعيم موضوع إدارة الحرب ، وفى الخطبة الثانية يرسم صورة مثالية لأثينا التى خُلقت لتحكم العالم وتسوسه ، وفى الخطبة الثالثة يدافع عن سياسته ضد منتقديه ويقول : إن على مواطنيه أن يستعدوا لمواجهة المخاطر مهما كانت دون أن يضحوا بأمجادهم ويصف من لايتفقون معه على ذلك بالجبن . ومع أن توسيديد عاش ليتحقق من فشل سياسة هذا الزعيم الأثينى ، إلا أنه يرى أن سياسته كانت صحيحة ، وأن الفشل يعود إلى أخطاء فى حسابات الناس الذين لم يستوعبوا هذه السياسة أو لم يرتفعوا إلى مستواها .

وهو يذكر خطباً أخرى لغير بريكليس محاولا الاحتفاظ بالروح العامة للكلمات الفعلية التى فاه بها هؤلاء الخطباء . وإن كان قد أعاد صياغة أجزاء منها ليجعلها أكثر تعبيراً وملاءمة للسياق التاريخى ، وهى إذن بمثابة تسجيل للوقائع والحقائق ، ولكنها تحوى تعليقاً داخلياً من قِبَل المؤرخ نفسه . وأحياناً يورد بعض الكلام المنقول بنصه الحرفى ، كما فى قول أهل كورينثة عن الأثينيين قبل اندلاع الحرب ! « إنهم بطبعهم لايستطيعون أن يتركوا أنفسهم أو غيرهم للعيش فى هدوء » وكقول بريكليس : « أخشى ماأخشاه ليس خطة العدو الاستراتيجية ، وإنما أخطاءنا نحن » .

(حـ) اكسينوفون

ولد حوالى عام ٤٣٠ ق . م ، وفى الحملة التى شنها قورش الأصغر على أخيه أرتاكسير كسيس الثانى لاسترداد عرشه وتفرقت بسبب موته، انضم اكسينوفون إلى قورش ثم قاد القوة اليونانية بعد موته فى طريق العودة ، وقد سجل ذلك فى رائعته التاريخية الأدبية «حملة قورش» وحرفيا « صعود قورش » Kurou Anabasis وهو عبارة عن مذكرات شخصية عن رحلة انسحابه بالقوة اليونانية من فارس إلى شاطىء البحر الأسود بعد اشتراكها فى حملة قورش . وهذه المذكرات تكشف عن قدرته الفائقة على رسم الشخصيات وتحديد ملامحها ، وخبرته العسكرية بفنون الحرب والمناورات، ولكنها لا ترقى به إلى مستوى دقة توسيديد ومنهجه العلمى الصارم .

وبعد حملة قورش انضم اكسينوفون وكثير ممن كانوا معه فى الحملة إلى أجيسيلاؤس ملك إسبرطة فى حملته الآسيوية ، فقد كان مفتونا بإسبرطة ، وقد حارب إلى جانب أعداء أثينا فى موقعة كورونيا عام ٣٩٤ ق . م فعوقب بالنفى، مما اضطره إلى الإقامة الدائمة فى مزرعة لـــه فى سكيللوس بإقليم إيليس حيث عاش تحت الحماية الإسبرطية ، وهناك كتب أهم أعماله التاريخية والأدبية ، والتى كان قد جمع مادتها ودوّن مذكرات عنها من قبل ، ثم عاد إلى أثينا وبقى بها حتى وافته منيته عام ٣٥٤ ق . م تقريبا .

وفى كتابه « الأمور الهيللينية » Hellenika أكمل اكسينوفون قصة أثينـــا ، وأمسك بالخيط من حيث تركه توسيديد ، فسد الثغرة الواقعة بين عام ٤١١ وحتى سقوط أثينا عام ٤٠٤ ق . م بل واصل المسيرة حتى معركة مانتينيا عام ٣٦٢ ق م .

ومع ما يمتاز به توسيديد من دقـــة علمية ، فإن اكسينوفون يتمتع بحس دارمى مرهف وقدرة فائقة على الكتابة فى سلاسة ويسر ، ووصف رائع لما يعرض لـــه من أحداث ومشاهد ، كوصفه لبكاء المواطنين عند الأسوار الطويلة الممتدة من بيريه إلى أثينا عندما علموا بأن الأسطول الأثينى قد تحطم فى أرجينوساى .

ويأتى بعد هذا الكتاب كملحق له كتاب « أجيسيلاؤس » وهو سيرة شخصية تمجد هذا الملك ونشرت بعد موته عام ٣٦١ — ٣٦٠ ق . م .

أما كتابه « تربية قورش » Kurou Paideia فيعتبر أول رواية تاريخية أخلاقية تصلنا من العالم القديم وهى تحكى قصة قورش منذ طفولته وحتى موته ، وهى ترجمة لسيرة قورش بهدف إبراز الجانب التربوى ، ومع أنه يقلد توسيديد فى نقله الأحاديث المباشرة على لسان الشخصيات الأصلية التى قامت بها ، إلا أن هذه الأحاديث ذات الطابع الدرامى عنـد توسيديد لاتلعب دوراً حيويا فى كتاب اكسينوفون ، ثم إن ميله للنظام الإسبرطى فى الحياة والحكم جعله لايتحمس لأثينا.

وعرف اكسينوفون سقراط واتصل به وسجل معه أحاديث فى « المذكرات » Apomnemoneumata ومع إعجابه الشخصى به واعتناق تعاليمه الأخلاقية : فإنـه لم يع تماما كنه فلسفته .

الفصل الثانى

الخطـابة

(١) نشأة الخطابة وأجزاؤها

لم تُعرف الخطابة كفن أدبى مستقل ومتطور قبل القرن الخامس ق . م . ولكن الخطابة كوسيلة من وسائل الإقناع عُرفت قبل ذلك ، وتتحدث الإلياذة فى الكتاب الثانى عن الدور الخطير الذى لعبه أجا ممنون وأوديسيوس ونستور فى نجاح الحملة اليونانية على طروادة ، حين قاموا خطباء ، يحاولون إقناع الجنود بالمضى فى القتال ، ويحثونهم على التماسك والترابط ، ويدفعونهم إلى التضحية والفداء ، وكما أعطى هوميروس الكلمة لقواده ، وأبطاله لكى يخطبوا فى أتباعهم ، فإن هيرودوت قد فعل نفس الشىء . بيد أن الديموقراطية فى الحياة اليونانية كانت قد تطورت ، وتطورت معها الخطابة ، واكتسبت طابعاً جديداً ، وقد استلزمت هذه الحيـاة الديموقراطية إبراز ثلاثة أنواع من الخطابة على حسب من يُوجَّه إليهم الخطاب ، فهؤلاء إما متفرجون فى حفل أو استعراض ، وإما قضاة ، والقضاة إما أن يحكموا على الأفعال الماضية كما فى المحاكم ، أو على الأفعال المقبلة ، كما فى مجالس الشورى أو البرلمانات ، ومن هنا كانت أنواع الخطابة ثلاثة : الاستدلالية **éPidictique** وموضوعها المدح أو الذم ، وهما يتعلقان عادة بالأفعال الحاضرة مع الرجوع أحياناً إلى مايتصل بها من الماضى ، فزمنها هو الحاضر ، والقضائية **Judiciaire** وموضوعها الاتهام والدفاع ، فزمنها هو الماضى ، لأن الحكم يكون على الأفعال التى حدثت ، والاستشارية **délibératif** (وهى الخطابة السياسية) وموضوعها النصح بفعل شىء أوعدم فعله ، فزمنها هو المستقبل ، لأن الناس يستشيرون فيما ينبغى عمله مستقبلا .

ومنذ أن وُجدت الخطابة عند اليونان منذ أواخر القرن الخامس ق . م . ولها معنى واحد هو : دراسة وجوه الكلام وكيفية تأثيره ، وقد كانت بذلك ذات صبغة عملية . وكان السوفسطائيون يلقنون فيها المرء كيف يستطيع إيهام القضاة فى

المحاكم ، ونواب الشعب أو الجماهير فى المجتمعات السياسـية بما يرون إيهامهم به من آراء وقضايا عامة ، وينشأ عن ذلك أن يكون هناك نوعان من الخطابة ، الخطابة الصحيحة ، وهى طريق الوصول إلى المعرفة ، أو تشخيص هذه المعرفة ، فهى نوع من الفلسفة الملهمة ، والخطابة السيئة ، وهى الصادرة عن امرىء يقول مالايعرف، فيُفضى به الجهل إلى تكرار عبارات قد تكون مصقولة ولكنها فارغة ، فهى نوع من رياضة المرء على صنعة الكلام فحسب، أو الصادرة عن امرىء يعرف مالا يقول ، أى يعرف الحق ويتجاهله ، فيمارس على سامعيه نوعاً من مقدرته على رياضة الكلام ، وفى هاتين الحالتين لاتساعد البلاغة على الوصول إلى المعرفة ، بل تكون وسيلة للتضليل ، فهى فى هذه الحالة ليست فناً ، ولكنها حرفة خالية من الفن ، والذين يمارسون هذا النوع هم المغالطون السوفسطائيون الذين يؤثرون التحدث فيما له مظهر الحقيقة ، والخطباء المهنيون ، والخطابة عندهم ذات قواعد شكلية ترمى إلى إيهام الآخرين بصواب فكرتهم على أية حال كانت الفكرة .

ولأن الخطابة فى المحاكم العامة dikasteria تحتـاج إلى قدرة فائقة فى إقناع المحلفين فقد انتهى الأمر إلى ضرورة وجود محامين محترفين يعيشون على فن صياغة خطب المحاكم للأطراف المتخاصمة ، وقد طوّر هؤلاء الخطباء المحترفون تقنية مميزة أصبحت تشكل أساساً للمسائل القانونية ، وبرز اسم كوراكس كمؤسس للخطابة الحرفية ، وكتب كتاباً عن مبادئها ، وسار على نهجه تلميذه تيزياس ، كما كتب الخطباء المحترفون نماذج للخطب ، وصار المعجبون بها من عامة الناس يحفظونها عن ظهر قلب ، ويدربون أبناءهم عليها . وقد عيب هؤلاء بأنهم لم يعنوا بالقواعد الفنية للبراهين ، وكان جل همهم تعليم مابه يجتذبون أنظار القضاة إلى آرائهم ، مما هو خارج عن طبيعة الموضوع ، كما أنهم لم يهتموا إلا بالخطابة القضائية ، حيث تكون هذه الوسائل مدعاة إلى تحير القضاة فى الحكم ، فتصبح الخطابة مجلبة للمنافع الخاصة .

وتتكون الخطابة من أربعة أجزاء ، الجزءان الرئيسيان منها هما : عرض الحالة والحجة ، أو شرح الحالة والبرهنة عليها ، وقبلهما تأتى المقدمة لتقرير الموضوع ، لتتضح المسألة التى يُطلب الحكم عليها ، وبعدهما تأتى الخاتمة ، لاختصار الحجج التى تمت البرهنة بها على الحالة .

(٢) دور السوفسطائيين فى رقى الخطابة

ولا شك أن للسوفسطائيين دور كبير فى رقى الخطابة ، بما قدموه من بحوث فى الخطابة واللغة ، وجدال حول معانى الكلمات ، واختلاف فى إدراكها .

وفى الوقت الذى كان الفلاسفة يطوّرون النثر ويخضعونه لآرائهم وأفكارهم ، كان السوفسطائيون يطورون النثر الأدبى ويدخلون به مجالات جديدة وآفاقاً رحبة ، وكان اليونان يحققون نهضة حضارية ومادية وفكرية لم يسبق لها مثيل فى تاريخهم ، ويمكن القول بأن نصف القرن الذى تلا معركة سلامين (عام ٤٨٠ ق . م) يشكل أروع فترة فى تاريخ أثينا ، ففى عام ٤٧٠ ق . م بدأ يلمع نجم بريكليس الذى أصبح هذا العصر الذهبى كله يُقرن بإسمه . والذى كان مواطنوه يسمونه « زوس البشر » فنى عصره توطدت دعائم الديموقراطية والحرية ، حرية الفرد وحرية التعبير ، وفى عصره ارتقت الفنون والآداب وحققت تقدماً هائلا . وارتقى بنوع خاص فن النحت وفن العمارة . وفى عصره أصبح دخول المسرح بالمجان ، وصُرفت لأول مرة أجور للمحلفين فى المحاكم ولأعضاء مجلس الشورى ، وامتلأت حياة الأثينيين بكل صنوف النشاط والإثارة ، وازدانت أيامهم بمختلف الاحتفالات والمهرجانات الدينية وغير الدينية ، ومختلف المباريات الرياضية والثقافية وأصبحت أثينا كما يقول بريكليس نفسه « مدرسة هيلاس » أى اليونان .

وفى هذا الجو السياسى والفكرى والفنى ظهر السوفسطائيون كعلمين موسوعيين يحاضرون فى فنون الكلام والمنطق والعلوم الطبيعية واللغوية . وكانت كلمة سوفسطائى Sophistes تعنى أصلا الماهر فى حرفته أو البارع فى فنه ، ثم أصبحت تطلق على الشخص المحنك الخبير بفن الحياة أى «الحكيم» ومنذ أواخر القرن الخامس ق.م. أخذت تطلق على هؤلاء المعلمين المتجولين الذين كانوا يعلمون النحو والبلاغة والخطابة والسياسة وغير ذلك من ألوان المعرفة ، كالشعر والموسيقى ، وكان بعضهم يعلّم الفلك والرياضيات . وتركزت جهودهم حول تعليم فنون الخطابة من بيان وبديع وسجع وجناس وطباق ، وجمل متوازية أو عبارات متقابلة ، وكانوا يتقاضون أجوراً نظير خدماتهم التعليمية ، كما كانوا يهدفون إلى أن يبرع طلابهم

فى الحوار والنقاش والجدل والإقناع سواء بالحق أو بالباطل ، ومن هنا اكتسبت كلمة « سوفسطائى » معناها المرذول ، الذى يتضمن المراوغة والتضليل والخداع ، وهذا ماأثار ضدهم حفيظة بعض الكتاب والمفكرين ، وفى مقدمتهم أفلاطون ، وأريستوفانيس .

وكان السوفسطائيون فى مجموعهم يمثلون اتجاهاً فكرياً يدعو إلى عدم التسليم بالتقاليد الموروثة أو العادات القديمة ، والتحرر من المعتقدات الدينية العتيقة ، بل لم يسلموا بوجود دستور أخلاقى يحتم على المرء سلوكاً معيناً فى الحيـــاة ، كانوا يعتقدون أن كل شىء قابل للشك والنقد الصريح ، بل وللتجريح . وقال بعضهم ! إن من المحال معرفة أى شىء على وجه اليقين بسبب قصر عمر الإنسان .

كانت حركتهم إذن حركة فكرية تقدمية مستنيرة ، من شأنها تحرير الفرد من قيود المجتمع ، وإطلاق العنان لتفكيره . والاســتقلال برأيه ، والتخلص من الخزعبلات ، وعدم الرضوخ للمسلمات ، ولم يقصروا جهودهم على التعليم ، فقد ناقشوا موضوعات الساعة ، وكتبوا فى السياسة ، وقاموا بما تقوم به الآن الصحف اليومية ، وكان معظمهم أصحاب مبادىء تدعو إلى الخير والصلاح ، ولم يصحب حركتهم فساد أو انحلال خلقى ، أو خروج على القانون .

بيد أنهم كانوا موضع نقد شديد ، بسبب تقديمهم العلم نظير أجر . وكان ارتفاع أجورهم يبغضهم إلى الفقراء الذين يريدون التعلم ولا يقدرون على ثمنه .

وقد لعب السوفسطائيون دوراً مهماً فى تطوير الفكر الإنسانى ، إذ تأثر بهم الكتابُ الناثرون كالخطباء والمؤرخين ، والشعراءُ المسرحيون ولاسيا يوربيديس .

٣) السوفسطائيون والخطباء

(أ) بروتاجوراس

من زعماء المدرسة السوفسطائية بروتاجوراس (٤٨٥ — ٤١٥ ق . م) وكان له فضل كبير على الدراسات النحوية ، إذ درس حالات الإعراب . وصيغ الأفعال وأزمانها ، وفرّق بين صيغ التمنى والاستفهام والتقرير والأمر وما إلى ذلك . وقال أفلاطون عنه (فى محاورة بروتاجوراس) : إنه كان يقتطف من الشعراء أمثلة لآرائه النحوية واللغوية .

(ب) بروديكوس

ومن هؤلاء الزعماء بروديكوس (وقد ذكره أفلاطون فى محاورة بروتاجوراس ويبدو أنه كان محدداً ودقيقاً فى تعبيراته إلى أبعد حد ، فى مقابلة تعبيرات هيبياس الفضفاضة ، وأنه كان محبباً إلى سقراط ، بسبب تحديده لمعانى المفردات ودقته فى استعمالها .

(ح) جورجياس

ومنهم جورجياس (٤٨٣ — ٣٧٥ ق . م) المولود فى مدينـــة ليونتينى leontini من أعمـــال صقلية . والذى أخـــذ العلم واللغة عن إمبيدوكليس Empedokles ذلك العبقرى الذى اعتبره أرسطو منشىء علم البيان ، ونسب إليه النـــاقد الرومانى كينتيليانوس Quintilianus وضع قوانين الخطابة الأولى ، وقد زار جورجياس أثينا عام ٤٢٧ ق . م على رأس بعثة رسمية ، فخلب الألباب ببلاغته ، وأحدث ثورة عارمة فى مفاهيم الفكر ، إذ أعلن صراحة أن النثر فن أدبى راق لايقل فى ذلك عن الشعر ، وقد أثر تأثيراً كبيراً فى دارسى فن الخطابة ، وممن تأثر به توسيديد ، واتخذه أفلاطون مثلا صارخاً على خطورة الخطابة وقوة تأثيرها فى الحياة العامة . وبلغ الغاية فى الإقناع عن طريق تحريك الأفكار وإثارة المشاعر معاً ، وكان يعتمد على اللغة الواضحة الدقيقة ، ويصوغ عباراته بحيث لاتخلو من الإيقاع الذى يستعين به على إثارة الانفعالات ، كما كان يراعى فى صياغتها « تمثيل المنظر أمام العيون » بحيث تبدو كأنها « درامية » فى تقديمها ، كما كان يبحث عن الاستعارات التصويرية الملائمة للموضوع ، مستعيناً بالدلائل والعلامات والأقيسة للانتقال من المعلوم إلى المجهول . وتمييز الممكن من

غيره ، وكان يتخذ من المجاز وسيلة لعرض أفكار جديدة ، ويعتمد على التشبيه والاستعارة وحسن التقسيم والإيقاع ، كما يعتمد على التنظير فأورد حالات كثيرة مشابهة للحالة التى يريد الاستدلال عليها ، للبرهنة على أنها نظيرتها ، واستعمل القياس المضمر الذى يحذف فيه حده الأصغر ، وهو مماثل للقياس الثلاثى فى المنطق ، وأخذ الحجة من التضاد بين الأسماء . ومن الموازنة بين نتيجة أمرين متعارضين . وكان إسهامه فى الخطابة ضخماً ، بحيث أصبح هذا الفن يقرن باسمه ، وأصبح الناس يتحدثون عن الأساليب الجورجياسية » و تعزى إليه هذه العبارة : « الكلمة قديرة فى قوتها ، ضئيلة فى جسمها ، بل قد تكون غير مرئية ، ولكنها بأفعالها التى تنجزها تكتسب صفة القدسية ، فهى التى تؤمن من خوف ، وتحرر من ألم ، وتجلب السرور ، وتنمى الشفقة » .

(ى) أنتيفــون

من الخطباء اللامعين أنتيفون (٤٨٠ — ٤١١ ق . م تقريباً) . وهو من رامنوس ، كان أبوه معلماً ، وتربى تربية صالحة ، واحترف كتابة الخطابة للناس ، متأثراً بجورجياس .

(هـ) لوسياس

ولمع إسم لوسياس (٤٥٩ — ٣٨٠ ق . م تقريباً) وهو ابن كيفالوس الذى يرسم له أفلاطون (فى الكتاب الأول من الجمهورية) صورة جيدة .

وقد ولد فى سيراقوسيا ، وعاش فى بيريه (وقيل ولد فى أثينا وعاش الثلاثين عاماً الأولى من حياته فى صقلية وجنوب إيطاليا) وكان ميسور الحال ، ولكنه فقد معظم ثروته بعد أن حكم على أخيه بوليمارخوس بالإعدام من قبل حكومة الثلاثين واضطر للهرب من أثينا . واضطرته ظروفه المادية لكتابة الخطب للآخرين . فحقق نجاحاً ملموساً بفضل إلمامه بالحيل الخطابية التى برع فى إخفائها تحت رداء البساطة والعفوية مما زاد خطبه جاذبية وتأثيراً . وبدت خطبه وكأنها تلقائية ، أو مرتجلة على لسان المتخصم نفسه ومن بنت الساعة ، وتلك قمة فى بلاغة الخطابة القضائية لم يصل إليها أحد قبله ، ومع أنه يرتب مفرداته وينسقها فإنها تبدو كأنها مهملة لم تلق أية عناية من التهذيب والتشذيب . فهو إذن يمثل البساطة لا الفخامة فى تاريخ الخطابة اليونانية ، وتبرز براعته فى قدرته على تقمص

شخصيات زبائنه الذين يكتب لهم ، وأفضل الأمثلة على ذلك خطبته التي كتبها دفاعاً عن إيوفيليتوس الذي قتل رجلا زنى بزوجته وضبطه متلبساً ، فهو يحكي قصة هذا الزوج المخدوع . وكيف أنه رجل طيب القلب كان يثق في زوجته ثقة عمياء ، فلما اكتشف خيانتها لم يكن بوسعه أن يفعل غير ما فعل ، وتتضمن الخطبة تفاصيل كثيرة وقعت يوم الحادث وتفيد كلها في رسم شخصية الزوج وتبرير مسلكه العنيف ، ويسردها لوسياس في لغة سهلة يسودها الوضوح والبساطة. وقد وصل لوسياس بفن الخطابة القضائية إلى قمة لم يبلغها أحد قبله ، وكان أول أديب ناثر يجسد حقيقة أن الوضوح لايتنافى مع قوة التأثير .

(و) إيسوكراتيس :

ولمع اسم إيسوكراتيس بن إثيودوروس . وقد عاش فيما بين عامي (٤٣٦ — ٣٣٨ ق. م) وحقق نجاحاً منقطع النظير ككاتب محترف للخطب من أجل الآخرين ، وبرز ككاتب ومعلم مقالات ، ولكنه فشل كخطيب إذ كان يفتقر إلى شجاعة الروح وقوة الصوت وهي من مستلزمات من يخطب في الناس . وكان يؤمن بضرورة أن تكون لغة الخطابة من لغة الحياة اليومية ، على أن تختار المفردات بعناية وتنسق تنسيقاً حسناً . ولذا كان أكثر الخطباء جاذبية .

وشغلت حياته دعوته المتواصلة لبني جلدته من اليونان أن يرتفعوا فوق نزاعاتهم الداخلية وأن يوحدوا صفوفهم—لاسيما أثينا واسبرطة — لمواجهة الفرس العدو المشترك . وفشلت دعوته لأن طيبة كانت قد ظهرت فجأة وسعت إلى الزعامة ، مما أدى إلى قيام حروب جديدة . وعندما ظهر فليب الثاني ملك مقدونيا وشرع يوسع حدود مملكته جنوباً أيده إيسوكراتيس ورأى فيه المخلص والمنقذ ، بينما وقف كثير من اليونان ضد سياسته التوسعية . وفي عام ٣٤٦ق.م ناشده بأن يوحد المدن اليونانية ويحشد منها الجيوش ليفتح بلاد الشرق، وفي عام ٣٣٨ق.م هزم فليب كلا من أثينا وطيبة في موقعة خايرونيا وكان إيسوكراتيس حينئذ في سن الثامنة والتسعين ، ولا شك أنه قرّ عينا بذلك ومات مطمئنا . وقد حقق الإسكندر الأكبر حلمه الكبير بعد ذلك ووصل بفتوحاته إلى الهند .

وفي محاورة « فايدروس » لأفلاطون يقارنه سقراط بالخطيب لوسياس ، ويفضله

عليه لأن له فلسفة فى الحياة ، ويتفق إيسوكراتيس مع أفلاطون فى اهتمامه البالغ بالتربية والتعليم والنظرة السياسية ، بيد أنه يعمل من أجل تحقيق أهداف مباشرة وواضحة وضعها نصب عينيه . وأسلوبه يتميز بالرزانة والرصانة والاستقامة وإن افتقر إلى سلاسة لوسياس وعفويته .

وفى خطبته « ضد السوفسطائيين » المكتوبة عام ٣٩٠م ق . م يهاجم هؤلاء الذين يدّعون أنهم يعلمون الناس أكثر مما بوسعهم هم أنفسهم أن يلموا به ، زاعمين أنهم يعرفون حق المعرفة السلوك السليم والطريق القويم نحو الفضيلة ، وهو فى هذه الخطبة ينتقد السفسطة والسوفسطائيين الذين انتهى بهم الأمر إلى الشغف بالجدل من أجل الجدل ذاته .

(ز) ديموستين

ولمع اسم ديموستين (٣٨٤ — ٣٢٢ ق . م تقريباً) لا كخطيب فقط . بل كأفضل خطباء الإغريق جميعاً . كان أبوه صاحب مصنع للسيوف ، ومات وتركه فى سن السابعة ، وترك له ميراثاً كبيراً ، ولكن الأوصياء عليه اختلسوه قبل أن يبلغ سن الرشد ، وفى سن العشرين أصبح خطيباً مفوهاً ، واحترف كتابة الخطب وأسلوبه ضخم رنان ، يتميز بالقوة والإقناع ويصطبغ بصبغة أخلاقية . وبدأ نجمه يتألق باعتلاء فليب الثانى عرش مقدونيا عام ٣٥٩ ق . م . إذا أخذ على عاتقه أن يكشف خططه التوسعية وأطماعه السياسية فى بلاد اليونان ، وألقى خطبه المشهورة « الفليبيات » محذراً الأثينيين من انتشار نفوذ مقدونيا وحثهم على مواجهتها ، وكان يؤيده فى سياسته المناهضة للمقدونيين ليكورجوس (٣٩٠ — ٣٢٥ ق . م . تقريباً) وهو رجل دولة وسياسى أكثر منه خطيباً ، وبلغ من حبه وتقديره للأدب أن استصدر قراراً بجمع وحفظ نسخ من نصوص شعراء التراجيديا الثلاثة : ايسكيلوس وسوفوكليس ويوريبيديس وجاءت موقعة خايرونيا عام ٣٣٨ ق . م فأخرست كل لسان للمقاومة .

وكان لديموستين غريم هو إيسخين (٣٨٩ — ٣١٤ ق . م تقريباً) وقد وُلد لأبوين فقيرين ، وعاش موظفاً صغيراً بإحدى المحاكم . ثم ممثلا محترفاً ، فقد كان رخيم الصوت جميل الهيئة ، وربما بسبب ذلك كان مقنعاً ومؤثراً ، ولكن ...

بخطبه القوة والعنف المميزين لخطب ديموستين ، وحدث فى عام ٣٣٦ ق.م أن عرض أحد أنصار ديموستين وهو كتيسيفون تتويجه مكافأة له على خدماته التى أداها للدولة ، فاعترض إيسخين بشدة ، وقدم اتهاماً رسمياً ضد كتيسيفون ، مستنداً إلى عدم شرعية المشروع المعروض للتصويت ، وجره ذلك إلى اتهام ديموستين نفسه والهجوم عليه وانتقاد أفكاره السياسية ككل . ورد ديموستين برائعته التى تعد أوج الازدهار ، وأسمى ما وصلت إليه الخطابة اليونانية بوجه عام . وهى الخطبة المعروفة بعنوان « عن التاج » وفيها يدفع ديموستين التهمة عن كتيسيفون ، ويدافع عن سياسته المناهضة للمقدونيين ويشن حملة شعواء على إيسخين .

ومع أن خطبتى الغريمين ديموستين وإيسخين قد ألقيتا فى المحاكم ، إلا أنهما تتمتعان بسمات الخطب السياسية العامة . إذ هما يتعاملان مع قضية تتعلق بوضع أثينا فى العالم اليونانى وبقائها كدولة مستقلة ، فبينما يدعو إيسخين إلى الخضوع لمقدونيا والتعاون مع فليب ، يحث ديموستين اليونان على مقاومته بالقوة . فهو يمثل صوت المعارضة السياسية ، ويقف تحت لواء الديمقراطية والحرية فى مواجهة قوى الطغيان والاستعباد ، وأقوى انطباع نخرج به من خطبه هو حب صاحبها العنيف لأثينا ، وضرورة وقف المد المقدونى . فأثينا هى المدينة الجديرة بأن تتبوأ عرش المجد والعظمة ، فهى النموذج المثالى بين كافة المدن اليونانية ، وهو على أتم استعداد لأن يفعل أى شىء فى سبيل رفعتها ، وهذا ما فعله عندما شرب السم عام ٤٢٢ ق . م حتى لا يستسلم للقائد المقدونى انتيباتير ونائبه ديماديس . إنه يرى فيهم أعداء وطنه ويقول عنهم فى نهاية خطبته « عن التاج » : « ليت أحداً منكم أيتها الآلهة لا يستسلم لرغباتهم ، وليتكم إن كان بوسعكم أن تزرعوا فى هؤلاء الناس عقولا وقلوباً أفضل مما لديهم ، أما إذا كانت حالتهم مستعصية على العلاج فأنزلوا بهم ، وبهم وحدهم ، الدمار الكامل والمعجل براً وبحراً ، وبأقصى سرعة ممكنة ، هيئوا لنا — نحن الشاكرين لكم الفضل — الخلاص من المخاوف التى تهدد أمننا ، وأنعموا علينا بالأمان الثابت الذى لا يتزعزع » .

بيد أننا نذكر إنصافاً لإيسخين أن موقفه لا يعنى بالضرورة أنه خائن أو عميل ، فنحن لا نملك الدليل على ذلك ، بل إن فليب والإسكندر الأكبر كانا يكنان كل تقدير وإعجاب لمدينة أثينا ، وكانا ينويان معاملتها أفضل معاملة ، ومن ثم فكان إيسخين

رجلا مرناً رأى أن أثينا يمكن أن تحتفظ لنفسها بقدر معقول من الاستقلال إذا قبلت بعض الشروط المقدونية ، أو هو كان يعتبر السلام المشرف مع مقدونيا أفضل بكثير من تلقى الهزيمة المنكرة والمخزية على يدها ، وعندما اندلعت الحرب فعلا وسقطت أثينا بكى إيسخين الكرامة المهدرة ، فأثينا التى كانت ملاذ كل يونانى وواحة الأمان فى ذلك العصر المضطرب ، أصبحت الآن تكافح بشق الأنفس من أجل الحفاظ على ترابها .

وعلى أية حال فقد أثبت التاريخ أن كلا من إيسخين وديموستين كان على خطأ ، إذا أثبتت فتوحات الإسكندر الأكبر أن عصر دولة المدينة قد ولى إلى غير رجعة ، وهكذا سقط النموذج المثالى الذى تعبد فى محرابه ديموستين ولبعض الوقت بدت رؤية إيسخين صائبة ، ولكن ما إن مات الإسكندر الأكبر ، وجاء خلفاؤه وتقاسموا ثمرات فتوحاته فيما بينهم بقوة السلاح ، حتى ثبت أن إيسخين أيضاً كان مخطئاً فى تقديراته ،

الفصل الثالث

الفلسفة

١ – نشأة الفلسفة :

سبق هزيود الشعراء والفلاسفة الأوائل ، وحاول أن يشرح نظام الكون وأنساب الآلهة شعراً ، وجاء بعده من الشعراء من احتذى حذوه ، فرأينا كسينو فانيس (٥٧٠ – ٤٧٩ ق . م) يستخدم الوزن الإليجى فى نقد العيوب الاجتماعية الشائعة ، ثم يستخدم الوزن السداسى حين عرض لفلسفة الكون (الكوزمولوجيا) لأنه الوزن الأنسب لها ، ورأيناه يرفض فكرة انثروبومورفية (ناسوتية) الآلهة الموروثة عن هوميروس ، وينفى عنهم كل الأساطير التى تقول إنهم يسرقون أويزنون ، أو يخدعون . ويبدو كأنه كان توحيدياً ، إذ يقول : « بين الآلهة والبشر يوجد إله واحد ، الإله الأعلى ، وهو لايشبه البشر فى الجسد أو الروح كل ما فيه يرى ، وكل ما فيه يفكر ، وكل ما فيه يسمع » ويُنسب إليه أنه قال : « لوكان للخيول أو للثيران أو للأسود أياد ترسم الآلهة كما يفعل البشر ، لرسمت الخيول آلهتها خيولا ، ورسمت الثيران آلهتها ثيرانا . . . فالأثيوبيون يصفون آلهتهم بأنهم ذوو أنوف فطس، وبشرتهم سوداء . فى حين يتصور الطراقيون آلهتهم بعيون زرقاء ، وخصلات شعر شقراء » .

ثم جاء بارمينيديس (حوالى ٥٢٠ – ٤٥٠ ق . م) وحاول أن يشرح بالوزن السداسى فكرته عن الحقيقة كجوهر لايتغير فى مقابل المظهر المتغير والذى هو عبارة عن مجموعة من المتناقضات لانملك إزاءها سوى التخمين . وحاول بارمينيديس أن يعطى لنفسه وموضوعه أهمية خاصة ، فبدأ أبياته بتصوير نفسه ممتطياً عربة تتجه نحو بوابات الليل والنهار ، حيث ترحب به إحدى الربات وتكشف له النقاب عن بعض الأسرار الكونية .

وجاء بعدهما إمبيدوكليس من أكراجاس (٤٩٤ – ٤٣٤ ق . م (ونظم كتابين

بالوزن السداسى هما « التطهيرات » Katharmoi و « فى الطبيعة » Peri physeos ، ويبلغان حوالى ٥٠٠٠ بيتاً ، ويتناول الأول منهما المعتقدات الدينية الشائعة فى صقلية آنذاك بما فيها فكرة تناسخ الأرواح metamorphosis التى كان يؤمن بها إيماناً راسخاً. وفى الكتاب الثانى يتعامل مع مادة أكثر علمية وأوفر تشعباً بالمصطلح التقنى ، وفيه يطرح فكرة أن الحقيقة الأزلية تنحصر فى أربعة عناصر أصلية rhizomata هى التراب والماء والهواء والنار ، وقد ظلت فكرة العناصر الأربعة هذه مثارجدل لعدة قرون ، كما تركت تأثيرات قوية على الفكر والأدب العالميين . وقد ضمن إمبيدوكليس كتابه كثيراً من فقرات الجدل ، وزوده بمختلف الأدلة والبراهين دون أن يأتى ذلك على حساب الدفء الشعرى . وهو يستخدم الأسطورة كأداة لنقل الفكرة ، ولكن الفكرة عنده فلسفية متصلة بنظام الكون ، والعالم عنده يخضع لقوتين : الحب Philia والشقاق Neikos . وهما تسببان على التوالى التخلق أو الولادة ، والتلاشى أو الفناء .

وأول من لجأ إلى النثر لتوصيل الأفكار الفلسفية ، فلاسفة المدرسة اليونية على ساحل آسيا الصغرى ، وفى مقدمتهم طاليس من ميليتوس ، وهو أحد الحكماء السبعة ، وكان معاصراً لسولون ، وكان عالماً وفيلسوفاً ، استطاع أن يقيس مسافة بعد السفينة فى البحرمن ارتفاع شراعها ، وتنبأ بكسوف الشمس الذى وقع فى ٢٨ من مايو سنة ٥٨٥ ق . م : ومن أهم مبادئه الفلسفية القول بأن الماء أصل كل شىء . ولم يسجل أفكاره ولا تأملاته الفلسفية ولانظراته العلمية ، واعتمد على تدريسها مشافهة للتلاميذ والمريدين .

ومن أوائل الفلاسفة الناثرين أناكسيماندروس (٦١٠ — ٥٤٠ ق . م) وتلميذه أناكسيمينيس (ازدهر حوالى عام ٥٤٦ ق . م) وقد ألفا كتباً عن بنية الكون واستمدا لغتهما من أسلوب الحديث اليومى .

ولعل بيثاجوراس (فيثاغورس) وقد ولد حوالى عام ٥٨٠ ق . م هو أهم الفلاسفة الذى كان لهم أكبر الأثر فى أفلاطون بعد سقراط ، وقد هرب من ساموس حوالى عام ٥٣١ ق . م ، وهاجر إلى كروتونا بإيطاليا حيث أسس مدرسة اهتمت بالسلوك العملى والأخلاقيات والتأمل ، وأقام تلاميذه معه فى المدرسة إقامة كاملة ،

فتناولوا وجبات الطعام والشراب معاً ، ومارسوا التقشف الصارم أحياناً ، وامتنعوا عن أكل اللحوم وعاشوا على النباتات ، وقضوا وقتاً طويلا فى التدريبات الروحية . وطوَّر فيثاغورس الدراسات الرياضية والهندسية، وكان الفيثاغورسيون — كالأورفيين — موسيقيين فدرسوا الموسيقى وعلم الأصوات على أسس رياضية . وكان فيثاغورس يؤمن بتناسخ الأرواح .

وكان هيرا كليتوس الإفيسى (وقد ازدهر حوالى عام ٥٠٠ ق . م) يلقب بالغامض، لأنه كان يرى ضرورة أن تكون لغة الفلسفة غامضة ، حيث يُتوجه بها إلى جمهور الصفوة لا العامة . وكتب ما كتب بأسلوب تنبؤى ، كما تفعل نبوءة دلف . وذلك باستخدام الصور والمجازات والعبارات المتناقضة.وإليه يعزى القول « بأن الإله أبوللون مليك نبوءة دلف لايفصح عن الحقيقة ولايخفيها ، ولكنه فقط يشير إليها » . ومن هنا نفهم أسلوبه التنبؤى فى الكتابة ، فهو مثلا يقول : « الطريق إلى أعلى كالطريق إلى أسفل ، بل هو نفس الطريق » ويقول أيضاً : « الفانون خالدون ، والخالدون فانون ، إذ أن كلا منهما يعيش حياة الآخر » . ومن الشذرات المتبقية من مؤلفه « فى الطبيعة» يُفهم أنه كان يميل إلى حياة العزلة . وأنه كان يرى أن العنصر الأزلى الأصلى هو النار ، فسبق بذلك الرواقيين ، بل إنه ذكر قبلهم فكرة « الحريق » الكونى الهائل الذي يلتهم كل شىء فى الوجود ليعاد خلقه من جديد بين الحين والحين ، ومن أقواله المأثورة : «إن المرء لايستطيع أن يستحم مرتين فى نفس النهر» بمعنى أن كل شىء فى تغير مستمر حتى إنك عندما تنزل النهر مرتين ، فإنه فى المرة الثانية يكون قد تغير وأصبح نهراً آخر . ومن هذه المقولة جاءت فكرة أن كل الأشياء تتحرك Panta rhei وهى فكرة تسيطر على عقلية اليونان وتظهر كثيراً فى كتاباتهم النثرية والشعرية . ekpyrosis

ومن أشهر فلاسفة اليونان هيبوكراتيس (أبوقراط) ويلقب بأبى الطب ، وهو عالم طبيعى ولد تقريباً عام ٤٦٠ ق . م ، وتنسب إليه أو إلى تلاميذه من أتباع أسكليبوس (إله الطب فى جزيرة كيوس) حوالى ثلاثة وخمسين مؤلفاً طبياً .

وإذا رجعنا إلى الفلاسفة الأوائل فى يونيا وجدناهم لاينشرون آراءهم وتعاليمهم

كتابة بل مشافهة ، ورأينا زعيمهم سقراط ، لم يكتب « محاورات » وإنما كان يمارس الحوار الحى فحسب ، وهو الفيلسوف الكبير الوحيد الذى لم يترك سطراً واحداً مكتوباً ، ولم يحاول أن يدوِّن شيئاً من أفكاره أو محاوراته الفعلية ، وذلك اعتقاداً منه بأن هذه هى الطريقة الحقيقية للتفلسف .

ودانت فلسفة اليونان بوجودها — إلى حد بعيد — للمناقشة الشفوية ، فقد كانت أمة متكلمة بقدر يفوق الحد ، ومن هنا ازدهرت بينهم فنون البلاغة والخطابة والشعر والجدل والمنطق وغيرها من فنون الكلمة . وقد قضى سقراط ذاته حياته متكلماً ، وظل لهذه الحقيقة تأثيرها الدائم فى الفلسفة اليونانية .

(٢) الفلاسفة

(أ) سقراط :

ولد سقراط فى إحدى القرى الأتيكية ، ولكنه عاش حياته كلها فى أثينا (٤٦٩ — ٣٩٩ ق . م (وكان أبوه فيما يروى نحاتاً للتماثيل أو بناء ، وكانت أمه قابلة . وقد نشأ على حرفة أبيه . ولكنه لم يلبث أن تركها . ويظهر أنه كان يمتلك ما يكفى لسد حاجاته الضرورية ، لاسيما وأنه كان زاهداً يميل إلى التقشف ، وقد أدى فى شبابه الخدمة العسكرية كجندى من جنود المشاة ، وتزوج فى وقت متأخر من امرأة تدعى كسانثيبى كانت حادة المزاج سليطة اللسان . وقد أنجب منها ثلاثة أبناء كانوا لايزالون صغاراً عندما حكم عليه بالموت عام ٣٩٩ ق . م .

ومع أنه كان قبيح الشكل دميم الصورة زرى الهيئة ، قليل العناية بهندامه ، متقشفاً فى مأكله ، عزوفاً عن الترف والدعة ، إلا أنه كان يتقد ذكاء وألمعية ؛ ويفيض عذوبة وسحرا ، بارعاً فى الفكاهة والتهكم والسخرية .

وقد وجد نفسه منساقاً إلى الفلسفة أوحب الحكمة ، **Philosophia** فأخذ يحاور كل من لقيه ضروباً من الحوار غريبة لم يألفها الناس ، فى ألفاظ إن لم تكن راقية مهذبة فهى قوية خلابة ساحرة . وكلف به الشبان وفتنوا به والتفوا حوله ، وكان حسن الدعابة لطيف الهزل ، ولكن دعابته وهزله لم يكونا إلا ستاراً ينم عما دونه من جد وحق ، وكان يدرس كل شىء ويحاور فى كل شىء ، ويتخذ كل شىء وسيلة

للبحث والجدال ، ولكن حادثة حدثت ، فغيرت من سيرته ورأيه فى نفسه شيئاً كثيراً ، ذلك أن صديقه خايريفون ذهب — فيما يروى لنا أفلاطون — ليسأل نبوءة الإله أبوللون فى دلف ، أبين فلاسفة اليونان وحكمائهم من يفوق سقراط ؟ وأجابت النبوءة : أن لا ، وبلغ ذلك سقراط ، فحمله على أن يتبين السبب الذى بعث الإله أبوللون على أن يعلن أنه أحكم الناس وأحسنهم فلسفة . ولم يكن سقراط يرى فى نفسه هذا الرأى ، فشرع يحاور من اشتهروا بالحكمة فى المدينة من خطباء وشعراء وفلاسفة ورسامين ونحاتين بهدف اكتشاف من يفضله فلسفة وحكمة ، واكتشف أنهم جميعاً مغرورون يدعون المعرفة ويزعمون الإلمام بكل شىء وهم لايعرفون شيئا ، أما هو فلا يعرف شيئا ويعرف أنه لايعرف شيئا ، وبذلك صدقت نبوءة أبوللون ، وتيقن سقراط أنه أحكم الحكماء جميعاً . وكان القدماء قد كتبوا على معبد دلف هذه الحكمة القديمة « إعرف نفسك بنفسك » فما أسرع ما اتخذها سقراط شعاراً له وقاعدة لحياته وحواره وتعليمه ، وما أسرع ما اعتقد أنه قد أصبح شيئا يشبه الأنبياء ، وأن أبوللون قد كلفه مهمة عظيمة الخطر ، هى أن يبث الحكمة فى الناس ، ويعلمهم أن يعرفوا أنفسهم بأنفسهم .

وأكد له هذا أن الوحى كان يغشاه على هيئة هاتف إلهى يأمره باتباع سلوك معين ، ويوجهه فى تصرفاته كلما تطلب الموقف ذلك .

من ذلك الوقت جد سقراط فى تأدية رسالته ، وتحقيق الواجب الذى كلفه إياه أبوللون ، فتتبع الشباب الأثينى فى كل مكان وأخذ عليه كل سبيل ، واتخذ طريقة الحوار منهجاً له ، لم يكن يضع أمامه مسألة بعينها ثم يأخذ فى التحليل والنقد والتعميم ، وإنما كان يتحدث ، فيسأل ويناقش جواب المسئول ، ثم يسأل ، ثم يتعرض للسؤال ، ثم يجيب ، ثم يورط محاوره فى الخطأ ، أو يتورط هو فى الخطأ ، وما يزال فى حوار وفى أخذ ورد حتى يستخلص النتيجة كأنها إحدى القضايا الأولية التى لاتحتمل الشك ولا الجدال . ومصدر هذه الطريقة أن سقراط كان يعتقد أن النفس بطبيعتها قادرة على العلم بالأشياء وعلى استكشاف الحقائق ، ولكن ظروف الحياة العملية وأعراضها وما ورث الناس من عادات وأخلاق ، ومن أساطير وخرافات كل ذلك قد تراكم على هذه النفس الصافية كما يتراكم الصدأ على المرآة ، فعمل الفيلسوف ليس هو تعليم

الإنسان ما لم يعلم ، وإنما هو إعداد الإنسان لكشف الحقائق ، أو إزالة الصدأ عن المرآة حتى إذا أتم صقلها وتصفية جوهرها تجلت فيها الحقائق واضحة بينة ، ومن هنا كان سقراط يعلن أنه لا يعلم الناس شيئاً ، لأنه لا يعلم شيئاً . وإنما يبحث معهم عن الحق فيجده حيناً ويخطئه حيناً . ومن هنا سميت طريقته طريقة « التوليد » وكان يحلو له أن يشبه طريقته فى التعليم بمهنة أمه ، أى أنه كان يولد الأفكار من عقول محدثيه كما تولد القابلة الجنين من الأم .

وقد ظهر تأثر الجماعة الأثينية بسقراط وجزع الطبقات الأريستقراطية من سلطانه على الشبان فى نحو سنة ٤٢٥ ق . م حين أخذ الشاعر التمثيلى أريستوفانيس الذى كان لسان الأحزاب الأريستقراطية المحافظة يعرض به فى قصصه التمثيلية المضحكة ، ولا سيما فى قصة الطيور والضفادع وقصة السحاب التى خصصت كلها لسقراط والهزء به ، فأصبح سقراط شيئاً يخيف الأريستقراطية لعبثه الشديد بالعبادات والأخلاق الموروثة ثم هو لم يرض الديموقراطية وكان شديد العبث بها أيضاً . ولم ينته القرن الخامس ق . م حتى كان قد ألب على نفسه الديموقراطية المنتصرة والأريستقراطية المنهزمة كما ألب على نفسه الشعراء والفلاسفة والمعلمين . لأنه صرف عنهم الشباب من جهة ، ولأنه كان شديد السخر بهم من جهة أخرى ، وما هى إلا أن تم انتصار الديموقراطية على الطغاة الثلاثين حتى تقدم اثنان من الأثينيين أحدهما شاعر بقضية إلى الشعب يتهمان فيها سقراط تهماً عدة ، منها أنه أفسد الشباب ، ومنها أنه لادين له ، ومنها أنه يعبث بالنظم السياسية القائمة وحوكم سقراط فكان موقفه من القضاة موقف الساخر بهم المزدرى لهم ، وقضى عليه بالموت .

وبعد موت سقراط ظهر فى أثينا روح رجعى معاد للفلسفة والفلاسفة ميال إلى المحافظة فى الرأى . فتفرق تلاميذ سقراط الأصفياء ، وما هى إلا أعوام حتى كانوا قد أنشأوا المدارس المختلفة فى أطراف من بلاد اليونان الحقيقية أو فى بعض المدن الإيطالية والآسيوية ، بل فى إفريقية ، ومن هذه المدارس مدرسة الكلبيين التى أنشأها أنتستين Antisténe فى أثينا والتى اتخذت اسمها من المكان الذى أنشئت فيه ، وكانت تقوم فلسفتها على قاعدة سقراط « إعرف نفسك بنفسك » ولكنها كانت تطبقها تطبيقاً انتهى بها إلى الزهد وإلى المبالغة فيه ، فقد حملتها هذه المعرفة على أن تزدرى

الحياة والأحياء وما يستمتعون به من لذة وما يتهالكون عليه من زينة ونعيم ، ومنها ديوجين Diogéne الذى كان يبحث عن الإنسان فلا يجده ، لأن الإنسان عنده هو من عرف نفسه ، وأى الناس يعرف نفسه ؟ وقد زاره الإسكندر وسأله : ماذا يريد ؟ فأجابه : أريد ألا تحجب عنى الشمس ، فقال الإسكندر : لو لم أكن الإسكندر لوددت أن أكون ديوجين .

ومن هذه المدارس مدرسة قورنيا Cyréne أو مدرسة برقة ، وهى مدرسة مناقضة من كل وجه للمدرسة السابقة ، أنشأها أرستيب AristipPe وتوارثها خلفاؤه من بعده إلى أيام المقدونيين فى مصر ، وكانت تقوم على قاعدة سقراط « إعرف نفسك بنفسك » ولكنها عرفت النفس فوجدت أن الخير إنما هو فى أن تزدرى النفس الحياة والأحياء ازدراء لايقوم على الزهد والحرمان ، وإنما يقوم على اللذة والاستمتاع ولكن لاعلى أن تجعل نفسك عبداً للذة ، بل تجعل اللذة أمة لك ، تأخذ منها ما استطعت ، دون أن تأسف عليها إذا حيل بينك وبينها ، ودون أن تضحى فى سبيلها بإنسانيتك ، وقد تأثر الرواقيون بمذهب الزهد وبالغوا فيه بعد أرسطو ، وتأثر بمذهب اللذة إبيقور Epicure وبالغ فيه بعد أرسطو أيضاً .

وأبقى المدارس التى نشأت عن فلسفة سقراط وأبعدها أثراً فى الحياة الإنسانية وأعظمها حظاً فى الخلود مدرسة الأكادمية Académie التى أنشأها أفلاطون ومن أعظم تلاميذها أرسطو .

(ب) أفلاطون

قيل إن اسمه الأصلى هو أريستوكليس Aristkles وإن أفلاطون Platon لقب أطلق عليه بسبب قامته المتينة وأكتافه العريضة Platys ، عاش ما بين عام ٥٢٨ أو ٥٢٧ و ٤٣٨ أو ٤٣٧ ق . م ، وهو ألمع تلاميذ سقراط . وأشهر الفلاسفة إبان النصف الأول من القرن الرابع ق . م . قال عنه ابن أخته سبيوسيبوس إنه ابن أبوللون نفسه ، وهو قول نابع من إعجاب شديد بهذه الشخصية شبه الأسطورية من حيث تألق العبقرية .

عاش فى عصر تدهورت فيه دولة المدينة city state وكان المجد الذى

اكتسبه اليونان بعد انتصارهم على الفرس قد ذوى قبل أن يولد بوقت طويل ، وكان شعوره بإخفاق الروح اليونانية أقوى من شعور جميع معاصريه . وكان فى الثالثة والعشرين عندما انتهت حرب البيلوبونيز الكبرى بين أثينا وإسبرطة بهزيمة مواطنيه وإذلالهم ، وتداعت أمام عينيه الإمبراطورية الأثينية ، وأدرك أن المهمة الحقيقية ليست إعادة بناء أثينا وإنما إنقاذ اليونان ، وهو يخبرنا فى الرسالة السابعة من كتابه « القوانين » بأنه شعر بنفسه وقد دعى منذ رجولته المبكرة إلى الحياة السياسية ، وتتلخص مأساة حياته — فى رأيه — فى أنه جاء إلى الدنيا فى عصر لم يبق فيه لأثينا دور هام تلعبه فى التاريخ ، حيث كانت قد فقدت على الإطلاق صوت الأخلاق ، الذى لاتستطيع أية أمة أن تلعب بغيره دوراً محترماً فى حياة البشرية ، وهو كأثينى يمتلىء شعوراً ووعياً بالعمل السياسى ، وهو يستطيع فقط أن يؤدى خدمته المرسومة لأثينا وللحضارة اليونانية وللإنسانية على نحو غير مباشر فوهب نفسه للتربية والتعليم ، ويمكن صنع المواطن الصالح إذا جئنا لقادة المستقبل، القادة المؤملين ، للجيل الناشىء والأصغر ، ودربناهم وفقاً لنظرات سليمة فى السلوك ، ومادامت فضيلة الفضائل فى مثل هذا القائد السياسى هى القدرة على التفكير الصحيح والحكم الصائب ، فإن التربية والتعليم المقترحين يجب أن يمتدا إلى الجذور ، إن السياسى الحق يجب أن يفكر تفكيراً صحيحاً فى الغايات القصوى ، وفى الله ، وفى الإنسان ، وفى علاقة هذا الثالوث بعضه ببعض ، وهذا هو السبب الذى من أجله أنشأ الأكادمية كمدرسة لرجال السياسة ، وجعل فيها الميتافيزيقا والرياضيات أساساً لعملية التربية والتعليم .

ولا جدال فى أن الفلسفة اليونانية قبل أفلاطون ، وفى فترة لاتتجاوز مائتى عام كانت قد نمت إلى الحد الذى يسمح لنا بأن نميز فيها تيارين متضادين واضحين كل الوضوح : أحدهما يؤدى إلى فلسفة ذات طابع صوفى انفعالى ، والآخر — على كثرة تشعباته — ينطوى على أول بذور التفكير العلمى والنزعة التجريبية . فأى التيارين كان أقوى تأثيراً فى أفلاطون ؟ أو الذى تعد فلسفة أفلاطون تتويجاً له ؟

أما أن التيار العلمى أثر فى أفلاطون ، فهو لم يؤثر إلا فى اتجاهه الرياضى فحسب ، أما العلم التجريبى فكان يبدى له أشد الاحتقار ، حتى إنه عاب على بعض أصدقائه من علماء الهندسة استعانتهم فى فهم بعض المشكلات الهندسية بأدوات أو أشكال

محسوسة ، بدلا من أن يقتصروا على الأمور غير الملموسة ، بل إن كثيراً من الباحثين يؤكدون أن التراث السقراطى الأفلاطونى كان مسئولا إلى حد كبير عن وأد الاتجاه العلمى فى التفكير اليونانى وهو لم يزل فى مهده ، وبالتالى عن تأخير نهضة العلم التجريبى قرابة ألفى عام .

وأما الذى أثر فيه تأثيراً بالغاً فهو التيار الصوفى الانفعالى مقترناً بالاتجاه الذى يدافع عن فكرة الثبات فى مقابل التغير ، والوحدة فى مقابل الكثرة أو التعدد . وكان للفيثاغورية أثرها الكبير فى ذلك . والمعروف عن الفيثاغورية أنها فلسفة تجعل للرياضيات مكانة كونية ، أى أنها تفسر العالم كله تفسيراً رياضياً ، وتحول العناصر الرياضية إلى كيانات ومبادىء تفسير ميتافيزيقية . وهى قد أثرت فى نظرة أفلاطون إلى الرياضيات بل فى نظرته العامة إلى العالم ، وفى نظرية المثل ذاتها .

وهى من حيث كونها طريقة فى الحياة ومذهباً فى السياسة أثرت فى تفكير أفلاطون وطريقة سلوكه ، فالفيثاغوريون يربطون بين فكرة العدالة وبين فلسفتهم الرياضية ، وينظرون إليها على أنها نوع من الانسجام . وهى فكرة توسع فيها أفلاطون فيما بعد . وقال بعض الفيثاغوريين فى القرن الخامس ق . م إن للحكمة حقاً إلهياً فى أن تسود وتحكم ، وهى نظرية يجوز أنها أثرت فى فكرة الملك الفيلسوف عند أفلاطون ، وكان فيثاغورس أول من جعل من الفلسفة تعاليم تلقن لطائفة من الأتباع فقد كوّن جمعية وعلم أعضاءها « طريقاً فى الحياة » وكان لهم دور فى الأحداث السياسية ، وكانت تنحاز فى السياسة إلى الجانب الأريستقراطى ، وكانت القاعدة التى يفرضها فيثاغورس على أتباعه هى التطهير بممارسة الطب — أى باتباع نظام صارم فى التغذية وفى الرياضة البدنية — وبدراسة الموسيقى التى تتضمن عناصر فلسفية ورياضية إلى جانب الأنغام ، وكذلك كان فيثاغورس يقسم الناس إلى ثلاث طبقات : محبو الحكمة ، ومحبو الشرف ، ومحبو الكسب . وفى كل العناصر السابقة نلمس تأثيراً واضحاً للفيثاغوريين فى أفلاطون ، إذ أن فكرة تطبيق الفلسفة فى السياسة ، وتكوين نظام فلسفى تتبع فيه التعاليم الفلسفية ، والتربية عن طريق العناية بالجسم والروح ، كل هذه عناصر رئيسية فى جمهورية أفلاطون أما التقسيم الثلاثى للطبقات ، فقد انعكس مباشرة على تقسيم أفلاطون المناظر له ، فتحليل الدولة إلى طبقات ثلاث ، والنفس إلى أجزاء ثلاثة ، تحليل فيثاغورى .

* * *

وأثرت الحياة السياسية فى القرن الخامس ق . م على أفلاطون . فقد كانت أثينا قد بلغت من الرقى شأواً بعيداً فى ميادين العلم والفن والفلسفة ، ولاسيما فى عصر بريكليس ، وكان النظام الديموقراطى السائد فى هذا العصر تجربة رائعة حقاً ، فقد كان الحكم بالتمثيل المباشر الذى يتم بالاقتراع ، وكان للمواطنين العاديين الدور الرئيسى فيه ، وكذلك فى مناصب القضاء والإدارة ، ومن هنا كان لبريكليس أن يفخر بأنه جعل من أثينا مدرسة لليونان .

وطغت روح العلم والفن والحضارة فى أثينا على الروح العسكرية ، بينما كانت إسبرطة تدعم نظمها العسكرية وتركز جهدها فى الميدان الحربى ، فكان طبيعياً أن تنتصر على أثينا فى حرب البيلوبونيز التى قامت بينهما فى أواخر القرن الخامس ق . م (٤٣١ — ٤٠٤) وكان انهيار أثينا أمام قوة إسبرطة كارثة كبرى شهدها أفلاطون وهو فى الثالثة والعشرين من عمره . وعاناها قبل ذلك طوال أيام طفولته وشبابه .

وأفقدته تلك الحرب الثقة فى الديمقراطية . وكان الصراع بين القوى الديموقراطية والقوى الأليجاركية على أشده ، وانحازت أسرته إلى صف الأليجاركية انحيازاً واضحاً ؛ فهى تنتمى إليهم ، وهى لاتخفى سخطها على الدستور الديمقراطى السائد فى أثينا ، وكان خاله خارميندیس charmindes وعم أمه كريتياس critias من بين المتحدثين باسم الحزب الأريستقراطى (أو الأليجاركى) وأدى انتصار إسبرطة وإذلالها لأثينا إلى اعتلاء هذا الحزب الأريستقراطى منصة الحكم ، وأساء أفراده استغلال سلطتهم إلى أبعد حد ، وتكونت منهم حكومة الطغاة الثلاثين ، التى يرأسها كريتياس نفسه وقد انتهت حياته وحياة خارميندیس بنفس العنف الذى اتخذا منه منهجاً لسياستهما ، إذ قتلا عند نهاية الحرب الأهلية (عام ٤٠٣ ق . م) .

وكان أفلاطون معجباً بأقربائه حريصاً على تمجيدهم ، فالمتحدثان الرئيسيان مع سقراط فى الجمهورية هما أخواه جلوكون وأديمانتوس ، وألف محاورتين أطلق على أحدهما اسم خاله خارميندیس وعلى الأخرى اسم عم أمه كريتياس ، وعلى الرغم من ذلك فقد اعترف بأن سياستهم كانت مخيبة للآمال ، وبأنه رفض الاشتراك معهم فى إدارة شئون الدولة عندما طلبوا إليه ذلك ، ولابد أنه حزن على مقتلهم ، وازداد سخطاً على الحكومة الديمقراطية التى حلت محلهم بعد أن انقلب نظام حكمهم .

وإذن فقد كان لأفلاطون صلات قوية بمجموعة من أكبر الطغاة الذين حكموا أثينا ونشروا فيها الرعب على أثر انتهاء الحرب البيلوبونيزية ، وكان منهم أصدقاؤه وخلصاؤه فى فترة شبابه ، ومن الجائز أن الرابطة التى كانت تجمع بينهم هى تتلمذهم جميعاً على سقراط ، ولما عادت الديموقراطية إلى الحكم بعد القضاء على الطغاة لم تغفر لسقراط أنه كان أستاذاً ومعلماً وموجهاً لهذه المجموعة من الطغاة والخونة .

وعندما اتهمته الديموقراطية بتهمة إفساد عقول الشباب ، وتولى أنيتوس Anytus الذى عاد من منفاه إلى الحكم ، توجيه هذا الاتهام إلى سقراط ، كان من الواضح أن المقصود « بالشباب » ليس أى شباب على الإطلاق ، وإنما أولئك الذين عانت منهم أثينا الأمرين . فهذا على الأرجح هو السبب الحقيقى فى إدانة الديموقراطية الأثينية لسقراط ، وهو بطبيعة الحال سبب يختلف تماماً عن تلك الصورة التى قدمها إلينا أفلاطون فى محاوراته ، والتى يتجلى فيها سقراط شهيداً للحكمة المتزنة الهادئة .

وقد كان موت سقراط على يد الديموقراطية الأثينية بالإضافة إلى مقتل قريبين له وعدد من أصدقائه المقربين إليه ، من أهم العوامل التى أدت إلى توسيع الهوة بين تفكيره وبين القيم الديموقراطية الأثينية ، وتقوية الجذور الأليجاركية التى كانت متأصلة فيه من قبل بحكم انتمائه إلى أسرة أريستقراطية .

على أن أهم نتائج هزيمة أثينا فى الحرب البيلوبونيزية بالنسبة لأفلاطون كان إعجابه بالنظام السائد فى الدولة المنتصرة وهى إسبرطة ، وكثير من عناصره قد تكرر بحذافيره فى المدينة المثلى كما رسم أفلاطون ملامحها فى جمهوريته . فعلى الرغم من التخلف الثقافى الكبير الذى كانت تعانى منه إسبرطة فقد كان يسودها نظام تربوى دقيق وصارم ، تشرف عليه الدولة ووظيفتها الرئيسية فى الواقع هى تنظيم شئون الحرب وتربية المحاربين ، فالأطفال يؤخذون من آبائهم فى سن السابعة ، وتتعهدهم الدولة بالتعليم دون أن يكون للأسرة شأن فيه ، ويوضع الشباب فى بيوت ويدربون تدريباً رياضياً صارماً يعدهم للحرب ، والنساء كالرجال يخضعن ، ولكن بدرجة أقل لمقتضيات النظام الصارم وليس للبيت العائلى مكان فى أسرة يحال فيها بين الزوج والزوجة وبين أية حياة زوجية مشتركة ويترك الأبناء آباءهم بمجرد انقضاء فترة

الطفولة المبكرة ، كذلك فإن نظام الملكية شأنه شأن الأسرة يلائم حاجات النظام العسكرى ، وكان الحاكمون طائفة أريستقراطية تعيش على إقطاعات زراعية يشتغل فيها سكان خاضعون لهم ، على حين كان المواطنون متحررين من الأعباء الاقتصادية .

وقد اعتقد أفلاطون أن نظام التربية هذا قد فرضته الدولة أو أحد الحكام بتشريع خاص ، فأراد فى مدينته الفاضلة أن يضع قانوناً أو تشريعاً مماثلا ، وأن يفرض نظم التربية التى دعا إليها بقانون ، ولكن هذا التشريع كان تطوراً بطيئاً للتراث الإسبرطى نشأ عن الظروف الخاصة التى مرت بها هذه المدينة طوال تاريخها ، وكان نظام الحياة والتربية السائد فيها نظاماً تلقائياً أملته ظروف معينة مر بها المجتمع تدريجياً ، ولم يضعه لهذا المجتمع حاكم أو فيلسوف ، فإذا كان أفلاطون قال برأيه هذا قياساً على ما كان حادثاً فى إسبرطة ، فلا شك أنه كان فى ذلك واهماً .

* * *

وبعد موت سقراط عام ٣٩٩ ق . م وتفرق تلاميذه ، بدأت مرحلة جديدة فى حياة أفلاطون ، فقد قام بأسفار دامت اثنى عشر عاماً ، زار خلالها ميجارا Mégare القريبة من أثينا وعاش فيها حينا مع صديق له كان تلميذاً لسقراط ، ثم أسس فى هذه المدينة إحدى المدارس السقراطية المشهورة وهو إقليديس Euclide ، ثم زار مصر ، وأخذ عن كهنتها العلوم الرياضية والفلكية ، ثم ارتحل إلى كورينا Cyrene حيث عرف الرياضى ثيودوروس ، ودرس عليه الفلك والموسيقى . وانتهى به المطاف إلى جنوب إيطاليا ، حيث كانت الفيثاغورية قد اتخذت لها مركزاً هناك فى مدينة تارينتوم Tarentum بعد أن تركت مقرها الأصلى فى مدينة كروتون عقب المذبحة التى اغتيل فيها زعماؤها .

وكان الرياضى الفيثاغورى المشهور أرخوطاس Archytas هو الحاكم فى تارينتوم ، وكان حاكماً ومعلماً وقائداً عسكرياً فى نفس الوقت ، ورحب بأفلاطون ، ووجد أفلاطون فيه نموذجاً تحققت فيه فكرة الجمع بين قوة العلم والسلطة السياسية .

وحين نزل أفلاطو ضيفاً على أرخوطاس حوالى عام ٣٨٧ ق . م كانت هناك محاولات لإيجاد صلح بينه وبين ديونيزوس حاكم سراقوسا فى صقلية الذى كان

ينافسه ويهدد جنوب إيطاليا وكان ديونيزوس قد أرسل شقيق زوجته ديون إلى تارينتوم فتعرف أفلاطون عليه ، وتوسم فيه استعداداً لتقبل الآراء الفلسفية ، وللجمع بين العلم والسياسة فى وقت واحد ، ودعا ديون أفلاطون إلى سراقوسا ليطبق فيها تعاليمه فى السياسة والتربية ، ولم يتردد أفلاطون فى انتهاز هذه الفرصة ، ورحل إلى سراقوسا ولكن رحلته هذه قد باءت بالفشل ، إذ لم يستطع ديونيزوس أن يتقبل تعاليمه ، ويقال إنه قد حدثت بينهما مشادة كلامية اتهمه أفلاطون خلالها بالاستبداد ، فطرده من صقلية ، بعد أن كان قد أوشك على قتله .

ومضى عشرون عاماً قبل أن يفكر أفلاطون فى القيام برحلة أخرى إلى صقلية ، وفى هذه الأثناء كان أفلاطون قد ألف محاورة الجمهورية ، وأنشأ الأكاديمية . ومات ديونيزوس ، وتولى العرش بعده ابنه ديونيزوس الثانى وكان شاباً فى السادسة والعشرين يفتقر إلى الثقافة ، ووجد ديون الفرصة سانحة للتأثير فى الملك الشاب وتلقينه تعاليم أفلاطون ، وعاد أفلاطون إلى صقلية ليحقق هذا الهدف ، ومع ذلك فان العلاقات لم تلبث أن ساءت بين أفلاطون وديون من جهة ، وبين ديونيزوس الثانى من جهة أخرى ، فقد اتهمهما بالتآمر عليه والسعى إلى خلعه عن العرش ، وانتهى به الأمر إلى نفى ديون إلى إيطاليا ، وترحيل أفلاطون من بعده .

وأخذ ديون فى منفاه يعمل على جمع العناصر المعادية لديونيزوس الثانى ، وطاف بالمدن اليونانية يجند أكبر عدد ممكن من الرجال لحملة كان يزمع شنها عليه ، وقام أفلاطون بزيارته الثالثة والأخيرة إلى صقلية لكى يمهد الطريق لصديقه ديون ويحمل ديونيزوس الثانى على استدعائه من منفاه ، ولكنه لم يستجب له ، فغادر صقلية للمرة الأخيرة دون أن ينجح فى تحقيق شىء من أهدافه . ولكن ديون قد نفذ خطته وتمكن من أن يهزم ديونيزوس الثانى يساعده أعوان من تلاميذ أفلاطون فى الأكاديمية ، وسرعان ما تحول هو ذاته إلى طاغية فقتل عدداً من أخلص أعوانه ، ولم يمض وقت طويل حتى تآمر عليه تلميذ آخر من تلاميذ أفلاطون هو كاليبوس Callippus وقتله بعد أن كان موضع ثقته الكاملة ، وقد قتل كاليبوس بدوره على يد سياسى كان من قبل فيلسوفاً فيثاغورياً ، وقد يدل هذا على أن التعاليم التى كانت تلقن فى الأكاديمية لم تكن فلسفية خالصة ، بل كان للسياسة دور كبير فيها ، وأن مجموعة

حوادث الغدر والتآمر والقتل لاتعدو أن تكون جزءاً من سجل سياسي غير مشرف لكثير من تلاميذ أفلاطون وأعضاء أكاديميته ، وهكذا ثبت بالدليل القاطع أن الواقع العملي قد أثبت خطأ كثير من أفكار أفلاطون النظرية في نظم حكم الدولة .

* * *

وإذا كان سقراط قد قضى حياته محاوراً ، فعند أفلاطون نجد تلك العادة التي تحكمت في حياة سقراط وقد صيغت في منهج للبحث ، فقد أخذ أفلاطون كلمة « الديالكتيك » — وهي في الأصل تعني مناقشة الناس الأشياء تبعاً لنوعها — وأضفى عليها معنى لم ينفصل عنها منذ ذلك الحين ، فأصبحت تعني المنهج المنطقي الصحيح في مقابل المناهج الزائفة أو غير اليقينية وأصبحت تعني بعد ذلك المعرفة المكتملة لامنهج المعرفة .

فقد انتقلت الكلمة إذن من معنى الحوار البحت ، إلى معنى الحوار الذي يهدف إلى بلوغ الحقيقة ، وهذا الحوار قد يتم بالكلام بين شخصين ، وقد يكون حواراً يتم في صمت بين الروح وذاتها (محاورة السوفسطائي ٢٦٣ هـ) فالسبيل الوحيد عند أفلاطون إلى بلوغ الحقيقة هو السير خطوة خطوة ، بحيث نستوعب كل خطوة قبل الانتقال إلى التالية . وعنده أن منهج السؤال والجواب هو المنهج الطبيعي لتحقيق هذا الغرض . وتصوره للتساؤل والإجابة على أنه الوسيلة الطبيعية لاستخلاص الحقيقة من الذهن ووضعها فيه ، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بفكرته القائلة إن التعليم لايعني الاقتصار على وضع الشيء في الذهن وكأنه في صندوق وإنما هو تحول لعيني النفس إلى النور ، أو عملية نستخلص فيها من النفس ما هو موجود فيها بمعنى ما من قبل ، أي عملية ينبغي أن تكون فيها النفس التي تتعلم إيجابية ، فالوسيلة الصحيحة عنده لتوصيل المعرفة هي وضع ذهنين في اتصال ، أحدهما بالآخر ، ومن هنا تحدث في « فايدروس » عن مدى تضاؤل قيمة الحقيقة المكتوبة ، بالنسبة إلى قيمة الحقيقة المنطوقة ، لأن الكتاب لايمكنه أن يجيب عن الأسئلة التي تنشأ في ذهن القارىء ، وهذا المبدأ ذاته ينطبق على تفكير الذهن الفردي، فإذا شئنا أن نتعلم فعلينا ألا نقتصر على وضع الحقائق الواردة في كتاب في أذهاننا ، وإنما يجب أن نسأل أنفسنا ونجيبها .

على أن الإتصال الفعلى بين ذهن وذهن تتيح للباحث أن يدرس الفكرة الواحدة من وجهتى نظر أنصارها وخصومها على التوالى ، وأن يضمن بذلك الدقة فى بحثه عن الحقيقة . ثم إن المحاورة تترك المجال كاملا للمواهب الدرامية فى تصوير الشخصيات ، والتهكم اللاذع ، الذى يقف فيه أفلاطون فى مصاف كبار الأدباء الكوميديين والتراجيديين .

وهذا الغرض الذى أدى بأفلاطون إلى استخدام الحوار ، هو نفس الغرض الذى أدى بسقراط من قبله إلى استخدامه ؛ فسقراط لم يحاول أبداً أن يلقن معرفة ، وإنما كان على العكس من ذلك ينكر دائماً امتلاكها ، وكانت رغبته تتجه إلى إيقاظ الفكر ومناداة ما يوجد فيه ، ولا بد أنه سيلبى النداء ، وتأثر أفلاطون بهذا المنهج السقراطى الذى يعمل على توليد الحقيقة فى الذهن بعد تطهيره — عن طريق الحوار — من آرائه الفاسدة .

ولكن أفلاطون قد تناول هذا المنهج السقراطى الشفهى وحوله إلى حوار مكتوب ، فأصبح شيئاً مختلفاً تمام الاختلاف فهذا الحوار المكتوب لم يكن تسجيلا طبق الأصل لحوار دار بالفعل . وإنما هو فى بعض الأحيان حوار تخيله أفلاطون نفسه ، بدليل أنه يدور بين شخصيات لايمكن من الوجهة التاريخية أن تكون قد تقابلت بالفعل ، وهو فى أحيان أخرى يبدو توسيعاً لأفكار يجوز أنها دارت فى حوار فعلى ، ولكن صنعة الفنان وأفكار الفيلسوف أضافت إليها أبعاداً جديدة كل الجدة . وفى الحالتين لم يكن أفلاطون يسجل أفكار طرفين كانا يتحاوران فعلا ، وإنما كان يسجل أفكاره الخاصة على صورة حوار . وحتى لو أتاحت له صيغة الحوار أن يعبر عن وجهات نظر مختلفة بصدد موضوع واحد ، فقد عبر عن وجهات النظر هذه كما يراها هو ويفهمها هو . لا كما يراها ويفهمها أصحابها الحقيقيون ، وهذا فارق له أهميته القصوى.

(ج) أرسطو

ولد أرسطو عام ٣٨٤ ق . م فى ستاجيروس ، وهى مستعمرة يونانية قريبة من مقدونيا ، ولكنه نشأ فى مقدونيا وكانت مقدونيا قد أخذت تقوى وتشتد ، وتبسط سلطانها على ما يجاورها من البلاد ، وكانت تجاور اليونان من بعض جهاتها ، والبرابرة من بعضها الآخر ، وكانت قد جمعت بين رقة اليونان وألوان حضارتهم ، وبين قوة البرابرة وشدة بأسهم ، وكان أبو أرسطو « نيكوماكوس » طبيباً لملكها « أمانتاس » الثالث .

وأثر فى أرسطو ما كان يشهد فى عاصمة مقدونيا من هذه القوة الناشئة ، وما كان يشهد من ضعف اليونان وفساد أمرهم . وأثر فيه بوجه خاص ما كان يزاول أبوه من مهنة الطب التى كانت فى ذلك الوقت أقرب الفنون إلى الفلسفة وأشدها بها اتصالاً ، كما أثرت فيه حياة القصر المقدونى التى كان يحياها .

وهذه المؤثرات كونت عقله تكويناً خاصاً ، فمنحته من مزايا اليونان قوة الفهم وحدة الذكاء وحب الاستطلاع والقدرة على رد الأشياء إلى أصولها ، ومنحته من خصال البرابرة والمقدونيين الميل إلى التحقيق ، أى إلى حب الواقع المحس ، أى جعلته وضعياً .

وتنقل الروايات القديمة صورة ملامح أرسطو فتراه أصلع ، نحيل الساقين ، ضيق العينين ، ألثغ اللسان ، ولكنه بصفة عامة مهندم الهيئة .

وانتقل أرسطو من مقدونيا إلى « أثينا » عام ٣٦٧ ق . م حين بلغ السابعة عشرة ليتم درسه ، وكانت أثينا على ضعفها السياسى مدرسة اليونان عامة ، جمعت كل ما كان يسيغه العقل والذوق فى ذلك الوقت من علم وفلسفة ومن أدب وفن ، فهى مدينة الممثلين والمؤرخين والمغنين والخطباء والشعراء والفلاسفة وغيرهم من أساتذة الفنون الأخرى كالنقش والتصوير ، ثم هى مدينة سقراط التى انبعثت منها فلسفته فى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن الرابع ق . م فانتشرت فى جميع أقطار اليونان واصطبغت فى كل قطر منها بصبغة خاصة ، وبقى أصلها فى أثينا ينمو نمواً معقولا منظماً بواسطة أفلاطون .

كان أرسطو فى ذلك الوقت قد فقد أباه وأصبح ذا ثروة تمكنه من الرحلة والإنفاق بسعة على ماكان يريد تحصيله من العلم ، فأقام فى أثينا عشرين سنة متصلة ، وكان أشد الناس شهرة فيها رجلان : أديب وفيلسوف ، فأما الأديب فهو إيسوكراتيس الذى أخذ يدرس ماكان لليونان من فن أدبى ، ويستخلص أصول البيان وقواعد البلاغة ، والذى اشتهر بمهارته فى تحبير الخطب وتدبيج فصول الكلام . فصحبه أرسطو وسمع له وتأثر به تأثر خاصاً ، وكان هذا سبباً من أسباب عنايته بوضع أصول الشعر والخطابة وتنظيم قواعد البيان .

وأما الفيلسوف فهو أفلاطون ، وكان غائباً عن أثينا حين وصل إليها أرسطو ، ولكنه لم يلبث أن عاد سنة ٣٦٥ ق . م وأخذ يدرس فى الأكادمية ، فلزمه أرسطو وأحسن الاستماع له ، وبهر أفلاطون بذكائه وحفظه ، فكان يسميه أنا جيستيس أى القراء ، وكان يسميه أنوس أى العقل . ولزم أرسطو درس أفلاطون إلى أن مات سنة ٣٤٧ ق . م فلم يستطع أرسطو أن يقيم فيها بعد أستاذه ، فسافر إلى أماكن مختلفة منها أتارنيا فى آسيا الصغرى ، وكان لها طاغية يقال له هيرمياس كان صديقاً له ، ويظهر أنهما تعارفا وتحابا فى درس أفلاطون ، فمكث أرسطو عنده حيناً ، وكأن صديقه حاول الخروج على الملك الأعظم فقتله .

وكان لهذا الطاغية أخت أو ابنة أخت يقال لها بيتياس فتزوجها أرسطو وارتحل بها من أتارنيا إلى جزيرة ميتيلين .

وفى سنة ٣٤٢ ق . م . كتب فيليب ملك مقدونيا إلى أرسطو يدعوه إليه ليكون مؤدباً لابنه الاسكندر ، فسافر إلى مقدونيا وأقام فيها سبع سنين .

وعاد إلى أثينا سنة ٣٣٥ ق . م حين بدأت غارة اليونان بزعامة الاسكندر على الفرس ، وأسس فيها مدرسته الليكيون Lykeion تيمناً باسم معبد الإله أبوللون Lykeion وكانت المدرسة تقع فى بناء خارج المدينـــة ، وكانت تضم بعض المبانى وفناء مغطى استخدمه هو وتلاميذه كممشى Peripaton يتجولون فيه أثناء الدراسة ، ومن ثم عرف أتباعه بالمشائين Peripatetikoi . وجمع فى هذه المدرسة العديد من المخطوطات ، وكوّن مكتبة تعد نموذجاً رائداً لكل المكتبات فى

العالم القديم من بعده . واتصلت الرسائل بينه وبين تلميذه الملك ، وكان الملك يرسل إليه الأموال والطرائف من آسيا معونة له على بحثه العلمى ، ولكن الصلة بينهما قد فسدت آخر الأمر ، لأن ابن أخت الفيلسوف كلليستنيس الذى كان مرافقاً للملك اتهم بالائتمار بالملك ، فقتله الإسكندر ونتج عن ذلك فساد الأمر بينه وبين أستاذه .

ومات الإسكندر ، وانتقض اليونان على السلطان المقدونى ورفعت الديموقراطية اليونانية رأسها ، وأخذت فى تتبع المقدونيين وأنصارهم ، فخرج أرسطو من أثينا هارباً ، ولكنه لم يلبث أن مات بعد سنة أو نحو السنة فى جزيرة أبوا سنة ٣٢٣ ق . م .

وكان أرسطو كسقراط وأفلاطون يقيم فلسفته على أن الحقائق ثابتة ، وتنتهى كلها إلى حقيقة عليا عنها صدرت وإليها تعود وهى حقيقة الإله — ولكنه كان يخالفهما فى طريقة البحث والتفكير والنتائج التفصيلية التى انتهى إليها ، بل إنه يخالفهما مخالفة شديدة فى تكوين عقله وتوجيه هذا العقل إلى حقائق العلم وظواهر الحياة . كان رجلا عملياً يعيش كما يعيش غيره من الناس . مستمتعاً بلذات الحياة كما يستمتع بها غيره من الناس ، لايضيق على نفسه ولا يتكلف زهداً ولا تورعاً ولا حرماناً ، وكان عملياً فى فهمه وتصوره وحكمه على الأشياء .

وترك أرسطو من الآثار العلمية والفلسفية شيئاً ضخماً ، وإذا كان ينهج فى مدرسته منهجين مختلفين : منهج التعليم الخاص الذى لايحضره ولا يشترك فيه إلا تلاميذ المدرسة وأعضاؤها ، ومنهج التعليم العام الذى كان مباحاً للكافة ، فقد انقسمت كتبه وكتب تلاميذه إلى قسمين أيضاً : فكانت منها الكتب المدرسية الخالصة التى أنشئت للمدرسة ولبحوثها . والتى لم يكن يحسن فهمها ولا التصرف فيها إلا الذين تعودوا لغة المدرسة وأساليبها ومناهجها الفلسفية ، وكانت منها كتب أخرى سهلة يسيرة توضع لعامة الناس وتذاع فيهم ، وهذه الكتب ذهبت بها كلها أو أكثرها أحداث الزمان : أما الأخرى فقد بقيت فى المدرسة ، ثم انتقلت منها وعبثت بها الحوادث حيناً ، حتى استولى « سولا » الرومانى على مدينة أثينا ، فنقلها إلى روما وقد أصابها فساد شديد ، ومن ذلك الوقت أخذ الفلاسفة فى درسها وتصحيحها وإذاعتها . وقد بقى لنا أكثر هذه الكتب وهو يزيد على الأربعين ، ومنها نستطيع أن نتبين أنه كان يريد أن تكون

كتبه وفلسفته خلاصة صادقة لكل ما وصل إليه العقل الإنسانى من نتائج البحث عن كل شىء ، ويظهر أنه كان يقسم العمل بين أصحابه ، فيختص كل واحد منهم بنوع من أنواع البحث وفن من فنون الفلسفة يدرسه ويستقصيه ، ويقدم نتيجة دروسه إلى المدرسة ، ومن هذه النتائج المختلفة كان يتكون البحث الفلسفى العام الذى يختصرها ويلخصها .

فأما منهجه العلمى فهو منهج العالم الذى يهجم على موضوعه هجوماً دون أن يدور حوله بالحوار والمناقشة ، ويعنى بالفكرة قبل أن يعنى باللفظ الذى يصوغها فيه ، فكانت كتبه نموذجاً لإجادة البحث العقلى وإنفاذه .

وتنقسم فلسفة أرسطو إلى قسمين أساسيين :

أحدهما : القسم الذى أحدث آثاره الطبيعية المعقولة ، ثم أصبح شيئاً تاريخياً يرجع إليه الذين يدرسون تاريخ الفلسفة وتاريخ الحياة العقلية عامة ليستعينوا على فهم هذا التاريخ .

وهذا القسم هو المباحث التى تتصل بالطبيعة وما بعد الطبيعة .

والآخر هو القسم الذى أحدث آثاره الطبيعية المعقولة وما زال يحدثها ، وسيحدثها أبدا دون أن يناله ضعف أو قصور ، فهو باق وسيظل صالحاً للبقاء ، وهو كل ما تركه فى المنطق والأدب والأخلاق والسياسة ، فقد استقصى فى المنطق قوانين العقل الإنسانى فى البحث والتفكير على اختلاف درجاتهما وأطوارهما وهذه القوانين ثابتة لا تتغير ، فقد استكشف قوانين القياس وقوانين الاستقراء . وإذا كانت الفلسفة الحديثة تعنى عناية خاصة بالاستقراء ، فهى لا تلغى القياس ولا تستطيع أن تلغيه ، لأنه صورة طبيعية من صور التفكير الإنسانى .

وقوانين البيان التى استكشفها فى الأسلوب والخطابة والشعر . باقية خالدة ، لأنها الصورة الطبيعية لتعبير الإنسان عن آرائه .

والقوانين السياسية والخلقية التى استكشفها باقية خالدة أيضاً ، وسيظل قائماً هذا القانون السياسى الذى وضعه وهو أن حسن الحكومة وقبحها شيئان إضافيان ، فالحكومة الحسنة ليست هى الملكية ولا الجمهورية أريستقراطية كانت أو ديموقراطية ،

وإنما هى الحكومة الملائمة للشعب ، فكل حكومة مهما تكن صورتها خير إن لاءمت روح الشعب ومنافعه ، فأى تطور اجتماعى أو سياسى يستطيع أن يغير هذه القاعدة الخالدة ؟

وهذا القانون الخلقى الذى وضعه أرسطو سيظل خالداً أيضاً ، وهو قانون الأوساط الذى يقضى بأن الإسراف شر ، وبأن التقصير شر ، وبأن الخير حقاً إنما هو فى التوسط فى الأمر .

وإذن فليس من الحق أن أرسطو فيلسوف قديم ، وإنما الحق أنه فيلسوف خالد ، ملائم لكل زمان ومكان ، هو — كما سماه العرب حقا — المعلم الأول .

الفهرس

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع ١٩٨٩/٨٤١٥
ترقيم دولى ٥ — ١٥١ — ١٠٠ — ٩٧٧

في الأدب اليـــونانى

يرسم هذا الكتاب خريطة عامة ومفصلة للأدب اليونانى ، تظهر عليهـــا مراحل نشأته وتطوره . وأهم فنونه واتجاهاته . ومواقع شعرائه وكتابه وفلاسفته من هـــذه الفنون والاتجاهات . وهو بهذا يعين القارىء العربى على التصـــور الشمولى لهـــذا الأدب اليونانى من جهة ، ويمهد الطريق من جهة أخرى أمام الدارس المتخصص للدراسات الاكاديمية فى هذا الموضوع أو ذاك من موضوعاته . سواء منها ما يتصل بالأســـاطير والآلهة والابطال الاولين . وما يتصل بالملاحم والشعر التعليمى والشـــعر الغنائى ، وما يتصل بالمسرح اليونانى والتراجيديا والكوميديا . وما يتصل بالتاريخ والخطـــابة والفلســـــــــــفة .

فالكتاب بهذا كله يلذ القارىء فى قراءته . ويعين الدارس فى تخصصه

مكتبة الدراســات النقدية

صـــدر منها :

١ ــ فى الادب اليونانى

تحت الطبع :

٢ ــ فى النقد اليونانى

٣ ــ اثر النقد اليونانى فى النقد العربى القديم

